يطبع لأول مرة محققاً

إتحاف السادة المتقين

للسيد الإمام

محمد بن محمد بن محمد المرتضى الحسيني الزبيدي

بشرح

إحياء علوم الدين

لحجة الإسلام الإمام

محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي

تحقيق

أشرف محمد أحمد

راجعه ودققه

عثمان أيوب البوريني

محمد سميح الشيخ حسين

2024

المجلد الثامن عشر وفيه كتابا رياضة النفس وتهذيب الأخلاق وكسر الشهوتين

بسم الله الرحمن الرحيم

كتـاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق

- بيان فضيلة حسن الخلق ومَذمَّة سوء الخلق
- بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق
- بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة
- بيان السبب الذي به يُنال حسن الخلق علىٰ الجملة
- بيان تفصيل الطريق إلىٰ تهذيب الأخلاق
- بيان علامات مرض القلب وعلامات عَوْده إلىٰ الصحة
- بيان الطريق الذي به يتعرَّف الإنسان عيوب نفسه
- بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع علىٰ أن الطريق في
- معالجة أمراض القلوب بترك الشهوات
- بيان علامات حسن الخلق
- بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم
- بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة

٢٢- كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

الله ناصر كل صابر.

الحمد لله الذي دبَّر أمور الكائنات بلطيف صنعه وعظيم قدرته أحسن تدبير، وأبدع المخلوقات بسابق إرادته الأزلية من غير سبق مثال فصوَّرها أتم تصوير، وخص النوع الإنساني منها بما زيَّنه من حُسن صورته وبديع شكله في أعدل تقويم وأقوم تركيب وأبدع تقدير، ثم حرس سواده عن الفساد بما ألهم به من تهذيب الأخلاق الباطنة وصانه عن شوائب النقص والتقصير، وحبس مراده علىٰ السداد فأجراه علىٰ حسن التشكُّل حسبما جرىٰ به قلم التقدير، أحمده حمد مَن رأىٰ آيات قدرته الباهرة وشاهد شواهد فردانيَّته القاهرة وعرف مواضع التقديم والتأخير، وأشكره شكر من اعترف لفضائل كرمه وإحسانه واغترف من بحار جوده وامتنانه واستفتح به باب المزيد من الفتح الغزير والخير الكثير. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جلَّ عن شبيه ونظير، واستغنىٰ بوحدانيته عن الشريك والمشير والوزير، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده الهادي البشير ورسوله السراج

(١) انظر الكلام عن الأخلاق في: الرسالة القشيرية ص ٤١٠ - ٤١٥. عوارف المعارف ص ١٦٣ - ١٩٩.

المنير، الذي بعثه وطرق الإيمان قد عفت آثارُها وخبتْ أنوارُها والعلم قد درست ربوعه وانقطعت نبوعه فأحياه إحياء الأرض بالوابل المطير، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين وأصحابه الفاضلين وسلم تسليمًا ما لاح البدر المنير وناح الحمام المطوَّق بالهدير.

وبعد، فهذا شرح كتاب: رياضة النفس وتهذيب الخلق ومعالجة أمراض القلب. وهو الكتاب الثاني من الربع الثالث الموسوم بالمهلكات من كتاب الإمام عَلَم الأئمة الأعلام حُجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، بلَّ الله بالرحمة ثَراه، وأجزل من المغفرة قِراه، اختصرت فيه الكلام اختصارًا، واقتصرت علىٰ ما أورد منه اقتصارًا، إيثارًا للتخفيف لا رغبة في التطفيف، علىٰ أن ما أوردته لا يخلو من فائدة تُلفَىٰ، وحكمة تثبُت ولا تُنفَىٰ، وإشارات موقِظة تقرِّب إلىٰ الله زلفىٰ، ومنبِّهات تذكِّر الناسي، وتليِّن القلبَ القاسي، ولطائف غريبة تلعب بالألباب، وتشوِّق إلىٰ منازل الأحباب، وإلىٰ الله الرغبة في الإعانة فيما يسهل به طريق الكشف والإبانة، وأن يوردنا من مناهل التوفيق الصافية أحلاها، وأن يولينا من أنواع الإحسان أعلاها، إنه بكل فضل جدير، وعلىٰ ما يشاء قدير.

قال المؤلف رحمه الله تعالىٰ في مفتتح كتابه: (**بسم الله الرحمن الرحيم**) تيمُّنًا بالذكر الحكيم، واقتداءً بالكتاب الكريم والنبي العظيم. ثم أردفه بقوله: (**الحمد لله**) جمعًا بين الحديثين، وحوزًا للفضيلتين (**الذي صرَّف الأمور**) أي حوَّلها وقلَّبها (**بتدبيره**) أي حُسنِ صنعه، وأصل التدبير: النظر في دبر الأمور، أي عواقبها (**وعدَّل**) أي سوَّىٰ (**ترتيب الخلق**) فعل بمعنىٰ مفعول، أي جعل كل شيء منه في مرتبته التي تليق به (**فأحسن في تصويره**) أي إقامة صورته (**وزيَّن صورة الإنسان**) من بين خلقه (**بحُسن تقويمه**) أي تعديله (**وتقديره**) أي تحديده بحدِّه الذي يوجد، وأصل صورة الشيء: ما به يحصل الشيء بالفعل (**وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره**) فجعله علىٰ مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضتْه

حكمتُه الأزلية (**وفوَّض تحسينَ الأخلاق**) وتسويتها (**إلىٰ اجتهاد العبد وتشميره**) هو[1] الاجتهاد [في الأمر] مع السرعة فيه والخفة، ومنه يقال: شمَّر في العبادة: إذا اجتهد وبالغ. وفيه أن الأخلاق ليست غرائز، وسيأتي الكلام عليه (**واستحثَّه**) أي حرَّضه (**علىٰ تهذيبها**) أي تخليصها من مساوئها (**بتخويفه وتحذيره**) وذلك علىٰ لسان رسوله ﷺ (**وسهَّل علىٰ خواصِّ عباده**) وهم الذين اختصَّهم بمُوالاته ومحبته واصطفاهم لقربه (**تهذيبَ الأخلاق**) أي تصفيتها بأن ألهمهم طريقَ المجاهدة فيها عنايةً منه عليهم (**بتوفيقه**) إياهم (**وتيسيره**) لهم (**وامتنَّ عليهم بتسهيل صعبه وعسيره**) أي ما عسر منه بالإضافة إلىٰ غيرهم (**والصلاة**) الكاملة (**والسلام علىٰ**) سيدنا (**محمد عبد الله**) وهو أشرف أسمائه ﷺ (**ونبيِّه**) المرسَل منه (**وحبيبه**) المختص به (**وصفيِّه**) أي مختاره من بين أنبيائه الكرام عليهم السلام (**وبشيره ونذيره**) بما أعدَّ لأمَّته من الثواب والعقاب (**الذي كان يلوح**) أي يظهر (**نور النبوة**) المضيء (**من**) خلل (**أساريره**) أي خطوط جبهته، فمَن وقع عليه بصرُه ولاحت له أنوارُ وجهه أسرع إلىٰ الإيمان بما جاء به وصدَّقه، كما قال الشاعر[2]:

لـو لـم تكـن فيـه آيـات مبيِّنـة كانـت بداهتـه تغنيـك عـن خـبره

(**وتُستشَفُّ**) أي تظهر (**حقيقة الحق**) أي تعيُّن ذاته ونسبته (**من مخايله**) جمع مخيلة وهي المَظَنَّة (**وتباشيره**) أي ممَّا يظهر من ظاهره، يقال: هذا يستشف ما وراءه: أي يبصر. أشار بذلك إلىٰ أن ما[3] يُعرَف به صحة النبوة إما [آية] عقلية وإما حِسِّية، فالأولىٰ يعرفها أولو البصائر من الصِّدِّيقين ومَن يجري مَجراهم، والثانية يدركها أولو الأبصار من العامة. وحق النبي أن يكون من أكرم تربة في العالم حيث

---

(١) المصباح المنير ص ٣٢٢.

(٢) هو عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، والبيت في ديوانه ص ١٦٠. وفيه: تنبيك بالخبر. بدل: تغنيك عن خبره.

(٣) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ١٢٢ حتىٰ قوله (فيما يخبرونهم به حجة).

يكون عقل أربابها أوفر، وأن يكون من عنصر كريم، وأن تكون عليه أنوار تروق مَن رآها وأخلاق تتملَّك من ابتلاها، وأن يكون كلامه ذا حُجة وبيان يشفي سامعَه إذا كان متخصصًا بنور العقل. وهذه الأحوال إذا حصلت لا يحتاج ذو البصيرة معها إلىٰ معجزة ولا يطلبها كما لا يطلب الأنبياء من الملائكة فيما يخبرونهم به حُجة. فنبيُّنا ﷺ أكرم الأنبياء أصلاً، وأحسنهم في هذه الأوصاف تحقُّقًا، فما وقع بصر أحد عليه إلا وأقرَّ بتصديقه وعلم أنه علىٰ الحق من غير تلعثم **(وعلىٰ آله وأصحابه الذين طهَّروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر ودياجيره)** جمع ديجور وهو شدة السواد، يقال: ليل ديجور: أي مظلم **(وحسموا)** أي قطعوا **(مادة الباطل)** أي أصله الذي ينشأ منه. والباطل[1] هو ما لا ثبات له من المقال والفعال عند الفحص عنه، وهو ضد الحق **(فلم يتدنَّسوا بقليله ولا بكثيره)** أي لم يتعلَّقوا به قليلاً كان أو كثيرًا، بل صاروا سببًا لمحقه وإزالته، وإذا جاء الحق بطل الباطلُ.

(أما بعد، فالخُلق الحسن صفة سيد المرسلين) اعلمْ أن الخُلُق بضمَّتين: هيئة[2] [للنفس] راسخة تصدر عنها الأفعال بيسر من غير حاجة إلىٰ فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعًا بسهولة سُمِّيت الهيئة خلقًا حسنًا، وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرُب شخص خُلقُه السخاء ولا يبذل إما لفقد مال أو لمانع، ولا يسمَّىٰ خلقًا ما لم يثبُت ذلك في نفسه. وكونه صفته ﷺ يأتي بيانه في بيان فضيلته **(وأفضل أعمال الصِّدِّيقين)** بعد الإيمان بالله، كما سيأتي ذلك في الأخبار **(وهو علىٰ التحقيق شطر الدين)** أي نصفه، كما روىٰ الديلمي في مسند الفردوس[3] بسند ضعيف من حديث أنس: «حُسن الخلق نصف الدين». وتقريره: أن[4] حسن الخلق يؤدي إلىٰ صفاء القلب وطهارته، فإذا صفا

---

(١) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص ٧٠.

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٠٦.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ١٤٠.

(٤) فيض القدير ٣/ ٣٨٤.

وطهر عظُم النور وانشرح الصدر به، فكان هو الجزء الأعظم في إدراك[١] أسرار أحكام الدين، فهو نصف بهذا الاعتبار (و) هو **(ثمرة مجاهدة المتقين)** أي نتيجتها (و) أيضًا ثمرة **(رياضة المتعبِّدين)** لِما أن في المجاهدة ورياضة النفس تهذيب أخلاق فثمرتها آخرًا بتبديل أوصافها من القبح إلىٰ الحسن، والقلب[٢] إذا طهر من الرين وصَفَت الأخلاقُ من الدنس والكدر نال العبد المعرفة الموصلة له إلىٰ ربه **(والأخلاق السيئة)** وهي الأفعال الرديئة التي تصدر عن الهيئة بحيث ينكرها العقل والشرع **(هي السموم القاتلة)** لصاحبها، أي بمنزلتها **(والمهلكات الدامغة)** أي الكاسرة لدماغه فلا حياة معها **(والمخازي الفاضحة)** جمع خِزي بالكسر علىٰ غير قياس، وهو الذل والهوان والانكسار. والفضيحة: العيب، وفضحه: كشف عيبه **(والرذائل)** جمع رذيلة، وهي صفة مرذولة: أي رديئة غير جيدة **(الواضحة)** أي الظاهرة **(والخبائث المبعِدة عن جوار رب العالمين)** أي عن قربه **(المنخرطة بصاحبها في سلك الشيطان)** اللعين، فإنه أصل كل خبث وفساد، وهو يحب الخبائث ومن جملتها سوء الأخلاق، فمَن كان متَّصفًا بها صار في سلك الشيطان، والشيطان مطرود من رحمة الله، فبالحريِّ أن يكون الذي في سلكه مطرودًا مثله **(وهي الأبواب المفتوحة إلىٰ نار الله)** تفسير[٣] للحُطَمة التي من شأنها أنها تحطم كل ما يُطرَح فيها **(الموقَدة)** التي أوقدها الله تعالىٰ، وما أوقده لا يقدر أن يطفئه غيرُه **(التىٰ تطَّلِع علىٰ الأفئدة)** أي تعلو أوساطَ القلوب وتشتمل عليها، وتخصيصها بالذكر لأن الفؤاد ألطف ما في البدن وأشده تألُّمًا، أو لأنه منشأ الأعمال القبيحة والعقائد الزائغة **(كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلىٰ نعيم الجِنان وجوار الرحمن)** فإنَّ مَن اتَّصف بها فقد شابَهَ الملائكةَ وقرُب إليهم، والملائكة مقرَّبون عند الله تعالىٰ، وقريب القريب قريبٌ **(فالأخلاق الخبيثة**

---

(١) في الفيض: فكان هو الباعث الأعظم علىٰ إدراك.

(٢) السابق ٣/ ٥٠٧.

(٣) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٣٣٧.

أمراض القلوب وأسقام النفوس) لأنها بمنزلة السمومات، ومَن زاولَ السمومات واستعملها لم يَخْلُ من مرض في القلب وسقم في النفس **(إلا أنه مرض يفوِّت حياةَ الأبد)** وهي البقاء بالله **(وأين منه المرض الذي لا يفوِّت إلا حياة الجسد)**؟ شَتَّان ما بينهما **(ومهما اشتدَّت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان)** في بقاء صحتها علىٰ ما كانت عليه **(وليس في مرضها إلا فوت حياة فانية)** زائلة **(فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب)** في إزالتها **(وفي مرضها فوتُ حياة باقية)** للأبد **(أَولىٰ، وهذا النوع من الطب واجب تعلُّمه علىٰ كل ذي لُب)** وهذا هو طب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أرسلهم[1] الله تعالىٰ لتعليم الأمم كيف يجعلون القلب في كور المجاهدة، وكيف يطهِّرون القلب من الأخلاق المذمومة، وكيف يوردونه طريق الصفاء **(إذ لا يخلو قلب من القلوب من أسقام لو أُهمِلت)** أي تُرِكَ علاجها **(تراكمت)** تلك الأسقام عليه **(وترادفت العللُ)** بعضها وراء بعض **(وتظاهرت)** أي غلبت **(فيحتاج العبد)** الموفَّق **(إلىٰ تأنُّق)** وتدبُّر **(في معرفة عِلَلها)** من أين نشأت **(وأسبابها)** من أين حدثت **(ثم إلىٰ تشمُّر)** أي اجتهاد بالغ **(في معالجتها وإصلاحها)** بإزالة وجود أسبابها، ثم بتعديلها وردِّها إلىٰ الصحة الفِطرية **(فمعالجتها هو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝﴾)** [الشمس: ٩] أي[2] أنماها بالعلم والعمل، والمراد به الحث علىٰ تكميل النفس **(وإهمالها)** أي تركُها حيث ترتع في المَلاذِّ والشهوات **(هو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾)** [الشمس: ١٠] أي نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق **(ونحن في هذا الكتاب نشير إلىٰ جُمَل من أمراض القلوب)** التي تعتريها من أسباب مختلفة **(وكيفية القول في معالجتها علىٰ الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض، فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الربع)** وهو الثالث **(وغرضنا الآن النظر الكلي في تهذيب الأخلاق وتمهيد**

---

(١) كيمياء السعادة للغزالي ص ٤٤٨ [ضمن مجموعة رسائل الغزالي].

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٣١٥ - ٣١٦.

منهاجها، ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالاً له؛ ليقرُب من الأفهام دركُه) أي إدراكه وفهمه **(ويتضح ذلك ببيان فضيلة حُسن الخلق)** من الآيات والأخبار **(ثم بيان حقيقة حسن الخلق، ثم بيان قبول الأخلاق للتغيير بالرياضة)** والتمرين **(ثم بيان السبب الذي به يُنال حسن الخلق، ثم بيان الطرق التي بها يُعرَف تفصيل الطرق إلىٰ تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس، ثم بيان العلامات التي بها يُعرَف مرض القلوب، ثم بيان الطرق التي بها يتعرَّف الإنسان عيوب نفسه، ثم بيان شواهد النقل)** الدالَّة **(علىٰ أن طريق المعالجة للقلوب)** إنما هو **(بترك الشهوات لا غير، ثم بيان علامات حسن الخلق، ثم بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشء)** حتىٰ يكبروا **(ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة. فهي أحد عشر فصلاً تجمع مقاصد الكتاب إن شاء الله تعالىٰ)**.

بيان فضيلة حسن الخلق ومَذمَّة سوء الخلق

(**قال الله سبحانه**) وتعالىٰ في كتابه العزيز مخاطبًا (**لنبيِّه وحبيبه**) ﷺ (**مثنيًا عليه ومُظهِرًا نعمته لديه**) أي عنده (﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾) [القلم: ٤] إذ[١] تحتمل من قومك ما لا يتحمَّله أمثالك.

(**وقالت عائشة** ﵂: **كان خلق رسول الله** ﷺ **القرآن**) أخرجه[٢] أبو بكر ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة ﵂ فقلت: يا أم المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله ﷺ. قالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ القرآن: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾؟

وقد تقدم في كتاب أخلاق النبوة.

(**وسأل رجل رسولَ الله** ﷺ **عن حسن الخلق، فتلا قولَه** ﷻ) مخاطبًا لنبيِّه ﷺ: (﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩] **ثم قال** ﷺ) في تأويله: (**هو أن تصل مَن قطعك، وتعطي مَن حرمك**) أي منعك (**وتعفو عمَّن ظلمك**) قال العراقي[٣]: رواه ابن مردويه في تفسيره من حديث جابر وقيس ابن سعد بن عُبادة وأنس بأسانيد حِسان.

قلت: أما[٤] حديث جابر عنده فلفظه: قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ قال النبي ﷺ: «يا جبريل، ما تأويل هذه

---

(١) السابق ٥/ ٢٣٣.

(٢) الدر المنثور ١٤/ ٦٢٢.

(٣) المغني ٢/ ٧٣٣.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٢.

الآية»؟ قال: حتىٰ أسأل. فصعد، ثم نزل، فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تصفح عمَّن ظلمك، وتعطي مَن حرمك، وتصل من قطعك. فقال ﷺ: «ألا أدلُّكم علىٰ أشرف أخلاق الدنيا والآخرة»؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «تعفو عمَّن ظلمك، وتعطي مَن حرمك، وتصل من قطعك».

وقد رواه أيضًا أبو بكر ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق[١] عن إبراهيم النخعي.

ورواه أيضًا ابن جرير[٢] وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي.

وأما حديث قيس بن سعد بن عبادة فلفظه عند ابن مردويه: قال: لمَّا نظر رسول الله ﷺ إلىٰ حمزة بن عبد المطلب قال: «واللهِ لأمثِّلنَّ بسبعين منهم». فجاءه جبريل بهذه الآية، فقال: «يا جبريل، ما هذا»؟ قال: لا أدري. ثم عاد فقال: إن الله يأمرك أن تعفو عمَّن ظلمك، وتصل مَن قطعك، وتعطي من حرمك.

وأما لفظ حديث أنس: قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مكارم الأخلاق عند الله أن تعفو عمَّن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطي من حرمك». ثم تلا النبي ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[٣].

وقد رُوي ذلك أيضًا عن معاذ[٤] مرفوعًا قال: «أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمَّن شتمك».

---

(١) مكارم الأخلاق ص ٢٤ عن إبراهيم بن أدهم، وليس إبراهيم النخعي. ولفظه: «لما أنزل الله تعالىٰ هذه الآية قال رسول الله ﷺ: أمرت أن آخذ العفو من أخلاق الناس».

(٢) لم أجده في جامع البيان عن الشعبي، ولكن روىٰ نحوه ١٠/ ٦٤٣ - ٦٤٤ عن أمية الصيرفي.

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ٢/ ١٧٩، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٩٧١. ولكن ليس عندهما تلاوة النبي ﷺ للآية.

(٤) يعني معاذ بن أنس. والحديث رواه أحمد في مسنده ٢٤/ ٣٨٣، والطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ١٨٨.

(وقال ﷺ: إنما بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق) رواه[١] أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة، وقد تقدم في آداب الصحبة.

(وقال ﷺ: أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوىٰ الله وخلق حسن) قال العراقي[٢]: رواه أبو داود[٣] والترمذي[٤] وصحَّحه من حديث أبي الدرداء.

قلت: وكذلك رواه ابن حبان في الصحيح[٥]، ومَداره علىٰ شعبة عن القاسم ابن أبي بَزَّة عن عطاء الكَيْخاراني عن أم الدرداء عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ. وقد حدَّثه عن شعبة جماعةٌ: محمد بن كثير، وشعيب بن محرز، وأبو عمر الحوضي، وبشر بن عمر الزهراني، وعفَّان، ويزيد بن هارون. ورواه عيسىٰ ابن يونس عن شعبة عن الحكم بن عُتَيبة عن القاسم، وهو خطأ، فيما ذكره الخطيب البغدادي في كتابه «المزيد». ورواه سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن أبي مُلَيكة عن يعلَىٰ بن مَمْلَك عن أم الدرداء عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ[٦]. وأخرجه أبو نعيم في الحلية[٧] من طريق عبد الوهاب بن الضحَّاك، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن صفوان بن عمرو، عن يزيد بن ميسرة، عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، فذكره مرفوعًا بنحوه. وقد أخرجَ طرقه الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي في كتابه «منهاج السلامة في ميزان القيامة»[٨] واستوفاها، فليراجَع من هناك.

(وجاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ من بين يديه فقال: يا رسول الله، ما الدين؟

---

(١) المغني للعراقي ٢/ ٧٣٣.

(٢) السابق ٢/ ٧٣٣.

(٣) سنن أبي داود ٥/ ٢٧٦.

(٤) سنن الترمذي ٣/ ٥٣٥ - ٥٣٦.

(٥) صحيح ابن حبان ٢/ ٢٣٠، ١٢/ ٥٠٦، ٥٠٨.

(٦) انظر: العلل للدارقطني ٦/ ٢٢١ - ٢٢٣.

(٧) حلية الأولياء ٥/ ٢٤٣.

(٨) منهاج السلامة في ميزان القيامة ص ٦٩ - ٧٨ (ط - دار ابن حزم).

فقال: حُسن الخلق. ثم أتاه من قِبَل يمينه فقال: ما الدين؟ قال: حسن الخلق. ثم أتاه من قِبَل شِماله فقال: ما الدين؟ قال: حسن الخلق. ثم أتاه من ورائه فقال: ما الدين؟ فالتفت إليه وقال: أما تفقه؟! هو أن لا تغضب) قال العراقي[١]: رواه محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة[٢] من رواية أبي العلاء ابن الشِّخِّير مرسلاً.

(وقيل: **يا رسول الله، ما الشؤم**) بالضم[٣] وسكون الهمزة، وقد تسهَّل فتصير واوًا (**قال: سوء الخلق**) أي يوجد فيه ما يناسب الشؤمَ ويشاكله، أو أنه يتولَّد منه.

قال العراقي[٤]: رواه أحمد[٥] من حديث عائشة: «الشؤم سوء الخلق». ولأبي داود[٦] من حديث رافع بن مَكِيث: «سوء الخلق شؤم». وكلاهما لا يصح.

قلت: وكذلك رواه الطبراني في الأوسط[٧] والعسكري في الأمثال وأبو نعيم في الحلية[٨]، كلهم من حديث عائشة، وقد ضعَّفه المنذري، وقال الهيثمي[٩]: فيه أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف. ورواه أيضًا الدارقطني في الأفراد[١٠] والطبراني في الأوسط[١١] كذلك من حديث جابر: قيل: يا رسول الله، ما الشؤم؟ ... فذكره. فهو الموافق لسياق المصنف هنا، وقال الهيثمي[١٢]: وفيه الفضل بن عيسىٰ

---

(١) المغني ٢/ ٧٣٣.

(٢) تعظيم قدر الصلاة ٢/ ٨٦٤ - ٨٦٥.

(٣) فيض القدير ٣/ ٣٨٦، ٤/ ١١٣، ١٨٣.

(٤) المغني ٢/ ٧٣٣ - ٧٣٤.

(٥) مسند أحمد ٤١/ ٩٩.

(٦) سنن أبي داود ٥/ ٤١٨.

(٧) المعجم الأوسط ٤/ ٣٣٤.

(٨) حلية الأولياء ٦/ ١٠٣.

(٩) مجمع الزوائد ٨/ ٥٦.

(١٠) أطراف الغرائب والأفراد ١/ ٣١٨.

(١١) المعجم الأوسط ٦/ ٣٨، ٨/ ٢٠٣.

(١٢) مجمع الزوائد ٨/ ٥٦.

الرقاشي، ضعيف. وأما «سوء الخلق شؤم» فقد رواه الدارقطني[١] في الأفراد من حديث ابن عمر، ورواه الخطيب[٢] من حديث عائشة بزيادة: «وشراركم أسوأكم خلقًا». ورواه ابن منده[٣] من حديث أم سعد ابنة الربيع الأنصاري عن أبيها بزيادة: «وطاعة النساء ندامة، وحُسن المَلَكة نَماء». وأما حديث رافع بن مكيث فلفظه عند أبي داود: «حُسن الملكة يُمْن، وسوء الخلق شؤم». رواه في الأدب من طريق بقية، عن عثمان بن زُفَر، عن محمد بن خالد بن رافع، عن رافع بن مَكِيث، وهو جُهَني، شهد الحديبية. وقيل: هو تابعي، وحديثه مرسل. وذكره ابن حبان في ثقات التابعين[٤]. وبقية فيه كلام معروف، ولهذا قال العراقي: وكلاهما لا يصح. ورواه أحمد[٥] والطبراني في الكبير[٦] بزيادة: «والبِر زيادة في العمر، والصدقة تمنع ميتة السوء». وفيه رجل لم يُسَمَّ.

(**وقال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني. فقال: اتقِ الله**) بامتثال[٧] أمره وتجنُّب

---

(١) في فيض القدير: ابن شاهين. وهو الصواب.

(٢) تاريخ بغداد ٥/ ٤٥٥.

(٣) معرفة الصحابة ٢/ ٦١٥.

(٤) الثقات ٤/ ١٣٠. وكلام الشارح فيه خلط بين رافع بن مكيث وابنه الحارث، فالذي شهد الحديبية هو رافع، أما ابنه الحارث فهو الذي ذكره ابن حبان في التابعين. وهذا الحديث رواه أبو داود من طريقين، فقال: «حدثنا إبراهيم بن موسىٰ، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن عثمان بن زفر، عن بعض بني رافع بن مكيث، عن رافع بن مكيث - وكان ممن شهد الحديبية - أن النبي ﷺ قال: حسن الملكة يمن، وسوء الخلق شؤم. حدثنا محمد بن المصفىٰ، حدثنا بقية، حدثنا عثمان بن زفر، حدثني محمد بن خالد بن رافع بن مكيث، عن عمه الحارث بن رافع بن مكيث - وكان رافع من جهينة قد شهد الحديبية مع رسول الله ﷺ - عن رسول الله ﷺ قال: حسن الملكة نماء، وسوء الخلق شؤم».

(٥) مسند أحمد ٢٥/ ٤٨٧.

(٦) المعجم الكبير ٥/ ١٧.

(٧) فيض القدير ١/ ١٢٠ - ١٢١.

نهيه (**حيث كنتَ**) أي في كل زمان ومكان، رآك الناس أو لا، فإن الله مطَّلع عليك. وفي بعض الروايات: حيثما كنت. و«ما» زائدة (**قال**) الرجل: (زدني. **قال: أَتْبِع السيئةَ**) الصادرة منك صغيرة أو كبيرة (**الحسنةَ**) وهي بالنسبة للكبيرة التوبة منها (**تَمْحُها**) من صحيفة الكاتبينَ، وذلك لأن المرض يعالَج بضده، كالبياض يُزال بالسواد، وعكسه ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وظاهر قوله «تمحها» أنها تُزال حقيقةً من الصحيفة، وقيل: عبَّر به عن ترك المؤاخذة. ثم إن هذا قد خُصَّ من عمومه السيئة المتعلقة بالآدمي كغيبته إن وصلت إليه فلا يمحوها إلا الاستحلال مع بيان جهة الظلامة إن أمكن ولم تترتَّب عليه مَفسدة، وإلا فالمرجوُّ كفاية الاستغفار والدعاء (**قال**: زدني. **قال: خالِط الناسَ**) أي عاشِرْهم. وفي رواية الجماعة: خالِقِ الناسَ. أي تكلَّفْ معاشرتهم (**بخلق حسن**) أي بالمجاملة من نحو طلاقة وجه وخفض جانب وتلطُّف في سياستهم مع تبايُن طباعهم. وجمعه بعضُهم بقوله: هو أن تفعل معهم ما تحب أن يفعلوه معك، فتجتمع القلوب وتتفق الكلمة وتنتظم الأحوال، وذلك جُمَّاع الخير وملاك الأمر.

قال العراقي[١]: رواه الترمذي[٢] من حديث أبي ذر وقال: حسن صحيح.

قلت: وكذلك رواه أحمد[٣] والحاكم[٤] هو والبيهقي[٥]، وقال الحاكم: على شرطهما، وأقرَّه الذهبي، واعتُرِض بأن فيه يوسف بن يعقوب القاضي، قال الذهبي[٦]: مجهول. ورواه أيضًا أحمد[٧] والترمذي[٨] والبيهقي[٩] من حديث

---

(١) المغني ٢/ ٧٣٤.

(٢) سنن الترمذي ٣/ ٥٢٧.

(٣) مسند أحمد ٣٥/ ٢٨٤، ٣١٩، ٤٢٥.

(٤) المستدرك على الصحيحين ١/ ١١٠.

(٥) شعب الإيمان ١٠/ ٣٨٢.

(٦) ديوان الضعفاء ص ٤٤٩.

(٧) مسند أحمد ٣٦/ ٣١٣، ٣٨١.

(٨) سنن الترمذي ٣/ ٥٢٧، ولم يسق لفظه.

(٩) شعب الإيمان ١٠/ ٣٨٠ - ٣٨١.

معاذ، وقال الذهبي في المهذب: إسناده حسن. ورواه الطبراني وابن عساكر في التاريخ[١] من حديث أنس.

(**وسُئل ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: خلق حسن**) والمراد به: بعد الإيمان بالله. وقد روىٰ الطبراني في مكارم الأخلاق[٢] من حديث أبي هريرة: «أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله التودُّدُ إلىٰ الناس».

(**وقال ﷺ: ما حسَّن اللهُ خلق عبدٍ**) وفي نسخة: امرئ. وفي أخرىٰ: رجل (**وخلقه فتطعمه النار**) أبدًا. رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي والبيهقي وابن عساكر من حديث أبي هريرة، ورواه الخطيب من حديث أنس. وقد تقدم في آداب الصحبة.

(**وقال الفضيل**) بن عياض رحمه الله تعالىٰ: (**قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخُلق تؤذي جيرانها بلسانها. قال: لا خير فيها، هي من أهل النار**) رواه أحمد والحاكم وصحَّح إسناده من حديث أبي هريرة دون قوله «سيئة الخلق»، وقد تقدم في آداب الصحبة.

(**وقال أبو الدرداء**) رضي الله عنه: (**سمعت رسول الله ﷺ يقول: أول ما يوضَع في الميزان حسن الخلق والسخاء، ولمَّا خلق الله الإيمان قال: اللهم قوِّني. فقوَّاه بحسن الخلق والسخاء، ولما خلق الله الكفرَ قال: اللهم قوِّني. فقوَّاه بالبخل وسوء الخلق**) قال العراقي[٣]: لم أقف له علىٰ أصل هكذا، ولأبي داود والترمذي من حديث أبي الدرداء: «ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»، وقال: غريب، وقال في بعض طرقه: حسن صحيح[٤].

---

(١) تاريخ دمشق ٦١/ ٣١٤.

(٢) مكارم الأخلاق ص ٣٦٤.

(٣) المغني ٢/ ٧٣٤.

(٤) تقدم هذا الحديث قريبا.

قلت: وبهذا اللفظ «ما من شيء ...» الخ أخرجه كذلك أحمد[١]. ولفظ الترمذي: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق ...» الحديث. ورواه [حماد بن الحسن بن] عنبسة الوَرَّاق فقال: حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا إبراهيم بن نافع الصائغ، عن الحسن بن مسلم، عن خاله عطاء بن نافع أنهم دخلوا على أم الدرداء فأخبرتهم أنها سمعت أبا الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أثقل – أو قال: أفضل شيء في الميزان يوم القيامة الخلق الحسن»[٢]. وأخرج أبو نعيم في الحلية[٣] من طريق محمد بن عصام بن يزيد، عن أبيه، عن سفيان، عن إبراهيم بن نافع، عن الحسن بن مسلم، عن خاله – يعني عطاء الكيخاراني – عن أم الدرداء [عن أبي الدرداء] عن النبي ﷺ بنحوه. غريب من حديثه عن إبراهيم، تفرَّد به عصام بن يزيد؛ قاله أبو نعيم. وأخرجه[٤] أيضًا من طريق محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة وأحمد بن أسد قالا: حدثنا شريك، عن خلف بن حوشب، عن ميمون بن مهران قال: قلت لأم الدرداء: سمعتِ من رسول الله ﷺ شيئًا؟ قالت: سمعته يقول: «أول ما يوضَع في الميزان الخلق الحسن». وهكذا أخرجه الطبراني في الكبير[٥].

(**وقال ﷺ: إن الله استخلص هذا الدين**) يعني دين الإسلام (**لنفسه**) وناهيك[٦] به تفخيمًا لرتبة دين الإسلام، فهو حقيق بالاتِّباع لعلوِّ رتبته عند الله تعالىٰ في الدارين (**ولا يصلُح لدينكم إلا السخاء**) بالمد وهو الكرم، فإنه لا قوام لشيء من الطاعات إلا به (**وحسن الخلق، ألا**) بالتخفيف حرف تنبيه (**فزيِّنوا دينكم بهما**) زاد في رواية:

---

(١) مسند أحمد ٤٥/ ٤٨٧، ٥١٠، ٥٢١، ٥٣٥، ٥٣٧.

(٢) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٣٩.

(٣) حلية الأولياء ٧/ ١٠٦ – ١٠٧.

(٤) السابق ٥/ ٧٥.

(٥) المعجم الكبير ٢٤/ ٢٥٣ – ٢٥٤.

(٦) فيض القدير ٢/ ٢٠٩.

«ما صحبتموه». فالسخاء السماح بالمال، وحسن الخلق السماح بالنفس، فمَن سمح بهما أصغت إليه القلوبُ، ومالت إليه النفوس. وقال الزمخشري[١]: معناه: أن مع الدينِ التسليمُ والقناعة والتوكل علىٰ الله وعلىٰ قسمته، فصاحبه ينفق ما رزقه الله بسماح وسهولة فيعيش عيشًا رافقًا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] والمُعرِض عن الدين مستولٍ عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلىٰ ازدياد من الدنيا، مسلَّط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك، وحاله مظلمة. ا.هـ. وقال الحكيم الترمذي في نوادر الأصول[٢]: الإسلام بُني اسمه علىٰ السماحة والجود؛ لأن الإسلام تسليم النفس والمال لحقوق الله، وإذا جاء البخل فقد ذهب بذلُ النفس والمال، ومَن بخل بالمال فهو بالنفس أبخل، ومَن جاد بالنفس فهو بالمال أجودُ، فلذلك كان البخل يمحق الإسلام ويبطله، ويدرس الإيمان وينكِّسه؛ لأن البخل سوء ظن بالله، وفيه منعٌ لحقوقه، ولذلك جاء في خبر: «ما محق الإسلام محق البخل شيء قط».

قال العراقي[٣]: رواه الدارقطني في كتاب المستجاد والخرائطي في مكارم الأخلاق[٤] من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين.

قلت: ورواه أيضًا الطبراني في الكبير[٥] من حديث عمران بن الحصين، قال الهيثمي[٦]: فيه عمرو بن الحصين العقيلي، وهو متروك.

---

(١) الكشاف ٤/ ١١٧.

(٢) نوادر الأصول ص ٦٧٨.

(٣) المغني ٢/ ٧٣٤.

(٤) لم أقف عليه فيه من حديث أبي سعيد، ولكن رواه ص ٣٥ من حديث جابر بن عبد الله بلفظ: «سمعت جبريل يقول: قال الله عزَّ وجلَّ: هذا دين أرتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق».

(٥) المعجم الكبير ١٨/ ١٥٩.

(٦) مجمع الزوائد ٣/ ٣١٥، ٨/ ٤٥.

(وقال ﷺ: حسن الخلق خلقُ اللهِ الأعظم) أي[١] هو أعظم الأخلاق [المائة و] السبعة عشر التي خزنها الله تعالىٰ لعباده في خزائن جوده. قال الحكيم في النوادر[٢]: وجميع محاسن الأخلاق تؤول إلىٰ الكرم والجود والسخاء، ومَن أراد الله به خيرًا منحه حسن الخلق.

قال العراقي[٣]: رواه الطبراني في الأوسط[٤] من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف.

قلت: وكذلك رواه في الكبير، وقال المنذري: سنده ضعيف جدًّا. وقال الهيثمي[٥]: فيه عمرو بن الحصين العقيلي، وهو متروك.

(وقيل: يا رسول الله، أيُّ المؤمنين أفضل إيمانًا؟ قال: أحسنهم خلقًا) قال العراقي[٦]: رواه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وتقدم في النكاح بلفظ: «أكملُ المؤمنين». وللطبراني[٧] من حديث أبي أمامة: «أفضلكم إيمانًا أحسنكم خلقًا».

قلت: وروىٰ ابن ماجه[٨] والحاكم[٩] من حديث ابن عمر: «أفضل المؤمنين أحسنهم خلقًا».

---

(١) فيض القدير ٣/ ٣٨٤.

(٢) نوادر الأصول ص ١١٠٦.

(٣) المغني ٢/ ٧٣٤.

(٤) المعجم الأوسط ٨/ ١٨٤.

(٥) مجمع الزوائد ٨/ ٤٥.

(٦) المغني ٢/ ٧٣٥.

(٧) المعجم الكبير ٨/ ٢١٤.

(٨) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٤٦.

(٩) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٧١٢.

(**وقال**[١] ﷺ: **إنكم لن تسَعوا الناسَ**) بفتح السين، أي لن تطيقوا أن تعمُّوهم (**بأموالكم**) وفي رواية: إنكم لا تسعون الناس بأموالكم. والمعنىٰ: لا يمكنكم ذلك (**فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق**) وفي رواية: ولكن يسعهم منكم بسطُ الوجه وحسن الخلق. أي لا تتَّسع أموالكم لعطائهم، فوسِّعوا أخلاقكم لصحبتهم. وقال العسكري في الأمثال نقلاً عن الصولي: لو وُزن هذا الكلام بأحسن كلام الناس كلِّهم لرجح عليه. قال: وقد كان ابن عَبَّاد كريم الوعد، كثير البذل، سريعًا إلىٰ فعل الخير، فطمس ذلك سوءُ خلقه فما ترىٰ له حامدًا. وقال الحرالي: السعة: المزيد علىٰ الكفاية من نحوها إلىٰ أن ينبسط إلىٰ ما وراء امتدادًا ورحمة وعلمًا، ولا تقع السعة إلا مع إحاطة العلم والقدرة وكمال الحِلم والإفاضة في وجوه الكفايات ظاهرًا وباطنًا، عمومًا وخصوصًا، وذلك ليس إلا لله، أما المخلوق فلم يكَدْ يصل إلىٰ حظ من السعة، أما ظاهرًا فلا تقع منه ولا تكاد، وأما باطنًا بخصوص حسن الخلق فعساه يكاد.

قال العراقي[٢]: رواه البزار وأبو يعلىٰ والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة، وبعض طرق البزار رجاله ثقات.

قلت: وكذلك رواه الطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي، وقال البيهقي: تفرَّد به عبد الله بن سعيد المقبري عن أبيه، ورُوي من وجه آخر ضعيف عن عائشة. ا.هـ. وعبد الله بن سعيد، قال البخاري: تركوه. وقال العلائي: إسناد حديث أبي يعلىٰ حسن. وعزاه الحافظ في الفتح[٣] إلىٰ البزار وحده وقال: سنده حسن. وقال المنذري[٤]: رواه أبو يعلىٰ والبزار من طرق أحدها حسن [جيد].

---

(١) تقدم هذا الحديث مع شرحه في كتاب آداب الصحبة.

(٢) المغني ٢/ ٧٣٥.

(٣) فتح الباري ١٠/ ٤٧٤.

(٤) الترغيب والترهيب ص ٩٩٩.

(وقال ﷺ أيضًا: سوء الخلق يفسد العملَ كما يفسد الخلُّ العسلَ) أي[1] يعود عليه بالإحباط، وقال العسكري: أراد أن المبتدئ بفعل الخير إذا قرنه بسوء الخلق أفسد عمله وأحبط أجره، كالمتصدِّق إذا أتبعه بالمنِّ والأذىٰ.

قال العراقي[2]: رواه ابن حبان في الضعفاء[3] من حديث أبي هريرة، والبيهقي في الشعب[4] من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضًا وضعَّفهما.

قلت: ورواه أيضًا الحارث بن أبي أسامة في مسنده والحاكم في الكنىٰ والألقاب وأبو نعيم[5] والديلمي من حديث ابن عمر.

تنبيه: حاول بعضهم استيعاب مساوئ الأخلاق فقال: هي الانتقاد علىٰ أهل الله، واعتقاد كمال النفس، والاستنكاف من التعلُّم والاتِّعاظ، والتماس عيوب الناس، وإظهار الفرح وإفشاؤه، وإكثار الضحك، وإظهار المعصية، والإيذاء، والاستهزاء، والإعانة علىٰ الباطل، والانتقام للنفس، وإثارة الفتن، والاختيال، والاستماع لحديث قوم وهم له كارهون، والاستطالة، والأمن من مكر الله، والإصرار علىٰ الذنب مع رجاء المغفرة، واستعظام ما يعطيه، وإظهار الفقر مع الكفاية، والبغي، والبهتان، والبخل، والشح، والبطالة، والتجسس، والتبذير، والتعمُّق، والتملُّق، والتذلُّل للأغنياء لغِناهم، والتعيير، والتحقير، وتزكية النفس، والتجبُّر، والتبختر، والتكلُّف، والتعرُّض للتهم، والتكلم بالمنهيِّ، والتشدُّق، وتضييع الوقت فيما لا يعني، والتكذيب، والتسفيه، والتنابز بالألقاب، والتعبيس، والتفريط، والتسويف في الأجل، والتمنِّي المذموم، والتخلُّق بزِي الصالحين زورًا، وتناوُل الرُّخَص بالتأويلات، والتساهل في تدارُك الغيرة، والتهوُّر، والتدبير للنفس،

---

(١) فيض القدير ٤/ ١١٣ - ١١٤.

(٢) المغني ٢/ ٧٣٥.

(٣) المجروحون من المحدثين ٢/ ٣٩٣.

(٤) شعب الإيمان ١٠/ ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٥) حلية الأولياء ٦/ ٣٤٨.

والجهل، وجحد الحق، والجدال، والجفاء، والجور، والجبن، والحرص، والحقد، والحسد، والحمق، وحب الدنيا، وحب الرياسة والجاه والشهوة[١] [وإفشاء العيب][٢] والحزن الدائم، والخديعة، والخبثة، والخيانة، وخلف الوعد، والخيلاء، والدخول فيما لا يعني، والذم، والذل، والرياء، والركون إلىٰ الأغيار، ورؤية الفضل علىٰ الأقران، وسوء الظن، والسعاية، والشماتة، والشَّرَه، والشرك الخفي، وصحبة الأشرار، والصلف، وطول الأمل، والطمع، والطِّيرة، وطاعة النساء، وطلب العوض علىٰ الطاعة، والظلم، والعجلة، والعُجْب، والعداوة في غير الدين، والغضب، والغرور، والغفلة، والغدر، والفسق، والفرح المذموم، والقسوة، وقطع الرحم، والكبر، وكفران النعمة والعشير، والكسل، وكثرة النوم، واللؤم، والمداهنة، والمُلاحاة، ومجالسة الأغنياء لغناهم، والمزاح المفرط، والنفاق، والنية الفاسدة، وهجر المسلم، وهتك الستر، والوقوع في العِرض، والوقوع في غَلَبة الدين، واليأس من الرحمة. فهذه كلها أخلاق خبيثة مذمومة عند الله تعالىٰ.

(وعن جرير بن عبد الله) البَجَلي رضي الله عنه **(قال: قال رسول الله ﷺ: إنك امرؤ قد حسَّن الله خَلْقَك، فحسِّنْ خُلُقك)** وكان جرير من أحسن الناس خَلقًا، قد أُعطي شطر الحسن في جسمه. قال العراقي[٣]: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق[٤] وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب، وفيه ضعفٌ.

(وعن البراء بن عازب) رضي الله عنه **(قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا وأحسنهم خُلقًا)** قال العراقي[٥]: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق[٦] بإسناد حسن.

---

(١) كذا، ولعلها: الشهرة بالراء. والله أعلم.

(٢) زيادة من الفيض.

(٣) المغني ٢/ ٧٣٥.

(٤) مكارم الأخلاق ص ٢٨.

(٥) المغني ٢/ ٧٣٥.

(٦) مكارم الأخلاق ص ٢٨.

قلت: وقد تقدم في أخلاق النبوة من رواية البيهقي عنه بزيادة: ليس بالطويل البائن ولا بالقصير. وروىٰ مسلم[١] وأبو داود[٢] من حديث أنس: كان أحسن الناس خُلقًا. وفي الصحيحين من حديث أنس: كان أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس[٣]. وعند البيهقي في الدلائل[٤] من حديث أبي هريرة: كان أحسن الناس صفةً وأجملها ... الحديث.

(**وعن أبي مسعود**) عُقبة بن عامر الأنصاري (**البدري**) لنزوله بدرًا، لا لشهوده وقعتها (**قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: اللهم حسَّنتَ خَلْقي**) بفتح فسكون (**فحسِّنْ خُلُقي**) بضمَّتين. قال العراقي[٥]: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق[٦] هكذا من رواية عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي مسعود البدري، وإنما هو ابن مسعود، أي عبد الله، هكذا رواه ابن حبان في صحيحه[٧]، ورواه أحمد[٨] من حديث عائشة.

(**وعن عبد الله بن عمرو ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ يُكثِر الدعاءَ فيقول: اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحُسن الخلق**) قال العراقي[٩]: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق[١٠] بإسناد فيه لين.

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٢٩٧، ٢/ ١٠٣٠، ١٠٩٢ - ١٠٩٣.

(٢) سنن أبي داود ٥/ ٢٦٤.

(٣) تقدم هذا الحديث في كتاب أخلاق النبوة.

(٤) دلائل النبوة ١/ ٢٧٥.

(٥) المغني ٢/ ٧٣٦.

(٦) مكارم الأخلاق ص ٢٩.

(٧) صحيح ابن حبان ٣/ ٢٣٩.

(٨) مسند أحمد ٤٠/ ٤٥٧، ٤٢/ ١٢٥ وهو عند أحمد من حديث ابن مسعود ﵁ ٣٨٢٣.

(٩) المغني ٢/ ٧٣٦.

(١٠) مكارم الأخلاق ص ٢٩.

قلت: ورواه الطبراني في الكبير[١] بلفظ: «اللهم إني أسألك الصحة والعفَّة والأمانة وحسن الخلق والرضا بالقدر». ورواه البزار في مسنده[٢] بلفظ «العصمة» بدل «الصحة». وفي الإسناد ابن أنعم الإفريقي، وهو ضعيف.

(وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **عن النبي** ﷺ **قال: كرم المؤمن دينه)** أي[٣] به يكرُم ظاهرًا وباطنًا، قولاً وفعلاً **(وحَسَبُه)** محرَّكة **(حسن خلقه)** وفي رواية: وحسبه خلقه. أي ليس شرفه بشرف آبائه بل بشرف أخلاقه، وقال الأزهري[٤]: أراد أن الحسب يحصل للرجل بكرم أخلاقه وإن لم يكن له نسب، وإذا كان حسيب الآباء فهو أكرم له **(ومروءته عقله)** لأن به يتميَّز عن الحيوانات، وبه يعقل نفسه عن كل خلق دنيء، ويكفُّها عن شهواتها الرديئة وطباعها الدنيئة، ويؤدي إلىٰ كل ذي حق حقَّه من حق الحق [والخَلق] فليس المراد بالمروءة ما في العُرف من جمال الحال والاتساع في المال بذلاً وإظهارًا، فليس كل عاقل يكون له مال يتوسَّع فيه بذلاً وعطاء.

قال العراقي[٥]: رواه ابن حبان[٦] والحاكم[٧] وصحَّحه علىٰ شرط مسلم والبيهقي[٨]، قلت: فيه مسلم بن خالد الزنجي، وقد تُكُلِّم فيه، قال البيهقي: ورُوي من وجهين آخرين ضعيفين. ثم رواه موقوفًا علىٰ عمر وقال: إسناده صحيح.

---

(١) المعجم الكبير ١٤/ ٥١.
(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار ٤/ ٥٧.
(٣) فيض القدير ٤/ ٥٥٠.
(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٣٢٩.
(٥) المغني ٢/ ٧٣٦.
(٦) صحيح ابن حبان ٢/ ٢٣٣.
(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٢٠٠ - ٢٠١، ٢/ ١٩٤.
(٨) السنن الكبرىٰ ٧/ ٢١٩ - ٢٢٠، ١٠/ ٣٢٨ - ٣٢٩.

قلت: وكذلك رواه أحمد[١]. ورد الذهبيُّ علىٰ الحاكم حين صحَّحه بأن فيه مسلم بن خالد [ضعيف. و] قال البخاري[٢]: منكر الحديث. وقال الرازي: لا يُحتَجُّ به[٣]. ورواه العسكري في الأمثال بلفظ: «كرم الرجل تقواه».

وقد أخذ أبو العتاهية معنىٰ الحديث فقال[٤]:

كرم الفتىٰ التقوىٰ وقوَّته ... محض اليقين ودينه حسبه
والأرض طينته وكل بني ... حواء فيها واحدٌ نسبه

(وعن **أسامة بن شريك**) الثعلبي[٥]، صحابي، تفرَّد بالرواية عنه زيادُ بن علاقة علىٰ الصحيح، روىٰ له الأربعة أئمَّة السنن (**قال: شهدتُ الأعاريب**) جمع الأعراب وهم سكان البادية (**يسألون النبي ﷺ يقولون: ما خير ما أُعطي العبد؟ قال: خلق حسن**) رواه[٦] ابن ماجه، وقد تقدم في آداب الصحبة.

(**وقال ﷺ: إن أحبَّكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**)[٧] رواه[٨] الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة: «إن أحبكم إليَّ [أحاسنكم أخلاقًا». وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر: «إن أقربكم مني مجلسًا] أحاسنكم أخلاقًا». وقد تقدم الحديثان في آداب الصحبة.

---

(١) مسند أحمد ١٤/ ٣٨١.

(٢) التاريخ الكبير ٧/ ٢٦٠.

(٣) في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ١٨٣: «سألت أبي عن مسلم بن خالد الزنجي فقال: ليس بذاك القوي، منكر الحديث، يكتب حديثه ولا يحتج به، تعرف وتنكر».

(٤) البيتان في ديوانه ص ٦١ - ٦٢. وبينهما بيت آخر وهو:

حلم الفتىٰ مما يزينه ... وتمام حلية فضله أدبه

(٥) تقريب التهذيب ص ١٢٤.

(٦) المغني للعراقي ٢/ ٧٣٦.

(٧) الحديث عند الترمذي (٢٠١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٨) السابق ٢/ ٧٣٦ - ٧٣٧.

(**وعن ابن عباس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثٌ**) أي ثلاث خصال (**من لم تكن**) أي لم توجد (**فيه**) خصلة (**واحدة منهن فلا تعتدنَّ**) أي لا تعبأنَّ. وفي نسخة: فلا تعتدُّون (**بشيء من عمله: تقوىٰ تحجزه**) أي تمنعه (**عن معاصي الله**) ﷯ (**أو حِلم يكفُّ به السفيهَ**) إذا سفهَ عليه (**أو خُلُق**) بضمَّتين (**يعيش به بين الناس**) قال العراقي[١]: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق[٢] بإسناد ضعيف، ورواه الطبراني في الكبير[٣] وفي مكارم الأخلاق[٤] من حديث أم سلمة بإسناد حسن.

قلت: لكن شيخ الطبراني إبراهيم بن محمد ضعَّفه الذهبي[٥]. كذا قال الهيثمي[٦]. ورواه البيهقي في الشعب[٧] عن الحسن البصري مرسلاً بلفظ: «ثلاث خلال مَن لم تكن فيه واحدة منهن كان الكلب خيرًا منه: ورع يحجزه عن محارم الله ﷯، أو حِلم يردُّ به جهل الجاهل، أو حسن خلقٍ يعيش به في الناس».

(**وكان من دعائه ﷺ في افتتاح الصلاة: اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيِّئها إلا أنت**) رواه مسلم من حديث علي، وقد تقدم في كتاب الصلاة.

(**وقال أنس**) ﵁: (**بينما نحن مع رسول الله ﷺ يومًا إذ قال: إن حسن الخلق لَيذيبُ الخطيئة**) أي[٨] يمحو أثرها ويقطع خبرها (**كما تذيب الشمس الجليدَ**) وهو الماء الجامد من شدة البرد؛ لأن صنائع المعروف لا تكون إلا من حسن الخلق،

---

(١) السابق ٢/ ٧٣٧.

(٢) مكارم الأخلاق ص ٣٣.

(٣) المعجم الكبير ٢٣/ ٣٠٨، ٣٩٥.

(٤) مكارم الأخلاق ص ٣٢٢.

(٥) ميزان الاعتدال ١/ ٦٣، وفيه: «إبراهيم بن محمد الحمصي، شيخ للطبراني غير معتمد».

(٦) مجمع الزوائد ٨/ ٣٤٧.

(٧) شعب الإيمان ١١/ ١٣.

(٨) فيض القدير ٢/ ٤٤٦، ٣/ ٣٨٤.

والصنائع حسنات، والحسنات يُذهِبن السيئات.

قال العراقي[١]: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق[٢] بسند ضعيف، ورواه الطبراني في الأوسط[٣] والبيهقي في الشعب[٤] من حديث ابن عباس وضعَّفه، وكذا رواه من حديث أبي هريرة وضعَّفه أيضًا.

قلت: ورواه ابن عدي[٥] أيضًا من حديث ابن عباس، ولفظه والبيهقي: «حسن الخلق يذيب الخطايا كما تذيب الشمسُ الجليدَ».

(**وقال ﷺ: من سعادة المرء حسن الخلق**) أي فإنه يبلغ به خيرَ الدنيا والآخرة. قال العراقي[٦]: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق[٧] والبيهقي في الشعب[٨] من حديث جابر بسند ضعيف[٩].

قلت: وكذا رواه القُضاعي في مسند الشهاب[١٠]، وفيه الحسن بن سفيان، قال أبو حاتم: صدوق تغير[١١]. وقال البخاري: لم يصح حديثه عن هشام بن

---

(١) المغني ٢/ ٧٣٧.

(٢) مكارم الأخلاق ص ٣٦.

(٣) المعجم الأوسط ١/ ٢٥٩.

(٤) شعب الإيمان ١٠/ ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٥) الكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٨١.

(٦) المغني ٢/ ٧٣٨.

(٧) مكارم الأخلاق ص ٣٦.

(٨) شعب الإيمان ١٠/ ٣٩١.

(٩) قلت: بل هو موضوع، وآفته القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص العمري، قال أحمد: مديني كذاب كان يضع الحديث وقال أبو هاشم: متروك الحديث. وقال أبو زرعه: ضعيف لا يساوي شيئًا، متروك الحديث منكر الحديث. الجرح والتعديل ٧/ ١١١، ١١٢.

(١٠) مسند الشهاب ١/ ١٩٩. وليس في سنده الحسن بن سفيان، ولا في متنه الزيادة التي سيذكرها الشارح. الحسن عن البيهقي والخطيب فقط.

(١١) لم يذكر ابن أبي حاتم ذلك عن أبيه في الجرح والتعديل، بل قال ٣/ ١٦: «كتب إليَّ، وهو صدوق».

عمار[١]. وعند البيهقي والقضاعي زيادة: «ومن[٢] شقاوته سوء الخلق». وعندهما أيضًا: «من سعادة ابن آدم». ولفظ الخرائطي كما للمصنف. ورواه الخرائطي[٣] من حديث سعد بلفظ: «من سعادة ابن آدم حسن الخلق، ومن شقاوة ابن آدم سوء الخلق». وروى الخرائطي أيضًا وابن عساكر[٤] من حديث جابر: «من شقوة ابن آدم سوء الخلق».

(**وقال ﷺ: اليُمن حسن الخلق**) أي البركة والخير الإلهي فيه. قال العراقي[٥]: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق[٦] من حديث عائشة بسند ضعيف.

(**وقال ﷺ لأبي ذر**) الغفاري رضي الله عنه: (**يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير**) أي النظر في عواقب الأمور (**ولا حَسَب كحسن الخلق**) قال العراقي[٧]: رواه ابن ماجه[٨] وابن حبان[٩] من حديث أبي ذر.

قلت: ولفظهما: «لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن

---

(١) هكذا نقله المناوي في فيض القدير عن أبي حاتم والبخاري وعزاه إلى ذيل الضعفاء للذهبي، ولم أقف على ذلك فيه، ولكن قال الذهبي في المغني ١/ ٢٣٨: «الحسن بن سفيان، عن عمر بن عبد العزيز، قال البخاري: لم يصح حديثه». وليس هو المراد هنا. بل المراد هنا الحسن بن سفيان الثقة الحافظ صاحب المسند.

(٢) بل عند البيهقي فقط. وأخرجه بهذه الزيادة الخطيب في الفقيه المتفقه ٢/ ٢٢٥ من طريق الحسن بن سفيان.

(٣) مكارم الأخلاق ص ٣٦ بالشطر الأول فقط. وفي المساوئ بالشطر الثاني صـ٢٥ وهو ضعيف أيضًا.

(٤) تاريخ دمشق ٥٥/ ٤٠٩. وهذا اللفظ ليس عند الخرائطي، بل رواه باللفظ المتقدم فقط.

(٥) المغني ٢/ ٧٣٨.

(٦) مكارم الأخلاق ص ٣٦، ٤٠.

(٧) المغني ٢/ ٧٣٨.

(٨) سنن ابن ماجه ٥/ ٦١٩.

(٩) صحيح ابن حبان ٢/ ٧٩.

الخلق». وقد رواه البيهقي كذلك في الشعب[١]، وفيه إبراهيم بن هشام بن يحيىٰ الغَسَّاني، قال أبو حاتم: غير ثقة[٢].

ورواه أبو الحسين القُدوري في جزئه وابن عساكر[٣] وابن النجار من حديث أنس بلفظ: «لا عقل كالتدبير في رضا الله، ولا ورع كالكف عن محارم الله، ولا حسب كحسن الخلق». وفيه صخر الحاجبي[٤]. وهو صخر بن محمد المنقري، أورده في الميزان[٥] في ترجمته، ونقل عن ابن طاهر[٦] أنه قال: إنه كذاب. وقال ابن عدي[٧]: حدَّث بالبواطيل. وساق له منها هذا الحديث.

(وعن أنس) رضي الله عنه **(قال: قالت أم حبيبة)** رملة بنت أبي سفيان، إحدىٰ أمَّهات المؤمنين، ﷺ **(يا رسول الله، أرأيتَ المرأة يكون لها زوجان في الدنيا)** يتزوجها واحد بعد واحد **(فتموت)** هي **(ويموتان، ويدخلون الجنة، لأيِّهما تكون هي؟ قال: تكون لأحسنهما خلقًا كان عندها في الدنيا. يا أم حبيبة، ذهب حسنُ الخلق بخير الدنيا والآخرة)** قال العراقي[٨]: رواه البزار[٩] والطبراني في الكبير[١٠] والخرائطي في مكارم الأخلاق[١١] بإسناد ضعيف.

---

(١) شعب الإيمان ٦/ ٣٥٧، ١٠/ ٣٨٤.

(٢) في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/ ١٤٣ عن أبيه: كذاب.

(٣) تاريخ دمشق ٢٧/ ١٦٦ مقتصرا علىٰ قوله (لا عقل كالتدبير).

(٤) كنز العمال ١٦/ ١٢١.

(٥) ميزان الاعتدال ٢/ ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٦) تذكرة الموضوعات ص ٤٠.

(٧) الكامل في الضعفاء ٤/ ١٤١٣. وسماه: صخر بن عبد الله.

(٨) المغني ٢/ ٧٣٨.

(٩) مسند البزار ١٣/ ١٨٣.

(١٠) المعجم الكبير ٢٣/ ٢٢٢.

(١١) مكارم الأخلاق ص ٣٧.

(وقال ﷺ: إن المسلم المسدَّد) أي الموفَّق **(لَيدركُ درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم ضريبته)** أي طبيعته **(وفي رواية)** أخرىٰ: لَيدركُ **(درجة الظمآن في الهواجر)** قال العراقي[١]: رواه أحمد[٢] من حديث عبد الله بن عمرو بالرواية الأولىٰ، ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية، وفيهما ابن لهيعة.

قلت: وروىٰ الترمذي والطبراني في الكبير من حديث أبي الدرداء: «وإن صاحب حسن الخلق لَيبلغُ به درجةَ صاحب الصوم والصلاة». وهو قطعة من حديث «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق»، وقد تقدم قريبًا.

(وقال عبد الرحمن بن سَمُرة) بن[٣] حبيب بن عبد شمس العَبْشَمي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أبو سعيد، من مسلمة الفتح، افتتح سِجستان، ثم سكن البصرة ومات بها سنة خمسين أو بعدها، روىٰ له الأربعة[٤] **(كنا عند النبي ﷺ، فقال: إني رأيت البارحة عجبًا، رأيت رجلاً من أمَّتي جاثيًا علىٰ ركبتيه، وبينه وبين الله حجاب، فجاء حسن خلقه فأدخله علىٰ الله)** عَزَّ وَجَلَّ. قال العراقي[٥]: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق[٦] بسند ضعيف.

(وقال أنس) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(قال النبي ﷺ: إن العبد لَيبلغُ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لَضعيفٌ في العبادة)** قال العراقي[٧]: رواه الطبراني في الكبير[٨] والخرائطي في مكارم الأخلاق[٩] وأبو الشيخ في كتاب طبقات

---

(١) المغني ٢/ ٧٣٨.

(٢) مسند أحمد ١١/ ٢٢٩، ٦٢٨ من حديث عبد الله بن عمرو، ولم أقف فيه علىٰ حديث أبي هريرة.

(٣) تقريب التهذيب ص ٥٨١.

(٤) بل روىٰ له الأئمة الستة.

(٥) المغني ٢/ ٧٣٨.

(٦) مكارم الأخلاق ص ٣٨.

(٧) المغني ٢/ ٧٣٩.

(٨) المعجم الكبير ١/ ٢٦٠.

(٩) مكارم الأخلاق ص ٤٠.

الأصبهانيين[١] بإسناد جيد.

(ورُوي أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **استأذن علىٰ رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلِّمنه ويستكثرنه عاليةً أصواتهن علىٰ صوته، فلما استأذن عمر تبادرنَ الحجاب، ودخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: مِمَّ تضحك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ فقال ﷺ: عجبتُ لهؤلاء اللاتي كنَّ عندي لمَّا سمعن صوتك تبادرن الحجاب. فقال عمر)** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **(فأنت كنت أحق أن يهبنَ)** أي يخفنَ **(يا رسول الله. ثم أقبل عليهن عمر)** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **(فقال)** يخاطبهن **(أيْ عدوَّات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبنَ رسولَ الله ﷺ؟! فقلن: نعم، أنت أفظُّ من رسول الله ﷺ وأغلظ)** وأفعل التفضيل هنا ليس علىٰ بابه، والمقصود منه نفيُ الفظاظة والغِلظة عن رسول الله ﷺ **(فقال رسول الله ﷺ: إيهًا يا ابن الخطاب! والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطانُ قط سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجِّك)** رواه البخاري ومسلم[٢]، وتقدم في الكتاب الذي قبله ما رواه الحكيم عن عمر: «ما لقي الشيطانُ قط عمرَ في فجٍّ فسمع صوته إلا أخذ في غيره».

(وقال ﷺ: سوء الخلق ذنب لا يُغفَر، وسوء الظن خطيئة تَتُوجُ) أي تنتج الشرورَ. قال العراقي[٣]: رواه الطبراني في الصغير[٤] من حديث عائشة: «ما من شيء إلا له توبة، إلا صاحب سوء الخلق فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه». وإسناده ضعيف.

قلت: وبسياق المصنف أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق[٥] من حديث أنس.

---

(١) طبقات المحدثين بأصبهان ٤/ ٢٣٨.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٤٤٢، ٣/ ١٥، ٤/ ١٠٧. صحيح مسلم ٢/ ١١٢٤ من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٣) المغني ٢/ ٧٣٩.

(٤) المعجم الصغير ١/ ٣٣٣.

(٥) مساوئ الأخلاق ص ٢١. وفيه: تفوح بدلًا من تتوج.

(وقال ﷺ: إن العبد لَيبلغُ من سوء خلقه أسفل دَرَكِ جهنم) قال العراقي[١]: رواه الطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد، وهو بعض الحديث الذي قبله بحديثين.

(الآثار. قال ابن لقمان الحكيم لأبيه: يا أبتِ، أيُّ الخصال من الإنسان خير؟ قال: الدين. قال: فإذا كانتا اثنتين؟ قال: الدين والمال) أي لأنه نِعم العون له على الدين (قال: فإذا كانت ثلاثًا؟ قال: الدين والمال والحياء. قال: فإذا كانت أربعًا؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق. قال: فإذا كانت خمسًا؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء) وهو بذل الموجود على من يستحق (قال: فإذا كانت ستًّا؟ قال: يا بني، إذا اجتمعت فيه الخمس خصال) المذكورة (فهو نقيٌّ تقيٌّ، لله وليٌّ، ومن الشيطان بَرِيٌّ) فهذه الخمس خصال قد جمعت مكارم الأخلاق.

(وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالى: (مَن ساء خلقُه عذَّب نفسه)[٢] أي أتعبها بسوء خلقه.

(وقال أنس بن مالك) رضي الله عنه: (إن العبد لَيبلغُ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد، ويبلغ بسوء خلقه أسفل دركة في جهنم وهو عابد) وصله أبو الشيخ الأصبهاني في طبقات الأصبهانيين بنحوه، وتقدم قريبًا، وهو كذلك موصول عند الخرائطي في مكارم الأخلاق.

(وقال يحيى بن معاذ) الرازي رحمه الله تعالى: (في سعة الأخلاق كنوز

---

(١) المغني ٢/ ٧٣٩. وهو ضعيف جداً أيضاً. فقد رواه بقية عن شيخ كناه بأبي سعيد. وإذا كني شيخه ولم يسمه فالعم أنه لا يساوي شيئاً. كما قال ابن مدين. نظر: تاريخ ابن معين رواية الدروي ٤/ ٤١٥، والميزان ١/ ٣٣٧.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٣٩٣، وابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان ص ٨٥. وقد روي مرفوعا من حديث علي ومن حديث أبي هريرة، وروي أيضا من كلام عيسى عليه السلام.

الأرزاق) والسعة فيها هو المشار إليه بالحديث الذي تقدم: «إنكم لن تسَعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم». وكنوز الأرزاق هي إفاضات الخير من خزائن الرحمة الإلهية، وعليه يدل ما رواه أبو الشيخ[1] من حديث أبي موسىٰ الأشعري: «الخلق الحسن زمام من رحمة الله [في أنف صاحبه] والزمام بيد المَلَك، والملك يجره إلىٰ الخير، والخير يجره إلىٰ الجنة».

(وقال وهب بن منبه) رحمه الله تعالىٰ: **(مَثل السيئ الخُلق كمثل الفَخَّارة المكسورة لا تُرقع ولا تُعاد طينًا)** أخرجه البيهقي في الشعب[2].

(وقال الفضيل) بن عياض رحمه الله تعالىٰ: **(لأنْ يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليَّ من أن يصحبني عابد سيِّئ الخلق)**[3] أخرجه البيهقي في الشعب.

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: إن الرجل لَيدركُ بحسن خلقه ما لا يدركه بماله؛ لأن المال عليه فيه زكاة وصلة أرحام، وخلقه ليس عليه فيه شيء[4].

(وصحب) عبدَ الله **(ابن المبارك)** رحمه الله تعالىٰ **(رجلٌ سيئ الخلق في**

---

(١) وكذلك البيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٣٨٨، وتمامه: «وسوء الخلق زمام من عذاب الله في أنف صاحبه، والزمام بيد الشيطان، والشيطان يجره إلىٰ الشر، والشر يجره إلىٰ النار».
ورواه أيضا الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٢٠٠.

(٢) لم أقف عليه في الشعب، وقد رواه ابن حبان في روضة العقلاء ص ١٢٢ بلفظ: «الأحمق كالثوب الخلق إن رفأته من جانب انخرق من جانب آخر مثل الفخار المكسور لا يرقع ولا يشعب ولا يعاد طينا».

(٣) رواه ابن حبان في روضة العقلاء ص ٦٤ بسياق أطول عن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل ابن عياض يقول: إذا خالطتَ فخالط حسن الخلق، فإنه لا يدعو إلا إلىٰ خير، وصاحبه منه في راحة، ولا تخالط سيئ الخلق، فإنه لا يدعو إلا إلىٰ شر، وصاحبه منه في عناء، ولأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبني قارئ سيئ الخلق، إن الفاسق إذا كان حسن الخلق عاش بعقله وخف علىٰ الناس وأحبوه، وإن العابد إذا كان سيئ الخلق ثقل علىٰ الناس ومقتوه.

(٤) تقدم هذا الأثر في الباب الثاني من كتاب آداب الصحبة.

سفره، فكان يحتمل منه) أي مما يصدر من سوء خلقه **(ويداريه، فلما أن فارقه بكىٰ، فقيل له في ذلك، فقال: أترحَّم عليه، فارقتُه وخلقُه معه لم يفارقه)**[1] فهذا من باب التذمُّم للصاحب في السفر وهو من جملة مكارم الأخلاق.

(وقال) سيد الطائفة أبو القاسم **(الجنيد)** رحمه الله تعالىٰ: **(أربع)** خصال **(ترفع العبد إلىٰ أعالي الدرجات وإن قلَّ علمُه وعملُه: الحِلم، والتواضع، والسخاء، وحسن الخلق، وهو كمال الإيمان)** أي بهنَّ كماله، وكلهن من مكارم الأخلاق.

(وقال) القشيري: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول: سمعت أبا بكر **(الكتَّاني)** رحمه الله تعالىٰ يقول: **(التصوف خلقٌ)** من الأخلاق الشريفة **(فمَن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف)** وأورده صاحب العوارف عن أبي زُرعة عن أبي بكر بن خلف عن السلمي.

(وقال عمر رضي الله عنه**: خالِطوا الناس بالأخلاق وزايِلوهم بالأعمال)** وهذا قد وصله العسكري في الأمثال من حديث ثوبان: «خالِطوا الناس بأخلاقكم، وخالِفوهم في أعمالهم»[2].

(وقال يحيىٰ بن معاذ) الرازي رحمه الله تعالىٰ: **(سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرةُ السيئات.**

وسُئل ابن عباس) رضي الله عنه: **(ما الكرم؟ فقال: هو ما بيَّن اللهُ في كتابه:** ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾**)** [الحجرات: ١٣] أشار بذلك إلىٰ أن الكرم هو التقوىٰ

---

(١) روىٰ نحوه ابن الجوزي في صفة التصوف ص ٦٥٤ عن المبارك بن إسماعيل قال: آذىٰ رجل أيوب السختياني وأصحابه أذىٰ شديدا، فلما تفرقوا قال أيوب: إني لأرحمه أنا نفارقه وخلقه معه.

(٢) أثر عمر وحديث ثوبان تقدما في كتاب آداب الصحبة.

لا بذل المال **(قيل له: وما الحَسَب؟ قال: أحسنكم خلقًا أفضلكم حسبًا)**[١] أشار بذلك إلىٰ أن الحسب ليس من الآباء، بل هو حُسن الخلق، ويدل لذلك الحديثُ المتقدم: «كرم المرء تقواه، وحسبُه حسنُ خلقه».

(وقيل: لكل بنيان أساس) يقوم عليه **(وأساس الإيمان حسن الخلق)** وإليه يشير الحديث المتقدم: «حسن الخلق نصف الإيمان»[٢].

(وقال) أبو العباس أحمد **(ابن عطاء: ما ارتفع مَن ارتفع)** إلىٰ الدرجات العالية **(إلا بالخلق الحسن، ولم يَنَلْ أحدٌ كمالَه)** أي كمال الخلق **(إلا المصطفىٰ ﷺ)** لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] **(وأقرب الخلق إلىٰ الله السالكون آثاره بحسن الخلق)** ولكل مجتهد في سلوكه من نصيب علىٰ قدر مقامه واستعداده.

ومما يناسب ذِكرُه هنا ما أورده البيهقي في الشعب[٣] عن علي رضي الله عنه قال: التوفيق خير قائد، وحسن الخلق خير قرين، والعقل خير صاحب، والأدب خير ميراث، ولا وحشة أشد من العُجْب.

تنبيه: المراد[٤] بالخلق الحسن في هذه الأخبار والآثار ما يشمل الأمورَ المعنوية الصادرة عن الملَكة النفسانية بسهولة من غير رويَّة، وقد جاء في بعض تلك الأخبار والآثار تسمية بعض ما يصدر عنها من خلال الكمالات التي ليست ملكات أخلاقًا، ولا مانع من إطلاق الخلق مجازًا علىٰ ما يصدر من تلك الملكة باعتبار كونه أثرها ومسببًا عنها سيَّما مع شيوع إطلاق السبب علىٰ المسبب وعكسه،

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد ص ٢٦٥.

(٢) وهو ضعيف كما أشارة المصدر.

(٣) شعب الإيمان ٦/ ٣٦٨، ١٠/ ٣٨٥.

(٤) فيض القدير ٣/ ٥٠٧.

واسم الأثر علىٰ المؤثِّر وعكسه، ولذلك تراهم يسمُّون كل خصلة جميلة[١] صادرة عن الملكة خلقًا إما علىٰ المجاز أو الحقيقة العُرفية أو الشرعية، والاسم الجامع للشعب الإيمانية والكمالات القلبية هو الخلق الحسن.

وتمام الكلام عليه في الذي يليه من تحقيق المصنف رحمه الله تعالىٰ الذي ليس فوقه تحقيق. قال رحمه الله تعالىٰ:

(١) في الفيض: (معنوية) وهو الصواب.

بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

اعلمْ أن الناس قد تكلموا في حقيقة الخلق الحسن وأنه ما هو، وما تعرَّضوا لحقيقته، وإنما تعرَّضوا لثمرته) اعلمْ - كما أورده المصنف في كتاب المعارف العقلية - أن المطالب الأصلية أربعة، الأول: مطلب «هل»، وهو السؤال عن وجود الشيء. الثاني: مطلب «ما»، وهو السؤال عن ماهية الشيء. والثالث: مطلب «أيّ»، وهو السؤال عن فصل الشيء الذي يفصله عن المشاركة له في الجنس. والرابع: مطلب «لِمَ»، وهو طلب العلة. أما مطلب «هل» فعلىٰ وجهين، أحدهما: سؤال عن أصل الوجود، الثاني: سؤال عن وجود حال الشيء. وأما مطلب «ما» فأيضًا علىٰ وجهين، أحدهما: سؤال المتكلم عن تفسير لفظه، والثاني: مطلب حقيقة الشيء في نفسه. فهو بالمعنىٰ الأول متقدم علىٰ مطلب «هل»، فإنَّ من لا يفهم الشيءَ لا يسأل عن وجوده، وبالمعنىٰ الثاني متأخر عن مطلب «هل»؛ لأن ما لا يُعلَم وجوده لا تُطلَب ماهيَّته.

فإذا عرفتَ ذلك ظهر لك أن ما ذكروه في تحديد الخلق الحسن إنما هو تعرُّضٌ لثمرته الحاصلة منه، لا بيان أصله وحقيقته في نفسه **(ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له)** في باله **(وما كان حاضرًا في ذهنه)** عند إلقائه **(ولم يصرفوا العناية)** والاهتمام **(إلىٰ ذكر حدِّه وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته علىٰ التفصيل والاستيعاب)** والإحاطة **(وذلك كقول الحسن)** البصري رحمه الله تعالىٰ حين سُئل عن **(حسن الخلق)** فقال: هو **(بسطُ الوجه، وبذل الندَىٰ، وكف الأذىٰ.**

وقال) أبو[1] بكر محمد بن موسىٰ **(الواسطي)** رحمه الله تعالىٰ، أصله

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٠٠.

من فرغانة، صاحب الجنيد والنوريَّ، أقام بالري وبها مات سنة ٣٢١[1] (هو أن لا يخاصِم) أحدًا (ولا يخاصَم) أي لا يخاصمه أحدٌ. هكذا أورده في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤] وذلك (من شدة معرفته) ﷺ (بالله تعالىٰ.

وقال) أبو الفوارس (شاه) بن شجاع (الكِرْماني) رحمه الله تعالىٰ: (هو كف الأذىٰ واحتمال المُؤن) أي المشقَّات.

(وقال بعضهم: هو أن يكون من الناس قريبًا) أي يُحسِن خلطتهم ويتقرَّب إليهم ويداريهم (وفيما بينهم غريبًا) أي يكون غريب الشأن بينهم، أي يكون بجهة مع الله تعالىٰ. وهذا يقرُب من قولهم: أن يكون كائنًا بائنًا.

(وقال الواسطي مرةً) وقد سُئل عنه فقال: (هو إرضاء الخلق في السَّرَّاء والضَّرَّاء) أي يكون علىٰ حالة واحدة في مخالطة الخلق، ويعطي لكل وقت حكمه.

(وقال أبو عثمان) المغربي رحمه الله تعالىٰ: (هو الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ) في كل ما أقامه فيه وعليه وبه، فلا يعترض عليه في شيء من أحواله.

(وسُئل) أبو محمد (سهل التستري) رحمه الله تعالىٰ (عن حسن الخلق) ما هو؟ (فقال: أدناه الاحتمال) لمُخالِطه (وترك المكأفاة، والرحمة للظالم، والاستغفار له، والشفقة عليه) وعلىٰ العامَّة.

(وقال مرةً: هو أن لا تتَّهم مولاك في الرزق) فإنه قد ضمنه لك (وتثق به) وتعتمد عليه (وتسكن) بباطنك (إلىٰ الوفاء بما ضمن) لك (وتطيع مولاك ولا تعصيه في جميع الأمور فيما بينك وبينه وفيما بينك وبين الخلق) أي فإن تمَّ لك هذا المقامُ تم لك الخلق الحسن المشار إليه بالمدح.

---

(١) في الرسالة: أقام بمرو ومات بها بعد العشرين والثلاثمائة.

(وقال علي كرَّم الله وجهه: حسن الخلق في ثلاث) خصال: **(اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسيع علىٰ العيال)** أي بأن لا يقتر عليهم، بل يوسع عليهم بماله إن كان، وإلا فيبسط الوجه.

(وقال الحسين بن منصور) الحَلاَّج أبو المغيث رحمه الله تعالىٰ: **(هو أن لا يؤثِّر فيك جفاءُ الخلق بعد مطالعتك للحق)** ولفظ العوارف: قال الحسين في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾: لأنه لم يؤثِّر فيه جفاء الخلق مع مطالعة الحق.

(وقال أبو سعيد الخَرَّاز) رحمه الله تعالىٰ: **(هو أن لا تكون همَّة غير الله)** وبه أجاب الجنيد حين سُئل عن قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ قال: لأنه لم تكن له همَّة سوىٰ الله تعالىٰ. وقال الواسطي: لأنه جاد بالكونين عوضًا عن الحق[١]. وقيل: لأنه عاشَرَ الخلقَ بخلقه، وبايَنَهم بقلبه[٢] **(فهذا وأمثاله كثير)** مشحون به كتب القوم، كقول الجنيد: حسن الخلق أربعة أشياء: السخاء والألفة والنصيحة والشفقة.

وقال أبو سعيد القرشي: الخلق العظيم: الجود والكرم والصفح والعفو والإحسان[٣].

وقيل: هو لباس التقوىٰ والتخلُّق بأخلاق الله تعالىٰ إذ لم يبقَ عنده للأعواض خطرٌ.

---

(١) في الرسالة: لأنه جاد بالكونين واكتفىٰ بالله تعالىٰ.

(٢) هكذا أورده الثعلبي في الكشف والبيان ١٠/ ٩. وهو تمام كلام الجنيد السابق في المحرر الوجيز لابن عطية ص ١٨٨٢. ونصه: «قال الجنيد: سمي خلقه عظيما إذ لم يكن له همة سوىٰ الله تعالىٰ، عاشر الخلق بخلقه وزايلهم بقلبه، فكان ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق».

(٣) في العوارف: «العظيم هو الله، ومن أخلاقه الجود والكرم والصفح والعفو والإحسان، ألا ترىٰ إلىٰ قوله ﷺ: إن لله مائة وبضعة عشر خلقا، من أتىٰ بواحد منها دخل الجنة. فلما تخلق بأخلاق الله تعالىٰ وجد الثناء عليه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾».

وقال ابن المبارك: حسن الخلق هو بسطُ الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذىٰ[١].

وكلٌّ قد تكلم إما بما أفاض الله عليه في وقته وأُلقيَ في رُوعه، أو أخبر بما هو متحقِّق به في ذلك، أو نظر إلىٰ سائله فأجاب بما يطابق حالَه حين سؤاله (وهو) إذا تأمَّلتَ (**تعرُّضٌ لثمرات حسن الخلق لا لنفسه**) وحقيقته (**ثم ليس هو محيطًا بجميع الثمرات أيضًا**) والعذر لهم في ذلك أن الأخلاق لها ثمرات كثيرة، ومكارمها غير محصورة، وإحاطتها في جملة واحدة متعسِّرة، ولها مراتب عليا وسفلىٰ وبينهما أوساط، وكلٌّ قد أشار إلىٰ مرتبة من مراتبها بحسب الاقتضاء، كما في خبر عائشة عند البيهقي: «مكارم الأخلاق عشرة ...» ثم ذكرها، فكأنه أشار إلىٰ أعاليها ولم يُرِدْ بذلك الإحاطةَ بها (**وكشفُ الغطاء عن الحقيقة أَولىٰ من نقل الأقاويل المختلفة، فنقول: الخَلْق**) بفتح فسكون (**والخُلُق**) بضمَّتين (**عبارتان مستعمَلتان معًا، يقال: فلان حسن الخَلق والخُلق، أي حسن الظاهر والباطن، فيُراد بالخَلق**) بالفتح (**الصورة الظاهرة**) إذ هو في اللغة بمعنىٰ التقدير المستقيم[٢] (**ويُراد بالخُلق الصورة الباطنة، وذلك لأن الإنسان مركَّب من جسد مُدرَك بالبصر**) الظاهر (**ومن روح ونفس مُدرَك بالبصيرة**) الباطنة (**ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة**) وقد يكون القبح في الصورة الظاهرة والجمال في الصورة الباطنة وبالعكس، فما[٣] أقبح بالمرء أن يكون حُسن جسمِه باعتبار قبح نفسه، كما قال حكيم لجاهل صبيح الوجه: أما البيت فحسن وأما ساكنه فرديء. ودخل حكيم علىٰ رجل، فرأىٰ دارًا مشيدة وفُرُشًا مبسوطة، ورأىٰ صاحبها خلوًا من الفضيلة، فبصق في وجهه، فقال له: ما هذا السفه أيها الحكيم؟ فقال: بل هذه حكمة، إن البصاق لَيُرمَىٰ إلىٰ

---

(١) رواه الترمذي في سننه ٣/ ٥٣٧. ورواه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة ص ٨٦٣ وزاد: وأن لا تغضب. وقد تقدم مثل هذا الأثر قريبا عن الحسن البصري.

(٢) ذكره الراغب في المفردات ص ١٥٧.

(٣) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ٦ - ٧.

أخسِّ مكان في الدار، ولم أرَ في دارك أخس منك. فنبَّه بذلك علىٰ دناءة الجهل، وأن قبحه لا يزول بادِّخار القَنِيَّات (**والنفس المدرَكة بالبصيرة أعظم قدرًا من الجسد المدرَك بالبصر، ولذلك عظَّم اللهُ أمرَه بالإضافة إلىٰ نفسه فقال: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝﴾** [ص: ٧١-٧٢] **فنبَّه به علىٰ أن الجسد منسوب إلىٰ الطين، والروح منسوب إلىٰ الله تعالىٰ**) لأنه أضافه إلىٰ نفسه (**والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد**) إذ المراد بكلٍّ منهما اللطيفة الربَّانية (**فالخُلُق**) بضمَّتين (**عبارة عن هيئة**) وهي الحالة التي (**للنفس راسخة**) أي ثابتة فيها (**تصدُر عنها الأفعالُ بسهولة ويسرٍ من غير حاجة إلىٰ**) استعمال (**فكر ورويّة**) فعيلة من الرؤية بالفكر وبالعقل (**فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعالُ الجميلة المحمودة عقلاً وشرعًا**) بسهولة (**سُمِّيت تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها أفعالاً قبيحة**) مذمومة عقلاً وشرعًا (**سُمِّيت الهيئة التي هي المصدر**) لتلك الأفعال (**خلقًا سيئًا. وإنما قلنا: إنها هيئة راسخة؛ لأن مَن يصدر منه بذلُ المال علىٰ الندور**) والقلة (**لحاجة عارضة**) من خارج (**لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبُت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ**) واستقرار (**وإنما شرطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير رويّة**) وفكر (**لأن مَن تكلَّف بذل المال أو**) تكلَّف (**السكوتَ عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحِلم**) لعدم صدورهما منه بسهولة (**فههنا أربعة أمور، أحدها: فعلُ الجميل أو القبيح، والثاني: القدرة عليهما، والثالث: المعرفة بهما، والرابع: هيئة للنفس بها تميل إلىٰ أحد الجانبين ويتيسَّر عليها أحد الأمرين إما الحَسن وإما القبيح، وليس الخُلق عبارة عن**) ذلك (**الفعل**) الصادر عن الهيئة (**فرُب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال**) أي كونه غير موجود عنده (**أو لمانع**) آخر مع وجوده عنده (**وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل**) المال (**لباعث**) قائم في النفس نحو حياء من الناس (**أو لرياء**) وسمعة (**وليس هو**) أي الخلق (**عبارة عن القوة**) أي القدرة علىٰ ذلك الفعل الصادر عن الهيئة (**لأن نسبة القوة إلىٰ الإمساك والإعطاء، بل**) نسبتها (**إلىٰ**

الضدين واحدة، وكل إنسان خُلق بالفطرة) الأصلية **(قادرًا علىٰ الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل)** بالنسبة إلىٰ قوة الإمساك **(ولا خلق السخاء)** بالنسبة إلىٰ قوة الإعطاء **(وليس هو)** أي الخلق **(عبارة عن المعرفة)** بذلك الفعل الصادر عن الهيئة **(فإنَّ المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعًا علىٰ وجه واحد، بل هو عبارة عن المعنىٰ الرابع وهو الهيئة التي بها تستعدُّ النفس)** وتتهيَّأ **(لأنْ يصدر منها الإمساكُ أو البذل، فالخلق إذًا عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة)** هذا هو الأصل، واختُلف في اشتقاقه وأخذِه، فقيل: هو من قولهم: فلان خليق بكذا. وصاحب[١] هذا القول يجعله اسمًا للحالة المكتسَبة التي يصير الإنسان بها خليقًا أن يفعل شيئًا دون شيء، كمَن هو خليق بالغضب لحدَّة مزاجه، ولهذا خُصَّ كل حيوان بخلق في أصل خلقته، كالشجاعة للأسد، والجبن للأرنب، والمكر للثعلب. أو من الخلاقة أي الملاسة، فكأنَّه اسم لِما مرن عليه الإنسان، من قولهم: العادة طبيعة ثانية[٢]. ويُجعَل مرةً اسمًا للفعل الصادر عنه باسمه، وعلىٰ ذلك أسماء أنواعها نحو العفَّة والعدالة والشجاعة، فإن ذلك يقال للهيئة والفعل جميعًا، وربما تسمَّىٰ الهيئة باسم والفعل الصادر عنها باسم، كالسخاء والجود، فإنَّ السخاء اسم للهيئة التي عليها الإنسان، والجود اسم للفعل الصادر عنها، وإن كان قد يسمَّىٰ كل واحد باسم الآخَر. وانظر ما قدَّمنا فيه قريبًا في التنبيه. هذا ما يتعلق بالخلق والفرق بينه وبين الطبع والسجيَّة والعادة، فالطبع أصله من طبع السيف وهو اتخاذ الصورة المخصوصة في الحديد، وكذلك الطبيعة اعتبارًا بطبع السيف، والضريبة اعتبارًا بضرب الدراهم، وقد تقدم ذِكرُها في الحديث: «كرم الضريبة». والنحتية اعتبارًا بالنحت، والنجيرة اعتبارًا بنجر الخشب، والغريزة [اعتبارًا] بما غُرز عليه. وكل ذلك اسم للقوة التي لا سبيل إلىٰ تغييرها، والشيمة اسم للحالة التي عليها الغريزة اعتبارًا بالشامة التي في أصل الخلقة، والسجيَّة اسم لِما سُجي عليه الإنسان، من

---

(١) السابق ص ٤٩ – ٥٠.

(٢) في الذريعة: فكأنه اسم لما مرن عليه الإنسان من قواه بالعادة.

قولهم: عين ساجية، أي فاترة خلقةً، وأكثر ما يُستعمَل ذلك [كله] فيما لا يمكن تغييره. وأما العادة فاسم لتكرير الفعل والانفعال، من عاد يعود، وبها يكمُل الخلقُ، وليس للعادة فعلٌ إلا تسهيل خروج ما هو بالقوة في الإنسان إلىٰ الفعل، فأما أن تُجذَب السجية إلىٰ خلاف ما خُلقت عليه فمُحال، فالسجية اسم لفعل الخالق، والعادة فعلٌ للمخلوق، ولا يُبطِل فعلُ المخلوق فِعلَ الخالق، لكن ربما تقوىٰ العادةُ قوةً مُحكَمة حتىٰ تُعَدَّ سجيَّة، وبهذا النظر قيل: العادة طبيعة ثانية **(وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقًا لا يتم بحسن العينين)** فقط **(دون)** حسن **(الأنف والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسنُ الظاهر، فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتىٰ يتم حسنُ الخلق، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسنُ الخلق، وهي)** أي القوىٰ الأربعة: **(قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة)** هذه الثلاثة أصول الأركان **(و)** الرابعة هي **(قوة العدل بين هذه القوىٰ الثلاث)** ولا تحصل للإنسان طهارة النفس إلا بإصلاح تلك القوىٰ الثلاث **(أما قوة العلم فحُسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهُل بها دركُ الفرق)** وهو التمييز **(بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال)** وإصلاح هذه القوة بالتعلُّم بشروطه وآدابه المذكورة في كتاب العلم **(وإذا انصلحت هذه القوة حصلت منها ثمرة الحكمة)** التي هي إصابة الحق بالعلم والعمل **(والحكمة رأس الأخلاق الحسنة)** أي أعلاها **(وهي التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾)** [البقرة: ٢٦٩] أشار بذلك إلىٰ أن الحكمة جُمَّاع الخير كله. ورُوي[١] عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢] قال: يعني العقل والفهم والفطنة من غير نبوة. أخرجه ابن مردويه **(وأما قوة الغضب فحسنُها في أن يقتصر انقباضها وانبساطها علىٰ حدِّ ما تقتضيه الحكمةُ)** وإصلاحها[٢] بإسلاسها حتىٰ يحصل

(١) الدر المنثور ١١/ ٦٢٧.

(٢) الذريعة ص ٤٧ – ٤٨.

الحِلم وهو كفُّ النفس عن قضاء وَطَر الغضب، وتحصل الشجاعةُ وهي كفُّ النفس عن الخوف والحرص المذمومينِ (**وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة الدين والعقل**) وإصلاحها بالعفَّة حتىٰ تسلس للجود والمواساة المحمودة بقدر الطاقة (**وأما قوة العدل فهو في ضبط قوة الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع، فالعقل منزلته منزلة الناصح المشير، وقوة العدل هي القدرة، ومنزلها منزلة المنفِّذ**) للأمر (**الممضي لإشارة العقل، والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارةُ**) المذكورة (**ومثال الغضب**) في الظاهر (**مثال كلب الصيد**) أي المتخَذ له (**فإنه يحتاج إلىٰ أن يؤدَّب**) ويعلَّم (**حتىٰ يكون استرساله**) للصيد (**وتوقُّفه**) عنه (**بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس. ومثال الشهوة**) في الظاهر (**مثال الفرس الذي يُركَب في طلب الصيد، فإنه تارةً يكون مروَّضًا مؤدَّبًا**) يكون إقدامه وإحجامه تحت الإشارة (**وتارةً يكون جَمُوحًا**) رافعًا رأسه حيث يريد، غير مطيع لصاحبه (**فمَن استوت فيه هذه الصفات واعتدلت فهو حَسن الخلق مطلقًا**) وفيه جُمَّاع المكارم، وهو الممدوح بما تقدم من الآيات والأخبار (**ومَن اعتدل فيه بعضها دون بعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلىٰ ذلك المعنىٰ خاصةً**) فهو حُسنٌ مقصور (**كالذي يحسِّن بعضَ أعضاء وجهه دون بعض**) فإنه لا يقال فيه إنه حسن الوجه مطلقًا (**وحُسن القوة الغضبية واعتدالها يعبَّر عنه بالشجاعة**) وهي[1] إن اعتُبِرت في النفس فصرامة القلب علىٰ الأهوال وربط الجأش [في المخاوف] وإن اعتُبرت بالفعل فالإقدام علىٰ موضع الفرصة (**وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبَّر عنه بالعِفَّة**) بالكسر، وهي[2] حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة، وأصلها [الاقتصار علىٰ] تناوُل الشيء القليل الجاري مَجرىٰ العفافة، والعُفَّة بالضم: البقية من الشيء (**فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلىٰ**

---

(١) السابق ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) المفردات للراغب ص ٣٣٩.

طرف الزيادة سُمِّي ذلك تهوُّرًا) وهو الثبات المذموم في الأمور المعطبة **(وإن مالت إلىٰ الضعف والنقصان سُمِّي ذلك جبنًا)** وهو الإحجام عن مباشرة ما ينبغي **(وخَوَرًا)** محرَّكة، وهو الضعف عن مباشرة ما ينبغي. اعلمْ أن[1] الشجاعة تتولَّد من الفزع والغضب إذا كانا متوسطينِ، فإن الغضب قد يكون مفرطًا كمَن يحتدم سريعًا من أشياء صغيرة، وقد يكون مفرِّطًا لا يغضب من الاجتراء علىٰ حرمه وشتمِ أبيه [وأمه] وقد يكون متوسطًا علىٰ ما يجب في وقت ما يجب بقدر ما يجب. وكذلك الفزع يكون مفرِطًا فيتولَّد منه الجبن الهالع، ومفرّطًا فتتولَّد منه الوقاحة والغمارة كمَن لا يفزع من شتم آبائه وتضييع حرمه وأصدقائه، وقد يكون متوسطًا كما يجب وبقدر ما يجب **(وإن مالت قوة الشهوة إلىٰ طرف الزيادة تسمَّىٰ شَرَهًا)** بالتحريك، وهو شدة الحرص علىٰ الشيء **(وإن مالت إلىٰ النقصان تسمَّىٰ جمودًا)** اعلمْ أن[2] العفة لا تتعلق إلا بالقوة الشهوية، ولا تتعلق القوة الشهوية إلا بالمَلاذِّ الحيوانية وهي المتعلقة بالغارين وهما البطن والفرْج دون الألوان الحسنة والألحان الطيبة والأشكال المنتظمة، فهي إذًا ضبط النفس عن المَلاذِّ الحيوانية، وهي حالة متوسطة بين إفراط وتفريط **(والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة)** بل أُس الفضائل من القناعة والزهد وغنىٰ النفس والسخاء، وعدمها يعفي علىٰ جميع المحاسن، ويعري عن لبوس المحامد، ومن يتَّسم بسِمة العفة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل، وسهَّلت له سبيل الوصول إلىٰ المحاسن **(والطرفان)**: الإفراط والتفريط **(رذيلتان مذمومتان)** قد تنشأ عنهما رذائل كثيرة، كما سيأتي بيانها **(والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان، بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور)** نعم، قد يُتصوَّر أن يكون للعدل طرفان متغايران باعتبار كماله ونقصانه وباعتبار ظهوره في وصفه الحقيقي وفي غير وصفه بأن يسمَّىٰ عدلاً بالإضافة وهو جور في الحقيقة، وذلك كقولهم: المساواة في الظلم عدلٌ، وهذا يُتصور فيما إذا انتشر

---

(١) الذريعة ص ٢٢٠.

(٢) السابق ص ٢١١ - ٢١٢.

الجور وصار كل من يأتي من الولاة يزيد جورًا علىٰ الجور السابق فيأتي رجل فيُبطِل تلك الزيادةَ ويقيم الناسَ علىٰ القانون السابق، فذلك القانون السابق ولو كان في حدِّ نفسه جورًا إلا أنه بالإضافة لِما يصدر من الناس من الزيادة هو عدل في الجملة، ولكن ليس لطرفيه اسم خاص يتميَّز به عن ضده، ومما يدلُّك علىٰ اختلاف مراتب العدل أنه ليس عدل عمر بن عبد العزيز رحمه الله كعدل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما أنه ليس عدل السلطان نور الدين الشهيد رحمه الله كعدل عمر بن عبد العزيز، وكلٌّ منهم عادلون في أزمنتهم (**وأما الحكمة فيسمَّىٰ إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة**) التي لا يبيحها الشرع (**خِبًّا**) بالكسر (**وجَرْبَزة**) بفتح الجيم وسكون الراء وفتح الموحدة، وهي الشطارة (**ويسمَّىٰ تفريطها بَلَهًا**) محرَّكة، وهو ضعف العقل (**والوسط هو الذي يختصُّ باسم الحكمة. فإذًا أمَّهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. ونعني بالحكمة: حالة للنفس بها تدرك الصوابَ من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية**) وهي المسمَّاة بهيئة القوة العقلية العِلمية (**ونعني بالعدل: حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضبَ والشهوة وتحملهما علىٰ مقتضَىٰ الحكمة، وتضبطهما في الاسترسال والانقباض علىٰ حسب مقتضاها**) أي الحكمة، لا علىٰ حسب مقتضَىٰ النفس (**ونعني بالشجاعة: كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها**) سواء اعتُبِرت في النفس أو في العقل (**ونعني بالعفة: تأدُّب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع**) وهذه[(١)] الأربعة التي هي أمَّهات الأخلاق تسمَّىٰ: فضائل نفسية، وبعضها يلازم بعضًا، فإنَّ العقل المعبَّر عنه بالحكمة إذا أشرق عقل صاحبه عن الإقدام علىٰ ما يورثه مَذَمَّةً ويحمله علىٰ الإقدام علىٰ المخاوف التي تورثه مَحْمَدة وعلىٰ أن يسمح بفضل ما في يده لمن يحتاج إليه وأن يبذل لكل ذي حق حقه وذلك هو العفة والشجاعة والجود والعدالة. وكذلك إذا كان عدلاً يحمله عدله علىٰ ترك [تناول] ما لا يجوز له تناوله، وأن لا يحجم عمَّا يلزمه الإقدام عليه، وأن لا يبخل بفضل ما في يده. وإذا

---

(١) السابق ص ٨٠.

كان شجاعًا لا تقهره شهوتُه علىٰ تناول ما لا يجوز تناوله وعلىٰ ظلم غيره ولا يخاف الفقر فيبخل. ولهذا النظر جعل بعض الشعراء[1] الشجاعة سماحة والسماحة شجاعة فقال:

أيقنتُ أن من السماح شجاعة تدمي وأن من الشجاعة جودا

وجعل النبي ﷺ دفع الشهوة جهادًا فقال: «جهادك هواك». وجُعلت العفة جودًا فقيل: الجود جودانِ: جود بما في يدك، وجود عمَّا في يد غيرك وهو أعظمهما. وهذه الفضائل إذا حصلت حصل بها الإنسانية والحرية والكرم، وعنها يتأصَّل الإسلام والإيمان والتقوىٰ والإخلاص.

وقد أشار المصنف إلىٰ ما تصدر عنه الأخلاق الجميلة من اعتدال هذه الأصول الأربعة فقال: (**فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها؛ إذ من اعتدال قوة العقل يصدر حسنُ التدبير**) وهو النظر لعواقب الأمور، واشتقاقه يقتضي ذلك؛ لأنه تأمُّل دُبر الأمر، وعليه حُثَّ، حيث قال الشاعر:

ومَن ترك العواقب مهملات فأكثرُ سعيه أبدًا تَبارُ[2]

(**وجودة الذهن وثقابة الرأي**) أي نفوذه في إصابة الصواب (**وإصابة الظن**) في الأمور بضرب من الأمارة (**والتفطُّن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس**) ويصدر[3] عنه أيضًا جودة الفهم وجودة الخاطر وجودة الخيال والذكاء والفراسة وجودة الحفظ والبلاغة والفصاحة، وكلها من توابع العقل، والضابط في ذلك أن العقل متىٰ تقوَّىٰ تولَّد من حسن نظره جودةُ الفكر وجودة الذكر، ومن حسن فعله الفطنةُ وجزالة الرأي، وتولَّد من اجتماع أربعتها جودةُ الفهم وجودة الحفظ (**ومن إفراطها تصدر الجَرْبَزة**) والخِبُّ (**والمكر والخداع والدهاء**) والنكر وغير ذلك

(١) هو أبو تمام الطائي، والبيت في ديوانه ص ٩٠ من قصيدة يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني.
(٢) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.
(٣) الذريعة ص ٧٢، ١٠٥.

(ومن تفريطها يصدر البَلَهُ) والغفلة **(والغمارة والحمق والجنون. وأعني بالغمارة: قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيُّل)** والمتَّصف به يقال له: الغُمْر، بالضم، وهو الذي لم يدرك شيئًا ولم يجرِّب، قال[1] قُطرب في مثلَّثه:

إن دموعي غَمْرُ وليس عندي غِمْرُ
يا أيُّ هذا الغُمْر أقصِرْ عن التَّعَتُّب

قال شارحه:

بالفتح ماءٌ كثُرا بالكسر حقد سُتِرا
بالضم شخص ما دَرَىٰ شيئًا ولم يجرِّبِ

(وقد يكون الإنسان غُمرًا في شيء دون شيء. والفرق بين الحمق والجنون أن الأحمق) وهو الذي فقد جوهرَ عقله **(مقصوده صحيح ولكن سلوكه للطريق فاسد)** لفساد عقله **(فلا تكون له رؤية صحيحة في طريق الوصول إلىٰ الغرض. وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يُختار، فيكون أصل إيثاره واختياره فاسدًا)** لاستتار عقله **(وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه الكرم)** والسماحة **(والنجدة)** وهو عدم الجزع من المخاوف **(والشهامة)** وهو الحرص علىٰ ما يوجب الذِّكرَ الجميل من العظائم[2] **(وكِبَر النفس)** أي كِبَر همَّتها، والكبير[3] الهمَّة هو الذي لا يرضىٰ بالهِمَم الحيوانية قدْر وسعِه **(والاحتمال والحِلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتؤدة وأمثالها، وهي أخلاق محمودة)** والضابط[4] فيه أن الشجاعة متىٰ تقوَّتْ تولَّد منها الجودُ في حال النعمة، والصبر في حال المحنة، والصبر يزيل الجزعَ

---

(١) أربع رسائل في شرح مثلث قطرب ص ٥٤، ١٠٤ (ط - دار الرشاد الحديثة بالدار البيضاء).

(٢) ذكره المناوي في التوقيف ص ٢٠٨ نقلا عن عضد الدين الإيجي، ثم قال: «وقال غيره: الحرص علىٰ الأمور العظام توقعا للذكر الجميل عند الحق والخلق».

(٣) الذريعة ص ١٩٠.

(٤) السابق ص ٧٢.

ويورث الشهامة المختصَّة بالرجولية، كما قال الشاعر[1]:

خُلقنا رجالاً للتصبُّر والأسىٰ وتلك الغواني للبكا والمآتِم

(**وأما إفراطها وهو التهوُّر فيصدر منه الصَّلَف**) محرَّكة (**والبَذَخ**) بالتحريك أيضًا، كلاهما بمعنىٰ التكبُّر (**والاستشاطة**) وهي السرعة إلىٰ الغضب (**والتكبُّر والعُجْب**) بالضم: رؤية النفس بالفضيلة. وكلها أخلاق مذمومة (**وأما تفريطها فتصدر منه المهانة والذلة والجزع**) محرَّكة[2]: هو حزن يصرف الإنسانَ عمَّا هو بصدده ويقطعه عنه (**والخساسة وصِغَر النفس**) أي ذُلها، أي صِغَر همَّتها (**والانقباض عن تناول الحق الواجب**) وهو الحياء المذموم. وهذه كذلك أخلاق مذمومة (**وأما خلق العفَّة**) المتعلقة بضبط القلب عن التطلُّع للشهوات البدنية (**فيصدر عنه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظُّرف وقلة الطمع**) وغنىٰ النفس، وهذه محاسن الفضائل، وكلها محمودة، والعفة هي المسهِّلة إليها، والضابط فيه أن[3] العفة إذا تقوَّتْ تولَّدت منها القناعة، والقناعة تمنع من الطمع في مال الغير فتولِّد الأمانةَ (**وأما ميلها إلىٰ الإفراط أو التفريط فيصدر منه الحرص والشَّره والوقاحة**) وهي قلة الحياء وصلابة الوجه (**والخُبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلُّل للأغنياء**) لأجل غِناهم (**واستحقار الفقراء**) لأجل فقرهم (**وغير ذلك**) والضابط الكلي في ذلك أن[4] تمام العفة يتعلق بحفظ الجوارح، فمَن عدم عفةَ القلب يكون منه التمنِّي والظن اللذان هما رأس كل رذيلة؛ لأن مَن تمنىٰ ما في يد غيره حسده، وأدَّىٰ حسده إلىٰ المُعاداة، وإذا عاداه نازعه، وإذا نازعه ربما

---

(١) هو أبو تمام الطائي، والبيت في ديوانه ص ٣١٩ من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ويعزيه عن أخيه القاسم.

(٢) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص ١٢٥.

(٣) الذريعة ص ٧٢.

(٤) السابق ص ٢١٢ - ٢١٣.

قتله. ومَن أساء الظنَّ عادَىٰ وبغىٰ، ولذلك نهىٰ الله تعالىٰ عنهما جميعًا فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [النساء: ٣٢] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ﴾ [الحجرات: ١٢] فأمر فيهما بقطع شجرتين يتفرَّع عنهما جلُّ الرذائل والمآثم، ولا يكون الإنسان تام العفة حتىٰ يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر، فمَن عدمها في اللسان تصدر السخريةُ والتجسُّس والغِيبة والهمز والنميمة والتنابُز بالألقاب، ومن [عدمها في البصر مدَّ العينَ إلىٰ المحارم وزينة الحياة الدنيا المولِّدة للشهوات الرديئة، ومَن] عدمها في السمع يصدر الإصغاء إلىٰ المسموعات القبيحة، وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها صاحبُها في شيء مما يختصُّ بكل واحد منها إلا فيما سوَّغ فيه العقلُ والشرع دون الشهوة والهوىٰ.

ولم يذكر العدالة وهي من الأمَّهات، وقد تقدم أنها ليست ثمرة زيادة ونقصان، ولكنها إذا[1] تقوَّتْ تولِّد الرحمةَ، والرحمة هي الإشفاق من أن يفوِّت ذا حق حقَّه، فهي تولِّد الحِلمَ، والحلم يقتضي العفوَ (**فأمَّهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة**) النفسية (**وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدل، والباقي**) ممَّا يُذكَر منها (**فروعها**) التي تتفرَّع عنها، وتتفرَّع أيضًا من الفروع فروعٌ أخرىٰ، وكلها داخلة تحت المَحْمَدة (**ولم يبلغ كمالَ الاعتدال في هذه الأربع إلا**) سيدنا (**رسول الله ﷺ**) فقد كان ﷺ أحكم الناس وأعقلهم وأشجعهم وأعفهم وأعدلهم، كما ثبت ذلك كلُّه في الأخبار الصحيحة الماضية في كتاب أخلاق النبوة (**والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه، فكل مَن قرُب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالىٰ بقدْر قربه من رسول الله ﷺ**) لأن القريب من القريب قريبٌ (**وكل مَن جمع كمالَ هذه الأخلاق استحقَّ أن يكون بين الخلق ملكًا مطاعًا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال**) والأقوال والأحوال (**ومن انفكَّ**

---

(١) السابق ص ٧٣.

عن) جملة (هذه الأخلاق كلها واتَّصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين العِباد والبلاد، فإنه قد قرُب من الشيطان اللعين المبعَد) عن الحضرة الإلهية (فينبغي أن يُبعَد) مَن وصفُه هذا (كما أن الأول قرُب من المَلَك المقرَّب) والقرب من المَلَك هو الاتِّصاف بأوصافه الخاصة به (فينبغي أن يُقتدَىٰ به ويُتقرَّب إليه، ولم يُبعَث رسول الله ﷺ إلا ليتمِّم محاسنَ الأخلاق، كما قال ﷺ) فيما رواه مالك في الموطأ بلاغًا: «إنما بُعِثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق». وقد رُوي موصولاً من حديث أبي هريرة بلفظ «صالح الأخلاق»، رواه البخاري في الأدب والحاكم والبيهقي، وعند الطبراني في الأوسط من حديث جابر: «إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأعمال». وقد تقدم الكلام عليه في آداب الصحبة[1] (وقد أشار القرآن إلىٰ هذه الأخلاق في) جملة (أوصاف المؤمنين فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥] فالإيمان بالله ورسوله من غير ارتياب) ولا تلعثُم (هو قوة اليقين، وهو ثمرة العقل ومنتهَىٰ الحكمة، والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلىٰ ضبط قوة الشهوة، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلىٰ استعمال قوة الغضب علىٰ شرط العقل وحدِّ الاعتدال) فقد جمعت هذه الآية أمَّهات الأخلاق الأربعة (وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ الصحابة) رضوان الله عليهم (فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] إشارة إلىٰ أن للشدة موضعًا وللرحمة موضعًا، وليس الكمال في الشدة بكل حال، ولا في الرحمة بكل حال) بل في استعمال كل وصف بما يليق به من الحال.

(فهذا بيان معنىٰ الخلق وحسنه وقبحه، وبيان أركانه وثمراته وفروعه) المتشعِّبة منه. والله الموفِّق.

---

(١) هو عند الحاكم في المستدرك بلفظ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقال: علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة

اعلمْ أن بعض مَن غلبت البطالةُ عليه) ربما (استثقل المجاهدةَ والرياضة والاشتغال بتزكية النفس) وتطهيرها (وتهذيب الأخلاق، ولم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دِخلته) بكسر الدال، أي باطن أمره (فزعم) فيما قرَّره (أن الأخلاق لا يُتصوَّر تغييرها) عمَّا جُبل عليها إنْ خيرًا وإن شرًّا (وأن الطباع) غرائز (لا تتغير، واستدلَّ فيه بأمرين، أحدهما: أن الخُلق) بالضم (هو صورة الباطن، كما أن الخَلق) بالفتح (هو صورة الظاهر، والخِلقة الظاهرة لا يُقدَر علىٰ تغييرها) عمَّا هي عليه (فالطويل لا يمكنه أن يجعل نفسه قصيرًا، ولا القصير يقدر علىٰ أن يجعل نفسه طويلاً، ولا القبيح) الصورة (يقدر علىٰ تحسين صورته، وكذلك القبح الباطن يجري هذا المَجرىٰ) وربما تعلَّقوا بقوله ﷺ: «مَن آتاه الله وجهًا حسنًا وخُلقًا حسنًا فليشكر الله تعالىٰ». نقله الراغب في الذريعة[1]. والذي عند البيهقي[2] وابن عساكر[3] من حديث ابن عباس: «مَن آتاه الله وجهًا حسنًا واسمًا حسنًا وجعله في موضع غير شائن له فهو من صفوة الله من خلقه». وبما رواه الطبراني في الأوسط[4] من حديث ابن مسعود: «فُرغ إلىٰ ابن آدم من أربع: الخَلق والخُلق والرزق والأجل». ورواه أيضًا ابن عساكر[5] من حديث أنس بلفظ: «فرغ الله من أربع ...». قالوا: ومُحال أن يقدر المخلوق علىٰ تغيير فعل الخالق، وربما تعلقوا بقول الشاعر:

---

(١) الذريعة ص ٥١.

(٢) شعب الإيمان ٥/ ١٧٧.

(٣) تاريخ دمشق ٣١/ ٧١، ٤٨/ ٣٦٢، ٥٢/ ١٧٨.

(٤) المعجم الأوسط ٧/ ٢٢٠.

(٥) تاريخ دمشق ٢٣/ ٢٠٧.

وما هذه الأخلاق إلا غرائز فمنهنَّ محمود ومنها مذمَّم
ولن يستطيع الدهر تغييرَ خلقه بنصح ولا يستطيعه متكرم[(١)]

(والثاني: أنهم قالوا: حسن الخلق بقمع الغضب والشهوة، وقد جرَّبنا ذلك بطول المجاهدة، وعرفنا أن ذلك من مقتضَىٰ المزاج والطبع، وأنه قط لا ينقطع من الآدمي) بحال (فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة، فإنَّ المطلوب هو قطع التفات القلب إلىٰ الحظوظ العاجلة) واللذَّات الحاضرة (وذلك مُحالٌ وجودُه، فنقول) لهذا الزاعم: (لو كانت الأخلاق لا تقبل التغييرَ) كما تقول (لبطلت) فائدةُ (الوصايا والمواعظ والتأديبات) والوعد والوعيد، والأمر والنهي، ولَما جوَّز العقلُ أن يقال للعبد: لِمَ فعلتَ؟ ولِمَ تركتَ؟ (و) لو لم يكن كذلك (لَما قال رسول الله ﷺ: حسِّنوا أخلاقَكم) فلو لم يمكن لَما أمر بتحسين الأخلاق. قال العراقي[(٢)]: رواه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق[(٣)] من حديث معاذ: «يا معاذ، حسِّنْ خلقك للناس». منقطع، ورجاله ثقات.

قلت: وروىٰ أحمد من حديثه: «يا معاذ، أَتْبِع السيئة الحسنة تمحها، وخالِق الناسَ بخلق حسن». وقد تقدم قريبًا.

(وكيف يُنكَر هذا في حق الآدمي)؟ أم كيف يمتنع؟ (وتغيير خلق البهيمة ممكن) مشاهَد (إذ يُنقَل الصيد) كالأسد والفهد والنمر والذئب (من التوحُّش إلىٰ الأنس) بالعادة (والكلب من شَره الأكل إلىٰ التأدُّب والإمساك) بالتعليم (والتخلية، والفرس من الجماح إلىٰ السلاسة والانقياد) بالترويض (وكل ذلك تغيير للأخلاق)

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذين البيتين.

(٢) المغني ٢/ ٧٤٠.

(٣) وكذلك مالك في الموطأ ٢/ ٩٠٢ والبيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٣٨٤ أن معاذا قال: آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ حين وضعت رجلي في الغرز أن قال: «أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل».

بلا شكٍّ (**والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلىٰ ما لا مَدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله كالسماء**) والأرض (**والكواكب، بل أعضاء البدن داخلاً وخارجًا وسائر أجزاء الحيوانات، وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله وإلىٰ ما وُجد وجودًا ناقصًا وجُعلت فيه قوة قبول الكمال بعد أن وُجد شرطه، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد**) وحاصل هذه العبارة أن[1] الله تعالىٰ خلق الأشياء علىٰ ضربين، أحدهما: بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملاً كالسماء والأرض، والثاني: خلقه خلقة ما وجعل فيه قوة، ورشَّح الإنسانَ لإكماله وتغيير حاله، وإن لم يرشِّحه لتغيير ذاته، كالنواة التي [جُعلت] فيها قوة النخل (**فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل، إلا أنها خُلقت خلقةً يمكن أن تصير**) بعون الله تعالىٰ (**نخلاً إن انضافت إليها التربية**) ويمكن أن يفسدها إفسادًا (**ولا تصير تفاحًا أصلاً ولا بالتربية**) لأنه ليس فيها قوة التفاح (**فإذا صارت النواة متأثِّرة بالاختيار حتىٰ تقبل بعضَ الأحوال دون بعض فكذلك**) خلق الإنسان يجري هذا المَجرىٰ في أنه لا سبيل للإنسان إلىٰ تغيير القوة التي هي السجيَّة، وجعل له سبيلاً إلىٰ إسلاسها، ألا ترىٰ (**الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتىٰ لا يبقىٰ لهما أثرٌ لم نقدر عليه أصلاً، ولو أردنا إسلاسهما وقَوْدَهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه، وقد أُمِرنا بذلك**) ووُعدنا بالأجر عليه (**وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلىٰ الله تعالىٰ**) ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩ - ١٠] (**نعم، الجِبِلاَّت مختلفة، فبعضها سريعة القبول، وبعضها بطيئة القبول**) وبعضها في الوسط، وكلٌّ لا ينفكُّ من أثر قبولٍ وإن قلَّ. قال الراغب: وأرىٰ أن مَن منع من تغيير الخلق فإنه اعتبر القوة نفسها، وهذا صحيح، فإنَّ النوىٰ مُحال أن يُنبِت منه الإنسانُ تفاحًا، ومَن أجاز تغييرَه فإنه اعتبر [إمكان] إخراج ما في القوة إلىٰ الوجود، وإفساده بإهماله نحو النوىٰ فإنه يمكن

---

(١) الذريعة ص ٥١ - ٥٢.

أن يُتفقَّد فيُجعل نخلاً، وأن يُترَك مهمَلاً حتىٰ يتعفَّن [ويفسد] وهذا صحيح أيضًا، فاختلافهما بسبب اختلاف نظريهما. والله أعلم.

ثم ذكر المصنف أسباب اختلاف الجِبِلاَّت فقال: (**ولاختلافها سببان، أحدهما: قوة الغريزة في أصل الجِبِلَّة وامتداد مدة الوجود، فإنَّ قوة الشهوة والغضب والتفكُّر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمرًا وأعصاها علىٰ التغيير قوة الشهوة، فإنها أقدم القوىٰ**) الشهوية (**وجودًا**) في الإنسان، وأشدُّها به تشبُّثًا، وأكثرها منه تمكُّنًا (**إذ الصبي في مبدأ الفطرة تُخلَق له الشهوة**) وتولَد معه، بل وفي الحيوان الذي هو جنسه، بل في النبات الذي هو جنس جنسه (**ثم بعد سبع سنين ربما يُخلَق له الغضب**) أي قوَّته (**وبعد ذلك**) آخِرًا (**تُخلَق له قوة**) الفكر والنطق و(**التمييز. والسبب الثاني: أن الخلق قد يتأكَّد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له**) والانقياد إليه (**وباعتقاد كونه حسنًا ومرضيًا، والناس فيه علىٰ أربع مراتب**):

المرتبة (**الأولىٰ: هو الإنسان الغُفْل**) بضم الغين وسكون الفاء (**الذي لا يميز بين الحق والباطل**) من الاعتقادات (**والجميل والقبيح**) من الأفعال (**بل بقي كما فُطر عليه**) أي جُبل عليه (**خاليًا عن جميع الاعتقادات**) الصحيحة والفاسدة كالأعراب وأهل السواد (**ولم تستتمَّ أيضًا شهوته باتِّباع اللذَّات، فهذا**) الذي وصفُه ما ذُكر (**سريع القبول للعلاج جدًّا، فلا يحتاج**) في مزاولته (**إلا إلىٰ معلِّم مرشد**) كامل يهديه إلىٰ طريق الخير فيهتدي سريعًا، ومن هنا قال القطب الشعراوي: لقد أرشدت كذا وكذا من أهل السواد إلىٰ الله تعالىٰ فوصلوا، واجتهدت في إرشاد من يهتمُّ بطلب العلم فلم ينجع إلا في اثنين أو ثلاثة، وما ذاك إلا لأن لوح قلوب أولئك لم ينتقش فيه شيءٌ من الاعتقادات فقبلوه سريعًا، وهؤلاء قد نُقش في لوح قلوبهم بعض الاعتقادات فلم يسرعوا للقبول (**وإلىٰ باعث من نفسه يحمله علىٰ المجاهدة فيحسُن خلقُه في أقرب زمان**).

المرتبة (الثانية: أن يكون قد عرف قبح القبيح لكنه لم يتعوَّد العملَ الصالح بل زُيِّنَ له سوء عمله فتعاطاه) وتناوله (انقيادًا لشهوته وإعراضًا عن صواب رأيه؛ لاستيلاء الشهوة عليه) فأعمتْ بصيرتَه (ولكن علم تقصيرَه في عمله، فأمرُه أصعب من الأول؛ إذ قد تضاعفت الوظيفةُ عليه؛ إذ عليه أولاً (قلعُ ما رسخ في نفسه من التعوُّد للفساد) وذلك يستدعي مجاهدةً لصعوبة القلع (والآخَر: أن يغرس في نفسه صفةَ التعوُّد للصلاح) وهذا بأدنىٰ مزاولة (ولكنه في الجملة محلٌّ قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وحزم وتشمُّر) وساعدته مع ذلك العنايةُ الإلهية.

المرتبة (الثالثة: أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسَنة وأنها حق وجميل وتربَّىٰ علىٰ ذلك) ولم يدخل عليه ما يخالفه إلىٰ أن كبر عليه ورسخ اعتقادُه ذلك في نفسه رسوخًا تامًّا (فهذا تكاد تمتنع معالجته) ويعسُر برؤه (ولا يُرجَىٰ صلاحه إلا علىٰ الندور) والقلة (وذلك لتضاعُف أسباب الضلال) وهؤلاء كأهل البدع والضلالات من المعتزلة والروافض، فإنهم استحسنوا ما تلقَّفوه من آبائهم وشيوخهم من تقرير الاعتقادات الفاسدة، فرسخت في قلوبهم من حين نشئهم إلىٰ أن كبروا عليها، فلو تُليت عليهم أساطير الأولين ببراهين واضحة لم تكدْ طباعُهم تميل إلىٰ سماعها، وقد استحوذ الشيطان عليهم وحسَّنَ لهم ما اعتقدوه، فلم ينجع فيهم طريق الإرشاد، وأبطأت غرائزهم عن القبول.

المرتبة (الرابعة: أن يكون مع وقوع نشئه علىٰ الرأي الفاسد وتربيته علىٰ العمل به يرىٰ الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويتباهَىٰ به) بين أقرانه (ويظن أن ذلك يرفع من قدره) ويعلي من شأنه (وهذا هو أصعب المراتب) الأربعة (وفي مثله قيل: ومن العناء رياضة الهَرِم، ومن التعذيب تهذيب الذِّيب) إذ هو مجبول علىٰ الشر والفساد، فتهذيب أخلاقه بالإصلاح تعذيب نفس وتضييع وقت بلا فائدة، وقالوا في ذلك:

إذا كان الطبـاع طِبـاع سـوء   فليس بنافـع فيـه الأديـبُ[١]

(**والأول من هؤلاء جاهل فقط، والثاني جاهل وضالٌّ**) فقط، وهما يرشَدان، سواء كان المرشد شيخًا أو باعثًا من نفسه (**والثالث جاهل وضالٌّ وفاسق، والرابع جاهل وضال وفاسق وشرِّير**) وهما لا يقبلان الإرشادَ. واعلم أن[٢] كمال الإنسان في الفضيلة بأربع درجات، اثنتين في الاعتقاد وهما أن يعتقد الجميلَ ويجعل اعتقاده عن براهين واضحة وأدلَّة قاطعة لا عن شبهات واهية وإقناعات متداعية. واثنتين في الفعل وهما أن يترك العادات السيئة فيجعلها بحيث يبغضها فيتجنَّب الرذيلة ليتوصل إلىٰ الفضيلة، وأن يتعوَّد العادات الحسنة فيجعلها بحيث يؤثرها ويتنعَّم بها. وكما أنه يكمُل بأربع درجات فإنه ينتكس بأربع درجات، درجتين في الاعتقاد وهما أن لا يعتقد [شيئًا] من العلوم الحَقِّية فيبقىٰ عنها غُفْلاً، وأن يعتقد عن تقليد اعتقادًا فاسدًا فيتلطَّخ به. ودرجتين في العمل وهما أن لا يتعوَّد العادةَ الجميلة رأسًا، وأن يتعوَّد العادةَ القبيحة.

(**وأما الخيال الآخَر الذي استدلُّوا به وهو قولهم: إن الآدمي ما دام حيًّا فلا ينقلع عنه الغضب والشهوة وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط**) منشؤه التخيُّل الفاسد، وقد (**وقع**) ذلك (**لطائفة**) من المتَّسمين بالعلم (**ظنوا أن المقصود**

---

(١) هذا البيت قاله بعض الأعراب حين آوىٰ ذئبا صغيرا في خيمته وغذاه، فلما شب الذئب عدا علىٰ شاة الأعرابي فافترسها. وروىٰ البيهقي في الشعب ١٣/ ٣٤٩ عن الأصمعي قال: دخلت البادية، فإذا أنا بعجوز، وبين يديها شاة مقتولة وجرو ذئب مقفىٰ، فنظرت إليها، فقالت: أو يعجبك هذا؟ قلت: بلىٰ، فما قصتك؟ قالت: اعلم أن هذا جرو ذئب قد أخذناه فأدخلناه بيتنا، فلما كبر قتل شاتنا. فقلت: أو قلتِ في ذلك شعرا؟ قالت: بلىٰ. ثم أنشأت تقول:

بقـرت شـويهة وفجعـت قومـا   وأنـت لشـاتنا أم ربيـب
غذيـت بدرهـا ورُبيـت فينـا   فمـن أنبـأك أن أبـاك ذيـب
إذا كان الطبـاع طبـاع سـوء   فليس بنافـع أدب الأديـب

(٢) الذريعة ص ٥٤ – ٥٥.

من **المجاهدة**) النفسية (**قمعُ هذه الصفات بالكلِّية ومحوها**) وأن[١] الإنسان لا يصير خارجًا عن جملة البهائم وأسر الهوىٰ إلا بإماتتها وإلا ضرَّته وغرَّته وصرفته عن طريق الخير[٢]. وهذا لا بأس به (و) لكن (**هيهات! فإن الشهوة خُلقت لفائدة، وهي ضرورية في الجِبِلَّة**) ولحكمة اقتضت أن يُبلَىٰ بها الإنسان (**ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان**) بيان ذلك: أن الشهوة لو تُصُوِّرت مرتفعةً لم يمكن الوصول إلىٰ الآخرة، وذلك أن الوصول إلىٰ الآخرة بالعبادة، ولا سبيل إلىٰ العبادة إلا بالحياة الدنيوية، ولا سبيل إلىٰ الحياة الدنيوية إلا بحفظ البدن، ولا سبيل إلىٰ حفظه إلا بإعادة ما يتحلَّل منه، ولا يمكن إعادة ذلك إلا بتناول الأغذية، ولا يمكن تناول الأغذية إلا بالشهوة، فإذًا الشهوة محتاج إليها، مرغوب فيها، وتقتضي الحكمةُ الإلهية إيجادَها وتزيينها، كما قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٤] ثم من تناول الأغذية بالشهوة تصدر شهوةُ الوقاع (**ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل**) ولا يمكن الوقاع بلا شهوة، فإذًا الشهوة مرغوب فيها لأجل ذلك أيضًا (**ولو انعدم الغضب بالكلِّية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه**) ويستبيح حريمَه (**ولهلك**) لكن مثلها كمثل عدوٍّ تُخشَىٰ مَضَرَّته من وجه وتُرجَىٰ منفعته من وجه، ومع عداوته لا يُستغنَىٰ عن الاستعانة به، فحق العاقل أن يأخذ نفعه، ولا يسكن إليه ولا يعتمد عليه إلا بقدر ما ينتفع به، وما أصدق في ذلك قول المتنبِّي إذا تصور في وصف الشهوة وإن قصدها فما أجود ما أرادها:

ومن نكد الدنيا علىٰ الحُرِّ أن يرىٰ ... عدوًّا له ما من صداقته بُدُّ[٣]

وأيضًا، فهذه الشهوة هي المشوِّقة لجميع الناس إلىٰ لذَّات الجنة؛ إذ ليس

---

(١) السابق ص ٥٢ - ٥٣.

(٢) في الذريعة: الآخرة.

(٣) البيت في ديوان المتنبي ص ١٩٨.

كل الناس يعرف اللذَّات المعقولة، ولو توهَّمناها مرتفعة لَما تشوَّقوا إلىٰ ما وُعدوا به من قول النبي ﷺ: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر» (ومهما بقي أصل الشهوة فيبقىٰ لا محالة حبُّ المال الذي يوصله إلىٰ الشهوة حتىٰ يحمله ذلك علىٰ إمساك المال، وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية، بل المطلوب ردُّها إلىٰ) مرتبة (الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط) وهو خير الأمور وأعدلُها (والمطلوب في صفة الغضب حسن الحَمِيَّة، وذلك بأن يخلو عن التهوُّر وعن الجبن جميعًا) وهما الطرفان الرذيلان (وبالجملة أن يكون في نفسه قويًّا، ومع قوته يكون منقادًا للعقل) فلا يُقدِم علىٰ شيء يخالف العقل (ولذلك قال الله تعالىٰ) في صفة الصحابة: (﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾) [الفتح: ٢٩] فإنه (وصفهم بالشدة، وإنما تصدر الشدةُ عن الغضب، ولو بطل الغضب) عدمت الشدةُ الثابتة بنص القرآن، وفي انعدامها انعدامُ الغضب، ولو بطل الغضبُ (لامتنع جهاد الكفار) المأمور به (وكيف يُقصَد قلع الغضب والشهوة بالكلية والأنبياء عليهم السلام) مع عصمتهم (لم ينفكُّوا عن ذلك؛ إذ قال رسول الله ﷺ: إنما أنا بشر، أغضب كما يغضب البشر) قال العراقي[1]: رواه مسلم[2] من حديث أنس، وله من حديث أبي هريرة: «إنما محمد بشر، يغضب كما يغضب البشر».

(وكان ﷺ يُتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتىٰ تحمرَّ وَجْنتاه، ولكن لا يقول إلا حقًّا، فكان الغضب لا يخرجه عن الحق) قال العراقي[3]: رواه الشيخان[4] من حديث عبد الله بن الزبير في قصة شراج الحَرَّة: فقال: آنْ كان ابن عمَّتك؟! فتلوَّن وجهُ رسول الله ﷺ. ولهما من حديث أبي سعيد الخدري: وكان إذا كره

---

(١) المغني ٢/ ٧٤٠.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٢٠٥ - ١٢٠٦.

(٣) المغني ٢/ ٧٤٠.

(٤) صحيح البخاري ٢/ ١٦٤ - ١٦٥، ٢٧١، ٣/ ٢١٨. صحيح مسلم ٢/ ١١٠٦. وحديث أبي سعيد وحديث عائشة تقدما في كتاب أخلاق النبوة.

شيئًا عرفناه في وجهه. ولهما من حديث عائشة: ما انتقم رسول الله لنفسه إلا أن تُنتهَك حرمة الله. ولمسلم: وما نِيلَ منه شيء [قط] فينتقم من صاحبه ... الحديث **(وقال تعالىٰ:** ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] **ولم يقل: والفاقدين الغيظ)** والكظم: ستر الغيظ **(فردُّ الشهوةَ والغضب إلىٰ حدِّ الاعتدال بحيث لا يقهر واحدٌ منهما العقلَ ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكنٌ)** متيسِّر **(وهو المراد بتغيير الخلق، فإنه ربما تستولي الشهوة علىٰ الإنسان بحيث لا يقوَىٰ عقلُه علىٰ دفعها من الانبساط إلىٰ الفواحش، وبالرياضة تعود إلىٰ حدِّ الاعتدال، فدلَّ أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل علىٰ ذلك دلالة بيِّنة لا شك معها. والذي يدل علىٰ أن المطلوب هو[1] الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خُلقٌ مطلوب[2] شرعًا، وهو وسط بين طرفَي التبذير والتقتير، وقد أثنىٰ الله تعالىٰ عليه فقال:** ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ ﴾**)** أي[3] لم يجاوزوا حدَّ الكرم **(**﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾**)** أي ولم يضيِّقوا تضييق الشحيح، وقيل: الإسراف هو الإنفاق في المحارم، والتقتير: منعُ الواجب **(**﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ ﴾**)** [الفرقان: ٦٧] أي وسطًا وعدلاً، سُمِّي به لاستقامة الطرفين، كما سُمِّي سواء لاستوائهما.

(وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾**)** تمثيلان[4] لمنع الشحيح وإسراف المبذِّر، نهىٰ عنهما آمرًا بالاقتصاد بينهما الذي هو الكرم ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩ ﴾ [الإسراء: ٢٩] أي فتصير ملومًا عند الله وعند الناس بالإسراف وسوء التدبير، و«محسورًا» أي نادمًا، أو منقطعًا بك لا شيء عندك.

(وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشَّرَه والخمود، قال

---

(١) زيادة من ط الشعب ٨/ ١٤٤٢.

(٢) في ط الشعب: محمود.

(٣) أنوار التنزيل للبيضاوي ٤/ ١٣٠.

(٤) السابق ٣/ ٢٥٣.

تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ [الأعراف: ٣١] **وقال في الغضب:** ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال رسول الله ﷺ: خير الأمور أوسطها) قال العراقي[١]: رواه البيهقي في شعب الإيمان[٢] من رواية مطرف بن عبد الله معضلاً، ورواه الحافظ أبو بكر محمد بن علي بن ياسر الجياني في الأربعين العلوية من طريق أهل البيت من حديث عليٍّ، ولا يصح.

قلت: ورواه[٣] ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد بسند مجهول عن علي مرفوعًا. وهو عند ابن جرير في التفسير[٤] من قول مطرِّف بن عبد الله ويزيد ابن مُرَّة الجُعْفي. وللديلمي[٥] بلا سند عن ابن عباس مرفوعًا: «خير الأعمال أوسطها»، في حديث أوله: «دوموا علىٰ أداء الفرائض». وللعسكري من طريق معاوية بن صالح عن الأوزاعي قال: ما من أمرٍ أمرَ اللهُ به إلا عارض الشيطانُ فيه بخصلتين لا يبالي أيَّهما أصاب: الغلو أو التقصير. ولأبي يعلىٰ[٦] بسند رجاله ثقات عن وهب بن منبه قال: إن لكل شيء طرفين ووسطًا، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخَرُ، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوساط من الأشياء. وأنشد بعضهم:

عليك بأوساط الأمور فإنها ... نجاةٌ ولا تركب ذلولاً ولا صعبا[٧]

وأنشدنا شيخنا المرحوم أبو الحسن علي بن موسىٰ الحسيني لبعضهم:

---

(١) المغني ٢/ ٧٤٠.

(٢) شعب الإيمان ٨/ ٥١٩ موقوفا علىٰ مطرف، غير مرفوع.

(٣) المقاصد الحسنة ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٤) جامع البيان ١٧/ ٥٠٠.

(٥) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٢١٢.

(٦) مسند أبي يعلىٰ ١٠/ ٥٠١.

(٧) تقدم هذا البيت والذي بعده في كتاب آداب الصحبة.

حب التَّناهي غلط خير الأمور الوسط

(وهذا له سر وتحقيق، وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالَم، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾) [الشعراء: ٨٩] أي من الغش والكدر والنفاق، أو من العوارض (والبخل من عوارض الدنيا، والجود أيضًا من عوارض الدنيا، وشرط القلب أن يكون سليمًا منهما، أي لا يكون ملتفتًا إلىٰ المال ولا يكون حريصًا علىٰ إمساكه، ولا حريصًا علىٰ إنفاقه، فإنَّ الحريص علىٰ الإنفاق مصروف القلب إلىٰ الإنفاق، كما أن الحريص علىٰ الإمساك مصروف القلب إليه، فكان كمال القلب في أن يصفو عن الوصفين جميعًا) فإنَّ كِلا الوصفين مَرضاة للشيطان، تنشأ عنهما الغفلةُ، وإذا صفا القلب كذلك صار محلاًّ للمعرفة وتنزُّل أنوار التوحيد (وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه بعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط، فإن الفاتر) ذكروا في حدِّه أنه (لا حار ولا بارد، بل هو وسط بينهما، فكأنه خالٍ عن الوصفين، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير، والشجاعة بين الجبن والتهوُّر، والعفة بين الشَّره والخمود، وكذلك سائر الأخلاق، فكِلا طرفَي قصد الأمور ذميم، فهذا هو المطلوب، وهو ممكن) جدًّا (نعم، يجب علىٰ الشيخ المرشد للمريد) السالك علىٰ يديه (أن يقبِّحَ عنده الغضبَ رأسًا ويذمَّ إمساكَ المالِ رأسًا، ولا يرخِّص له في شيء من ذلك) ولا يريه طريقَ الاعتدال في ذلك (لأنه لو رخَّص له في أدنىٰ شيء منه اتخذ ذلك عذرًا في استبقاء بخله وغضبه، وظن أنه القدْر المرخَّص فيه، وإذا قصد قلع الأصل وبالغ فيه ولم يتيسَّر له إلا كسر سَوْرته) وقمع قوَّته (بحيث يعود إلىٰ الاعتدال فالصواب له أن) لا يرخص له في شيء من ذلك رأسًا، بل (يطلب قلع الأصل حتىٰ يتيسَّر له القدر المقصود، فلا يكشف هذا السر للمريد، فإنه موضع غرور الحمقىٰ؛ إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق) فيفتر بذلك فيقع في النقصان. والله الموفِّق.

بيان السبب الذي به يُنال حسن الخلق على الجملة

(قد عرفتَ أن حسن الخلق يرجع إلىٰ اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة، وإلىٰ اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها مطيعة للعقل والشرع أيضًا، وهذا الاعتدال) في هذه القوىٰ (يحصل علىٰ وجهين) أراد المصنف بهذه الجملة بيان[1] سبب اختلاف الناس في أخلاقهم، وأن الفضائل النفسية إما نظري أو عملي، وكلٌّ منهما يحصل علىٰ وجهين (أحدهما: بجود إلهيٍّ) وفيض ربانيٍّ (وكمال فطري بحيث يُخلَق الإنسان ويولَد كامل العقل، حسن الخلق، قد كُفي سلطان الشهوة والغضب، بل خُلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع، فيصير بغير معلِّم) من البشر (عالمًا، وبغير مؤدِّب أديبًا) كاملاً، وذلك (كعيسىٰ ابن مريم ويحيىٰ بن زكريا عليهما السلام، وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين) الذين حصل لهم من المعارف من غير ممارسة ما لم يحصل للحكماء، ونقل الراغب عن بعض الحكماء قال: إن ذلك قد يحصل لغير الأنبياء أيضًا في الفينة بعد الفينة (ولا يبعُد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد يُنال بالاكتساب، فرُب صبي يُخلَق صادق اللهجة سخيًّا جريئًا) أي شجاعًا (وربما يُخلَق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالتعوُّد) والتدرُّب (ومخالطة المتخلِّقين بهذه الأخلاق، وربما يحصل بالتعلُّم) وبالعادة، فمَن صار فاضلاً طبعًا وعادةً وتعلُّمًا فهو كامل الفضيلة، ومن كان رذلاً شكثًا بثلاثتها فهو كامل الرذيلة، وما كان بالتعلُّم فيُحتاج فيه إلىٰ زمان وتدرُّب وممارسة ويتقوَّىٰ الإنسان فيه درجة فدرجة، وذلك بحسب اختلاف الطِّباع في الذكاء والبلادة (والوجه الثاني: اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة، وأعني بها حمل

(١) الذريعة ص ٥٧ – ٥٨.

النفس علىٰ الأعمال التي يقتضيها الفعلُ المطلوب) أي[١] حق الإنسان في كل فضيلة أن يكتسبها خلقًا، ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدَّة لذلك، سواء أمكنه أن يبرز ذلك فعلاً أم لم يمكنه **(فمَن أراد مثلاً أن يحصِّل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلَّف تعاطي فعل الجواد وهو بذلُ المال)** وإن لم يكن ذا مال **(فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلُّفًا مجاهدًا لنفسه فيه حتىٰ يصير ذلك طبعًا له ويتيسَّر عليه فيصير به جوادًا)** وقد قيل لبعض الحكماء: هل من جود يُعَمُّ به الوَرَىٰ؟ قال: نعم، أن تحسِّن خلقك، وتنوي الخير لكل واحد. وسبق حديث «إنكم لن تسَعوا الناسَ بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم». وكذا مَن أراد أن يحصِّل لنفسه خلق الشجاعة والحكمة والعدل فليكن علىٰ هيئة الشجعان والحكماء والعدول وإن لم يعرض له مقام تظهر فيه نجدته، ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز فيها عدالته **(وكذا مَن أراد أن يحصِّل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه التكبُّر فطريقه أن يواظب علىٰ أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه)** وهواه **(ومتكلِّف إلىٰ أن يصير ذلك خلقًا له وطبعًا فيتيسَّر عليه)** ويسهُل **(وجميع الأخلاق المحمودة شرعًا تحصل بهذا الطريق، وغايتها)** وكمالها **(أن يصير الفعل الصادر منه لذيذًا)** ويستطيبه وإن كان ثقيلاً **(فالسخيُّ هو الذي يستلذُّ بذل المال الذي يبذله)** علىٰ وجوهه **(دون الذي يبذله عن كراهة)** نفس **(والمتواضع هو الذي يستلذُّ التواضع. ولن تترسَّخ الأخلاق الدينية في النفس)** ترسُّخًا كاملاً **(ما لم يتعوَّد جميعَ العادات الحسنة وما لم يترك جميع العادات السيئة وما لم يواظب عليها مواظبة من يشتاق)** معها **(إلىٰ الأفعال الجميلة ويتنعَّم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألَّم بها)** قد تقدَّم أن الإنسان يكمُل في الفضيلة بأربع درجات، اثنتين في الاعتقاد واثنتين في الفعل، فاللتان في الفعل هما أن يترك العادات السيئة فيجعلها بحيث يبغضها فيتجنَّب الرذيلة ليتوصَّل إلىٰ الفضيلة، وأن يتعوَّد العادات الحسنة فيجعلها بحيث يؤثرها ويتنعَّم بها **(كما قال**

---

(١) السابق ص ٥٨ - ٥٩.

ﷺ): حُبِّب إليَّ النساء والطِّيب (**وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة**) هكذا رواه الطبراني في الأوسط وفي الصغير من حديث أنس، ورواه الخطيب في التاريخ مقتصرًا علىٰ الجملة الأخيرة، وهو عند النسائي بهذا اللفظ وبلفظ «وجُعل»، وقد رواه كذلك أحمد وأبو يعلىٰ وأبو عوانة والبيهقي، كما تقدَّم ذلك مفصَّلاً[1].

(**ومهما كانت العبادات وتركُ المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان، ولا يُنال كمال السعادة به**) وبيان ذلك: أن كل فعل يُحتاج فيه إلىٰ إيجاده وتجويده وتزيينه دنيويًّا كان أو أخرويًّا، لكن متىٰ كان أخرويًّا يحتاج فيه مع ذلك إلىٰ أمور لا يتم ولا يكمُل إلا بها، وهي أنه يجب أن يتعاطاه قصدًا إلىٰ المكرمة، وأن يتحرَّاه بخلوص الطَّوية، وأن لا يقصد به جلب منفعة دنيوية أو دفع مَضَرَّة، فإنه يكون بفعله ذلك تاجرًا، ويجب عند بعض المحقِّقين أن لا يطلب به منفعة أخروية أيضًا، فقد قيل: مَن عبد اللهَ بعوض فهو لئيم، ومَن فعل ذلك بانشراح صدر فهو أَولىٰ ممَّن يفعله بمجاهدة نفس واستكراه (**نعم، المواظبة عليه بالمجاهدة خير ولكن بالإضافة إلىٰ تركه لا بالإضافة إلىٰ فعله عن طوع**) وانشراح صدر (**ولذا قال تعالىٰ**): ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ أي[2] بالصوم الذي هو صبر عن المفطرات؛ لِما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس، وبالصلاة فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية (﴿وَإِنَّهَا﴾) أي الاستعانة بهما أو الصلاة، وتخصيصها بردِّ الضمير إليها تعظيمًا لشأنها (﴿لَكَبِيرَةٌ﴾) أي لَثقيلة شاقَّة (﴿إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾) [البقرة: ٤٥] أي المخبتين، وإنما لم تثقل عليهم ثقلها علىٰ غيرهم فإن نفوسهم مرتاضة مرتضاة بأمثالها، متوقِّعة في مقابلتها ما تُستحقَر لأجله مَشاقُّها وتُستلَذُّ بسببه متاعبها.

(**وقال** ﷺ: **اعبد الله في الرضا**) وفي لفظ: «إن استطعت أن تعمل لله في الرضا باليقين فاعمل» (**فإن لم تستطع ففي الصبر علىٰ ما تكره خيرٌ كثير**) عزاه العراقي[3]

---

(١) في كتاب النكاح.

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي ١/ ٧٧ – ٧٨.

(٣) المغني ٢/ ٧٤١.

إلىٰ المعجم الكبير للطبراني، ولم يذكر صحابيًّا[١].

وقولهم «الحق مرٌّ» فهو باعتبار من لم تتهذَّب نفسه ولم يزُل مرضه، كما قال المتنبي[٢]:

ومن يكُ ذا فم مرٍّ مريض ... يجد مرًّا به الماءَ الزُّلالا

(ثم لا يكفي في نَيل السعادة الموعودة علىٰ حسن الخلق استلذاذُ الطاعة وكراهة المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون كذلك علىٰ الدوام وفي جملة العمر، وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل) ولولا[٣] طول العمر لقلَّ حظُّ الإنسان من السعادات الدنيوية التي لولاها لَما نيلت السعادات الأخروية **(ولذلك لما سُئل رسول الله ﷺ عن السعادة)** ما هي؟ **(فقال: طول العمر في طاعة الله)** قال العراقي[٤]: رواه القُضاعي في مسند الشهاب[٥] وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس[٦] من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف. وللترمذي[٧] من حديث أبي بكرة وصحَّحه: أيُّ الناس خير؟ قال: مَن طال عمرُه وحسُن عملُه».

---

(١) هذا الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٣٥٠ - ٣٥١ والضياء في الأحاديث المختارة ١٠/ ٢٤ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣١٤، كلهم من حديث ابن عباس، ولفظ البيهقي والضياء: «واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن الصبر علىٰ ما تكره خير كثير». ولفظ أبي نعيم: بالرضا، بدل: بالشكر. وفي لفظ آخر للبيهقي في الشعب ١٢/ ٣٥٤ ولابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة ص ١٥ وهناد في الزهد ١/ ٣٠٤: «فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل، وإن لم تستطع فإن في الصبر علىٰ ما تكره خيرا كثيرا». وهو جزء من الحديث المشهور (احفظ الله يحفظك). وهو عند الطبراني في المعجم الكبير لكن بدون العبارة التي ذكرها الغزالي.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٤١.

(٣) الذريعة ص ٧٢.

(٤) المغني ٢/ ٧٤١.

(٥) مسند الشهاب ١/ ٢٠٦.

(٦) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٣٤٦.

(٧) سنن الترمذي ٤/ ١٥٧.

قلت: حديث أبي بكرة رواه كذلك أحمد[١] وابن زنجويه والطبراني[٢] والحاكم[٣] والبيهقي[٤] بزيادة[٥]: «وشر الناس مَن طال عمره وساء عملُه». وقد رُوي ذلك عن عبد الله بن بُسْر بلفظ: «خير الناس مَن طال عمره وحسُن عملُه». رواه كذلك أحمد[٦] وعبد بن حميد[٧] والترمذي[٨] - وقال: حسن غريب - والطبراني[٩] والبيهقي[١٠] والضياء[١١]. وفي لفظ له: «طوبىٰ لمَن طال عمره وحسُن عمله». رواه كذلك الطبراني[١٢]، وفيه بقية وقد عنعنه. وعن جابر بلفظ: «إن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة». رواه الحاكم[١٣]، ورواه[١٤] أيضًا بلفظ: «خياركم أطولكم أعمارًا وأحسنكم أعمالاً». وعن أبي هريرة بلفظ: «خياركم أطولكم أعمارًا وأحسنكم أخلاقًا». رواه أحمد[١٥] والبزار[١٦]. وفي معناه

(١) مسند أحمد ٣٤/ ٥٨، ٩٣، ١٢٤، ١٣١، ١٣٨، ١٤٢.

(٢) المعجم الأوسط ٥/ ٣٢٧.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٤٨٢.

(٤) السنن الكبرىٰ ٣/ ٥١٩.

(٥) هو بهذه الزيادة عند الترمذي أيضـًا (٢٣٣٠) وقال: حسن صحيح.

(٦) مسند أحمد ٢٩/ ٢٢٦، ٢٤٠.

(٧) المنتخب من مسند عبد بن حميد ١/ ٤٠٩.

(٨) سنن الترمذي ٤/ ١٥٦.

(٩) المعجم الأوسط ٢/ ١١٩.

(١٠) شعب الإيمان ٢/ ٥٧.

(١١) الأحاديث المختارة ٩/ ٤٣،٦٠، ٨٣ - ٨٥.

(١٢) ورواه بهذا اللفظ أيضا أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ١١١، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٣/ ٥١.

(١٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٦٩.

(١٤) السابق ١/ ٤٨٢.

(١٥) مسند أحمد ١٢/ ١٤٦، ١٥/ ١٢٩.

(١٦) مسند البزار ١٥/ ١٨٤.

ما رواه الديلمي[1] بسند فيه متروك من حديث أبي هريرة: «إذا أراد الله بقوم خيرًا مدَّ لهم في العمر وألهمهم الشكر».

(ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموتَ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة) أي محل حرث الآخرة، وهو لا يتم إلا بطول البقاء لحصول كثرة الأعمال، فهذا من كراهتهم للموت لا ما يسبق إلىٰ الأذهان (وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل) أي أوفر (و) كانت (النفس أزكىٰ وأطهر، و) كانت (الأخلاق أقوىٰ وأرسخ) لكثرة المواظبة بتمرينها (وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب، وإنما يتأكَّد آثارها بكثرة المواظبة علىٰ العبادات) وكثرة المواظبة عليها تستدعي صحةَ البدن التي هي المقصود الأعظم من الحياة، وصحة[2] البدن عبارة عن اعتدال القوىٰ الأربع التي هي الجاذبة والممسكة والهاضمة والدافعة في أجزاء البدن الأربعة وهي العظام والعصب واللحم والجلد. فقد ظهر بذلك أن الفضائل الأخروية محتاجة إلىٰ الفضائل النفسية، كما أن الفضائل النفسية محتاجة إلىٰ الفضائل البدنية (وغاية هذه الأخلاق) وكمالها (أن ينقطع عن النفس حبُّ الدنيا ويرسخ فيها حبُّ الله) عَزَّوَجَلَّ (فلا يكون شيء أحب إليه من الله ومن لقائه، فلا يستعمل جميع ماله إلا علىٰ الوجه الذي يوصله إليه، و) يكون (غضبه وشهوته من المسخَّرات له، فلا يستعملهما إلا علىٰ الوجه الذي يوصله إلىٰ الله تعالىٰ، وذلك بأن يكون موزونًا بميزان الشرع والعقل، ثم يكون بعد ذلك فَرِحًا به) ومبتهجًا (ومستلِذًّا) ومستطيبًا (له، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلىٰ حدٍّ تصير هي قرَّة عين) الإنسان (ومصير العبادات لذيذة) له (فإنَّ العادة تقتضي في النفس عجائبَ أعجب من ذلك، فإنَّا قد نرىٰ الملوك والمتنعِّمين) من أهل الرفاهية (في أحزان دائمة) متوالية (ونرىٰ المقامر) الذي يلعب بالقمار (المفلس) الذي ليس عنده مال

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٢٤٦.

(٢) الذريعة ص ٦٥، ٧٠.

(قد يغلب عليه من اللذَّة والفرح بقماره وما هو فيه ما يُستنكَر معه فرح الناس بغير القمار) ويُستعجَب **(مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب دارَه وتركه مفلسًا)** **لا شيء له (ومع هذا فهو يحبه ويلتذُّ به، وذلك لطول إلفه له وردِّه نفسه إليه مدةً)** حتىٰ صار ممتزجًا بلحمه ودمه. ولحبِّه له سبب آخر غير ألفته له وهو كونه يسوِّل له الشيطان طولَ أمانيه بأن يكون غالبًا علىٰ رفيقه فيسلب ماله ويخرب داره، فهو لم يزل كذلك ولم يَنَلْ من آماله شيئًا، ولولا هذه الأمنية لَما ردَّ نفسَه إليه بعد إفلاسه، فطول الألفة في خصوص القمار سبب ناقص. وأما كون أرباب النعم دائمًا في حزن فله أسباب كثيرة: إما لكِبَر هممهم، وإما لكثرة وظائفهم المتعلقة بهم، وإما خوف زوال تلك النعم عنهم، أو خوف نقص ما بأيديهم، فتتشوَّش لذلك أذهانهم، وتتشتَّت أفكارهم، فتراهم لا يقرُّ لهم قرارٌ، وكلما زادت عليهم النعم زادوا شغلاً، وطالت أمانيهم، وكثرت مساعيهم ودواعيهم **(وكذلك اللاعب بالحمام)** الذي يربَّىٰ في البيوت **(قد يقف طول نهاره في حر الشمس قائمًا علىٰ رجليه وهو لا يحس بألمها؛ لفرحه بالطيور وحركتها وطيرانها وتحليقها في جو السماء)** وغاية حظِّه أن يجلب به حمام غيره بأن يؤلفه إلىٰ مأواه ويستجلب ما ليس له **(بل ترىٰ الفاجر العَيَّار)**: الشاطر الذي يختلس أموال الناس بلطف حيلة ومكر **(يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر علىٰ)** ضرب **(السياط وعلىٰ تقديمه إلىٰ الصَّلب والشنق، وهو مع ذلك متبجِّح بنفسه وبقوته في الصبر علىٰ ذلك، فإنه**[1] **يرىٰ ذلك فخرًا لنفسه، حتىٰ يُقطَّع الواحد منهم آرابًا)** أي أعضاءً **(علىٰ أن يقرَّ بما تعاطاه أو تعاطاه غيره)** بعلم منه **(فيصر علىٰ الإنكار ولا يبالي بالعقوبات)** النازلة عليه **(فرحًا بما يعتقده كمالاً وشجاعة ورجولية، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النَّكال)** والعذاب **(قرَّة عينه وسبب افتخاره)** بين أقرانه حتىٰ يُشار إليه بالبَنان **(بل لا حالة أخس وأقبح من حالة المخنِّث)** بكسر النون المشددة، وقيل: بفتحها **(في تشبُّهه**

---

(١) في المطبوعة هي من كلام الزبيدي لا الغزالي.

بالإناث في نتف الشعر) عن وجهه (ووشم الوجه) أي تزيينه بالوشم (ومخالطة النساء) والتشبُّه بكلامهن (وترىٰ المخنث في فرح بحاله وافتخار بكماله في تخنُّثه يتباهَىٰ به مع المخنثين، حتىٰ يجري بين الحَجَّامين والكنَّاسين) والزبَّالين (التفاخرُ والمُباهاة كما يجري بين الملوك والعلماء) وغيرهم (وكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة علىٰ نمط واحد علىٰ الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك من المخالطين والمعارف، فإذا كانت النفس بالعادة تستلذُّ الباطلَ) وتستطيبه (وتميل إليه وإلىٰ القبائح فكيف لا تستلذُّ الحقَّ) وتستطيبه (لو رُدَّت إليه مدةً والتزمت(١) المواظبة عليه؟! بل ميل النفس إلىٰ هذه الأمور الشنيعة) الفاضحة (خارج عن الطبع يضاهي المَيلَ إلىٰ أكل الطين، فقد يغلب علىٰ بعض الناس ذلك بالعادة) مع كمال ضرره بالبدن (فأما ميلها إلىٰ الحكمة) وعلومها (وحب الله ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلىٰ الطعام والشراب، فهو متقضَىٰ طبع القلب، فإنه أمرٌ ربَّانيٌّ، وميله إلىٰ مقتضيات الشهوات غريب من ذاته وعارض علىٰ طبعه) بمقتضَىٰ العادة (وإنما غذاء القلب الحكمةُ والمعرفة وحب الله تعالىٰ، ولكن انصرف عن مقتضَىٰ طبعه لمرض قد حلَّ به) منعه عن ذلك الغذاء (كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب) بسقوط شهوتهما عنها (وهما سببا حياتها) وقوام بقائها. وفي نسخة: وهما سببان لحياته (فكل قلب مال إلىٰ حب شيء) من أمور الدنيا (سوىٰ) حب (الله تعالىٰ فلا ينفكُّ عن مرض) باطنيّ (بقدر ميله، إلا إذا كان أحب ذلك الشيءَ لكونه معينًا له علىٰ حب الله وعلىٰ دينه فعند ذلك لا يدل ذلك علىٰ المرض) فإنه حينئذٍ يكون من جملة أسباب الحب في الله.

(فإذًا قد عرفتَ بهذا قطعًا أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة) والمجاهَدة (وهي تكلُّف الأفعال الصادرة عنها ابتداءً لتصير طبعًا انتهاءً) أي في آخر الأمر (وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح، أعني النفس والبدن،

---

(١) ألزقت. كذا في الزبيدي وط المنهاج وهو الصواب.

فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها علىٰ الجوارح حتىٰ تتحرك لا محالة علىٰ وفقها) أي علىٰ موافقة تلك الصفة **(وكل فعل يجري علىٰ الجوارح فإنه يرتفع منه أثرٌ إلىٰ القلب)** يتأثَّر به ويُعرَف منه ذلك **(والأمر فيه دورٌ، ويُعرَف ذلك بمثال وهو أن من أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية حتىٰ يصير كاتبًا بالطبع فلا طريق له إلا أن يتعاطَىٰ بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدةً طويلة وهو حكاية الخط الحسن، فإنَّ فِعل الكاتب هو الخط الحسن، فيتشبَّه بالكاتب تكلُّفًا، ثم لا يزال يواظب عليه)** بالإدمان والتدرُّب **(حتىٰ يصير ذلك (صفة راسخة في نفسه)** متمكِّنة **(فيصدر منه بالآخرة الخط الحسن طبعًا كما كان يصدر منه في الابتداء تكلُّفًا)** بمشقَّة **(فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسنًا، ولكن الأول متكلَّف، إلا أنه ارتفع منه أثرٌ إلىٰ النفس، ثم انخفض من النفس)** أثر **(إلىٰ الجارحة، فصار يكتب الخط الحسن طبعًا)** فهذا مثال الدور الذي بين عمل القلب والجوارح **(وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس)** بمعرفة ما لها وعليها **(فلا طريق له إلا أن يتعاطَىٰ أفعال الفقهاء وهو التكرار للفقه)** بالدراسة والمطالعة **(حتىٰ تنعطف منه علىٰ قلبه صفة الفقه فيصير)** بذلك **(فقيه النفس. وكذلك من أراد أن يصير سخيًّا عفيفًا حليمًا متواضعًا فيلزمه أن يتعاطَىٰ أفعال هؤلاء تكلُّفًا)** أولاً **(حتىٰ يصير له ذلك)** بالعادة **(طبعًا، ولا علاج له إلا ذلك)** وقد ظهر بالسياق المتقدم أنه فرَّق بين الطبع والتطبُّع، والصُّنع والتصنُّع، والخُلق[١] والتخلُّق، فالتفعُّل معه اشتقال [واكتئاب] ويحتاج إلىٰ تنشيط من خارج، والفعل معه استخفاف وارتياح، ولا يحتاج إلىٰ بعث من خارج، فمَن لم يكن معه نفس الفعل حاصلاً احتاج إلىٰ تحصيله بمزاولة التعب من خارج حتىٰ يحصِّله لنفسه ويحوزه لها ليلحق بدرجة أهل الكمال، فتعاطي أفعال من يريد أن يكون مثلهم هو التشبُّه بأفعالهم وأخلاقهم، وهذا قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا، فالمحمود

---

(١) الذريعة ص ٥٦ - ٥٧. مع زيادات من الشارح.

منه ما كان علىٰ سبيل الارتياض والتدرُّب، ويتحرَّاه صاحبه سرًّا وجهرًا علىٰ الوجه الذي ينبغي وبالمقدار الذي ينبغي، وإياه قصد الشاعر [بقوله]:

* ولن تستطيع الخُلقَ حتىٰ تَخَلَّقا[١] *

بل ورد في الخبر: «إنما العلم بالتعلُّم». والمذموم منه ما كان علىٰ سبيل المُراءاة ولا يتحرَّاه صاحبه إلا حيث يقصد أن يُذكَر به، ويسمَّىٰ ذلك رياء وتصنُّعًا وتشبُّعًا، كما هو ظاهر في حال من يريد أن يكون خطه حسنًا ليقال إنه كاتب حاذق، وأن يكون فقيهًا يرجع إليه الناس في الفتيا فيحوز به الجاهَ والمال، ولن ينفكَّ مَن كان حاله كذلك من اضطراب يدل علىٰ تشبُّعه، كما في كتاب كليلة [ودمنة]: الطبع المتكلَّف كلما زدتَه تثقيفًا زادك تعقيفًا. وعلىٰ ذلك قال الشاعر[٢]:

فأسرعُ مفعولٍ فعلتَ تغيُّرًا ... تكلُّفُ شيء في طباعك ضده

وإياه قصد أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقوله: مَن تخلَّقَ للناس بغير ما فيه فضحه الله تعالىٰ. وحال المتشبِّع كالجرح يندمل علىٰ فساد فلا بد وأن ينبعث وإن كان بعد حين، قال الشاعر[٣]:

فإن الجرح ينفر بعد حين ... إذا كان البناء علىٰ فساد

(وكما أن طالب فقه النفس لا ييأس من نَيل هذه المرتبة بتعطيل ليلة) من الدراسة والمطالعة **(ولا ينالها بتكرار ليلة، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأخلاق الحسنة لا ينالها بعبادة يوم، ولا يُحرَمها بعصيان يوم، وهو معنىٰ قولنا: إن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاوةَ المؤبَّدة، ولكن العُطلة)** بالضم، اسم من التعطيل **(في يوم واحد تدعو إلىٰ مثلها ثم تتداعَىٰ قليلاً قليلاً حتىٰ تأنس**

---

(١) لم أقف علىٰ قائله.

(٢) هو المتنبي، والبيت في ديوانه ص ٤٥٣.

(٣) هو المتنبي، والبيت في ديوانه ص ٨٨.

النفسُ بالكسل حتىٰ تهجر التحصيلَ رأسًا فتفوتها فضيلةُ الفقه، فكذلك صغائر المعاصي) فإنها **(يجرُّ بعضها إلىٰ بعض حتىٰ يفوت أصل السعادة)** الذي هو الفوز بالمطلوب **(بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة)** أعاذنا الله من ذلك **(وكما أن تكرار ليلة)** واحدة **(لا يحس بأثره في تفقيه النفس)** أي جعلها فقيهة **(بل يظهر فقهُ النفس شيئًا فشيئًا علىٰ التدريج)** والترتيب **(مثل نمو البدن وارتفاع القامة)** فإنه لا يحس بهما إلا تدريجًا **(فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس بأثرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال)** وإنما يحس به فيما بعد **(ولكن لا ينبغي أن يُستهان بقليل الطاعات، فإن الجملة الكثيرة منها مؤثِّرة، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد، فلكل واحد منها تأثير)** وهكذا[1] كل متعاطٍ لفعل من الأفعال النفسية فإنه يتقوَّىٰ فيه بحسب الازدياد منه إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فباحتمال صغار الأمور يمكن احتمال كبارها، وباحتمال كبارها يستحق الحمد **(فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي، فلها لا محالة ثواب؛ لأن الثواب بإزاء الأثر، وكذا المعصية، وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا علىٰ التوالي فيسوِّف نفسه يومًا فيومًا)** يقول: سوف أقرأ بعد يوم. ثم يأتي عليه ذلك اليومُ فيؤخِّره إلىٰ يوم آخر، فهذا هو التسويف **(إلىٰ أن يخرج طبعُه عن قبول الفقه، فكذا من يستهين بصغائر المعاصي ويسوِّف نفسه بالتوبة علىٰ التوالي)** يومًا يومًا **(إلىٰ أن يختطفه الموت بغتةً)** أي فجأة **(أو تتراكم ظلمة الذنوب علىٰ قلبه)** تراكُم السحب علىٰ عين الشمس **(وتتعذَّر عليه التوبة؛ إذ القليل يدعو إلىٰ الكثير)** ويجرُّه إليه **(فيصير القلب مقيَّدًا بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها، وهو المعنيُّ)** أي المقصود المشار إليه **(بانسداد باب التوبة)** لصعوبة انفتاحه جُعل كأنه مسدود، وقيل[2] لحكيم: ألا تعظ فلانًا؟ فقال: ذلك علىٰ قلبه قفلٌ ضاع مفتاحه، فلا سبيل إلىٰ معالجة فتحِه **(وهو المراد بقوله**

(١) الذريعة ص ٥٤.

(٢) السابق ص ٥٥.

تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ ... الآية) [يس: ٩] قُرئ بفتح السين فيهما وبالضم، وقيل: بالفتح ما كان من فعل الناس، وبالضم ما كان بخلق الله. وقيل: بالفتح ما يسد البصر، وبالضم ما يسد البصيرة[١]، ويؤيِّده قولُه بعدُ: {فأغشيناهم فهم لا يبصرون} نبَّه عليه الخفاجي في تذكرته **(ولذلك قال علي كرَّم الله وجهه: إن الإيمان لَيبدو في القلب لمعة)** وفي نسخة: نكتة **(بيضاء، فكلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض، فإذا استكمل العبد الإيمانَ ابيضَّ القلب كلُّه، وإن النفاق لَيبدو في القلب نكتة سوداء، فكلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد، فإذا استكمل النفاقَ اسودَّ القلب كلُّه)**[٢] وأخرج[٣] عبد بن حميد عن مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤] قال: يعمل الذنب فيحيط بالقلب، فكلما عمل ارتفعت حتىٰ يغشىٰ القلبَ. وأخرج ابن جرير عنه قال: كانوا يرون أن القلب مثل الكف، فيذنب الذنب فينقبض منه، ثم يذنب الذنب فينقبض حتىٰ يُختَم عليه، ويسمع الخير فلا يجد له مساغا[٤]. وأخرج عبد بن حميد[٥] عن الحسن قال: الذنب علىٰ الذنب، ثم الذنب علىٰ الذنب، حتىٰ يغمر القلب فيموت.

(فإذًا قد عرفتَ أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفِطرة) الأصلية

---

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ١٥٣: «قرأ مجاهد وعكرمة والنخعي وحفص وابن كثير وأبو عمرو بفتح السين، وقرأ باقي السبعة بضمها. قال الكسائي: هما لغتان بمعنىٰ واحد، وقال الخليل وسيبويه: بالضم الاسم، وبالفتح المصدر. وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة: ما كان من خلق الله لم يشاركه فيه أحد فهو بالضم، وما كان من صنع البشر فبالفتح. وقال ابن أبي إسحاق: ما رأت عيناك فبالضم، وما لا يرىٰ فبالفتح».

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٣٩٨، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ١٤٤. وزادا: «وايم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود».

(٣) الدر المنثور ١٥/ ٣٠٠.

(٤) جامع البيان ٢٤/ ٢٠١ - ٢٠٢ مفرقا.

(٥) وكذلك أبو طاهر المخلص في المخلصيات ٢/ ٣٤٦، والطبري في جامع البيان ٢٤/ ٢٠١. وفيهما: حتىٰ يعمىٰ.

(**وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة**) تكون (**بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم**) في أكثر الأوقات (**وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح**) من أهل العلم بالله والعمل (**إذ الطبع**) السليم الساذج (**يسترق من الطبع**) المقارن له (**الشرَّ والخير جميعًا**) ومن هنا قول العامة: الطبع السليم سرَّاق. وقولهم أيضًا: مَن عاشر القومَ أربعين يومًا صار منهم (**فمَن تظاهرت في حقِّه الجهات الثلاث حتىٰ صار ذا فضيلة طبعًا واعتيادًا وتعلُّمًا**) في الدرجات الأربعة اعتقادًا وعملاً (**فهو في غاية الفضيلة**) وممَّن شرح الله صدره للإسلام فهو علىٰ نور من ربِّه (**ومَن كان رذلاً بالطبع واتفق له**) معاشرة (**الأقران السوء فتعلَّم منهم وتيسَّرت له أسباب الشر حتىٰ تعوَّدَه فهو في غاية**) الانتكاس في الدرجات الأربعة اعتقادًا وعملاً، وأورثت رذيلتُه هذه نهايةَ (**البعد من الله تعالىٰ**) فهو من الذين وصفهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٣ - ٢٤] (**وبين الرتبتين مَن اختلفت به هذه الجهات**) ولم تتظاهر عليه (**ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صفتُه وحالته** ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾) [الزلزلة: ٧ - ٨] أي يرىٰ جزاءه إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر (﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾) [النحل: ١١٨] ظلموا أنفسهم بالاعتياد علىٰ العادات القبيحة فرسخت فيها، وبمعاشرة قرناء السوء فأظلمت قلوبهم وعميت بصائرهم فصاروا أحقَّاء بالبعد عن حضرة الحق.

ثم[1] للإنسان مع كل فضيلة ورذيلة ثلاثة أحوال: إما أن يكون في ابتدائها فيقال: هو عبدها وابنها، ولذا قال بعضهم: من لم يخدم العلم لم يَرْعَه. والثاني: أن يتوسَّطها فيقال: هو أخوها وصاحبها. والثالث: أن ينتهي فيها بقدْر وسعه ويتصرَّف فيها كما أراد فيقال: هو سيدها وربُّها. وغاية الفاضل في الفضيلة أن تقع

---

(١) الذريعة ص ٥٥.

منه الفضائل أبدًا من غير فكر ولا رويَّة لغلبة قواها عليه وبُعد ما ينافيها منه، وغاية الرذل في الرذيلة أن تقع منه الرذائل لغلبة قواها عليه، ولهذا حُدَّ الخُلق بأنه: حالة للإنسان داعية إلىٰ الفعل بغير فكر ولا رويَّة. والله الموفِّق.

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

(قد عرفتَ من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له) بأن تعتدل القوىٰ الأربعة في أجزاء البدن (والميل عن الاعتدال مرض فيه) بأن تخالف إحدىٰ القوىٰ (فلنتَّخذ البدن مثالاً) لذلك (فنقول: مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها) بالرياضة والمجاهدة (وكسب الفضائل والأخلاق الجميلة لها مثال البدن في علاجه بمحو العِلَل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه) باستعمال ما يناسبه (وكما أن الغالب علىٰ أصل المزاج الاعتدال وإنما تعتري العلَّة المغيِّرة له بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال) المختلفة (فكذلك كل مولود يولَد معتدلاً صحيحًا علىٰ الفطرة) الإسلامية (وإنما أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه) كما ورد في الخبر، وتقدَّم ذِكرُه قريبًا (أي) يغيِّرانه إلىٰ الأديان المختلفة، و(بالتعوُّد والتعلُّم تُكتسَب الرذائل، وكما أن البدن في الابتداء لا يُخلَق كاملاً وإنما يكمُل ويقوىٰ بالنشوء والتربية بالغذاء) علىٰ التدريج (فكذلك النفس تُخلَق ناقصة قابلة للكمال) مستعدَّة له (وإنما تكمُل بالتزكية وتهذيب الأخلاق) بالرياضة (والتغذية بالعلم) النافع (وكما أن البدن إن كان صحيحًا فشأن الطبيب) الحاذق (تمهيد القانون الحافظ للصحة، وإن كان مريضًا فشأنه جلبُ الصحة إليه، فكذا النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذَّبة) الأخلاق (فينبغي أن تسعىٰ لحفظها) وحفظ صفتها (وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاء لها) بالقانون الإلهي (وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعىٰ لجلب ذلك إليها) بالعلاج الموافق، وإن كانت مشحونة بالأخلاق السيئة فينبغي أن تسعىٰ لِما يزيلها منها (وكما أن العلة المغيِّرة لاعتدال البدن الموجِبة للمرض لا تعالَج إلا بضدِّها) في الغالب (إن

كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذا الرذيلة التي هي مرض القلب علاجُها بضدها، فيعالَج مرض الجهل بالتعلُّم) فإن العلم والجهل متضادَّان متىٰ دخل أحدهما ارتحل الآخَر (ومرض البخل بالتسخِّي) أي بذل المال في حقوقه (ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشَّره بالكف عن المشتهَىٰ) ولو (تكلُّفًا. وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات) النفسية (لعلاج الأبدان المريضة) حتىٰ يصح الدواءُ (فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب) حتىٰ ينجع (بل) هذا (أَولىٰ، فإنَّ مرض البدن يخلص منه بالموت) فإنه لا يحس به بعده (ومرض القلب – والعياذ بالله – عذاب أليم يدوم بعد الموت أبد الآباد) فهو لا ينفكُّ عنه بحال (وكما أن كل مبرِّد لا يكفي لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان علىٰ حد مخصوص ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه) من الضارِّ (فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد) ورجع العلاج إلىٰ عكسه (فكذلك النقيض الذي تعالَج به الأخلاق لا بد له من معيار) يُعرف به الحد المخصوص (وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتىٰ إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة) وذلك بتشخيص النبض أو القارورة (فإن كانت من حرارة) مثلاً (فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية) ثم يعرف سببها أمن داخل أم من خارج (فإذا عرف ذلك التفت) معه (إلىٰ أحوال البدن) من جهة ضعفه وقوته واعتداله (وأحوال الزمان) شديد البرد أو الحر أو معتدل (وصناعة المريض) أهي خسيسة أم شريفة (وسنه) هل هو في الشبوبية أو في الكهولة أو الشيوخة (وسائر أحواله) كسؤاله هل هو غريب أو من أهل البلد (ثم يعالج بحسبها) كل ذلك بالتحرِّي والاجتهاد حتىٰ لا يخالف عليه المرضُ من طريق آخر (فكذلك الشيخ المتبوع) المعتقَد (الذي يطبُّ نفوسَ المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم) وسائر أحوالهم (وكما أن الطبيب لو عالج جميع

المرضىٰ بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار علىٰ المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم) ولم ينجع فيهم الإرشادُ **(بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وفي سنه ومزاجه وما تحتمله بنيتُه من الرياضة ويبني علىٰ ذلك رياضتَه)** فرُب قوي البدن في عنفوان الشبوبية يحتمل من الرياضة ما لا يحتمله ضعيفُ البدن نحيفه، وكذا الشيخ الفاني **(فإن كان المريد مبتدئًا جاهلاً بحدود الشرع فيعلِّمه أولاً)** أمور دينه مثل **(الطهارة والصلاة وظواهر العبادات)** بوجه يوصل إلىٰ ذهنه، فإذا ترشَّح بمعرفة ذلك ينقله إلىٰ ما يناسب له **(وإن كان)** مع معرفته بظواهر العبادات **(مشغولاً بمال حرام)** وصل إليه من تجارة فاسدة أو من ميراث بشبهة **(أو مقارفًا لمعصية)** ظاهرة أو باطنة **(فيأمره أولاً بترك ذلك)** رأسًا **(فإذا تزيَّن بالعبادات ظاهرُه وطهرت عن المعاصي الظاهرة جوارحُه نظر بقرائن الأحوال إلىٰ باطنه ليتفطَّن لأخلاقه وأمراض قلبه، فإن رأىٰ معه مالاً فاضلاً عن قدْر ضرورته)** إن كان منفردًا وإلا فعن قدر ضرورة عياله إن كان ذا عيال **(أخذه منه وصرفه في الخيرات)** أو أمره بأن يصرفه إلىٰ جهات الخيرات **(وفرَّغ قلبَه منه)** فإنه أكبر شاغل لنفسه **(حتىٰ لا يلتفت إليه)** ولا يتعلق به قلبه **(وإن رأىٰ الرعونة والكِبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره بأن يخرج إلىٰ السوق للكدية)** أي الاستجداء **(والسؤال)** من الناس، وذلك في وقت مخصوص **(فإن عزة النفس والرياسة لا تنكسر إلا بالذل، ولا ذل أعظم من السؤال)** ولا أثقل منه، وهو أحد الثلاثة التي تورث الذلَ، والاثنان: الدَّين والبنت، قالوا: ثلاثة تورث الذلَّ: الدَّين ولو درهمًا، والبنت ولو مريم، والسؤال ولو «أين الطريق»؟ **(فيكلِّفه المواظبةَ علىٰ ذلك مدة حتىٰ ينكسر كِبره وعزة نفسه)** وأَنَفته **(فإن الكبر من الأمراض المهلكة، وكذا الرعونة)** في النفس، ولا ينفع السلوكُ للمريد مع ملابستها **(وإن رأىٰ الغالبَ عليه النظافة في البدن والثياب ورأىٰ قلبه مائلاً إلىٰ ذلك فَرِحًا به ملتفتًا إليه فيستخدمه في تعهُّد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتىٰ تتشوَّش عليه رعونته في النظافة)** ولما كان الأمر كذلك وغلبت هذه النفوس

علىٰ المريدين رتَّب بعض مشايخ الطريق كلَّ مريد في خدمة معيَّنة في زاوية الشيخ، فمنهم من يتعاهد خدمةَ بيت الماء، ومنهم من يتعاهد إخراج الماء من البئر لملء الميضأة، ومنهم من يتعاهد صب الماء علىٰ أيدي الفقراء، ومنهم من يتعاهد لكنس المحل ورشه، ومنهم من يتعاهد لخدمة المريدين في الزاوية، ومنهم من يتعاهد خدمةَ المطبخ وإصلاح ما تيسَّرَ من طعام، ومنهم من يتعاهد للكدية فما فُتح له منها يفرَّق علىٰ أهل الزاوية. فهذه الوظائف ما رتَّبوها إلا لتمرين النفوس الصعبة وتهذيب الأخلاق **(فإن الذين ينظِّفون ثيابهم ويزيِّنونها ويطلبون المرقَّعات الرفيعة والسجَّادات الملوَّنة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزيِّن نفسها طول النهار)** لأجل زوجها، ليس لها همَّة إلا في ذلك **(ولا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنمًا)** فمَن تعلق بشيء والتفت إليه بقلبه فقد صار عابدًا له **(فمهما عبد غيرَ الله فقد صار محجوبًا عن الله، ومَن راعَىٰ في ثوبه شيئًا غير كونه حلالاً أو طاهرًا مراعاةً يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه)** محجوب عن ربِّه **(ومن لطائف الرياضة أن النفس إذا كانت لا تسخو)** أي لا تسمح **(بترك الرعونة رأسًا أو بترك صفة أخرىٰ ولم تسمح بضدِّها دفعةً فينبغي أن تنتقل من الخلق المذموم إلىٰ خلق مذموم آخر أخف منه)** في الذم، وهذا **(كالذي يغسل الدم بالبول)** أولاً **(ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم)** وقد حصل التطهير ولكن بهذا النقل **(ولذلك يُرغَّب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه)** من الملاعب **(ثم يُنقَل من اللعب إلىٰ الزينة وفاخر الثياب، ثم يُنقَل من ذلك إلىٰ الترغيب في الرياسة وطلب الجاه)** وكل ذلك من المَذامِّ الشرعية **(ثم يُنقَل من الجاه إلىٰ الترغيب في الآخرة)** تدريجًا، ولو كُلِّف من أول وهلة بالترغيب في أمور الآخرة لم يتيسَّر عليه **(فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه)** والرياسة **(دفعةً فليُنقَل إلىٰ جاه أخف منه)** ثم يُنقَل إلىٰ تركه رأسًا **(وكذلك سائر الصفات، وكذلك إن رأىٰ شَره الطعام غالبًا عليه ألزمه الصومَ وتقليل الطعام)** أولاً **(ثم كلَّفه أن يهيِّئ الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلىٰ غيره ولا يأكل هو منها حتىٰ تقوَىٰ بذلك نفسُه فيتعوَّد الصبرَ وينكسر شَرهه. وكذلك**

إذا رآه شابًّا متشوِّقًا إلىٰ النكاح) شَبِقًا كثير الشهوة (وهو عاجز عن النكاح فيأمره بالصوم) لِما ورد في الخبر: «مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وِجاء» (وربما لا يسكِّن ذلك شهوتَه، فيأمره بأن يفطر ليلة علىٰ الماء دون الخبز، وليلة علىٰ الخبز دون الماء، ويمنعه اللحم والأدم رأسًا حتىٰ تتذلَّل نفسه وتنكسر شهوته، فلا علاج في مبادئ الإرادة أنفع من الجوع) لأنه قاطع كل شهوة (وإن رأىٰ الغضب غالبًا عليه ألزمه الحِلمَ والسكوت، وسلَّط عليه من يصحبه ممَّن فيه سوء خلق) وشراسة (ويأمره بخدمة مَن ساءَ خلقُه) وبمراعاته (حتىٰ تمرن نفسُه علىٰ الاحتمال معه، فقد كان بعضهم يعوِّد نفسَه الحِلمَ ويزيل عن نفسه شدة الغضب، فكان يستأجر من يشتمه علىٰ ملأ من الناس) وبين يدي من يعظِّمه (ويكلِّف نفسَه) الحلمَ و(الصبر) علىٰ ذلك (ويكظم غيظه حتىٰ صار الحلم عادة له بحيث كان يُضرَب به المثل) في الحلم، وقد ورد في الأخبار: «إنما الحلم بالتحلُّم» (وكان بعضهم يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب، فأراد أن يحصِّل لنفسه خلق الشجاعة، فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج) ليسكن روعُه عن الاضطراب ويتعوَّد عليه (وعُبَّاد الهند) من البراهمة والجوكية (يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول ليله علىٰ نصبة واحدة) ومنهم من اختار أن يقف علىٰ رِجل واحدة طول ليله، ومنهم من يعوِّد نفسه علىٰ حبس أنفاسه ساعات متعددة (وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان تكسل نفسُه عن القيام، فألزم نفسَه القيام علىٰ رأسه طول الليل لتسمح بالقيام علىٰ الرِّجل عن طوع) ولهم في ذلك مجاهدات غريبة تُستغرَب، وقصدُهم بذلك إماتة النفوس وتعويدها علىٰ الطاعات بانشراح وسماح (وعالج بعضُهم حب المال بأن باع جميع ماله ورماه في البحر؛ إذ خاف من تفرقته علىٰ الناس رعونة الجود ورياء البذل) وقد اعتُرِض علىٰ المصنف في تقرير هذه الحكايات عنهم وتسليمها لهم بأن ذلك تضييع للمال ومخالفة للشرع، وقد أشرنا بجواب ذلك في مقدمة كتاب العلم، فراجعْه (فهذه الأمثلة

تعلِّمك طريقَ معالجة القلوب، وليس غرضنا) هنا (ذكر دواء كل مرض) بالخصوص (فإن ذلك سيأتي في بقية الكتب) إن شاء الله تعالىٰ (وإنما الغرض الآن التنبيه علىٰ أن الطريق الكلي فيه سلوك مَسلك المضادَّة لكل ما تهواه النفس وتميل إليه، وقد جمع الله تعالىٰ جميع ذلك في كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١] والأصل المهمُّ في المجاهدة الوفاء بالعزم) أي بأن يفي بما عزم عليه ولا ينقضه (فإذا عزم علىٰ ترك شهوة فقد تتيسَّر أسبابها ويكون ذلك من الله ابتلاءً واختبارًا) أي امتحانًا له ليعلم هل يفي أم لا (فينبغي أن يصبر) علىٰ ما عزم عليه (ويستمر، فإنه إن عوَّد نفسَه نقض العزم ألفتْ ذلك) وأنستْ به (وفسدت، وإذا اتفق منه نقضُ عزمٍ فينبغي أن يُلزِم نفسَه عقوبة عليه) بما يناسب حالَه ويطيق عليه (كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة) كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ (وإذا لم يخوِّف نفسَه بعقوبة غلبته وحسَّنت عنده تناول الشهوة، وفسدت بها الرياضة بالكلية) ولم يحصل له من رياضته ثمرة غير إتعاب البدن وتضييع الوقت.

بيان علامات مرض القلب وعلامات عَوْده إلى الصحة

(اعلمْ أن كل عضو من أعضاء البدن خُلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعذَّر عليه فعلُه الذي خُلق له حتىٰ لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب) والاختلال (فمرض اليد أن يتعذَّر عليها البطشُ) ومرض الرِّجل أن يتعذَّر عليه المشي، ومرض الأذن أن يتعذر عليه السماع (ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار) وقِسْ علىٰ ذلك باقي الأعضاء (فكذلك مرض القلب) هو (أن يتعذر عليه فعلُه الخاص به الذي خُلق لأجله وهو العلم، والحكمة، والمعرفة، وحب الله تعالىٰ، وعبادته، والتلذُّذ بذكره، وإيثار ذلك علىٰ كل شهوة سواه، والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه) لأنه بيت الإيمان بالله، ويرشِّح له ما ورد في خبر «القلب بيت الرب» وإن لم يكن له أصل في المرفوع، كما قاله الحافظ السخاوي[١]، لكن معناه صحيح (قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾) [الذاريات: ٥٦] قيل: معناه: ليعرفوا أن معرفة الله تعالىٰ روح كل عبادة (ففي كل عضو فائدة، وفائدة القلب الحكمة والمعرفة) فإذا خلا عنهما فهو المنكوس الذي قيل فيه: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤] (وخاصِّية النفس التي للآدمي ما تتميَّز به عن البهائم، ولم تتميَّز عنها بالقوة علىٰ الأكل والوقاع والإبصار وغير ذلك) فقد تشاركه البهائمُ فيها (بل بمعرفة الأشياء علىٰ ما هي عليه، وأصل الأشياء وموجِدها ومخترعها الذي جعلها أشياء هو الله تعالىٰ، فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله تعالىٰ فكأنَّه لم يعرف شيئًا) ويُحكَم علىٰ فساد عقله وانتكاس قلبه عن درجة الكمال، ولكل شيء عند التحقيق علامة بها يعرف ذلك الشيء (وعلامة المعرفة المحبة، فمَن عرف الله أحبه) وأحب لقاءه (وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه

(١) المقاصد الحسنة ص ٣٠٨.

الدنيا ولا غيرها من المحبوبات) فمَن آثر علىٰ محبَّته شيئًا من ذلك فهو مدَّعٍ في الحب كذاب (**كما قال تعالىٰ:** ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ **إلىٰ قوله:** ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] **فمَن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض، كما أن كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة. فهذه علامة المرض، وبهذا يُعرَف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله)** والحكم للغالب (**إلا أن من الأمراض ما لا يعرفه صاحبه)** ولا يهتدي إليه (**ومرض القلب ممَّا لا يعرفه صاحبه)** لأنه غير محسوس بالأبصار، فمعرفة مرضه عسرٌ (**فلذلك يغفل عنه، وإن علمه)** صاحبُه بضرب من التوفيق (**صعُب عليه الصبرُ علىٰ مرارة دوائه، فإنَّ دواءه مخالفة الشهوات، وهو)** بمنزلة (**نزع الروح)** من الجسد (**فإن وجد من نفسه قوةَ الصبر عليه لم يجد طبيبًا حاذقًا يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، وقد استولىٰ المرض عليهم، والطبيب المريض قلَّما يُلتفَت إلىٰ علاجه)** إذ يقال له:

يا أيُّها الرجل المعلِّم غيرَه ... هلاَّ لنفسك كان ذا التعليم[(١)]

وقالوا:

ومن عجب الدنيا طبيب مصفر ... وأعمش كَحَّال وأعمىٰ منجِّم

وفيهم قيل:

* عليل يداوي الناسَ وهو عليل[(٢)] *

(**فلهذا صار الداء عُضالاً)** صعبًا (**والمرض مزمنًا)** راسخًا (**واندرس هذا**

---

(١) تقدم هذا البيت في أواخر الباب الثاني من كتاب النكاح.

(٢) عجز بيت لابن نباتة المصري، وهو في ديوانه ص ٤٢٢ (ط - دار إحياء التراث العربي) برواية:

بروحي من ذاك النسيم إذا سرىٰ ... طبيبا يداوي الناس وهو عليل

العلم) مرة واحدة **(وأُنكِر بالكلية طبُّ القلوب وأُنكِر مرضها)** واشتغلوا بإصلاح الظاهر **(وأقبل الخلق علىٰ حب الدنيا)** واقتنائها **(وعلىٰ أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومُراءاة. فهذه علامة أصل المرض، وأما علامة عَوْده إلىٰ الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلّة التي يعالجها، فإن كان يعالج داء البخل وهو المهلك المبعِد عن الله تعالىٰ)** كما ورد في الخبر: «وأيُّ داء أدوأ من البخل»؟ **(فإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه)** في وجوهه **(ولكنه قد يبذل المال إلىٰ حدٍّ يصير به مبذِّرًا، فيكون التبذير أيضًا داء، ويكون كمَن يعالج البرودة بالحرارة)** علىٰ أنهما ضدان، وإنما يعالَج المرض بما يضادُّه **(حتىٰ تغلب الحرارةُ، وهو أيضًا داء، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة)** بحيث لا يغلب أحدهما علىٰ الثاني **(فكذلك المطلوب الاعتدال بين التقتير والتبذير حتىٰ يكون علىٰ الوسط وفي غاية البعد من الطرفين)** قال ابن الوردي:

بيـن تبذيـر وبخـل رتبـةٌ ... وكِلا هذيـن إن زاد قتـل

(فإن أردتَ أن تعرف الوسط فانظر إلىٰ الفعل الذي يوجبه الخلقُ المحذور، فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يضادُّه فالغالب عليك ذلك الخلق الموجِب له، مثل أن يكون إمساك المال وجمعُه ألذَّ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقِّه فاعلمْ أن الغالب عليك خلق البخل) وقد عرفتَه منك **(فزِدْ في المواظبة علىٰ البذل)** والإنفاق **(فإن صار البذل لغير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير)** وهو أيضًا خلق مذموم، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧] **(فارجع إلىٰ المواظبة علىٰ الإمساك، ولا تزال تراقب نفسك وتستدل علىٰ خُلقك بتيسُّر الأفعال وتعسُّرها حتىٰ تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلىٰ المال فلا تميل إلىٰ بذله ولا إلىٰ إمساكه بل يصير عندك كالماء)** المعَدُّ للشرب وغيره **(فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج، ولا يترجَّح عندك البذل علىٰ الإمساك، فكل قلب صار كذلك فقد جاء اللهَ سليمًا عن**

هذا المقام خاصةً) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٩] (ويجب أن يكون سليمًا عن سائر الأخلاق حتىٰ لا تكون له علاقة بشيء ممَّا يتعلق بالدنيا حتىٰ ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق عنها، غير ملتفتة إليها، ولا متشوِّقة إلىٰ أسبابها)

فمَن سرَّه أن لا يجد ما يسوءه فلا يتخذ شيئًا يخاف له فقدا[1]

(فعند ذلك ترجع إلىٰ ربِّها رجوع النفس المطمئنة راضية) عن الله (مرضيَّة) عند الله (داخلة في زُمرة عباد الله المقرَّبين من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقًا) كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] (ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض) والدقة (بل هو أدقُّ من الشعر وأحَدُّ من السيف فلا جَرَم مَن استوىٰ علىٰ هذا الصراط المستقيم في الدنيا جاز علىٰ مثل هذا الصراط في الآخرة) الذي من وصفه: أدقُّ من الشعر وأحَدُّ من السيف (وقلَّما ينفكُّ العبد عن ميل) ما (عن الصراط المستقيم - أعني الوسط - حتىٰ لا يميل إلىٰ أحد الجانبين فيكون قلبه متعلقًا بالجانب الذي مال إليه، فلذلك لا ينفكُّ عن عذاب ما واجتياز علىٰ النار وإن كان) ذلك (مثل البرق) الخاطف، كما ورد ذلك في الخبر (قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾) أي مجتاز عليها، كما فُسِّر به الورود في قولٍ (﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ أي الذين كان قربهم إلىٰ الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه) ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢] وهم الذين ظلموا أنفسهم ومالوا عن الصراط إلىٰ أحد حَدَّيه نتركهم حول النار جثيًّا علىٰ رُكَبهم (ولأجل عسر الاستقامة وجب علىٰ كل عبد أن يدعو الله تعالىٰ في كل يوم) وليلة في صلاته (سبعة عشر مرة في قوله) في سورة الفاتحة: (﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦] إذ وجبت قراءة الفاتحة

---

(١) تقدم هذا البيت في الباب الثالث من كتاب الصلاة.

في كل ركعة) وهيٰ اثنتان للصبح، وأربع للظهر، وأربع للعصر، وثلاث للمغرب، وأربع للعشاء، مجموع ذلك سبع عشرة ركعة **(ورأىٰ بعضهم رسول الله ﷺ في المنام، فقال له: قد قلتَ يا رسول الله: شيَّبتني)** سورة **(هود، فلِمَ قلتَ ذلك؟ قال: لقوله تعالىٰ)** فيها: (﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾) [هود: ١١٢] وهذا اللفظ قد رواه ابن مردويه من حديث أنس بزيادة: «وأخواتها: الواقعة والقارعة والحاقة والشمس إذا كورت وسأل سائل»، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الحديث[١] **(فالاستقامة علىٰ سواء السبيل في غاية الغموض)** والدقة **(ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في)** تحصيل مرتبة **(القرب من الاستقامة إن لم يقدر علىٰ حقيقة الاستقامة)** التي هي[٢] الوفاء بكل العهود ولزوم الصراط المستقيم برعاية حد الوسط في كل أمر ديني أو دنيوي **(فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة)** إذ ترشح منها آثار حسنة علىٰ الجوارح فتصدر منها الأعمال علىٰ وفقها **(فليتفقَّد كل عبد صفاته وأخلاقه)** الباطنة **(وليعدِّدها، وليشتغل بعلاج واحد واحد منها علىٰ الترتيب)** مقدِّمًا منها الأحق فالأحق **(فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين)** والله الموفِّق.

---

(١) في كتاب آداب السماع.

(٢) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص ٤٩.

بيان الطريق الذي به يتعرَّف الإنسان عيوب نفسه

(اعلمْ أن الله تعالىٰ إذا أراد بعبد خيرًا بصَّره) أي جعله بصيرًا **(بعيوب نفسه)** وشغله عن عيوب غيره، فقد أخرج الرافعي في تاريخ قزوين[١] من حديث ابن عباس: «إذا أردتَ أن تذكر عيوب غيرك فاذكر عيوب نفسك» **(فمَن كملت بصيرتُه لم تَخْفَ عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج)** كما أن المرض إذا عُلم أصله يتيسَّر عليه علاجه بأهون سبب **(ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرىٰ أحدهم القَذَىٰ)** جمع[٢] قَذاة وهي ما يقع في العين والماء والشراب من نحو تراب وتبن ووسخ **(في عين أخيه)** المؤمن **(ولا يرىٰ الجذع في عين نفسه)** أخرج ابن المبارك في الزهد[٣] والعسكري في الأمثال من حديث أبي هريرة: «يبصر أحدكم القَذَىٰ في عين أخيه وينسىٰ الجِذع - أو قال: الجِذل - في عينيه». والجِذع بالكسر واحد جذوع النخل. والجِذْل بالكسر وبالفتح: أصل الشجرة يُقطَع، وقد يُجعَل العود جذلاً[٤]. وقد رواه أيضًا القُضاعي في مسند الشهاب[٥] وأبو نعيم في الحلية[٦] دون قوله «أو قال: الجذل». وهذا مَثلٌ ضُرب لمَن يرىٰ الصغير من عيوب الناس ويعيِّرهم به وفيه من العيوب بالنسبة إليه كنسبة الجذع إلىٰ القَذاة، وذلك من أقبح القبائح. ولله دَرُّ القائل:

(١) التدوين في أخبار قزوين ٣/ ٣٩.
(٢) النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٥٦، ٤/ ٣٠. فيض القدير ٦/ ٤٥٦ - ٤٥٧.
(٣) الزهد والرقائق ص ٩٨.
(٤) غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٣٢٣.
(٥) مسند الشهاب ١/ ٣٥٦.
(٦) حلية الأولياء ٤/ ٩٩، وفيه: «أو الجذل في عينه معترضا».

أرىٰ كل إنسـان يـرىٰ عيب غيـره ويعمىٰ عـن العيب الـذي هـو فيـه
فـلا خير فيمَـن لا يرىٰ عيب نفسـه ويعمىٰ عن العيـب الـذي بأخيه[١]

(**فمَن أراد أن يقف علىٰ عيب نفسه فله أربع طرق:**

الأولىٰ: أن يجلس بين يدي شيخ) كامل في ذاته، مهذَّب بآداب الشريعة (**بصير بعيوب النفس، مطَّلع علىٰ خفايا الآفات**) كأنه ينظر إليها من وراء ستر خفيٍّ (**ويحكِّمه علىٰ نفسه**) أي يجعله حاكمًا علىٰ نفسِه ونفسُه محكومًا عليها فيما يأمره به وينهاه [عنه] (**ويتَّبع إشارته في مجاهدته**) فلا يخالفه فيما يشير به إليه (**وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه**) وهو علامة فلاحه (**فيعرِّفه شيخه وأستاذه عيب نفسه**) إما بالتصريح بأن يقول له: عيبك كذا أو خلقك كذا، وإما بالكناية، باختلاف أحوال المريد (**ويعرِّفه طريق علاجه. وهذا قد عزَّ في هذا الزمان وجودُه**) وإن وُجد شيخ علىٰ هذه الصفة لم يوجَد من يرشده من المريدين الصادقين، وإن وُجد مريد صادق لم يوجد شيخ كامل بالأوصاف المذكورة. فهذا سبب عزة الأمر.

(**الثانية: أن يطلب صديقًا**) موافقًا (**صدوقًا**) في قوله (**بصيرًا**) بعيوبه، مطَّلعًا علىٰ خفايا أحواله (**متديِّنًا**) في نفسه (**وينصِّبه رقيبًا علىٰ نفسه**) ناظرًا علىٰ حركاته وسكناته (**ليلاحظ**) بعين بصيرته (**أحواله وأفعاله**) الصادرة عنه (**فما يكرهه من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبِّهه عليه**) ويرشده إلىٰ ما يناسب حالَه

---

(١) هذان البيتان نسبهما ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤/ ٣٢٠ (ط دائرة المعارف العثمانية) إلىٰ فخر الدين محمد ابن البزار الإسكندراني. ونسبهما ابن حبيب النيسابوري في عقلاء المجانين ص ١١٥ (ط - دار النفائس ببيروت) والصفدي في الوافي بالوفيات ١٥/ ١٢٠ إلىٰ سعدون المجنون مع بيت ثالث برواية:

أرىٰ كل إنسـان يـرىٰ عيـب غيـره ويعمىٰ عـن العيب الـذي هـو فيـه
ومـا خيـر مـن تخفـىٰ عليـه عيوبـه ويبـدو لـه العيـب الـذي لأخيـه
وكيـف أرىٰ عيبـا وعيبـي ظاهـر ومـا يعـرف السـوءات غيـر سـفيه

(فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمَّة الدين، كان عمر رضي الله عنه **يقول: رحم الله امرءًا أهدىٰ إليَّ عيوبي)**[١] رواه الإسماعيلي والذهبي في مناقب عمر **(وكان يسأل سلمان)** رضي الله عنه **(عن عيوبه لمَّا قدم عليه)** أي من المدائن **(وقال له: ما الذي بلغك عني مما كرهتَه؟ فاستعفَىٰ)** أي طلب أن يسكت عن ذلك **(فألحَّ عليه)** في أن يقوله **(فقال: سمعتُ أنك جمعتَ بين إدامين علىٰ مائدة، وأن لك حُلَّتين حُلَّة بالنهار وحلة بالليل. فقال: هل بلغك غير هذا؟ فقال: لا. فقال: أما هذان فقد كُفيتُهما)**[٢] رواه الإسماعيلي والذهبي في مناقب عمر **(وكان يسأل حذيفة)** بن اليمان رضي الله عنه **(ويقول له: أنت صاحب سر رسول الله** صلى الله عليه وسلم **في المنافقين، فهل ترىٰ عليَّ شيئًا من آثار النفاق)**[٣]؟ فيقول: لا يا أمير المؤمنين **(فهو)** رضي الله عنه **(علىٰ جلالة قدره وعلوِّ منصبه)** في الدين **(هكذا كانت تهمته لنفسه، وكل مَن كان أوفر عقلاً وأعلىٰ منصبًا كان أقل إعجابًا وأعظم اتِّهامًا لنفسه، إلا أن هذا أيضًا قد عزَّ)** وقَلَّ **(فيقلُّ في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب أو يترك الحسد فلا يزيد علىٰ قدر الواجب)** فيه **(فلا تخلو في أصدقائك عن حسود)** عليك في نعمتك **(أو صاحب غرض يرىٰ ما ليس بعيب عيبًا، أو عن مداهن يخفي عنك بعضَ عيوبك، ولهذا كان داود)** بن نصير **(الطائي)** رحمه الله تعالىٰ **(قد**

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٣/ ٢٧٣ بلفظ: أحب الناس إليَّ من رفع إلي عيوبي.

(٢) تقدم هذا الأثر في الباب الثاني من كتاب آداب الصحبة.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف ١٣/ ٣٠١ ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ٢/ ٧٦٩ عن زيد ابن وهب قال: مات رجل من المنافقين فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر: أمن القوم هو؟ قال: نعم. فقال له عمر: بالله، منهم أنا؟ قال: لا ولن أخبر به أحدا بعدك. ورواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق ص ١٤٤ عن الحسن البصري قال: هلك رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكان جارا لحذيفة، فلم يصلِّ عليه حذيفة، فبلغ ذلك عمر فقال لحذيفة وأقبل عليه: يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تصلي عليه؟! فقال: يا أمير المؤمنين، إنه منهم. قال: فنشدتك الله، أأنا منهم أم لا؟ قال: اللهم لا، ولا أؤمِّن منها أحدا بعدك. وروىٰ البزار في مسنده ٧/ ٢٩٣ عن حذيفة قال: دعي عمر لجنازة، فخرج فيها أو يريدها، فتعلقت به فقلت: اجلس يا أمير المؤمنين فإنه من أولئك. فقال: نشدتك الله، أنا منهم؟ قلت: لا، ولا أبرئ أحدا بعدك.

اعتزل عن الناس، فقيل له: لِمَ لا تخالط الناس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي) نقله صاحب القوت (فقد كانت شهوة ذوي الدين أن يتنبَّهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم، وقد آلَ الأمر في أمثالنا إلىٰ أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرِّفنا عيوبنا) ويعدِّدها علينا (ويكاد يكون هذا مفصحًا عن ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة) في الإنسان (حيَّات وعقارب لدَّاغة، ولو نبَّهنا منبهٌ علىٰ أن تحت ثوب أحدنا عقربًا) أو حية (لتقلَّد منه منَّة) وجميلاً (وفرح بذلك واشتغل بإبعاد العقرب) أو الحية (وإزالتها وقتلها، وإنما نكايتها علىٰ البدن، ولا يدوم ألمُها إلا يومًا فما دونه) وإن زاد فلا يزيد علىٰ يوم وليلة (ونكاية الأخلاق الرديئة علىٰ صميم القلب) أي باطنه (ويُخشَىٰ أن تدوم بعد الموت أبدًا أو آلافًا من السنين) إلىٰ ما شاء الله (ثم إنَّا لا نفرح بمن ينبِّهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته، فنقول له: وأنت أيضًا تصنع كيت وكيت. وتشغلنا العداوةُ معه عن الانتفاع بنصحه، ويشبه أن يكون هذا من قساوة القلب التي أثمرتها كثرةُ الذنوب) وفي حديث أبي الخير اليَزَني[1]: «أربع خصال تفسد القلوب ...» فساقه، وفيه: «وكثرة الذنوب مُفسِدة للقلوب». أخرجه عبد بن حميد في تفسيره (وأصل كل ذلك ضعف الإيمان، فنسأل الله تعالىٰ أن يعرِّفنا رشدنا ويبصِّرنا بعيوب أنفسنا ويشغلنا بمداواتها ويوفِّقنا للقيام بشكر من يُطْلِعنا علىٰ مساوئنا بمَنِّه وفضله) اللهم آمين.

(الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساويا) أي تظهرها، كما أن عين الرضا تكلُّ عن كل عيب (ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكِّره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه، إلا أن الطبع مجبول علىٰ تكذيب العدو وحملِ ما يقوله) له وفيه (علىٰ الحسد) المحض (ولكن البصير) الناقد لأحواله (لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه، فإن مساوئه لا بد وأن تنتشر علىٰ ألسنتهم) ويبلِّغ ذلك عنهم

(١) هذا خطأ، والصواب: أبو المجبر. وقد تقدم هذا الحديث بتمامه في كتاب عجائب القلب.

فيتنبَّه لما يقولون فيه ويتدارك ما فرط منه بمعالجة تلك العيوب وإزالتها عن نفسه مهما أمكن، ولكل مجتهد نصيب.

(**الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذمومًا فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسب نفسَه إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن**) كما رواه الطبراني في الأوسط والضياء من حديث أنس[1] (**فيرىٰ في عيوب غيره عيوبَ نفسه، ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوىٰ، فما يتَّصف به واحد من الأقران لا ينفكُّ القِرن الآخَر**) وهو بكسر القاف: من يقارن في علم أو غيره، واحد الأقران، كحِمْل وأحمال (**عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه، فيتفقَّد نفسه ويطهِّرها عن كل ما يذمه من غيره، وناهيك بهذا تأديبًا**) أي إليه المنتهَىٰ فيه، كأنَّه ينهاك عن غيره (**فلو ترك الناس كلُّهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدِّب**) رأسًا (**قيل لعيسىٰ**) ابن مريم (عليه السلام: **مَن أدَّبك؟ فقال: ما أدَّبني أحد، رأيت جهل الجاهل شينًا فجانبتُه**) فهذا أدب يحصل من النفس عند المخالطة. وذكر الخطيب في تاريخه[2] في ترجمة شريك النَّخَعي بسنده إلىٰ يحيىٰ بن يزيد قال: مر شريك بالمستنير بن عمرو النخعي، فجلس إليه، فقال: يا أبا عبد الله، مَن أدَّبك؟ قال: أدَّبتني نفسي ... ثم ساق قصة خروجه من بُخارَىٰ وطلبه العلم بالكوفة وما انتهىٰ إليه أمره، فقال المستنير لولده: سمعتم قول ابن عمِّكم، وقد أكثرتُ عليكم في الأدب، فلا أراكم تفلحون فيه، فليؤدِّب كل رجل منكم نفسه، فمَن أحسن فلها، ومَن أساءَ فعليها.

وقيل لبعضهم: من أين تعلَّمتَ الحِلم؟ قال: من جيراني. وقيل لآخَر: من أين تعلَّمت الأدب؟ قال: من أهل السوق، رأيت جهلهم فتجنَّبتُه.

(**وهذا كله حِيَل مَن فقد شيخًا عارفًا، ذكيًّا، بصيرًا بعيوب الناس، مشفقًا، ناصحًا في الدين، فارغًا عن تهذيب نفسه**) مقبلاً (**مشغولاً بتهذيب عباد الله نصحًا**

---

(١) تقدم هذا الحديث في الباب الثاني من كتاب آداب الصحبة.

(٢) تاريخ بغداد ١٠/ ٣٨٥.

لهم) وابتغاءَ لمرضاة الله تعالىٰ (فمَن وجد ذلك فقد وجد الطبيب) لأمراضه (فليلازمه فهو الذي يخلِّصه من مرضه وينجِّيه من الهلاك الذي هو بصدده) وإن لم يوجد فليتنبَّه للطرق الثلاثة: إما بتأدُّب من صديقه أو من عدوه أو من خليطه، ولا أقل من ذلك، فقد روىٰ الديلمي بإسناد جيد من حديث أم سلمة: «إذا أراد الله بعبد خيرًا جعل له واعظًا من نفسه يأمره وينهاه»[١]. والله الموفِّق.

(١) تقدم هذا الحديث في كتاب عجائب القلب.

بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلوب بترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتِّباع الشهوات

اعلمْ أن ما ذكرناه إن تأمَّلتَه بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشفت لك عِلَل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين، فإن عجزتَ عن ذلك) ولم يمكنك الاعتبار **(فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان علىٰ سبيل التلقِّي والتقليد لمن يستحق التقليدَ)** أي هو أهل لأنْ يقلَّد لكمال إيمانه وورعه وعلمه وتنوير باطنه **(فإن للإيمان درجة، كما أن للعلم درجة، والعلم)** بالله النافع إنما **(يحصل بعد الإيمان وهو وراءه، قال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾)** [المجادلة: ١١] ففيه بيان تفاوت الدرجات، وأن العلم بعد الإيمان **(فمَن صدَّق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلىٰ الله تعالىٰ ولم يطَّلع علىٰ سببه وسرِّه فهو من الذين آمنوا)** وهو علىٰ درجة **(وإذا اطَّلع علىٰ ما ذكرناه من أغوار الشهوات)** وأسرارها **(فهو من الذين أوتوا العلم)** وهو علىٰ درجة **(وكُلاًّ وعد الله الحسنىٰ)** أي الجنة **(والذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يُحصَىٰ:**

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: ٣] **قيل: نزع)** الله

(منها محبَّة الشهوات) وكتب[١] مجاهد إلىٰ عمر ﵁: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوىٰ، لهم مغفرة وأجر عظيم. أخرجه أحمد في الزهد. وعن قتادة في قوله: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ قال: أخلص الله قلوبَهم فيما أحبَّ. أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في الشعب[٢]. وروىٰ الحكيم[٣] عن مكحول رفعه: «نفس ابن آدم شابَّة ولو التقت تَرْقُوتاه من الكِبَر، إلا من امتحن الله قلبه للتقوىٰ، وقليلٌ ما هم».

(وقال رسول الله ﷺ: المؤمن بين خمس شدائد: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يقاتله، وشيطان يضلُّه، ونفس تنازعه) قال العراقي[٤]: رواه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف[٥] **(فبيَّن أن النفس عدو منازع تجب عليه مجاهدتها)** لأنها أكبر الأعداء.

(ويُروَىٰ) في الإسرائيليات **(أن الله ﷿ أوحىٰ إلىٰ داود ﵇)** فقال: **(يا داود، حذِّرْ وأنذِرْ أصحابك أكل الشهوات)** أي الأكل بالشهوات **(فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة)** أي بصائرها. نقله القشيري في الرسالة[٦].

---

(١) الدر المنثور ١٣/ ٥٣٨. وفيه: «عن مجاهد قال: كُتب إلىٰ عمر ...» الخ. ومجاهد وُلد قبل مقتل عمر ﵁ بسنتين.

(٢) نص الدر: «أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير ٢١/ ٣٤٤ والبيهقي في الشعب ٣/ ٩٨ - ٩٩ عن مجاهد في قوله (امتحن) قال: أخلص. وأخرج عبد الرزاق [في تفسيره ٢/ ٢٣١] وعبد بن حميد وابن جرير ٢١/ ٣٤٤ عن قتادة في الآية قال: أخلص الله قلوبهم فيما أحب».

(٣) نوادر الأصول ص ٢٣٣.

(٤) المغني ٢/ ٧٤١.

(٥) وأورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ١٧٦، ١٨١.

(٦) الرسالة القشيرية ص ٢٧٧.ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع ص ١٠٣ (ط - دار ابن =

(وقال عيسىٰ ﷺ: طوبىٰ لمَن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يرَه)[١] يعني به ما أعدَّ الله لتاركها من نعيم الجِنان.

(وقال نبيُّنا ﷺ لقوم قَدِموا من الجهاد: مرحبًا بكم، قَدِمتم من الجهاد الأصغر إلىٰ الجهاد الأكبر. فقالوا: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس) قال العراقي[٢]: رواه البيهقي في الزهد، وقد تقدم في شرح عجائب القلب.

(وقال ﷺ: المجاهد مَن جاهد نفسَه في طاعة الله ﷻ) قال العراقي[٣]: رواه الترمذي[٤] في أثناء حديث وصحَّحه وابن ماجه[٥] من حديث فضالة بن عبيد.

قلت: وكذلك أخرجه ابن حبان في الصحيح[٦]. وفي لفظ ابن ماجه: «والمهاجر مَن هجر الخطايا والذنوب».

(وقال ﷺ: كُفَّ أذاك عن نفسك، ولا تتابع هواها في معصية الله، إذًا تخاصمك يوم القيامة فيلعن بعضك بعضًا، إلا أن يغفر الله تعالىٰ لك ويستر) قال العراقي[٧]: لم أجده بهذا السياق.

= حزم) وأبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٦٠ والقاضي عبد الجبار في تاريخ داريا ص ٥٤ عن أبي سليمان الداراني قال: شهدت مع أبي الأشهب جنازة بعبادان فسمعته يقول: أوحىٰ الله ... فذكره.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١٥، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٤٨٥، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٣٣. ورواه الخطيب في تاريخ بغداد ٥/ ٤٠٣ وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٠/ ٢٠٦ من قول بشر بن الحارث.

(٢) المغني ٢/ ٧٤١.

(٣) السابق ٢/ ٧٤١.

(٤) سنن الترمذي ٣/ ٢٦٥.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٤٣١، وليس فيه الجملة المذكورة، وإنما لفظه: «المؤمن من أمنه الناس علىٰ أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب».

(٦) صحيح ابن حبان ١٠/ ٤٨٤، ١١/ ٥، ٢٠٤.

(٧) المغني ٢/ ٧٤٢.

(وقال سفيان الثوري) رحمه الله تعالىٰ: (ما عالجتُ شيئًا أشد عليَّ من نفسي، مرة لي ومرة عليّ) أخرجه أبو نعيم في الحلية[١].

(وكان أبو العباس الموصلي) رحمه الله تعالىٰ (يقول) مخاطبًا (لنفسه: يا نفس، لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعَّمين، ولا في طلب الآخرة مع العُبَّاد تجتهدين، كأني بكِ بين الجنة والنار تُحبَسين، يا نفس ألا تستحيين؟

وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ: (ما الدابَّة الجَمُوح) وهي التي تستعصي راكبَها حتىٰ تغلبه (بأحوج إلىٰ اللجام الشديد) القوي (من نفسك) وإليه أشار صاحب البُردة:

مَن لي بردِّ جماح من غوايتها   كما يُرَدُّ جماح الخيل باللُّجُم

(وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي) رحمه الله تعالىٰ: (جاهِدْ نفسك بأسياف الرياضة) وقال القشيري في الرسالة[٢]: اعلمْ أن مخالفة النفس رأس العبادة، وقد سُئل المشايخ عن الإسلام فقالوا: ذبح النفس بسيوف المخالفة[٣]. ثم قال يحيىٰ ابن معاذ: (والرياضة علىٰ أربعة أوجُه: القوت من الطعام) أي القدر القليل منه (والغمض من المنام) أي الخفيف منه (والحاجة من الكلام) أي القدر المحتاج منه (وحمل الأذىٰ من جميع الأنام) وهذه الثلاثة الأُوَل من أوصاف الأبدال، فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، ولا ينامون إلا عن غلبة، ولا يتكلمون إلا عن حاجة (فيتولَّد من قلة الطعام موتُ الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذىٰ البلوغ إلىٰ الغايات) قال: (وليس علىٰ

(١) حلية الأولياء ٧/ ٦٢ حتىٰ قوله (نفسي). ورواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٤٩٤ بلفظ: «ما عالجت شيئا أشد عليَّ من نيتي، إنها تتقلب عليَّ».

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٧٤.

(٣) وقال البيهقي في الزهد الكبير ص ١٥٣: «سمعت أبا علي الدقاق يحكي عن بعضهم أنه: ما لم تقتل نفسك بنفسك لا تصل إلىٰ ربك. قيل: ما قتل النفس؟ قال: قتلها بسيوف المخالفة».

العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى، فإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جرَّدتَ عليها سيوف قلة الطعام من غمد التهجُّد وقلة المنام، وضربتَها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام فتأمن من بوائقها في سائر الأيام) أي دواهيها ومصائبها (وتصفِّيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها فتصير عند ذلك روحانية لطيفة ونورية خفيفة) لأن ثقلها إنما كان ممَّا يعتريها من مؤن الشهوات، فإذا طهُرت خفَّت وتروَّضت (فتجول في ميدان الخيرات، وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفاره) النشيط (في الميدان، وكالملك المتنزِّه في البستان) هذا كله كلام يحيى بن معاذ الرازي.

(وقال أيضًا: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه وشيطانه ونفسه، فاحترسْ من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته) فيما يأمر وينهى (ومن النفس بترك الشهوات.

وقال بعض الحكماء[1]: مَن استولت عليه النفس) أي غلبت عليه وقهرته (صار أسيرًا في حب[2] شهواتها، محصورًا) أي محبوسًا (في سجن هواها، مقهورًا، مغلولاً زمامه في يدها تجرُّه حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد) الحاصلة له من منازلات الملائكة بالرحمة.

(وقال جعفر بن محمد) وهو الصادق. وفي بعض النسخ: جعفر بن حميد (أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم) الأخروي (لا يُدرَك إلا بترك النعيم) الدنيوي.

---

(١) هو أبو محمد الجريري، كما رواه عنه السلمي في طبقات الصوفية ص ٨٦، والقشيري في الرسالة ص ٩٦، وابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٤٧٩. كلهم بلفظ: «من استولت عليه النفس صار أسيرا في حكم الشهوات، محصورا في سجن الهوى، فحرم الله على قلبه الفوائد، فلا يستلذ بكلام الله تعالى ولا يستحليه وإن كثر ترداده على لسانه».

(٢) في غير الزبيدي: جب.

(وقال أبو يحيىٰ[1] الوَرَّاق: مَن أرضَىٰ الجوارحَ بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات.

وقال وهب بن منبه[2]: ما زِيدَ علىٰ الخبز فهو شهوة.

وقال وهيب بن الورد) المكي: (من أراد شهوات الدنيا فليتهيَّأ للذل)[3] أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(ويُروَىٰ أن امرأة العزيز) واسمها زُلَيخا[4] (قالت ليوسف عليه السلام بعد ما ملك خزائنَ الأرض وقعدت له علىٰ رابية الطريق في يوم موكبه، وكان يركب في زُهاء اثني عشر ألفًا من عظماء مملكته: سبحان مَن جعل الملوك عبيدًا بالمعصية وجعل العبيد ملوكًا بطاعتهم له) يا يوسف (إن الحرص والشهوة صيَّرا الملوكَ عبيدًا وذلك جزاء المفسدين، وإن الصبر والتقوىٰ صيَّرا العبيد ملوكًا. فقال يوسف) عليه السلام (كما أخبر الله عز وجل عنه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: ٩٠][5].

وقال) القشيري في الرسالة[6]: سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت

---

(١) الصواب: أبو بكر. واسمه محمد بن عمر الترمذي. وهذا الكلام رواه عنه البيهقي في الزهد الكبير ص ١٥٩، والقشيري في الرسالة ص ٩٢.

(٢) الصواب: وهيب بن الورد. وقد رواه عنه ابن أبي الدنيا في الجوع ص ٩٨ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٤٨ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٣/ ٢٥٦ بلفظ: «خُلق ابن آدم وخُلق الخبز معه، فما زاد علىٰ الخبز فهو شهوة».

(٣) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٨/ ٧٨.
ورواه الخطيب في تاريخ بغداد ٨/ ١١٨ عن سفيان الثوري و١٠/ ٣٣٢ عن شعيب بن حرب.

(٤) وقال ابن إسحاق: اسمها راعيل بنت رعائيل.
انظر: جامع البيان للطبري ١٣/ ٦٢. النكت والعيون للماوردي ٣/ ١٩. تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٨.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ٣٨٢. المنتظم لابن الجوزي ١/ ٣١٥.

(٦) الرسالة القشيرية ص ٢٧٥. إحكام الدلالة بشرح الرسالة لزكريا الأنصاري ١/ ٤٩٦.

إبراهيم بن مقسم ببغداد يقول: سمعت ابن عطاء يقول: قال (**الجنيد**) رحمه الله تعالىٰ: (**أرِقتُ**) بكسر الراء: أي سهرت (**ليلةً، فقمت إلىٰ وِرْدي**) من الصلاة (**فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها**) من قبل، أي التلذُّذ بالمناجاة، فتحيَّرت في سببه (**فأردت أن أنام فلم أقدر**) عليه وأنا علىٰ هذه الحال (**فقعدت**) لأذكر الله بغير صلاة (**فلم أطِق القعودَ**) ففتحت الباب (**فخرجت**) أنتظر الفرج (**فإذا رجل ملتفٌّ في عباءة**) بالمد: كساء من صوف (**مطروح علىٰ الطريق، فلما أحسَّ بي**) رفع رأسه و(**قال: يا أبا القاسم، إليَّ الساعة**) أي لِمَ لمْ تخرج من حين تحيَّرتَ؟ وهذا منه مكاشفة بحالة الجنيد (**فقلت**) له: (**يا سيدي**) جئتني (**من غير موعد**) بوقت (**فقال: بلىٰ**) جئتك بموعد، فإني قد (**سألت محرِّكَ القلوب أن يحرك لي قلبك**) أي فالوقت الذي طلبتك فيه منه هو أول ما حرَّكك، فهو الموعد (**فقلت: قد فعل**) ذلك، أي حرَّكني لك (**فما حاجتك؟ فقال: متىٰ يصير داء النفس دواءها؟ فقلت: إذا خالفت النفس هواها. فأقبل علىٰ نفسه وقال: اسمعي، قد أجبتكِ بهذا**) الجواب (**سبع مرات فأبيتِ أن تسمعيه**) أي تقبليه (**إلا من الجنيد، ها قد سمعتِ ذلك**) منه (**ثم انصرف وما عرفتُه**) فعُلم من هذه القصة أن الدواء النافع للنفس مخالفة هواها بما يُرضِي مولاها.

(**وقال يزيد**) بن[1] أبان (**الرقاشي**) بتخفيف القاف، أبو عمرو البصري القاصُّ، زاهد، ضعيف، مات قبل العشرين بعد المائة (**إليكم عني الماء البارد في الدنيا لعلِّي لا أُحرَمه في الآخرة**) لما علم أن نفسه تشتهي الماء البارد منعها منه حسمًا لشهوتها.

(**وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ: متىٰ أتكلم؟ قال: إذا اشتهيتَ الصمت. قال: فمتىٰ أصمتُ؟ قال: إذا اشتهيتَ الكلام**) أي خالِفْ نفسك في هواها، فإذا اطمأنَّت إلىٰ الكلام فخالِفْها بما يضادُّه وهو السكوت، وبالعكس.

---

(١) تقريب التهذيب ص ١٠٧١.

(وقال علي كرَّم الله وجهه: مَن اشتاق إلىٰ الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا)[١] لأن الجنة حُفَّت بالمكاره، كما أن النار حُفَّت بالشهوات.

(وكان مالك بن دينار) البصري رحمه الله تعالىٰ **(يطوف في السوق، فإذا رأىٰ الشيء يشتهيه قال لنفسه: اصبري، فوالله ما أمنعكِ)** عنه **(إلا من كرامتكِ عليَّ)**[٢].

وأخرج أبو نعيم في الحلية[٣] من طريق إبراهيم بن بشَّار قال: سمعت إبراهيم ابن أدهم يقول: أشدُّ الجهاد جهاد الهوىٰ، مَن منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلائها، وكان محفوظًا ومعافىٰ من أذاها.

وقد أورد القشيري في الرسالة[٤] في باب مخالفة النفس وذكر عيوبها ما يحسُن إيراده هنا، قال: قال ذو النون المصري: مفتاح العبادة الفكرة، وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوىٰ، ومخالفتهما تركُ شهواتهما[٥]. وقال ابن عطاء: النفس مجبولة علىٰ سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردُّها بجهده عن سوء المطالبة، فمَن أطلق عنانها فهو شريكها معها في فسادها. وقال أبو حفص الحَدَّاد: مَن لم يتَّهم نفسه علىٰ دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال ولم يجرَّها إلىٰ مكروهها في سائر

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ١٧٨ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٨٤٣ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٥١٥ ضمن موعظة طويلة. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٧٤ مرفوعا.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٦/ ٤٠٦ عن أزهر السمان قال: كان مالك يدخل أسواق البصرة ينظر إليها وإلىٰ أشياء كثيرة يشمها، فيرجع فيقول لنفسه: اصبري، فوالله ما أحرمك ما رأيت إلا من كرامتك.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ١٨.

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٧٤ - ٢٧٨.

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٩٥ بلفظ: «مفتاح العبادة الفكرة، وعلامة الهوىٰ متابعة الشهوات، وعلامة التوكل انقطاع المطامع».

أيامه كان مغرورًا، ومَن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها. وقال أبو بكر الطَّمَسْتاني: النعمة العظمىٰ الخروج عن النفس؛ لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله تعالىٰ. وقال سهل: ما عُبِد الله بشيء أفضل من مخالفة النفس والهوىٰ. وسُئل ابن عطاء عن أقرب شيء إلىٰ مقت الله تعالىٰ فقال: رؤية النفس وأحوالها، وأشد من ذلك مطالعة الأعواض علىٰ أفعالها[١]. وقال محمد بن عبد الله[٢]: آفة العبد رضاه عن نفسه بما هو فيه.

(**فإذًا قد اتفق العلماء والحكماء علىٰ أن لا طريق إلىٰ سعادة الآخرة**) التي هي بقاء بلا فناء (**إلا بنهي النفس عن الهوىٰ ومخالفة الشهوات، فالإيمان بهذا واجب، وأما علم تفصيل ما يُترَك من الشهوات وما لا يُترَك فينكشف ممَّا قدَّمناه، وحاصل الرياضة وسرُّها أن لا تتمتَّع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة**) والاحتياج (**فيكون مقتصرًا من الأكل**) والشرب (**والنكاح واللباس والمسكن**) والمركب (**وكل ما هو مضطر إليه علىٰ قدر الحاجة والضرورة**) الداعية فقط (**فإنه لو تمتَّع بشيء منه أنسَ به**) طبعًا وعادةً (**وألفه، فإذا مات تمنىٰ الرجوع إلىٰ الدنيا بسببه، ولا يتمنىٰ الرجوع إلىٰ الدنيا إلا مَن لا حظَّ له في الآخرة بحال**) إلا ما استُثني في الأحاديث الواردة كالشهيد وأضرابه فإنهم يتمنون الرجوع إلىٰ الدنيا لا لأجل حظ الدنيا بل لِما يرون من حظ الآخرة المترتِّب علىٰ ذلك العمل الذي فارقوا عليه (**ولا خلاص عن ذلك إلا بأن يكون القلب مشغولاً بمعرفة الله وحبِّه والتفكُّر فيه والانقطاع إليه، ولا قوة علىٰ ذلك إلا بالله، ويقتصر من الدنيا علىٰ ما يدفع عوائق**

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير ص ١٥٤.

(٢) الذي في الرسالة والزهد الكبير للبيهقي ص ١٥٤ أن قائل ذلك هو أبو عمرو بن نجيد جد أبي عبد الرحمن السلمي. ورواه السلفي في الطيوريات ٢/ ٢٩٤ من طريق أبي شعيب صالح بن العباس قال: سألت ذا النون فقلت: ما مفتاح العبادة؟ قال: الفكرة. قلت: ما علامة الإصابة؟ قال: مخالفة الهوىٰ. قلت: ما علامة مخالفة الهوىٰ؟ قال: ترك شهواتها. قلت: ما علامة التوكل؟ قال: انقطاع المطامع.

الفكرة والذكر فقط) ويراعىٰ فيه حال كل إنسان بحسب ما يقتضيه وقتُه **(فمَن لم يقدر علىٰ حقيقة ذلك فليقرُب منه، والناس فيه أربعة: رجل استغرق ذِكرُ الله قلبَه فلا يلتفت إلىٰ الدنيا إلا في ضرورات المعيشة)** التي لا بدَّ منها **(فهو من الصدِّيقين)** وهذا الاستغراق يكون بالذكر القلبي والمراقبة الدائمة حتىٰ يمتزج باطن القلب بالذكر فلا يجد مساغًا فيه لغيره **(ولا ينتهي إلىٰ هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة)** والمجاهدة الشاقَّة **(والصبر عن الشهوات مدةً مديدة)** حتىٰ تتمرَّن النفس علىٰ ذلك **(والثاني: رجل استغرقت الدنيا قلبَه)** واستولت عليه من سائر نواحيه **(فلم تُبْقِ لله ذكرًا في قلبه إلا من حيث حديث النفس، حيث يذكره باللسان ولا يجاوز قلبَه)** فجميع عباداته عادات ومُراءاة **(وهذا من الهالكين)** في أودية الغفلة والضلال **(والثالث: رجل اشتغل بالدين والدنيا)** جميعًا **(ولكن الغالب علىٰ قلبه هو الدين، فهذا لا بد له من ورود النار، إلا أنه ينجو منها سريعًا بقدر غلبة ذكر الله علىٰ قلبه. والرابع: رجل يشتغل بهما جميعًا، لكن الدنيا أغلب علىٰ قلبه، فهذا يطول مقامه في النار، ولكن يخرج منها لا محالة لقوة ذكر الله في قلبه وتمكُّنه من صميم فؤاده، وإن كان ذكر الدنيا أغلب علىٰ قلبه)** ويؤيِّده ما تقدم في الخبر: «أخرجوا من النار مَن كان في قلبه مِثقال حبة من خردل من الإيمان» **(اللهم إنَّا نعوذ بك من خزيك، فإنك أنت المعاذ.**

وربما يقول القائل: إن التنعُّم بالمباح مباح، فكيف يكون التنعُّم سبب البعد عن الله تعالىٰ؟ فهذا خيال ضعيف، بل حب الدنيا رأس كل خطيئة) كما[1] رواه البيهقي في الشعب[2] بإسناد حسن إلىٰ الحسن البصري مرسَلاً مرفوعًا. وأورده الديلمي في الفردوس وتبعه ولدُه بلا إسناد عن علي مرفوعًا. وهو عند البيهقي أيضًا في الزهد[3] وأبي نعيم في الحلية[4] في ترجمة الثوري من قول عيسىٰ ابن مريم

(١) المقاصد الحسنة ص ١٨٢.

(٢) شعب الإيمان ١٣/ ١٠٢.

(٣) الزهد الكبير ص ١٣٤.

(٤) حلية الأولياء ٦/ ٣٨٨.

عَلَيْهِ السَّلَامُ. وعند ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» من قول مالك بن دينار. وعند ابن يونس في ترجمة سعد بن مسعود التجيبي من «تاريخ مصر» له من كلام سعد هذا (**وسبب إحباط كل حسنة، والمباح الخارج عن قدر الحاجة من الدنيا أيضًا، وهو سبب البعد، وسيأتي ذِكره في كتاب ذم الدنيا**) إن شاء الله تعالىٰ (**وقد قال**) القشيري في الرسالة(١): سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت الحسين بن يحيىٰ يقول: سمعت جعفر بن نصير يقول: سمعت (**إبراهيم الخَوَّاص**) يقول: (**كنت مرةً في جبل اللُّكام**(٢)) كغُراب: جبل بالشام، أعلىٰ الجبال وأشمخها، وهو مأوىٰ العُبَّاد والصالحين (**فرأيت رمانًا**) أي شجرًا عليه رمان، وكنت عزمت علىٰ تركه لله تعالىٰ (**فاشتهيته**) لمَّا مررت به، فدنوت (**فأخذت منه**) رمانة (**واحدة، فشققتها، فوجدتها حامضة**) فلم آكل منها شيئًا، أُدِّب بذلك لمخالفته عزمه (**فمضيت وتركت الرمان، فرأيت رجلاً مطروحًا**) علىٰ الأرض (**وقد اجتمعت عليه الزنابير**) أي الدَّبَر تقع علىٰ جراحاته (**فقلت: السلام عليك. فقال: وعليك السلام يا إبراهيم. فقلت**) له: (**كيف عرفتني؟ فقال: مَن عرف الله لا يخفَىٰ عليه شيءٌ**) بأن ييسِّر الله له كل ما يريده، تارة بالسؤال، وتارة بغيره (**فقلت**) له: (**أرىٰ لك حالاً مع الله تعالىٰ، فلو سألتَه أن يحميك من هذه الزَّنابير**) ويقيك من أذاها كان خيرًا لك (**فقال: و**) أنا أيضًا (**أرىٰ لك حالاً مع الله تعالىٰ، فلو سألتَه أن يحميك من شهوة الرمان**) كان خيرًا لك (**فإنَّ لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة، ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا**) وألم الدنيا أهون من ألم الآخرة (**فتركته ومضيت**) لشأني خشيةَ أن أشتغل به فيَفسد به عليَّ توكلي. دلَّ كلامُ المطروح الأول علىٰ أنه من العارفين، وكلامه الثاني علىٰ أنه من المكاشَفين.

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٧٦. إحكام الدلالة ١/ ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٢) اللكام، ويسمىٰ أيضا الأمانوس: كتلة جبلية علىٰ شكل قوس تقع بالقرب من ساحل البحر المتوسط بين سوريا وتركيا يبلغ طولها حوالي ١٠٠ كم. وانظر: معجم البلدان ٤/ ١١، ٢٢. وفيه أنه يقال بتشديد الكاف وتخفيفها.

ودلَّ سياق القصة علىٰ أن شهوة الرمان وإن كان مباحًا أكله فهي من جملة الدنيا التي حبُّها رأس كل خطيئة، وأيُّ خطيئة أعظم من بقاء الألم إلىٰ آخر الأبد.

(وقال) القشيري[1] أيضًا: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت أبا العباس البغدادي يقول: سمعت جعفر بن نصير يقول: سمعت الجنيد يقول: سمعت **(السري)** السَّقَطي يقول: **(أنا منذ)** ثلاثين أو **(أربعين سنة تطالبني نفسي أن أغمس خبزًا**[2] **في دبس، فما أطعمتها)** ذلك. وإنما[3] ذكر هذا لمَن يقتدي به من أصحابه لتكمُل مجاهدتُه لنفسه وتعظيمه لربِّه ومخالفته لِما تركه لوجهه.

وروىٰ أبو نعيم في ترجمة مالك بن دينار من الحلية[4] قال: قال مالك بن دينار لرجل من أصحابه: إني لأشتهي رغيفًا بلبن رائب. قال: فانطلق فجاء به. قال: فجعله علىٰ الرغيف، فجعل مالك يقلِّبه وينظر إليه، ثم قال: أشتهيك منذ أربعين سنة فغلبتُك حتىٰ كان اليوم تريد أن تغلبني، إليك عني. وأبىٰ أن يأكله.

ومن طريق المنذر أبي يحيىٰ قال: رأيت مالك بن دينار ومعه كراع من هذه الأكارع التي قد طُبخت. قال: فهو يشمُّه ساعة فساعة. قال: ثم مر علىٰ شيخ مسكين علىٰ ظهر الطريق يتصدَّق، فقال: هاه يا شيخ. فناوله إياه، ثم مسح يده بالجدار، ثم وضع كساءه علىٰ رأسه وذهب، فلقيت صديقًا له، فقلت: رأيتُ من مالك [اليوم] كذا وكذا. قال: أنا أخبرك، كان يشتهيه منذ زمان، فاشتراه، فلم تطبْ نفسُه أن يأكله فتصدَّقَ به.

(فإذًا لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الله ما لم يمنع النفسَ من التنعُّم بالمباح، فإن النفس إذا لم تُمنع بعض المباحات طمعتْ في المحظورات) ولم

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٧٧.

(٢) في الرسالة: جزرة.

(٣) إحكام الدلالة ١/ ٤٩٩.

(٤) حلية الأولياء ٢/ ٣٦٦.

تزل به حتىٰ توقِعه فيها (فمَن أراد حفظ لسانه عن الغِيبة والفضول فحقُّه أن يُلزِمه السكوتَ) أبدًا (إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمَّات) الضرورية (في الدين حتىٰ تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق) في حق عن حق (فيكون سكوته عبادة، وكلامه عبادة) إذا كانا بحق (ومهما اعتادت العين رمي البصر إلىٰ كل شيء جميل لم تتحفَّظ من النظر إلىٰ ما لا يحل) من المحظورات (وكذلك سائر الشهوات؛ لأن الذي يُشتهَىٰ به الحلال هو بعينه الذي يُشتهَىٰ به الحرام، فالشهوة واحدة، وقد وجب علىٰ العبد منعُها عن الحرام، فإن لم تتعوَّد الاقتصار علىٰ قدر الضرورة من الشهوات غلبته الشهوة) فاستولت عليه (فهذه إحدىٰ آفات المباحات، ووراء هذا آفة عظيمة أعظم من هذه وهي أن النفس تفرح بالتنعُّم بالدنيا وتركن إليها وتطمئن بها) وينشرح صدره لزخارفها (أَشَرًا) أي فرحًا (وبطرًا حتىٰ تصير ثَمِلة بها كالسكران الذي لا يفيق من سكره، وذلك الفرح بالدنيا) بهذا الحد (سم قاتل يسري في العروق) ويمتلئ به البدن (فيخرج من القلب الخوف) من الله تعالىٰ (والحزن) الذي قال مالك بن دينار: القلب العاري منه خراب كالدار التي لا ساكن بها (وذِكر الموت وأهوال يوم القيامة، وهذا هو موت القلب) أعاذنا الله من ذلك (قال الله تعالىٰ: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾) [الحديد: ٢٠] وغير ذلك من الآيات الواردة في هذا الباب (وكل ذلك ذمٌّ لها، فنسأل الله السلامة. فأولو الحزم) والبصيرة المنوَّرة (من أرباب القلوب جرَّبوا قلوبهم في حالة الفرح بمؤاتاة الدنيا) وموافقتها (فوجدوها قاسية نفرة بعيدة) بطيئة (من التأثُّر بذكر الله) تعالىٰ (واليوم الآخر، وجرَّبوها في حالة الحزن فوجدوها ليِّنة) هيِّنة (رقيقة، صافية، قابلة لأثر الذكر، فعلموا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد عن أسباب البَطَر والفرح) وأن الهلاك الدائم في أسباب الفرح (ففطموها عن مَلاذِّها) ومتنعَّماتها (وعوَّدوها الصبرَ عن شهواتها حلالها

وحرامها) ولله در القائل[1]:

إن لله عبادًا فُطَنَا ... طلَّقوا الدنيا وخافوا الفِتَنا

نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحيٍّ وطنا

جعلوها لُجَّة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سُفُنا

(وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب، فمَن نوقِش الحساب في عَرَصات القيامة فقد عُذِّب) وقد روى الشيخان[2] من حديث عائشة: «مَن نوقِش الحساب عُذِّب». وروى الطبراني في الكبير[3] من حديث ابن الزبير: «مَن نوقِش المحاسبة هلك» **(فخلَّصوا أنفسهم من عذابها، وتوصَّلوا إلى الحرية)** الحقيقية **(والمُلك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقِّها والأنس بذكر الله تعالى والاشتغال بطاعته)** على الدوام **(وفعلوا بها ما يُفعَل بالبازي)** الذي يُتخَذ للصيد **(إذا قُصد تأديبه)** وتهذيبه **(ونقله عن توثُّبه وتوحُّشه)** كما هو من طبعه **(إلى الانقياد)** والامتثال للصائد **(والتأدُّب)** عند الإرسال والدعاء **(فإنه يُحبَس أولاً في بيت مظلم وتُخاط عيناه)** بأن يُجعل عليهما حجاب كالأقماع **(حتى يحصل به الفطام عن الطيران في جو الهواء وينسى ما كان قد ألفَه من طبع الاسترسال، ثم يُرفَق به باللحم)** قليلاً قليلاً على التدريج **(حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفًا، إذا دعاه أجابه، ومهما سمع صوته رجع إليه)** ولو كان بعيدًا **(وكذلك النفس لا تألف ربَّها ولا تأنس بذكره إلا إذا فُطمت عن عاداتها)** المألوفة **(بالخلوة والعزلة أولاً ليُحفظ السمع والبصر عن المألوفات)** العادية **(ثم عُوِّدت الثناء)** والتحميد والتقديس **(والذكر)** باللسان والقلب معًا **(والدعاء)** والتضرُّع والابتهال **(ثانيًا في الخلوة)** وعلى حين الغفلة من الناس **(حتى**

---

(١) هو الإمام الشافعي، والأبيات في ديوانه ص ١١٧ (ط - دار الأرقم).

(٢) صحيح البخاري ١/ ٥٤، ٣/ ٣٢٢، ٤/ ١٩٨. صحيح مسلم ٢/ ١٣١٥.

(٣) المعجم الكبير ١٤/ ٢٣٥.

يغلب عليها الأنس) والاطمئنان (بذكر الله تعالىٰ عوضًا عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات، وذلك يثقُل علىٰ المريد في البداية) أي في أول دخوله في السلوك (ثم يتنعَّم به) ويستلذُّه (في النهاية) أي عند انتهاء أمره في السلوك (كالصبي) الرضيع الذي (يُفطَم عن الثدي وهو) أي الفطم (شديد عليه) جدًّا (إذا كان) قد ألفَه (لا يصبر عنه ساعة، فلذلك) تراه (يشتد بكاؤه وجَزَعُه عند الفطام) ويهزل جسدُه ويصفرُّ لونه (ويشتد نفوره عن الطعام الذي يقدَّم إليه بدلاً عن اللبن، ولكنه إذا مُنع اللبن رأسًا يومًا بعد يوم وعظُم تعبُه في الصبر وغلبه الجوع تناول الطعام تكلُّفًا) وهلم جرًّا (ثم يصير له طبعًا) فيما بعد (فلو رُدَّ إلىٰ الثدي ثانيًا لم يرجع إليه، فيهجر الثدي ويعاف اللبن) أي يكرهه (ويألف الطعام. وكذلك الدابة في الابتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب فتُحمَل علىٰ ذلك قهرًا) عليها (وتُمنع عن الانسراح) والاسترسال (الذي ألفتْه بالسلاسل والقيود أولاً، ثم تأنس به بحيث تُترَك في موضعها فتقف فيه من غير قيد) ولا سلسلة (فكذلك تؤدَّب النفس كما تؤدَّب الطيور والدواب، وتأديبها بأن تُمنع عن الأشَر والبَطَر والفرح بنعيم الدنيا، بل بكل ما تزايله) أي تفارقه (بالموت فيقال لها: أحبِبْ ما أحببت فإنك مفارقه) روىٰ الترمذي[1] والبيهقي[2] من حديث أبي هريرة: «أحبِبْ حبيبَك هونًا ما عسىٰ أن يكون بغيضك يومًا ما ...» الحديث (فإذا علم أنه مَن أحب شيئًا يلزمه فراقُه) بالموت (ويشقىٰ لا محالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه) أبدًا (وهو ذكر الله تعالىٰ، فإن ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه، وكل ذلك يتم بالصبر أولاً أيامًا قلائل، فإن العمر قليل بالإضافة إلىٰ مدة حياة الآخرة) فإنها أبديَّة (وما من عاقل إلا وهو راضٍ باحتمال المشقَّة) والتعب (في سفره وتعلُّم صناعة وغير ذلك شهرًا ليتنعَّم به سنة أو دهرًا، وكل العمر بالإضافة إلىٰ الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلىٰ عمر

---

(١) سنن الترمذي ٣/ ٥٣٣.

(٢) شعب الإيمان ٨/ ٥١٥ - ٥١٧، ولم يسق لفظه، وقال: إنه هم، والصحيح أنه من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الدنيا، فلا بد من الصبر والمجاهدة، فعند الصباح يحمد القومُ السُّرَىٰ) وهو سير الليل، فمَن أسهر ليله ساريًا إلىٰ مقصوده فإذا أصبح ورأىٰ نفسه قد قطع مفاوز لم يمكن قطعُها في النهار يحمد نفسَه علىٰ حسن اجتهاده لنيله مقصوده، بخلاف مَن آثر الكسلَ واختار الراحة والنوم يندم إذا أصبح عليه النهارُ. وهذا مَثلٌ مشهور (وتذهب عنهم عمايات الكَرَىٰ، كما قاله علي رضي الله عنه[1]. وطريق الرياضة والمجاهدة لكل إنسان يختلف بحسب اختلاف أحواله، والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحُه من أسباب الدنيا، فالذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ) علىٰ العامَّة (أو بالعز في القضاء والولاية) للأعمال (أو بكثرة الأتباع) من الطلبة (في التدريس والإفادة) أو بكثرة المريدين في مشيخة الزاوية (فينبغي أن يترك أولاً ما به فرحُه) وابتهاجه (فإنه إن مُنع عن شيء من ذلك وقيل له: ثوابك في الآخرة لم ينقُص بالمنع، فكره ذلك وتألَّم به فهو ممَّن فرح بالحياة الدنيا واطمأن إليها، وذلك مهلك في حقِّه، ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتىٰ لا يشتغل إلا بذكر الله والفكر فيه) ويحفظ هذه الكيفية حتىٰ يرسخ فيه الذكرُ (وليترصَّد لِما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس) وخطرة (حتىٰ يقمع مادته مهما ظهر، فإن لكل وسوسة) ظهرت في القلب (سببًا) إما ظاهرًا وإما خفيًّا (ولا تزول) عنه (إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة) كما تقدم ذلك في الكتاب الذي قبله (وليلازم ذلك بقية العمر) علىٰ هذا المنوال (فليس للجهاد آخر إلا الموت) والسلام. إلا أنه قد يقع لهذا المجاهد الذاكر في أثناء اشتغاله أنوار ووقائع وأحوال، فينبغي له الإعراض عنها والاشتغال بالمقصود الحقيقي. ولله در القائل:

قال لي حسن كل شيء تجلَّىٰ بي تملَّىٰ فقلت قصدي وراكا[2]

والله الموفِّق.

---

(١) قال الزمخشري في المستقصىٰ ٢/ ١٩٢: «أي إذا أصبح الذين قاسوا كد السرىٰ وقد خلفوا تبجحوا بذلك وحمدوا ما فعلوا. يضرب في الحث علىٰ مزاولة الأمر بالصبر وتوطين النفس حتىٰ تحمد عاقبته».

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.

بيان علامات حسن الخلق

(اعلمْ أن كل إنسان) فهو (جاهل بعيوب نفسه، فإذا جاهد نفسَه أدنىٰ مجاهدة حتىٰ ترك فواحش المعاصي) وهي الظاهرة (ربما ظن بنفسه أنه قد هذَّب نفسه وحسَّن خلقه واستغنىٰ عن المجاهدة) وتم له الأمرُ في السلوك (فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق، فإنَّ حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالىٰ صفات المؤمنين والمنافقين) جميعًا (في كتابه) العزيز (وهي) أي تلك الصفات (بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق. فنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق) فقد (قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ إلىٰ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ [المؤمنون: ١ - ١٠] وقال تعالىٰ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٢﴾ [التوبة: ١١٢] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤] و) كذلك (قال تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾ إلىٰ آخر السورة) [الفرقان: ٦٣ - ٧٧] فهذه الأوصاف المذكورة للمؤمنين وعباده الصالحين (فمَن أشكل عليه حالُه فليعرض نفسه علىٰ هذه الآيات) هل يجد فيها من هذه الأوصاف شيئًا إما كلها أو بعضها (فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقدُ جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل علىٰ البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده) بالرياضة والتكلُّف (وحفظِ ما وجده) عن التغيُّر والتبُّدل.

(وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلىٰ محاسن الأخلاق فقال): «المؤمن مَن أَمِنه الناسُ علىٰ أموالهم وأنفسهم». وقال:

«المؤمن يألَف ويؤلَف». وقال: «المؤمن أخو المؤمن، يكفُّ عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه، ولا يَدَع نصيحته علىٰ كل حال». وقال: «المؤمن يَغار». وقال: «المؤمن غِرٌّ كريم، والفاجر خِب لئيم». وقال: «المؤمن يسير المؤنة». وقال: «المؤمن كَيِّس فَطِن». وقال: «المؤمن هيِّن ليِّن، حتىٰ تخاله من اللِّين أحمق». وقال: «المؤمن واهٍ راقع». وقال: «المؤمن إن ماشيتَه نفعك، وإن شاورته نفعك، وإن شاركته نفعك، وكل شيء من أمره منفعة». وقال: «المؤمن كالجمل الأَنِف، إن قِيدَ انقاد، وإن أُنيخَ علىٰ صخرة استناخ». وقال: «يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد في الرأس». وقال: (**المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه**[1]) هو في الصحيحين من حديث أنس بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه». ورواه كذلك ابن المبارك والطيالسي وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي، وزاد الخرائطي في مكارم الأخلاق: «من الخير». وقد رواه ابن عساكر من حديث يزيد القسري بزيادة: «والمسلم مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده، ولا يؤمن أحدكم حتىٰ يأمن جارُه شرَّه».

(**وقال ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**[2]) متفق عليه من حديث أبي شُرَيح الخُزاعي ومن حديث أبي هريرة. ورواه أيضًا الطبراني من حديث ابن عمر. ورواه أحمد من حديث أبي سعيد بزيادة: قالوا: وما كرامة الضيف؟ قال: «ثلاثة أيام، فما جلس بعد ذلك فهو [عليه] صدقة».

(**وقال ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جارَه**) متفق عليه من حديثهما أيضًا، وهو بعض الحديث الذي قبله. ورواه أبو نعيم في الحلية[3] والضياء من حديث أبي سعيد بلفظ: «فلا يؤذِ جاره». وكذلك رواه الخطيب[4] من حديث

(١) تقدم هذا الحديث في كتاب آداب الصحبة.
(٢) تقدم هذا الحديث في كتاب آداب الأكل.
(٣) حلية الأولياء ٨/ ٣٣٠.
(٤) تاريخ بغداد ١٢/ ٤٥٤.

أبي شُرَيح مقتصرًا علىٰ هذه القطعة. وعند[١] ابن النجار من حديث علي: «لا يؤمن بالله من لم يكرم جاره».

(وقال) ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت) متفق عليه من حديثهما أيضًا، وهو بعض الحديث الذي قبله. وقد رواه الطبراني[٢] مع الذي قبله فقط من حديث ابن عباس، ومع الجملة الأولىٰ فقط من حديث ابن عمر بزيادة «فليتَّقِ الله» قبل كلٍّ منهما[٣].

(وذكر) ﷺ (أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال: أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا) وفي لفظ «خلقًا». رواه أحمد وأبو داود والبيهقي والحاكم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم غير مرة.

(وقال ﷺ: «إذا رأيتم المؤمن صموتًا وقورًا فادنوا منه فإنه يلقَّىٰ الحكمة) قال العراقي[٤]: رواه ابن ماجه من حديث أبي خَلاَّد بلفظ: «إذا رأيتم الرجل قد أُعطي زهدًا في الدنيا وقلة منطق فاقترِبوا منه، فإنه يلقَّىٰ الحكمة». وقد تقدم[٥].

قلت: وقد رواه كذلك أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب، وروياه أيضًا من حديث أبي هريرة، وسنده ضعيف.

(وقال) ﷺ: (مَن سرَّته حسنتُه وساءته سيئته فهو مؤمن) أي[٦] كامل [الإيمان] لأن من لا يرىٰ للحسنة فائدة ولا للمعصية آفة فذلك يكون من استحكام

---

(١) كنز العمال ٩/ ٥٥.

(٢) المعجم الكبير ١٠/ ٤١٢.

(٣) لفظ حديث ابن عمر في المعجم الكبير ١٢/ ٤٢٤: «من كان يؤمن بالله ورسوله فليؤد زكاة ماله، ومن كان يؤمن بالله ورسوله فليقل خيرا أو ليسكت، ومن كان يؤمن بالله ورسوله فليكرم ضيفه».

(٤) المغني ٢/ ٧٤٢.

(٥) في الباب السادس من كتاب العلم.

(٦) فيض القدير ٦/ ١٥٢.

الغفلة علىٰ قلبه فإيمانه ناقص، بل يدل ذلك علىٰ استهانته بالدين.

قال العراقي[(١)]: رواه أحمد[(٢)] والطبراني والحاكم[(٣)] وصحَّحه علىٰ شرطهما من حديث أبي موسىٰ، ورواه الطبراني[(٤)] والحاكم[(٥)] وصحَّحه علىٰ شرطهما من حديث أبي أمامة.

قلت: رواه كذلك النسائي في الكبرىٰ[(٦)] والخطيب[(٧)] من حديث جابر بن سمرة: أن عمر بن الخطاب خطب الناسَ فقال: قال رسول الله ﷺ: مَن سرَّتْه ... إلىٰ آخره. وفي إسناد الطبراني إلىٰ أبي موسىٰ موسىٰ بن عبيدة، وهو ضعيف جدًّا[(٨)].

(وقال) ﷺ: (لا يحل لمؤمن أن يشير إلىٰ أخيه بنظرة تؤذيه) قال العراقي[(٩)]: رواه ابن المبارك في «الزهد والرقائق» وفي «البِر والصلة» مرسَلاً، وقد تقدم[(١٠)].

(وقال ﷺ: لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلمًا[(١١)]) أي يفزعه وإن كان هازلًا،

---

(١) المغني ٢/ ٧٤٣.

(٢) مسند أحمد ٣٢/ ٣٣٤.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٥٤.

(٤) المعجم الكبير ٨/ ١٣٨.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٥٤ - ٥٥.

(٦) السنن الكبرىٰ ٨/ ٢٨٤ - ٢٨٧.

(٧) تاريخ بغداد ٢/ ٥٨١ - ٥٨٢، ٥/ ٥٢١ - ٥٢٢، ٦/ ٥٦٥.

(٨) الذي في مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٢٦٢: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح ما خلا المطلب بن عبد الله فإنه ثقة ولكنه يدلس ولم يسمع من أبي موسىٰ فهو منقطع».
أما موسىٰ بن عبيدة فهو في إسناد حديث رواه الطبراني في الأوسط ٧/ ٢٧٠ عن علي بن أبي طالب بلفظ: «من ساءته سيئته فهو مؤمن».

(٩) المغني ٢/ ٧٤٣.

(١٠) في كتاب آداب الصحبة.

(١١) تقدم هذا الحديث في كتاب آداب الصحبة.

كإشارته بسيف أو حديدة أو أفعىٰ أو أخذ متاعه فيفزع لفقده؛ لِما فيه من إدخال الأذىٰ والضرر عليه.

قال العراقي[١]: رواه أبو داود من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ قال: حدثنا رجال من الصحابة ... فذكره مرفوعًا، وفي أوله قصة. ورواه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير، والبزار من حديث ابن عمر، وإسناده ضعيف.

قلت: ورواه من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ أيضًا أحمد والبغوي والبيهقي، وعندهم: عن أصحاب محمد أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلىٰ حبل معه فأخذه ففزعه، فذكره رسول الله ﷺ. وحديث ابن عمر رواه أيضًا الدارقطني في الأفراد. ورواه ابن المبارك في الزهد من حديث أبي هريرة. وبخط الحافظ ابن حجر علىٰ هامش المغني: ورواه إسحاق ابن راهويه من حديث أبي هريرة، وأبو نعيم في تاريخه[٢] من حديث أنس.

(وقال ﷺ: إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله تعالىٰ، فلا يحل لأحدهما أن يفشي علىٰ أخيه ما يكرهه) من[٣] إفشائه، ففيه حفظُ المسلم سر أخيه وتأكُّد الاحتياط لحفظ الأسرار لا سيَّما عن الأشرار. رواه ابن لال وأبو الشيخ من حديث ابن مسعود بسند ضعيف. ورواه البيهقي في الشعب مرسلاً وقال: هذا مرسَل جيد. وقد تقدَّم في كتاب آداب الصحبة.

(وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: هو أن يكون كثير الحياء) من الله ومن الناس **(قليل الأذىٰ)** لجاره ولصاحبه **(كثير الصلاح)** في عمله وشأنه

---

(١) المغني ٢/ ٧٤٣ - ٧٤٤.

(٢) تاريخ أصبهان ١/ ٢٨١، ٢/ ١٣٣.

(٣) فيض القدير ٢/ ٥٦٩.

(صدوق اللسان) في جميع أقواله (قليل الكلام) في محاوراته (كثير العمل) بجوارحه (قليل الزَّلَل) في حركاته وسكناته (قليل الفضول) في منطقه ومأكله وملبسه ومَشربه (بَرًّا) بوالديه وأشياخه وأصحابه (وَصُولاً) لذي رحمه وجيرانه (وقورًا) في مجلسه (صبورًا) علىٰ الطاعة وقصد المعيشة (شكورًا) لنعمة الله تعالىٰ ولمَن وصلتُه علىٰ يديه (راضيًا، حليمًا) عند غضبه (رفيقًا) بعياله وبمَن يخالله (عفيفًا، شفيقًا) علىٰ المساكين (لا) هو (لَعَّان) كثير اللعن (ولا سَبَّاب) كثير الشتم (ولا نَمَّام) بين اثنين (ولا مغتاب) لإخوانه (ولا عَجُول) في أموره (ولا حقود) علىٰ أحد (ولا بخيل) بماله (ولا حسود) إن رأىٰ نعمة علىٰ غيره (هَشَّاش بَشَّاش) أي منطلق الوجه واللسان (يحب في الله) ورسوله (ويبغض في الله) ورسوله (ويرضىٰ في الله، ويغضب في الله. فهذا هو حُسن الخلق.

وسُئل رسول الله ﷺ عن علامة المؤمن والمنافق، فقال: إن المؤمن همَّته في الصلاة والصيام والعبادة، وإن المنافق همَّته في الطعام والشراب كالبهيمة) قال العراقي[1]: لم أجد له أصلاً.

قلت: ويشهد له قولُه تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: ١٢].

(وقال حاتم) بن علوان (الأصم) رحمه الله تعالىٰ، تلميذ شقيق البلخي، تقدمت ترجمته في كتاب العلم (المؤمن مشغول بالفكر) أي بالتفكُّر في نفسه (والعبر) أي بما يعتبر به (والمنافق مشغول بالحرص) علىٰ حوز شهواته (والأمل) أي طوله (والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله) أي آيس ممَّا في أيدي الناس (والمنافق راجٍ كل أحد إلا الله، والمؤمن آمِن من كل أحد إلا من الله، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله، والمؤمن يقدِّم ماله دون دينه) إذ الدين عظيم عنده،

---

(١) المغني ٢/ ٧٤٤.

مُهاب لديه، فيهون بماله، ولا يهون بدينه (**والمنافق يقدِّم دينه دون ماله**) لأنه لا مهابة للدين عنده (**والمؤمن يُحسِن**) عمله (**ويبكي**) خوفًا أن لا يُقبَل (**والمنافق يسيء**) عمله (**ويضحك**) لغفلته عن الخاتمة (**والمؤمن يحب الوحدة والخلوة**) عن الناس لسلامة دينه وحاله (**والمنافق يحب الخلطة والملأ**) من الناس ليأنس بهم (**والمؤمن يزرع ويخشىٰ الفساد**) أي يُثبِت العملَ كما ينبغي ويخشىٰ عاقبةَ أمره (**والمنافق يقلع**) ما زرعه قبل بلوغه (**ويرجو الحصادَ**) وأنَّىٰ له ذلك؟! (**والمؤمن يأمر وينهىٰ للسياسة فيُصلِح**) أمورَ العامة (**والمنافق يأمر وينهىٰ للرياسة**) أي لأجل تحصيلها (**فيُفسِد**) حالَهم.

وقال أبو نعيم في الحلية[١]: حدثنا محمد بن الحسين قال: سمعت أبا علي سعيد بن أحمد البلخي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت محمد بن الليث يقول: سمعت حامدًا اللَّفَّاف يقول: سمعت حاتمًا يقول: المنافق ما أخذ من الدنيا أخذ بحرص ويمنع بالشك وينفق بالرياء، والمؤمن يأخذ بالخوف ويمسك بالشدة وينفق لله خالصًا في الطاعة.

وقال[٢] في ترجمة شقيق من طريق حاتم الأصم قال: سمعت شقيقًا يقول: مثل المؤمن كمثل رجل غرس نخلة وهو يخاف أن تحمل شوكًا، ومثل المنافق كمثل رجل زرع شوكًا وهو يطمع أن يحصد ثمرًا، هيهات هيهات! كل مَن عمل حسنًا فإن الله لا يجزيه إلا حسنًا. وقال أيضًا: المؤمن مشغول بخصلتين، والمنافق مشغول بخصلتين، المؤمن بالعبر والتفكُّر، والمنافق بالحرص والأمل.

(**وأَولىٰ ما يُمتحَن به حسن الخلق الصبر علىٰ الأذىٰ واحتمال الجفاء**) كما كان عليه ﷺ من صبره علىٰ أذىٰ قريش واحتماله لجفائهم (**ومَن شكىٰ من سوء**

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٧٨ - ٧٩.

(٢) السابق ٨/ ٧١.

خلق غيره فيدل ذلك علىٰ سوء خلقه) لأن شكايته دلَّت علىٰ عدم احتماله **(لأن حسن الخلق)** هو **(احتمال الأذىٰ، فقد رُوي أن رسول الله ﷺ كان يومًا يمشي ومعه أنس)** بن مالك رضي الله عنه **(فأدركه أعرابي)** من جُفاة العرب **(فجذبه)** بردائه **(جذبًا شديدًا، وكان عليه)** ﷺ **(بُرْد نجراني)** منسوب إلىٰ نَجْران: بلد[1] من بلاد هَمْدان باليمن، قال البكري[2]: سُمِّيت باسم بانيها نجران بن زيد [بن سبأ] ابن يشجُب بن يعرُب بن قحطان **(غليظ الحاشية، قال أنس: حتىٰ نظرتُ إلىٰ عنق رسول الله ﷺ قد أثَّرت فيه حاشية البُرْد من شدة جذبه، ثم قال)** الأعرابي: **(يا محمد، هَبْ لي من مال الله الذي عندك)** فإنك لا تعطيني من مالك ولا مال أبيك **(فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر)** له **(بعطائه)** رواه البخاري[3] ومسلم[4] من حديث أنس.

(ولما أكثرت قريش ضربه وإيذاءه قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. قيل: إن هذا يوم أُحد، فلذلك قال الله تعالىٰ) مخاطبًا له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾) [القلم: ٤] رواه[5] ابن حبان[6] والبيهقي في دلائل النبوة[7] من حديث سهل ابن سعد. وفي الصحيحين[8] من حديث ابن مسعود أنه حكاه ﷺ عن نبي من الأنبياء ضربه قومه.

(وحُكي[9] عن إبراهيم بن أدهم) رحمه الله تعالىٰ **(أنه خرج يومًا إلىٰ بعض**

---

(١) المصباح المنير ص ٥٩٤.

(٢) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ٤/ ١٢٩٨.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٤٠٤، ٤/ ٥٨، ١٠٨.

(٤) صحيح مسلم ١/ ٤٦٦.

(٥) المغني للعراقي ٢/ ٧٤٤.

(٦) صحيح ابن حبان ٣/ ٢٥٤.

(٧) دلائل النبوة ٣/ ٢١٥.

(٨) صحيح البخاري ٢/ ٤٩٩، ٤/ ٢٨٠. صحيح مسلم ٢/ ٨٦٢.

(٩) هذه الحكايات التي ذكرها الغزالي من احتمال الصالحين للأذىٰ أوردها القشيري في الرسالة ص ٤١٠ - ٤١٥.

البراري، فاستقبله رجل جندي) منسوب إلىٰ الجُند، أي العسكر **(فقال له: أنت عبد؟ فقال: نعم. قال: أين العمران؟ فأشار إلىٰ المقبرة)** أي محلَّة الموتىٰ **(فقال الرجل: إنما أردتُ العمران. فقال: هو المقبرة. فغاظه ذلك)** أي أغضبه **(فضرب رأسه بالسوط فشجَّه)** وسال منه دمٌ **(وردَّه إلىٰ البلد، فاستقبله أصحابه فقالوا: ما هذا؟ فأخبرهم الجندي بما قال له، فقالوا: هذا إبراهيم بن أدهم. فنزل الجندي عن دابَّته فقبَّل يديه ورجليه، وجعل يعتذر إليه، فقيل له بعد ذلك: لِمَ قلتَ أنا عبد؟ قال: إنه لم يسألني أنت عبد مَن، بل قال لي: أنت عبد؟ فقلت: نعم؛ لأني عبدُ الله، فلما ضرب رأسي سألتُ الله له الجنة. فقيل له: إنه ظلمك)** فكيف سألتَ الله له الجنة؟ **(فقال: علمتُ أني أؤجر علىٰ ما نالني منه، فلم أحب أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر.**

ودُعي أبو عثمان) سعيد[(١)] بن إسماعيل **(الحِيري)** المقيم بنيسابور [وكان من الري] صحب شاه الكِرْماني ويحيىٰ بن معاذ الرازي، ثم ورد نيسابور مع شاه الكرماني علىٰ أبي حفص الحدَّاد، وأقام عنده، وتخرَّج به، وزوَّجه أبو حفص ابنته، مات سنة ٢٩٨ **(إلىٰ دعوة)** بنيسابور **(وكان الداعي)** له **(يريد تجربته)** أي امتحانه **(فلما بلغ منزله قال له: ليس لي وجه هذا. فرجع أبو عثمان، فلما ذهب غير بعيد جاءه ثانيًا فقال: ترجع علىٰ ما يوجب الوقت. فرجع، فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولىٰ، فرجع أبو عثمان، ثم جاءه الثالثة، فردَّه، حتىٰ عامله بذلك مرات، وأبو عثمان لم يتغيَّر من ذلك)** هكذا في نسخ الكتاب، وفي بعضها: وحُكي أن بعض تلامذة أبي عثمان الحيري دعاه إلىٰ دعوة، وكان قد أراد تجربته، فلما بلغ المنزل قال له: يا أستاذ، ارجع. فرجع أبو عثمان، ثم دعاه الثانية، فقال: ارجعْ بما يوجب الوقت. فرجع، فلما بلغ البابَ قال: ارجع. فرجع، حتىٰ عامله بذلك مرات وهو لا يتغيَّر **(فأكبَّ علىٰ رجليه فقال: يا أستاذ، إنما أردت أن أختبرك، فما أحسن خلقك!**

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٨١.

فقال) أبو عثمان: (إن الذي رأيتَ مني هو خلق الكلب) وذلك (لأن الكلب إذا دعي أجاب، وإذا زُجر انزجر) وهذا فيه هضم جانب النفس، وعدم الإعجاب بما عمله، والإرشاد للداعي بما فيه الصلاح له.

(ورُوي أن أبا عثمان) هذا (اجتاز) أي مر (يومًا بسكَّة) من سكك نيسابور (فطُرحت عليه إجَّانة رماد) من فوق بيت من البيوت المطلَّة علىٰ السكة (فنزل عن دابَّته فسجد سجدة الشكر، وجعل ينفض الرماد عن ثيابه، ولم يقل شيئًا، فقيل) له: (ألا زبرتهم)؟ أي زجرتَهم (فقال: إن من استحق النارَ فصولح علىٰ الرماد لم يجُزْ له أن يغضب) وهذا غاية من سعة الخلق.

(ورُوي أن) أبا الحسن (علي بن موسىٰ) بن[1] جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، يلقَّب (الرِّضا) بكسر الراء وفتح المعجمة، صدوق، روىٰ له ابن ماجه، مات سنة ثلاث ومائتين ولم يُكمِل الخمسين. ووالده يلقَّب الكاظم، وجده الصادق (كان يميل لونه إلىٰ السواد؛ إذ كانت أمه سوداء) أم ولد يقال لها: أم البنين، نوبية اسمها خيزران، أو مسكن، أو شهدة، والأول أصح (وكان له بنيسابور علىٰ باب داره حمَّام، وكان إذا أراد دخول الحمام فُرِّغ له الحمام) أي أُخلي له (فدخل ذات يوم، فأُطبِق باب الحمام، ومر الحمامي إلىٰ) قضاء (بعض حوائجه، فتقدم إنسان رستاقيٌّ) أي من سواد البلد (إلىٰ باب الحمام ففتحه ودخل ونزع ثيابه فدخل) الحمام (فرأىٰ علي بن موسىٰ الرضا، فظن أنه بعض خُدَّام الحمام، فقال له: قم فاحملْ إليَّ الماء. فقام علي بن موسىٰ وامتثل جميعَ ما كان يأمره به، فرجع الحمامي فرأىٰ ثياب الرستاقي، وسمع كلامه مع علي بن موسىٰ الرضا، فخاف وهرب وخلاَّهما، فلما خرج علي بن موسىٰ سأل عن الحمامي، فقيل له: إنه خاف ممَّا جرىٰ فهرب. فقال: لا ينبغي له أن يهرب، إنما الذنب لمَن وضع ماءه عند أمة سوداء) فهذا من كمال حسن خلقه، حيث لم يعاقب

---

(١) تقريب التهذيب ص ٧٠٥.

الحمامي ولم يغضب عليه، وامتثل للرستاقي في أوامره.

(ورُوِيَ أن أبا عبد الله الخياط) أحد رجال الله الصالحين **(كان يقعد علىٰ دكَّانه، وله حريف مجوسي)** أي صاحب [حرفة] **(يستعمله في الخياطة، وكان إذا خاط له ذلك**(١) **المجوسي شيئًا حمل إليه دراهم زيوفًا)** أي رديئة **(وكان أبو عبد الله يأخذها منه ولا يخبره بذلك ولا يردُّها عليه، فاتفق يومًا)** وفي نسخة: فقُضي. من القضاء **(أن أبا عبد الله قام)** يومًا من الحانوت **(لبعض حاجته، فتقدم المجوسي إلىٰ تلميذه واسترجع ما خاطه ودفع إليه درهمًا زائفًا)** وفي بعض النسخ: فأتىٰ المجوسي، فلم يجده، فدفع إلىٰ تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهمًا زائفًا **(فلما نظر فيه التلميذ وعرف أنه زائف ردَّه عليه، فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك، فقال)** له: **(بئس ما عملتَ، هذا المجوسي يعاملني بهذه المعاملة منذ مدة)** وفي نسخة: منذ سنة **(وأنا أصبر عليه فآخُذ الدراهم منه وألقيها في البئر كيلا يغرَّ بها مسلمًا)** وفي نسخة: فآخذ منه الدرهم وألقيه في البئر لئلاَّ يغرَّ به مسلمًا.

(وقال يوسف بن أسباط) رحمه الله تعالىٰ، تقدم ذِكره مرارًا: **(علامة حسن الخلق عشرة أشياء: قلة الخلاف)** أي مع الأصحاب **(وحسن الإنصاف)** أي من نفسه **(وترك طلب العثرات)** من إخوانه **(وتحسين ما يبدو من السيئات)** أي حملُها علىٰ أحسن مواضعها **(والتماس المعذرة)** لهم **(واحتمال الأذىٰ)** منهم **(والرجوع باللائمة علىٰ نفسه، والتفرُّد بمعرفة عيوب نفسه دون معرفة عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمَن دونه ولمن فوقه)**(٢) أي فإذا وُجدت هذه الأوصاف دلَّت علىٰ حسن الخلق.

---

(١) كذا في الزبيدي وصوابها: له ذلك.

(٢) هذا الكلام نسبه السلمي في كتاب الفتوة ص ٧٦ إلىٰ شيخه أبي الحسين محمد بن أحمد ابن سمعون البغدادي الواعظ، وفيه بعد قوله (والكبير): «وبذل المعروف والنصيحة للخلق، وقبول النصيحة منهم، ومؤاخاة الأولياء، ومداراة الأعداء».

(وسُئل) أبو محمد (سهل) التستري رحمه الله تعالىٰ (عن حسن الخلق) ما هو؟ (فقال): هو علىٰ مراتب (أدناه احتمال الأذىٰ، وترك المكافأة، والرحمة للظالم، والاستغفار له، والشفقة عليه[١]).

وقيل للأحنف بن قيس) بن[٢] معاوية التميمي البصري، وهو لقب له، واسمه الضحاك، وقيل: صخر، وكان مشهورًا بالحلم، مات سنة سبع وستين بالكوفة، روىٰ له الجماعة (ممَّن تعلَّمت حسن الخلق؟ فقال: من قيس بن عاصم) بن[٣] سنان بن خالد المِنْقَري التيمي الصحابي رضي الله عنه، مشهور بالحلم، نزل البصرة (قيل: وما بلغ من خلقه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ جاءت خادمة له بسَفُّود عليه شواء، فسقط من يدها فوقع علىٰ ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية، فقال لها: لا روعة عليكِ، أنت حرة لوجه الله تعالىٰ[٤]).

وقيل: كان أُوَيس) بن عامر (القَرَني) بالتحريك نسبة إلىٰ قبيلة من مراد[٥]، وهو سيد التابعين في قول (إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة، فكان يقول لهم: يا إخوتاه، إن كان ولا بد فارموني بالصغار) منها (كيلا تدموا ساقي فتمنعوني من الصلاة) فهذا كمال ملاطفته لهم، وهو دليل حسن الخلق.

(وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه، وكان يتبعه، فلما قرُب من الحي وقف وقال: إن كان قد بقي في قلبك شيء فقلْه كيلا يسمعك بعض سفهاء الحي فيجيبك).

وقال أبو بكر ابن الأنباري: أخبرني أبي عن أحمد بن عبيد قال: بينا الأحنف

---

(١) تقدم هذا الأثر في: بيان حقيقة حسن الخلق.

(٢) تهذيب الكمال ٢/ ٢٨٢ - ٢٨٧.

(٣) تقريب التهذيب ص ٨٠٥.

(٤) تقدمت هذه القصة في كتاب آداب الصحبة.

(٥) وهم بنو قرن بن ردمان بن ناجية بن مراد، من القحطانية. معجم قبائل العرب ٣/ ٩٤٦.

في الجامع بالبصرة إذا رجل قد لطمه، فأمسك الأحنف يده علىٰ عينه وقال: ما شأنك؟ فقال: اجتعلت جعلاً علىٰ أن ألطم سيد بني تميم. فقال: لست سيدهم، إنما سيدهم جارية بن قدامة، وكان جارية في المسجد، فذهب الرجل فلطمه. قال: فأخرج جارية من خُفِّه سكينًا فقطع يده وناوله، فقال له الرجل: ما أنت قطعتَ يدي، إنما قطعها الأحنف بن قيس. أوردها المزي[1] في ترجمة جارية بن قدامة.

(ورُوي أن عليًّا كرَّم الله وجهه دعا) يومًا **(غلامًا له، فلم يجبْه، فدعاه ثانيًا وثالثًا، فلم يجبْه، فقام إليه، فرآه مضطجعًا، فقال: أما تسمع يا غلام؟ فقال: بلىٰ)** سمعتُ **(قال: فما حملك علىٰ ترك جوابي؟ قال: أمِنت عقوبتَك فتكاسلت)** عن القيام لندائك **(فقال: امضِ فأنت حر لوجه الله تعالىٰ)** ففيه كظمُ الغيظ والإحسان التام إليه بالعتق، وهما من جملة حسن الخلق.

(وقالت امرأة لمالك بن دينار) البصري **(رحمه الله تعالىٰ: يا مُرائي. فقال: يا هذه، وجدتِ اسمي الذي أضلَّه أهل البصرة)**[2] فهذا فيه احتمال لأذاها وصبر علىٰ جفائها واتهام نفسه بهواها، وهو دليل حسن الخلق.

(وكان ليحيىٰ بن زياد الحارثي غلام سوء، فقيل له: لِمَ تمسك هذا الغلام؟ قال: لأتعلَّم عليه الحلم)[3].

---

(١) تهذيب الكمال ٤/ ٤٨٣. وهذه القصة رواها أبو أحمد العسكري في تصحيفات المحدثين ص ٥١٩ (ط - المطبعة العربية الحديثة) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧٢/ ٢١.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣٣٩، والبيهقي في شعب الإيمان ١١/ ٣١، والخطيب البغدادي في الزهد ص ٩٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٦/ ٢٠. كلهم من طريق بشر بن الحارث قال: قال رجل لمالك بن دينار: يا مرائي، قال: متىٰ عرفت اسمي؟ ما عرف اسمي غيرك.

(٣) روىٰ البيهقي في شعب الإيمان ١١/ ٩٠ نحوه عن أبي عمرو بن العلاء قال: زرت يوما العلاء بن زيد، فأقمت يومي عنده إلىٰ المساء، فرأيت له غلاما يخدمه، ما رأيت غلاما أقل طاعة وأكثر خلافا لمولاه منه، فقلت له: يا أبا سالم، ما تصنع بهذا؟ أبعده أو بعه واستبدل به. فقال لي: والله ما أمسكه إلا لخلة. قلت: وما هي؟ قال: أتعلم عليه الحلم.

فهذه النفوس قد ذُلِّلت بالرياضة) والمجاهدة (فاعتدلت أخلاقها، ونُقِّيت من الغش والغل والحقد بواطنها) وطهرت من عاداتها الرديئة سرائرها (فأثمرت الرضا بكل ما قدَّره الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا منتهَىٰ حسن الخلق، فإنَّ مَن يكره فِعل الله ولا يرضىٰ به فهو غاية سوء خلقه، فهؤلاء ظهرت العلامات علىٰ ظواهرهم كما ذكرناه، فمَن لم يصادف من نفسه هذه العلامات) ولم يظهر منها شيء علىٰ ظاهره (فلا ينبغي أن يغترَّ بنفسه فيظن بها حسن الخلق، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة) علىٰ الدوام (إلىٰ أن يبلغ درجةَ حسن الخلق) وكلٌّ يُعطَىٰ علىٰ قدر اجتهاده ونصيبه الذي كُتب له (فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقرَّبون والصدِّيقون) ومَن سلك سلوكهم. والله الموفِّق.

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

(اعلمْ أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة) من الله تعالىٰ **(عند والديه)** لأنه نعمة أُنعِم بها والداه **(وقلبه الطاهر)** عن كل كدر **(جوهرة نفيسة)** ثمينة **(ساذجة، خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نُقش)** كما أن كل جوهر ساذج مستعد لقبول كل نقش وصورة **(ومائل إلىٰ كل ما يُمال به إليه)** خيرًا أو شرًّا **(فإن عُوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه وسعد في الدنيا الآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكلُّ معلِّم له ومؤدِّب)** بأن يُثبَت مثل ذلك في صحائف أعمالهم **(وإن عُوِّد الشر وأُهمِل إهمال البهائم شقيَ وهلك، وكان الوزر في رقبة القيِّم عليه والوالي له)** كيف لا **(وقد قال الله تعالىٰ)** في كتابه العزيز: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾) أي احفظوها (﴿وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾) [التحريم: ٦] والأصل[١] في الأهل القرابة، وقد يطلق علىٰ الأتباع، والجمع: الأهلون **(ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا)** أن تصيبه **(فبأن يصونه من نار الآخرة أَولىٰ، وصيانته بأن يؤدِّبه ويهذِّبه ويعلِّمه محاسن الأخلاق)** ومكارمها وصالحها **(ويحفظه من القرناء السوء، ولا يعوِّده التنعُّم، ولا يحبِّب إليه الزينة وأسباب الرفاهية)** أي سعة العيش **(فيضيع عمره في طلبها إذا كبر)** علىٰ تلك العادة **(فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره)** وحيث قال «من أول أمره» فهو منسحب علىٰ الأوَّلية من حين ولادته إلىٰ أن يُفطَم، فلزم بيانُ ما يحتاج إليه في أثناء ذلك، فنقول: إذا[٢] وُلد المولود يجب أن يبدأ أول كل شيء

---

(١) المصباح المنير ص ٢٨.

(٢) ذكر الزبيدي نحو هذا الكلام في الأدب الحادي عشر من كتاب النكاح وهو آداب الولادة. وهو مأخوذ عن كتاب القانون في الطب لابن سينا ١/ ٢٠٣ - ٢٢٠.

بقطع السُّرَّة، وهو جسم كالمصران متصل بسرَّته منه، ويكون القطع فوق أربع أصابع، وإنما وجب قطعُ هذا الجسم لأنه لو بقي علىٰ طوله لتعفَّن وتضرَّرَ الصبي برائحته، وربما وصلت عفونته إلىٰ السرة، وإنما جُعل القطع فوق أربع أصابع؛ لأنه لو كان أقل من ذلك لتألَّم المولود به تألُّمًا شديدًا، ثم بعد شدِّها يبادر إلىٰ تمليح البدن لتصلب بشرتُه ويقوىٰ جلده، فإن كان ذكرًا ينبغي أن يُكثِر الملحَ؛ لأنه أحوج إلىٰ صلابة البدن؛ ليكون صبورًا علىٰ ما يلقاه من المشقَّات، بخلاف الأنثىٰ، ولا يملح أنفه ولا فمه، ثم تغسله القابلة بماء فاتر، وتنقِّي منخريه دائمًا بأصابع مقلَّمة الأظفار، ويدغدغ دبره لينفتح، ثم في وقت القِماط يشكل كل عضو علىٰ أحسن شكله بغمز لطيف، ثم يعمَّم أو يُقلنَس بقلنسوة لطيفة مهندمة علىٰ رأسه، وينوَّم في محل معتدل [الهواء] مائل إلىٰ الظلمة حفظًا لروحه الباصرة، ويغطَّىٰ المهد بخرقة إسمانجونية. والطفل يبكي إما لوجع يناله أو حر أو برد أو جوع أو من قمل وبراغيث وبق يؤذيه، فإن كان شيء من ذلك فالواجب أن يبادر إلىٰ دفعه. وأما كيفية إرضاعه فإنه يجب أن يُرضع ما أمكن بلبن أمه، فإنه أشبهُ الأغذية بجوهر ما سلف من غذائه وهو في الرحم، أعني طمث أمِّه، فإنه بعينه هو المستحيل لبنًا؛ لاشتراك الرحم والثدي في الوريد الغاذي لهما، ووقت الحمل يتوجَّه دم الطمث بالكلية إلىٰ الرحم لغذاء الجنين، وبعد انفصاله إلىٰ الثديين لغذائه أيضًا، وهو أقبلُ لذلك وآلفُ حتىٰ إنه صح بالتجربة أن إلقامه حلمة أمه عظيم النفع جدًّا في دفع ما يؤذيه؛ لأنه يلهيه ويشغله عمَّا يؤذيه. ومن الواجب مع ذلك أن يُلزَم الطفل علىٰ شيئين نافعين لتقوية مزاجه، أحدهما: التحريك اللطيف، والآخر: الموسيقىٰ والتلحين الذي جرت به العادةُ لتنويم الأطفال. فالتحريك سبب انتعاش الحرارة الغريزية، والتلحين يوقف به علىٰ استعداده للرياضة. وإن منع من إرضاعه لبن والدته مانعٌ من ضعفها أو فساد لبنها أو ميله إلىٰ الرقة فينبغي أن يختار له مرضعة، وإليه أشار المصنف بقوله: (**فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة**) يكون سنُّها ما بين خمس وعشرين سنة إلىٰ خمس وثلاثين سنة، فإن هذا هو سن الشباب والصحة.

وتكون حسنة اللون؛ لأن ذلك تابع لاعتدال مزاجها، وتكون ناعمة البشرة، قوية العنق، واسعة الصدر، متوسطة في السِّمَن والهزال، لحمانية لا شحمانية **(صالحة)** حسنة الأخلاق محمودتها، بطيئة الانفعالات النفسانية الرديئة من الغضب والغم والجبن وغير ذلك، فإن جميع ذلك يُفسِد المزاجَ، وتكون (متديِّنة) ملازمة علىٰ أمور دينها من كل ما يجب عليها **(تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبث، فيميل طبعه إلىٰ ما يناسب الخبائث)** والطفل يُعدَىٰ بالرضاع، ولذلك ورد النهي عن استرضاع المجنونة. ثم إذا جعلت ثناياه تظهر نُقل إلىٰ الغذاء الذي هو أقوىٰ [بالتدريج] من غير أن يُعطَىٰ شيئًا صلب المضغ. وبالجملة، فتدبير الأطفال هو الترطيب لمشاكلة مزاجهم لذلك والحاجة إليه في تغذيته ونموه، والرياضة المعتدلة في الكيف الكثيرة في الكم كالطبيعي لهم، وكأنَّ الطبيعة تتقاضاهم بها، وذلك لاحتياجهم إليه لدفع الفضول المجتمعة ولا سيَّما إذا جاوزوا الطفولة إلىٰ الصبا. ثم إذا فُطم نُقل إلىٰ ما هو من جنس الأحساء واللحوم الخفيفة، ويجب أن يكون الفطام بالتدريج لا دفعة واحدة، والمدة الطبيعية للرضاع سنتان؛ لأنها مدة نبات أكثر أسنانه وتصلُّب أعضائه حتىٰ يقبل غيرَ اللبن من الأغذية. وإذا أخذ ينهض ويتحرك فلا ينبغي أن يمكَّن من الحركات العنيفة. وإذا جعلت الأنياب تتفطَّر مُنعوا أكل صلب المضغ. والغرض المقدَّم في معالجة أمراض الصبيان هو تدبير المرضعة؛ لأن من خواص الأطفال أن يكون علاجهم بوجهين، أحدهما: بتدبير أنفسهم، وثانيهما: بتدبير مرضعتهم، وهو مقدَّم بالفضيلة علىٰ تدبيرهم. فإذا انتقلوا إلىٰ سن الصبا يجب أن تكون العناية مصروفة إلىٰ مراعاة أخلاق الصبي، وذلك بأن يُحفَظ كيلا يحدث له غضب أو خوف شديد أو غم شديد، وذلك بأن يتأمَّل كل وقت ما الذي يشتهيه ويحنُّ إليه فيقرَّب إليه، وما الذي يكرهه فينحَّىٰ عن وجهه، وفي ذلك منفعتان، إحداهما في نفسه بأن ينشأ من الطفولة حسن الأخلاق ويصير ذلك ملكة له لازمة، والثانية لبدنه، فإنه كما أن الأخلاق الرديئة تابعة لأنواع سوء المزاج فكذلك إذا

حدثت من العادة استتبعت سوء المزاج المناسب لها، فإن الغضب يسخِّن جدًّا، والغم يجفِّف جدًّا، والتبليد يرخي القوىٰ النفسانية ويميل بالمزاج إلىٰ البلغمية.

(ومهما بدا فيه مخايل التمييز) وهو إذا دخل في ست أو سبع (**فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء**) فيه (**فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال**) وذلك عند رؤية من يحتشم منه (**فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حتىٰ رأىٰ بعض الأشياء قبيحًا ومخالفًا للبعض، فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه**) الحالة إذا تيسَّرت فيه (**هدية من الله تعالىٰ إليه، وبشارة تدل علىٰ اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشِّر بكمال العقل عند البلوغ**) وهذه الحالة كالدلالة عليه (**فالصبي المستحي لا ينبغي أن يُهمَل، بل يُستعان علىٰ تأديبه بحيائه وتمييزه، فأول ما يغلب عليه من الصفات**) الخبيثة (**شَرَهُ الطعام**) أي الحرص عليه (**فينبغي أن يؤدَّب فيه**) علىٰ أدب الشرع (**مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه، وأن يقول «بسم الله» عند أخذه، وأن يأكل ممَّا يليه**) منفردًا أو مع جماعة (**وأن لا يبادر إلىٰ الطعام قبل غيره**) بل يصبر عن مدِّ اليد حتىٰ يمد غيرُه (**وأن لا يحدِّق النظرَ إلىٰ الطعام**) أي لا يطيل بحدقته [النظر] إليه (**ولا إلىٰ من يأكل، وأن لا يسرع في الأكل، وأن يمضغ الطعام مضغًا جيدًا**) بأسنانه (**وأن لا يوالي**) أي لا يتابع (**بين اللُّقَم**) فإن كل ذلك من أمارات الشَّرَه ودناءة النفس والهمَّة، فينبغي أن يجنَّب من ذلك (**ولا يلطِّخ يده**) بالطعام غير أصابعه الثلاثة (**ولا ثوبه**) بأن يتساقط عليه شيء منه، فإن كُلاًّ منهما يدلان علىٰ الدناءة (**وأن يعوَّد الخبز القفار**) أي اليابس وحده (**في بعض الأوقات حتىٰ لا يصير بحيث يرىٰ الأدم**) معه (**حتمًا**) لازمًا (**ويقبِّح عنده كثرة الأكل بأن يشبِّه كل من يُكثِر الأكل بالبهائم**) فإنه بتمييزه يدرك أن التشبُّه بالبهائم مسترذَل (**ثم بأن يذم بين يديه الصبي الذي يُكثِر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدِّب القليل الأكل**) فتراه أبدًا يميل إلىٰ الممدوح ويهرب من المذموم (**وأن يحبِّب إليه الإيثار بالطعام**) للغير (**وقلة المبالاة به، والقناعة بالطعام الخشن أيِّ طعام كان**)

وعدم الميل إلىٰ الليِّن منه (وأن يحبب إليه من الثياب) في اللبس (البِيض دون الملوَّن) بالألوان المختلفة (و) دون ثياب (الإبريسم) والخَز (ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنَّثين) المتشبِّهين بالنساء (وأن الرجال يستنكفون منه) ويُعرِضون عنه (ويكرر عليه ذلك) حتىٰ يرسخ في ذهنه (ومهما رأىٰ علىٰ صبي ثوبًا من إبريسم أو ملوَّن فينبغي أن يُستنكَر) منه (ويُذم) ذلك، ويأمره بخلعه (ويحفظ الصبي عن) معاشرة (الصبيان الذين عُوِّدوا التنعُّم والترفُّه ولبس الثياب الفاخرة) فإن ذلك يحمله علىٰ أن يكلِّف أبويه بمثل لبسهم (و) يُحفَظ أيضًا (عن مخالطة كل من يسمعه ما يرغِّبه فيه، فإن الصبي إذا أُهمِل في ابتداء نشوئه خرج في الأكثر رديء الأخلاق: كذابًا، حسودًا، سروقًا، نَمَّامًا، لَجُوجًا، ذا فضول) في الكلام (وضحك وكياد) أي مكايدة (ومجانة) أي صاحب مجون وهو الهزل من الكلام (وإنما يُحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب) والتعليم (ثم) ينبغي أن (يشتغل في المكتب) عند المؤدِّب (بتعلُّم القرآن) أولاً بترتيبه المعهود في بلده من تقديم حروف الهجاء إفرادًا ثم تركيبًا (وبأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم) ثانيًا (لينغرس حب الصالحين في قلبه) فينشأ عليه (ويُحفَظ من) قراءة (الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله) وحكاياتهم وما جرىٰ لهم، فإن ذلك يحمله علىٰ التشبُّه بهم تكلُّفًا (ويُحفَظ) أيضًا (من مخالطة الأدباء الذين يزعمون) أنهم شعراء و(أن ذلك من الظُّرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد) وتعسُر إزالته بعدُ (ثم مهما ظهر من الصبي خلقٌ جميل وفعلٌ محمود) يُرتضَىٰ (فينبغي أن يُكرَم عليه ويجازَىٰ عليه بما يفرح به ويُمدَح بين أظهُر الناس) فإن ذلك يحبِّبه إلىٰ الفعل الجميل ويبثُّه في مركوزة عقله (فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه، ولا يهتك ستره، ولا يكاشفه، ولا يُظهِر له أنه يُتصور أن يتجاسر أحد علىٰ مثله ولا سيَّما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة) عليه (حتىٰ لا يبالي بالمكاشفة بعد ذلك) بين الناس (فإن عاد ثانيًا فينبغي أن يعاتَب سرًّا ويعظَّم الأمر فيه ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا

وأن يُطَّلَع عليك في مثل هذا فتُفتضَح بين الناس. ولا يُكثِر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهوِّن عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويُسقِط وَقْعَ الكلامِ من قلبه) لكونه يتعوَّد علىٰ ذلك (وليكن الأب حافظًا هيبة الكلام معه، فلا يوبِّخه إلا أحيانًا) لتكون هيبته في قلبه دائمًا (وينبغي للأم أن تخوِّفه بالأب، وتزجره عن القبائح) إذ الصبي يهاب الأب أكثر من الأم؛ لكثرة شفقتها عليه طبعًا (وينبغي أن يُمنع من النوم نهارًا، فإنه يورث الكسلَ) والفتور في الأعضاء (ولا يُمنع منه ليلاً) إذ السهر في حقه مضرٌّ (ولكن يُمنع الفُرُش الوطيئة) الليِّنة (حتىٰ تتصلَّب أعضاؤه ولا يسخف بدنُه) أي لا يرقُّ (فلا يصبر عن التنعُّم) فيما بعد (بل يُعوَّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم) حتىٰ لا يبالي بما تيسَّرَ منها (وينبغي أن يُمنع من كل ما يفعله في خُفية، فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا تُرِك) علىٰ ذلك (تعوَّدَ فعل القبيح) وهان عليه ارتكابُه (ويعوَّد في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتىٰ لا يغلب عليه الكسل) ولا تجتمع الفضلات في المعدة، ولا تنحبس الأبخرة في الأعضاء والعروق (ويعوَّد أن لا يكشف أطرافه) بين يدي أحد (ولا يُسرع المشي) بل يكون علىٰ وقار (ولا يرخي يديه) ولا يلعب بهما (بل يضمُّهما إلىٰ صدره) فإنه أقرب إلىٰ الأدب (ويُمنع من أن يفتخر علىٰ أقرانه بشيء ممَّا يملكه والداه) من مال أو متاع (أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته) فإن هذا ممَّا يورث العُجْب فيه (ويعوَّد التواضع والإكرام لكل مَن عاشره) وصاحَبَه (والتلطُّف في الكلام معهم) مع غضِّ البصر (ويُمنع أن يأخذ من الصبيان شيئًا بدا له حشمةً) ورياسة (إن كان من أولاد المحتشمين) أي الرؤساء ذوي الثروة والأمر (بل يعلَّم أن الرفعة في الإعطاء) للغير (لا في الأخذ) من الغير (وأن الأخذ لؤم وخسَّة ودناءة. وإن كان من أولاد الفقراء فيعلَّم أن الأخذ والطمع مهانة ومَذلَّة، وأن ذلك من دأب الكلب) الذي هو أخسُّ الحيوانات (فإنه يبصبص في انتظار لقمة ويطمع فيها. وبالجملة، يقبَّح إلىٰ الصبيان حب) النقدين (الذهب والفضة والطمع فيهما، ويحذَّر منهما أكثر من التحذير من الحيات والعقارب، فإن آفة حب الذهب والفضة

والطمع فيهما أضرُّ من آفة السموم علىٰ الصبيان، بل علىٰ الأكابر أيضًا. وينبغي أن يعوَّد أن لا يبزق في مجلسه، ولا يمتخط ولا يتثاءب بحضرة غيره) فإن غلب عليه فليكظمه (ولا يستدبر غيرَه) في المجلس (ولا يضع رجلاً علىٰ رِجل، ولا يضع كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسَه بساعده، فإن ذلك دليل الكسل) وهو مذموم (ويعلَّم كيفية الجلوس) كيف يجلس وهو أن يكون جلوسه أبدًا علىٰ ركبتيه كما يجلس في الصلاة، ولا يرفع إحدىٰ ركبتيه ولا متربِّعًا ولا متورِّكًا (و) ينبغي أن (يُمنع كثرة الكلام، ويبيَّن له أن ذلك يدل علىٰ الوقاحة) وقلة الحياء (وأنه عادة أبناء اللِّئام. ويُمنع اليمين) أي الحَلف (رأسًا) أي مطلقًا (صدقًا كان أو كذبًا حتىٰ لا يتعوَّده في الصغر، ويُمنع من أن يبتدئ بالكلام) وإنما يكون الابتداء من الغير (ويعوَّد أن لا يتكلم إلا جوابًا) للكلام (و) أن يكون مختصرًا (بقدر السؤال، وأن يُحسِن الاستماع) للكلام (مهما تكلم غيره ممَّن هو أكبر سنًّا منه) ولو بقليل (وأن يقوم لمَن هو فوقه) في السن والفضل (ويوسِّع له المكان، ويجلس بين يديه) متواضعًا (ويُمنع من لغو الكلام وفحشه) وسقطه (ومن اللعن والسب) والهزل (ومن مخالطة من يجري علىٰ لسانه شيء من ذلك، فإن ذلك يسري لا محالة من القُرَناء السوء) فيتأثَّر به (وأصل تأديب الصبيان الحفظ من القرناء السوء) فإن ضررهم أكثرُ (وينبغي إذا ضربه المعلم) أحيانًا علىٰ قصد التأديب (أن لا يُكثِر الصراخ والشغب) أي رفع الصوت (ولا يستشفع بأحد) ولا يحلِّفه، ولا يُكثِر عليه اللجاج (بل يصبر، ويُذكَر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان. وينبغي أن يؤذَن له بعد الفراغ من المكتب أن يلعب لعبًا جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإنَّ منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلىٰ التعلُّم دائمًا يميت قلبَه ويُبطِل ذكاءه) ويبلد فهمه (وينغِّص العيشَ عليه حتىٰ يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسًا) إما بالهروب أو بإظهار المرض أو غير ذلك (وينبغي أن يعلَّم طاعة والديه) والبر بهما (و) طاعة (معلِّمه ومؤدِّبه) والبر به (وكل مَن هو أكبر سنًّا منه من قريب وأجنبي، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة

والتعظيم) والمهابة **(وأن يترك اللعب بين أيديهم)** توقيرًا لهم **(ومهما بلغ سن التمييز فينبغي أن لا يسامَح في ترك الطهارة)** من الأحداث **(والصلاة)** فقد روىٰ أحمد وأبو داود والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو: «مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرِّقوا بينهم في المضاجع». وروىٰ أبو داود والطبراني من حديث سبرة الجهني بنحوه. وروىٰ الدارقطني من حديث أنس: «مُروهم بالصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها لثلاث عشرة»[(١)] **(ويؤمَر بالصوم في بعض الأيام من شهر رمضان)** ليتعوَّد عليه **(ويجنَّب لبس الحرير والديباج والذهب)** ويعلَّم أنه من حلية النساء **(ويعلَّم كل ما يحتاج إليه)** مثله **(من حدود الشرع، ويخوَّف من السرقة)** خاصةً، فإن طبع الصبيان يميل إليها كثيرًا **(و)** من **(أكل الحرام ومن الكذب)** في القول **(و)** من **(الخيانة والغش وكل ما يغلب علىٰ الصبيان)** من الأخلاق الرديئة **(فإذا وقع نشؤه كذلك في الصِّبا فمهما قارَبَ البلوغَ أمكن أن يعرَّف أسرار هذه الأمور)** تفصيلاً **(فيُذكَر له أن الأطعمة أدوية، وإنما المقصود منها أن يقوَىٰ الإنسان بها علىٰ عبادة الله)** تعالىٰ **(وأن الدنيا كلها)** خيال **(لا أصل لها؛ لأنها لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها)** ويكدِّر صفوها **(وأنها)** أي الدنيا **(دار مَمرٍّ)** ومَقلعة **(لا دار مقر، وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر، وأن الموت ينتظر في كل ساعة، وأن الكيِّس العاقل مَن تزوَّدَ من الدنيا للآخرة)** فيجعلها كالقنطرة يعبر عليها ولا يعمرها، ويأخذ الأعمال الصالحة الواقعة بمنزلة الزاد الذي يبلِّغه في سفره منها للآخرة **(حتىٰ تعظُم عند الله درجته، وتتسع في الجِنان نعمته، فإذا كان النشوء صالحًا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعًا)** في قلبه **(مؤثِّرًا ناجعًا، يثبُت في قلبه كما يثبُت النقشُ في الحجر)** فلا يكاد ينمحي منه **(وإن وقع النشوء بخلاف ذلك حتىٰ ألف الصبيُّ اللعبَ والفحش والوقاحة)** وقلة الحياء **(وشَره الطعام واللباس والتزيُّن والتفاخر نبا قلبُه عن قبول الحق نَبْوة الحائط**

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث في كتاب الصلاة وفي كتاب آداب الصحبة.

عن التراب اليابس) فإنه لا يؤثِّر فيه شيئًا (فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعَىٰ) وتحافَظ (فإن الصبي خُلق بجوهره قابلاً للخير والشر جميعًا، وإنما أبواه يميلان به إلىٰ أحد الجانبين، قال رسول الله ﷺ: كل مولود يولَد علىٰ الفطرة، وإنما أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه) رواه الشيخان من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(قال[1]) أبو محمد (سهل بن عبد الله التستري) رحمه الله تعالىٰ: (كنت ابن ثلاث سنين، وكنت أقوم بالليل أنظر إلىٰ صلاة خالي محمد بن سوار) البصري، قال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب[2]: هو مقبول، من العاشرة. أورده للتمييز بينه وبين محمد بن سوَّار الأزدي الكوفي، من رجال أبي داود. نقله القشيري في الرسالة، قال: وكان يقوم الليل، فربما كان يقول لي: يا سهل، اذهب فنَمْ، فقد شغلتَ قلبي (فقال لي) خالي (يومًا) ولفظ القشيري: سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت أبا الفتح يوسف بن عمر الزاهد يقول: سمعت عبد الله بن عبد الحميد يقول: سمعت عبيد الله بن لؤلؤ يقول: سمعت عمر بن واصل البصري يحكي عن سهل بن عبد الله قال: قال لي خالي يومًا: (ألا تذكر الله الذي خلقك؟ قلت: كيف أذكره؟ فقال: قلْ بقلبك عند تقلُّبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إليَّ، الله شاهدي. فقلت ذلك ليالي) وإنما خصَّه به عند تقلُّبه في ثيابه لأنه وقت الخلوِّ عن الأشغال، وخصَّه أن يقوله بقلبه لأنه هو المفيد (ثم أعلمته) بما قلتُ (فقال: قلْ في كل ليلة سبع مرات. فقلت ذلك) وفيه الترقِّي بالتدريج (ثم أعلمتُه) حالي (فقال: قلْ ذلك في كل ليلة إحدىٰ عشرة مرة) وفيه أن أوتار الأعداد لها سرٌّ خاص، وإلىٰ هذا التدريج أشار مشايخ هذه الطريق لا سيَّما النقشبندية، فإنهم يأمرون المريد بالذكر القلبي أولاً ثلاث مرات ثم سبعًا، ثم منهم من ينقله إلىٰ تسع، ومنهم من يرقِّيه إلىٰ إحدىٰ عشرة، فإن لم يجد فتحًا

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) بل في تقريب التهذيب ص ٨٥٢.

فليعُدْ إلىٰ الحالة الأولىٰ (**فقلت ذلك فوقعت في قلبي حلاوته**) فصِرتُ ألازمه في كل ليلة هكذا (**فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علَّمتُك ودُمْ عليه إلىٰ أن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة**) يشير إلىٰ أنه تحصل له به حياة القلب والمعرفة، وقلب العارف لا يموت، بل لم يزل حيًّا في قبره لا ينقطع عنه المدد (**فلم أزل علىٰ ذلك سنين، فوجدت لذلك حلاوة في سرِّي**) أي في باطني (**ثم قال لي خالي: يا سهل، مَن كان الله معه وهو ناظر إليه ويشاهده كيف يعصيه**) أي كيف يعصيه وهو معه ورقيب عليه (**إياك والمعصية. فكنت أخلو بنفسي**) أي حُبِّبت إليَّ الخلوة عن الناس (**فبعثوني إلىٰ المكتب**) لأقرأ القرآن (**فقلت: إني لأخشىٰ أن يتفرَّق عليَّ همِّي**) خشي من حصول التفرقة في الذكر (**ولكن شارِطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة**) معلومة من النهار (**فأتعلَّم ثم أرجع، فمضيت إلىٰ الكُتَّاب وحفظت القرآن وتعلَّمته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين، وكنت أصوم الدهر، وقوتي من خبز الشعير**) إلىٰ أن بلغتُ (**اثنتي عشرة سنة، فوقعت لي مسألة**) في الدين دقيقة، الظاهر أنها من أحوال القلوب والمعاملات مع الله تعالىٰ (**وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فسألت أهلي أن يبعثوا بي إلىٰ البصرة**) أي بلد خاله (**لأسأل عنها**) فأجابوني إلىٰ ذلك (**فجئت إلىٰ البصرة، وسألت علماءها**) عن تلك المسألة (**فلم يشفِ أحدٌ عني شيئًا**) أي لم يأتوا بجوابها علىٰ النهج الذي يُشفَىٰ به غليلي (**فخرجت**) منها (**إلىٰ عَبَّادان**) وهي جزيرة قرب البصرة (**إلىٰ رجل**) بها من الصالحين (**يُعرف بأبي حبيب حمزة بن عبد الله العَبَّاداني، فسألته عنها، فأجابني، فأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدَّب بآدابه، ثم رجعت**) منها (**إلىٰ تستر**): من أعمال الأهواز، من كُوَر فارس (**فجعلت قوتي اقتصادًا علىٰ أن يشتري لي بدرهم من الشعير الفَرَق**) محرَّكة، وهو مكيال يقال إنه يسع ستة عشر رطلاً؛ هكذا ذكروه (**فيطحن ويخبز لي، فأُفطِر عند السَّحَر كل ليلة علىٰ أوقية**) واحدة (**بحتًا**) أي خالصًا (**بغير ملح ولا إدام، فكان يكفيني ذلك الدرهمُ سنة**) اعلمْ أنه بحساب كل أوقية في يوم يتحصَّل ثلاثون رطلاً

وكسرٌ في السنة، فإذا كان كل رطل باثنتي عشرة أوقية لا يطابق ما تقدم من قول أهل اللغة: إن الفَرَق مكيال يسع ستة عشر رطلاً. وقيل: الفرق ستة وثلاثون رطلاً، وقيل: ثمانون رطلاً. وعلىٰ كل حال لا ينطبق، فتأملْ ذلك. ووجدت في بعض نسخ الرسالة: من الشعير الغَرق. بالغين صفة للشعير، وهو الذي قد أصابه البلل من الأرض، وهو رخيص الثمن، فإن صحَّت هذه النسخة فالمعنىٰ واضح **(ثم عزمت علىٰ أن أطوي ثلاث ليالٍ، ثم أُفطِرُ ليلة، ثم)** أطوي **(خمسًا)** ثم أفطر ليلة **(ثم)** أطوي **(سبعًا)** وأفطر ليلة **(ثم خمسة وعشرين ليلة)** وقد تيسَّرَ له ذلك بالتدريج **(فكنت علىٰ ذلك عشرين سنة، ثم خرجت أسيح في الأرض سنين، ثم رجعت إلىٰ تستر، وكنت أقوم الليل كلَّه ما شاء الله تعالىٰ. قال أحمد: فما رأيته أكل الملح حتىٰ لقي الله تعالىٰ)** وقد أورد هذه الحكاية القشيريُّ في الرسالة، والمقصود من سردها هنا أن أوائل الأمور إذا رُوعيتْ تتبعها المناهي، ألا ترىٰ إلىٰ سهل كيف صان نفسَه وأدَّبها في أول نشوئها بالزهد والتقليل والجوع والعزلة حتىٰ نال ما نال. والله الموفِّق.

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة

ولنقدِّم قبل الخوض في شرح كلام المصنف تحقيق معنىٰ الإرادة والمريد، قال القشيري في الرسالة(١): الإرادة بدء طريق السالكين، وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلىٰ الله تعالىٰ، وإنما سُمِّيت هذه الصفة إرادة لأن الإرادة مقدِّمة كل أمر، فما لم يُرِد العبد شيئًا لم يفعله، فلما كان هذا أول الأمر لمَن سلك طريق الله تعالىٰ سُمِّي إرادة تشبيهًا بالقصد في الأمور الذي هو مقدمتها. والمريد - علىٰ موجب الاشتقاق -: مَن له إرادة، كما أن العالِم: مَن له علمٌ؛ لأنه من الأسماء المشتقَّة. ولكن المريد في عُرف هذه الطائفة: مَن لا إرادة له. فمَن لم يتجرَّد عن إرادته لا يكون مريدًا، كما أن مَن لا إرادة له علىٰ موجب الاشتقاق لا يكون مريدًا. وتكلم الناس في معنىٰ الإرادة، فكلٌّ عبَّر علىٰ حسب ما لاح لقلبه، فأكثر المشايخ قالوا: الإرادة: تركُ ما عليه العادة، وعادة الناس في الغالب التعريج علىٰ أوطان الغفلة، والركون إلىٰ اتِّباع الشهوة، والإخلاد إلىٰ ما دعت إليه المُنْيَة(٢)، والمريد منسلخ عن هذه الجملة، فصار خروجه أمارة علىٰ صحة الإرادة، فسُمِّيت تلك الحالة إرادة، وهي خروج عن العادة، فإذًا تركُ العادة أمارة الإرادة. فأما حقيقتها فهي: نهوض القلب في طلب الحق سبحانه، ولهذا يقال: إنها لوعة تهوِّن كلَّ روعة. وسمعت الأستاذ أبا علي يقول: الإرادة لوعة في الفؤاد، لدغة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تتأجَّج في القلوب. وفرَّقوا بين المريد والمراد فقالوا: المريد هو المبتدئ، والمراد هو المنتهي. وقيل: المريد هو الذي نُصب

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٥٠ - ٣٥٤.

(٢) أي: الأمنية.

بعين التعب وأُلقي في مقاساة المَشاقّ، والمراد هو الذي كُفي بالأمر من غير مشقة، فالمريد متعنٍّ، والمراد مرفوق به مرفَّه، وسنَّة الله تعالىٰ في القاصدين مختلفة، فأكثرهم يوفَّقون للمجاهدات ثم يصلون بعد مقاساة اللتيا والتي إلىٰ سَنِيِّ المعالي، وكثير منهم يكاشَفون في الابتداء بجليل المعاني، ويصلون إلىٰ ما لا يصل إليه كثير من أصحاب الرياضات، إلا أن أكثرهم يُرَدُّون إلىٰ المجاهدات بعد هذه الأرفاق ليُستوفَىٰ منهم ما فاتهم من أحكام أهل الرياضة. هذا حاصل ما أورده القشيري.

ثم نعود إلىٰ شرح كلام المصنف، قال رحمه الله تعالىٰ: (**اعلمْ أن مَن شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدًا حرث الآخرة**) يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورىٰ: ٢٠] واستُدِلَّ بهذه الآية علىٰ أصل الإرادة (**مشتاقًا إليها، سالكًا سُبُلها، مستهينًا بنعيم الدنيا ولذَّاتها، فإنَّ مَن كان معه خرزة فرأىٰ جوهرة نفيسة**) ثمينة (**لم تبقَ له رغبةٌ في الخرزة**) إذ لا قيمة لها (**وقويت إرادتُه في بيعها بالجوهرة، فمَن ليس مريدًا حرث الآخرة ولا طالبًا للقاء الله تعالىٰ فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر. ولست أعني بالإيمان حديث القلب وحركة اللسان بكلمتَي الشهادة من غير صدق وإخلاص، فإن ذلك يضاهي قولَ مَن صدَّق بأن الجوهرة خير من الخرزة، إلا أنه لا يدري من الجوهرة إلا لفظها**) فقط (**فأما حقيقتها فلا، ومثل هذا المصدِّق إذا ألفَ الخَرَزة**) وأنسَ بها (**قد لا يتركها، ولا يعظُم اشتياقُه إلىٰ الجوهرة. فإذًا المانع من الوصول**) إلىٰ الله (**عدم السلوك**) في طريق الله (**والمانع من السلوك عدم الإرادة**) التي هي التجرُّد لله في السلوك إلىٰ كمال التوحيد (**والمانع من الإرادة عدم الإيمان**) بالله واليوم الآخر (**وسبب عدم الإيمان**) بالله واليوم الآخر (**عدم الهُداة**) لسبيله (**و**) عدم (**المذكِّرين والعلماء بالله تعالىٰ الهادينَ**) للناس (**إلىٰ طريقه و**) عدم (**المنبِّهين علىٰ حقارة الدنيا وانقراضها وعِظَم أمر الآخرة ودوامها**) وفناء الدنيا (**فالخلق**) كلُّهم (**غافلون**) سكارىٰ (**قد انهمكوا في شهواتهم**) ولذَّاتهم النفسانية (**وغاصوا في**) بحار

(رقدتهم) وغفلتهم (وليس) يوجد (في علماء الدين من ينبِّههم) من هذه الرقدة (فإن تنبَّهَ منهم متنبِّهٌ) بمساعدة التوفيق الإلهي (عجز عن سلوك الطرائق لجهله) عن السلوك (فإن طلب الطريقَ من العلماء) الموجودين في عصره (وجدهم مائلين إلىٰ الهوىٰ، عادلين عن نهج الطريق، فصار ضَعفُ الإرادة) من السالك (والجهل بالطريق) لعدم المَسلك (ونطقُ العلماء بالهوىٰ سببًا) قويًا (لخلوِّ طريق الله تعالىٰ عن السالكين فيه) فعظمت المصيبة، وكبرت الطامَّة، وأظلمت القلوب (ومهما كان المطلوب) الذي هو الوصول (محجوبًا والدليل) الذي يرشد إليه (مفقودًا والهوىٰ) في الأدلة الموجودين (غالبًا والطالب) غِرًّا (غافلاً امتنع الوصول) إلىٰ الله تعالىٰ (وتعطَّلت الطرق لا محالة، فإن تنبَّهَ متنبِّهٌ من نفسه) بسابق التوفيق (أو من تنبيه غيره وانبعثت له) من ذلك التنبيه (إرادة في حرث الآخرة وتجارتها فينبغي أن يعلم أن له شروطًا لا بد من تقديمها في بداية الإرادة) فإن لم يراعها لم تصحَّ الإرادة (وله معتصَم لا بد من التمسك به) والاعتصام بحبله (وله حصن لا بد من التحصُّن به) والالتجاء إليه (ليأمن من الأعداء القُطَّاع لطريقه، وعليه) في إرادته (وظائف) معلومة (لا بد) له (من ملازمتها في وقت سلوك الطريق. أما الشروط التي لا بد من تقديمها في الإرداة فهي رفعُ السد والحجاب الذي بينه وبين الحق، فإنَّ حرمان الخلق عن) الوصول إلىٰ (الحق سببه تراكُم الحُجُب) وتكاثفها (ووقوع السد علىٰ الطريق) الموصِّل له (قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝﴾ [يس: ٩] والسد بين المريد وبين الحق أربعة أمور) أحدها: (المال، و) الثاني: (الجاه، و) الثالث: (التقليد، و) الرابع: (المعصية. وإنما يرتفع حجاب المال) بأن يفرِّقه حيث يفرِّقه و(يخرجه عن) حوزة (مِلكه حتىٰ لا يبقىٰ له إلا قدر ضرورته) المحوِجة له (فما دام يبقىٰ له درهم يلتفت إليه قلبُه فهو مقيَّد به، محجوب عن الله تعالىٰ. وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه وبالتواضع وإيثار الخمول) وهو الخفاء عن الناس (والهرب من أسباب الذِّكر)

والشهرة (وتعاطي أعمال) خسيسة (تنفِّر قلوبَ الخلق عنه) وعن الميل إليه. ونص القشيري في الرسالة[1]: وإذا أراد الخروج عن العلائق فأولها الخروج عن المال، فإن ذلك الذي يميل به عن الحق، ولم يوجد مريد دخل في هذا الأمر ومعه علاقة من الدنيا إلا جرَّته تلك العلاقةُ عن قريب إلىٰ ما منه خرج، فإذا خرج عن المال فالواجب عليه الخروج من الجاه، فإنَّ ملاحظة حب الجاه مَقطعة عظيمة، وما لم يستوِ عند المريد قبولُ الخلق وردُّهم لا يجيء منه شيء، بل أَضَرُّ الأشياء له ملاحظة الناس إياه بعين الإثبات والتبرُّك به؛ لإفلاس الناس من هذا الحديث، وهو بعدُ لم يصحِّح الإرادةَ، فكيف يصح أن يُتبرَّك به؟! فخروجهم من المال واجب عليهم كخروجهم من الجاه، فإذا خرج عن ماله وجاهه تمَّت الإرادة.

وقد اقتصر القشيري علىٰ هذين، ويجب علىٰ المريد بعد تخلُّصه من حب المال والجاه أن يتخلَّص من حب الرياسة في كونه زهد في الدنيا، فيكون قد زهد في أمر دنيوي واستعوض عنه ما هو أفضل منه في دينه، فإن الزهاد جاههم أكمل من جاه أبناء الدنيا، فإنهم يذلُّون للزهاد ويتبرَّكون بهم، فمتىٰ شربت نفس المريد من هذا جرعة خُشي عليه التلف منها، فإن فيها من اللذة ما يدعو لطيبها.

ثم قال القشيري: وإذا خطر ببال المريد أن له في الدنيا والآخرة قدرًا أو قيمة أو علىٰ بسيط الأرض أحد دونه لم يصحَّ له في الإرادة قدمٌ؛ لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربَّه لا ليحصِّل لنفسه قدْرًا، وفرقٌ بين من يريد الله وبين من يريد جاه نفسه إما في عاجله أو آجله.

ثم قال المصنف: (**وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصُّب للمذاهب**) المتبوعة (**وأن يصدِّق بمعنىٰ قوله «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» تصديق إيمان**) **لا تصديق** حديث نفس (**ويحرص في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوىٰ الله**)

(١) السابق ص ٦٢١ – ٦٢٢.

هذا[1] حال المريد في ابتداء أمره، فإنه هكذا يلاحظ هذا المعنىٰ، وأما المتوسط فإنه يلاحظ رفع كل مقصود له سوىٰ الله تعالىٰ، كما أن المنتهي يلاحظ رفع كل موجود سوىٰ الله، ولذا قال بعضهم: ما لم ينتهِ السير إلىٰ الله تكون ملاحظة «لا موجود إلا الله» كفرًا. ونُقل عن الشيخ بهاء الدين نقشبند قُدِّس سره في معنىٰ الكلمة الطيبة: نفي الإلهية الطبيعية وإثبات المعبود بحق، ومعنىٰ الجملة الثانية: أنك أدخلت نفسك في مقام «فاتَّبِعوني» (**فأعظمُ معبود له الهوىٰ**) ويدل له قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] (**حتىٰ إذا فعل ذلك انكشفت له حقيقة الأمر في معنىٰ اعتقاده الذي تلقَّفه**) من الأفواه (**تقليدًا، فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة**) العملية (**لا من المجادلة**) اللسانية (**فإن غلب عليه التعصب لعقيدة**) من العقائد (**ولم يبقَ في قلبه متسَع لغيرها صار ذلك قيدًا له وحجابًا**) مانعًا (**إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلىٰ مذهب معيَّن أصلاً**) وقال القشيري في الرسالة[2]: أول قدم للمريد [ينبغي] أن يكون علىٰ الصدق؛ ليصحَّ له البناء علىٰ أصل صحيح، فتجب البداية بتصحيح اعتقاد بينه وبين الله تعالىٰ، صافٍ عن الظنون والشُّبَه، خالٍ من الضلال والبدع، صادر عن البراهين والحجج، ويقبُح للمريد أن ينتسب إلىٰ مذهب من مذاهب أهل هذه الطريقة المختلفين سوىٰ طريقة الصوفية[3]، والناس إما أصحاب النقل والأثر وإما أرباب العقل والفكر، وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة، فالذي للناس غيبٌ فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود، فهو لهم من الحق موجود، فهم أهل الوصال، والناس أهل الاستدلال،

---

(١) مفتاح المعية في شرح دستور السادة النقشبندية ص ٧٢ - ٧٦.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٦١٨.

(٣) في الرسالة: «ويقبح بالمريد أن ينتسب إلىٰ مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة، وليس انتساب الصوفي إلىٰ مذهب من مذاهب المختلفين سوىٰ طريقة الصوفية إلا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة، فإن هؤلاء حججهم في مسائلهم أظهر من حجج كل أحد، وقواعد مذاهبهم أقوىٰ من قواعد كل مذهب».

وهم كما قال القائل:

ليلي بوجهك مشرق ... وظلامه في الناس ساري
والناس في سُدَف الظلام ... ونحن في ضوء النهار[١]

(وأما المعصية فهي حجاب، ولا يرفعها إلا التوبة) النصوح (والخروج من المظالم) التي عليه (وتصميم العزم علىٰ ترك العَوْد) إلىٰ تلك المظالم (وتحقيق الندم علىٰ ما مضىٰ وردُّ المظالم) لأهلها (وإرضاء الخصوم) بأيِّ وجه كان، وهذه هي أركان التوبة، كما سيأتي بيانها.

قال القشيري في الرسالة[٢]: إذا فكَّر المريد بقلبه في سوء ما يصنعه وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال سنحت في قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة، فيمده الحق سبحانه بتصحيح العزيمة والأخذ في جميل الرُّجعىٰ والتأهُّب لأسباب التوبة، فأول ذلك هجران إخوان السوء، فإنهم هم الذين يحملونه علىٰ ردِّ هذا القصد، ويشوِّشون عليه صحة هذا العزم، ولا يتم ذلك إلا بالمواظبة علىٰ المشاهد التي تزيد رغبتَه في التوبة وتوفِّر دواعيه علىٰ إتمام ما عزم عليه ممَّا يقوِّي خوفَه ورجاءه، فعند ذلك تنحلُّ عن قلبه عقدة الإصرار علىٰ ما هو عليه من قبيح الأفعال، فيقف عن تعاطي المحظورات، ويكبح لجام نفسه عن متابعة الشهوات، فيفارق الزلَّة في الحال، ويبرم العزيمة علىٰ أن لا يعود إلىٰ مثلها في الاستقبال، فإن مضىٰ علىٰ موجِب قصدِه ونفَّذ بمقتضَىٰ عزمه فهو الموفَّق صدقًا، وإن نقض التوبةَ مرة أو مرات وتحمله إرادته علىٰ تجديدها، فقد يكون مثل هذا كثيرًا، فلا ينبغي قطعُ الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء، فإنَّ لكل أجل كتابًا، ولا يتم له شيء من هذا إلا بعد فراغه من إرضاء خصومه والخروج عمَّا لزمه من مظالمه، فإن أول منزلة من

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذين البيتين.

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٧٩ - ١٨٢.

التوبة إرضاء الخصوم بما أمكنه، فإن اتسعت ذات يده لإيصال حقوقهم إليهم أو سمحت نفوسهم بإحلاله والبراءة عنه، وإلا فالعزم بقلبه علىٰ أنه يخرج من حقوقهم عند الإمكان والرجوع إلىٰ الله تعالىٰ بصدق الابتهال والدعاء لهم **(فإن مَن لم يصحِّح التوبة)** من قلبه **(ولم يهجر المعاصي الظاهرة)** والزَّلات المكشوفة للناس **(وأراد أن يقف علىٰ أسرار الدين بالمكاشفة)** الغيبية **(كان كمَن يريد أن يقف علىٰ أسرار القرآن وتفسيره)** لِما فيه من الغرائب **(وهو لم يتعلم لغة العرب بعدُ)** ولم يتقنها فأنَّىٰ له ذلك **(فإن ترجمة غريب القرآن لا بد من تقديمها أولاً)** وقد صنَّف فيه من المتقدِّمين أبو إسحاق الحربي وأبو إسحاق الزَّجَّاج وأبو عبيد القاسم بن سلام، ثم تلاهم أبو منصور الأزهري وأبو عبيد الهَرَوي وغيرهم[١] **(ثم الترقِّي منها إلىٰ أسرار معانيه، فكذلك لا بد من تصحيح ظاهر الشريعة أولاً وآخرًا، ثم)** يكون **(الترقِّي)** منها **(إلىٰ أسرارها)** وبواطنها **(وأغوارها. فإذا قدَّم هذه الشروط الأربعة وتجرَّد عن المال والجاه كان كمَن تطهَّر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحًا للصلاة فيحتاج إلىٰ إمام يُقتدَىٰ به، فكذلك المريد)** في سلوك طريق الحق **(يحتاج إلىٰ شيخ)** بصير **(وأستاذ)** كامل **(يقتدي به لا محالة ليهديه إلىٰ سواء السبيل، فإنَّ سبيل الدين غامض)** أي دقيق خفيٌّ **(وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، ومن لم يكن له شيخ يهديه)** ويؤدِّبه ويريه طريقَ الحق **(قاده الشيطانُ لا محالة إلىٰ طرقه، فمَن سلك البوادي المهلكة)** والمفاوز المضلَّة بنفسه **(من غير خفير)** أي دليل يرشد **(فقد خاطر بنفسه)** أي رماها في خطر **(وأهلكها)** أي تسبَّبَ لهلاكها. ونص القشيري في الرسالة[٢]: ثم يجب علىٰ المريد أن يتأدَّب بشيخ، فإن من لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدًا، وهذا أبو يزيد يقول: مَن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان. سمعت أبا علي الدَّقَّاق يقول: العبادة بلا علم كالبنيان علىٰ السرقين. ا.هـ. ووقع في

---

(١) انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة ٢/ ١٢٠٣ - ١٢٠٨.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٦٢١.

بعض كتب الصوفية: من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان **(ويكون المستقلُّ بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تجفُّ علىٰ القرب، وإن بقيتْ مدةً وأورقت لم تثمر)** وقال القشيري في الرسالة في آخر الكتاب في باب وصايا المريدين: سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ عنه طريقته نفَسًا فنفسًا فهو عابد هواه، لا يجد نفاذًا. وقال في باب الإرادة[١]: سمعت أبا علي يقول: الشجر إذا نبت بنفسه ولم يستنبته أحدٌ يورق ولكن لا يثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتخرَّج به لا يجيء منه شيء **(فمعتصَم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه، فليتمسك به تمسُّك الأعمىٰ علىٰ شط البحر بالقائد بحيث يفوِّض إليه أمره بالكلية ولا يخالفه)** أصلاً **(في ورد ولا صدر، ولا يُبقِي في متابعته شيئًا ولا يَذَر)** أي ولا يترك **(وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب)** وعبارة القشيري في الرسالة[٢]: وأن لا يخالف شيخَه في كل ما يشير عليه، فإن الخلاف شر للمريد في ابتداء أمره، عظيم الضرر؛ لأن ابتداء حاله دليل علىٰ جميع عمره، ومن شرطه أن لا يكون له بقلبه اعتراض علىٰ شيخه **(فإذا وجد مثل هذا المعتصَم وجب علىٰ معتصِمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهي أربعة أمور: الخلوة والصمت والجوع والسهر. وهذا يحصِّن من القواطع، فإن مقصود المريد إصلاح قلبه ليشاهد به ربَّه ويصلُح لقربه)** وعبارة الرسالة: لأنه يجب علىٰ المريد أن يجتهد ليعرف ربه لا ليحصِّل لنفسه قدرًا، وفرقٌ بين من يريد الله تعالىٰ وبين من يريد جاهَ نفسه **(أما الجوع فإنه يُنقِص دمَ القلب)** لأنه لا يكون إلا من غذاء، فإذا بطل الغذاءُ نقص الدمُ **(ويبيِّضه)** بأن يقلَّ احمراره **(وفي بياضه نوره)** وجلاؤه، ومن هنا قال يحيىٰ بن معاذ الرازي: الجوع نور، والشبع نار،

---

(١) بل في باب الصحبة ص ٤٨٩.

(٢) السابق ص ٦٢١ - ٦٢٢.

والشهوة مثل الحطب يتولَّد منه الإحراق، ولا تنطفئ ناره حتىٰ تحرق صاحبها[1] (و) الجوع أيضًا (**يذيب شحمَ الفؤاد، وفي ذوبانه رقَّته، ورقته مفتاح المكاشفة، كما أن قساوته سبب الحجاب**) عن المكاشفات (**ومهما نقص دم القلب ضاق**) منه (**مَسلك العدو**) اللعين (**فإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات**) كما في الخبر: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مَجرىٰ الدم ...» الحديث، وقد تقدم في كتاب الصوم.

(**وقال عيسىٰ** عليه السلام: **يا معشر الحواريين، جوِّعوا بطونكم لعل قلوبكم ترىٰ ربكم**)[2] وفيه إشارة إلىٰ أن الجوع يصفِّي الفؤادَ، فيكون محلاًّ لإشراق الأنوار الإلهية.

(**وقال**) أبو محمد (**سهل بن عبد الله التستري**) رحمه الله تعالىٰ: (**ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال: إخماص البطون، والسهر، والصمت، والاعتزال عن الناس**) نقله القشيري في الرسالة[3].

(**ففائدة الجوع في تنوير القلب أمر ظاهر تشهد له التجربة. وسيأتي بيان وجه التدريج فيه في كتاب كسر الشهوتين**) وهو الكتاب الذي يليه (**وأما السهر فإنه يجلو القلبَ ويصفِّيه**) عن الكدورات (**وينوِّره، فينضاف ذلك إلىٰ الصفاء الذي حصل من الجوع، فيصير القلب**) بمضاعفة الصفاء فيه (**كالكوكب الدُّرِّيِّ**) المضيء المتلألئ (**والمرآة المجلوَّة**) يبيض[4] بعضُه بنور الإسلام، وبعضه بنور الإيمان، وكله بنور الإحسان والإيقان، فإذا ابيضَّ القلب [وتنوَّرَ] انعكس نوره علىٰ النفس (**فيلوح فيه جمال الحق**) أي أشعة أنواره بأن تنجلي فيه (**ويشاهد فيه رفيع**

---

(١) رواه القشيري في الرسالة ص ٢٦٠.

(٢) سيأتي هذا الأثر في الكتاب الذي بعده بلفظ آخر.

(٣) لم أقف عليه في الرسالة، وقد ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب ١/ ٢٧٤، ٢٨٠ بلفظ: اجتمع الخير كله في هذه الخصال الأربع وبها صار الأبدال أبدالا ... فذكرها.

(٤) عوارف المعارف ص ١٦٨.

الدرجات في الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتها، فتتم بذلك رغبتُه عن الدنيا) وإعراضه عنها **(وإقباله علىٰ الآخرة)** وللقلب وجه إلىٰ النفس ووجه إلىٰ الروح، وللنفس وجه إلىٰ القلب ووجه إلىٰ الطبع والغريزة، والقلب إذا لم يبيضَّ كله لم يتوجَّه إلىٰ الروح بكلِّه، ويكون ذا وجهين: وجه إلىٰ الروح ووجه إلىٰ النفس، فإذا ابيضَّ كله توجَّهَ إلىٰ الروح بكله، فيتداركه مددُ الروح، ويزداد إشراقًا وتنوُّرًا، وكلما انجذب القلب إلىٰ الروح انجذبت النفس إلىٰ القلب، وكلما انجذبت توجَّهت [إلىٰ القلب] بوجهها الذي يليه، وتنوُّرُ النفس لتوجُّهها إلىٰ القلب بوجهها الذي يلي القلبَ **(والسهر أيضًا نتيجة الجوع)** وثمرته **(فإن السهر مع الشبع غير ممكن)** لأن الشبع يرخي العروقَ والأعصاب، ويجرُّ إلىٰ النوم **(والنوم يقسِّي القلبَ ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة)** فإنه لا بد منه، وهو سبعون درجة بين الليل والنهار **(فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب، فقد قيل في صفة الأبدال)**: إن **(أكلهم فاقة، ونومهم غلبة، وكلامهم ضرورة)** نقله صاحب القوت وصاحب الرسالة وصاحب العوارف **(وقال)** أبو إسحاق **(إبراهيم)** بن أحمد **(الخَوَّاص)** من أقران الجنيد، مات بالري سنة ٢٩١ **(رحمه الله تعالىٰ: اجتمع رأي سبعين صِدِّيقًا علىٰ أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء)**(1) نقله القشيري وصاحب القوت. وذلك أن الإكثار من الماء يرخي العروقَ لامتلائها به، فيكون سببًا للفتور في الأعضاء والكسل فيغلب النومُ **(وأما الصمت)** وهو قلة الكلام **(فإنه تسهِّله العزلة)** عن الناس، فإنه إذا لم يجد عنده أحدًا لا يتكلم **(ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعام وشراب أو تدبير أمر)** من أموره **(فينبغي أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة)** وهذا معنىٰ قولهم: كلام الأبدال عن ضرورة **(فإن الكلام يشغل القلبَ)** عن مراقبة المذكور **(وشَرهُ القلب إلىٰ الكلام عظيم، فإنه يستروح إليه)** ويستحليه **(ويستثقل التجرُّد**

---

(١) هذا الأثر رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٢٦٣ عن أبي سليمان الداراني، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٤٨٢ عن أبي إسحاق الموصلي.

للذكر والفكر) لِما فيه من المشقَّة **(ويستريح إليه)** أي إلىٰ الكلام **(فالصمت يلقِّح العقلَ، ويجلب الورعَ، ويعلِّم التقوىٰ)** كما سيأتي بيان ذلك **(وأما الخلوة ففائدتها دفعُ الشواغل وضبطُ السمع والبصر)** عن تطرُّق شيء إليهما **(فإنهما دهليز القلب، والقلب في حكم حوض انصبَّت إليه مياه كريهة كَدِرة)** متغيِّرة **(قذرة من أنهار الحواس)** الظاهرة **(ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه)** والإخلاء منها **(ومن الطين الحاصل منها لينحفر أسفل الحوض فينفجر منه الماء النظيف الطاهر)** لا كدر ولا قذر، ولا يحصل الانفجار إلا بنزح تلك المياه عنه **(فكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والأنهار مفتَّحة إليه فيتجدَّد في كل حالة أكثرُ ممَّا ينقُص؟! فلا بد من ضبط الحواس)** من تطرُّق شيء منها إلىٰ القلب **(إلا عن قدر الضرورة، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في مكان مظلم)** لأنه يحفظ حاسة البصر من تبدُّدها **(فإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه، أو يتدثَّر بكساء أو إزار)** بأن يلقيه علىٰ رأسه فيتقنَّع به، وهذه هي الخلوة الصغرىٰ، وهي مانعة عن تبدُّد حاسَّة البصر إلىٰ المرئيات ولو لم يكن في خلوة **(ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية)** لجمع حواسه **(أما ترىٰ أن نداء رسول الله ﷺ بلغه وهو علىٰ مثل هذه الصفة فقيل له: يا أيها المزمل، يا أيها المدثر)** قال العراقي[1]: متفق عليه[2] من حديث جابر: «جاورت بحِراء، فلما قضيتُ جواري هبطت، فنوديت، فنظرت عن يميني ...» الحديث. وفيه: «فأتيت خديجة فقلت: دثِّروني، وصُبُّوا عليَّ [الماء البارد. فدثَّروني وصَبُّوا عليَّ] ماء باردًا». قال: فنزلت «يا أيها المدثر». وفي رواية: «فقلت: زمِّلوني، زمِّلوني». ولهما[3] من حديث عائشة: فقال: «زمِّلوني، زملوني». فزمَّلوه حتىٰ ذهب عنه الرَّوْعُ.

---

(١) المغني ٢/ ٧٤٥.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٤٣٠، ٣/ ٣١٧. صحيح مسلم ١/ ٨٤ - ٨٥.

(٣) صحيح البخاري ١/ ١٤، ٣/ ٣٢٧، ٤/ ٢٩٥. صحيح مسلم ١/ ٨٣.

قلت: لفظ[١] حديث جابر أخرجاه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله عن أول ما نزل من القرآن، فقال: حدثنا رسولُ الله ﷺ قال: «جاورت بحِراء، فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أرَ شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئًا، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئًا، فرفعت رأسي فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالس علىٰ كرسيٍّ بين السماء والأرض، فجُئِثت منه رعبًا، فرجعت فقلت: دثِّروني، فدثَّروني، فنزلت «يا أيها المدثر قم فأنذر» إلىٰ قوله: «والرجز فاهجر». وكذلك رواه عبد الرزاق[٢] والطيالسي[٣] وأحمد[٤] وعبد بن حميد والترمذي[٥] وابن الضريس[٦] وابن جرير[٧] وابن المنذر وابن مردويه وابن الأنباري في المصاحف.

ويُروَىٰ عن إبراهيم النَّخَعي قال: كان ﷺ متدثِّرًا في قَرْطَف. يعني شملة صغيرة الخَمْل. أخرجه سعيد بن منصور[٨].

وأخرج البزار[٩] والطبراني في الأوسط[١٠] وأبو نعيم في الدلائل عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سمُّوا هذا الرجل اسمًا تصدُّوا الناس عنه. فقالوا: كاهن. قالوا: ليس بكاهن. قالوا: مجنون. قالوا: ليس بمجنون. قالوا:

---

(١) الدر المنثور ١٥/ ٣٥، ٦١، ٦٣.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٢٧.

(٣) مسند الطيالسي ٣/ ٢٦٦، ٢٦٩.

(٤) مسند أحمد ٢٢/ ٣٦٨، ٢٣/ ٢٨٠، ٢٨٢، ٣٨٤.

(٥) سنن الترمذي ٥/ ٣٥٣.

(٦) فضائل القرآن ص ٣٧.

(٧) جامع البيان ٢٣/ ٤٠٠ - ٤٠٣.

(٨) ورواه الطبري في جامع البيان ٢٣/ ٤٠٠ بلفظ: كان متدثرا في قطيفة.

(٩) كشف الأستار عن زوائد البزار ٣/ ٧٧.

(١٠) المعجم الأوسط ٢/ ٣١٩.

ساحر. قالوا: ليس بساحر. قالوا: يفرِّق بين الحبيب وحبيبه. فتفرَّق المشركون علىٰ ذلك، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فتزمَّل في ثيابه وتدثَّر فيها، فأتاه جبريل فقال: «يا أيها المزمل»، «يا أيها المدثر».

(فهذه الأربعة جُنَّة وحصن بها تُدفَع عنه القواطع، وتُمنَع) عنه **(العوارض القاطعة للطريق، فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق، وإنما سلوكه بقطع العقبات)** محرَّكة: هي الثنايا في الجبال **(ولا عَقبة في طريق الله إلا صفات القلب التي سببها الالتفات إلىٰ الدنيا، وبعض تلك العقبات أعظم من بعض، والترتيب)** الكلي **(في قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل)** ليكون أعون له في القطع **(وهي تلك الصفات، أعني أسرار العلائق التي قطعها في أول)** دخوله في **(الإرادة وآثارها)** أي الصفات **(أعني آثار المال والجاه وحب الدنيا والالتفات إلىٰ الخلق والتشوُّف إلىٰ المعاصي، فلا بد وأن يخلي الباطن عن آثارها كما أخلىٰ الظاهرَ عن أسبابها الظاهرة، وفيه تطول المجاهدة)** وتتضاعف المشقَّات **(ويختلف ذلك باختلاف الأحوال)** والأشخاص **(فرُب شخص قد كُفي أكثر الصفات)** فيقلُّ التفاته إلىٰ الدنيا **(فلا تطول عليه المجاهدة)** وقد يُسلَب تلك الصفات بأجمعها فلا تكون له همَّة سوىٰ الله تعالىٰ فلا يحتاج إلىٰ مجاهدة، وأصحاب هذا المقام بعد وصولهم إلىٰ الله تعالىٰ قد يشتاقون إلىٰ المجاهدة والرياضة تكميلاً للمقامات **(وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوة ومخالفة الهوىٰ في كل صفة غالبة علىٰ نفس المريد، كما سبق ذِكره، فإذا كُفي ذلك أو ضعُف بالمجاهدة)** والرياضة **(ولم تبقَ في قلبه علقة)** أي علاقة حسية ولا معنوية؛ لأن بناء هذا الطريق علىٰ فراغ القلب **(تشغله بعد ذلك بذكر يَلزم قلبَه علىٰ الدوام ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة)** من نوافل الصلاة وغيرها **(بل يقتصر علىٰ الفرائض والرواتب)** قال القشيري في الرسالة[1]: وليس من آداب المريد كثرة الأوراد في الظاهر، فإن القوم في مكابدة

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٦٢٥.

[إخلاء] خواطرهم ومعالجة أخلاقهم ونفي الغفلة عن قلوبهم لا في تكثير أعمال البر، والذي لا بد لهم منه إقامة الفرائض والسنن الراتبة، فأما الزيادة من الصلوات النافلة فاستدامة الذكر بالقلب أتمُّ لهم **(ويكون وِرده وردًا واحدًا وهو لباب الأوراد)** وخلاصتها **(وثمرتها، أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالىٰ بعد الخلوِّ عن ذكر غيره، ولا يشغله به ما دام قلبه ملتفتًا إلىٰ علائقه)** وشواغله. قال القشيري في الرسالة[١]: وما لم يتجرَّد المريد عن كل علاقة لا يجوز لشيخه أن يلقِّنه شيئًا من الأذكار، بل يجب أن يقدِّم علىٰ ذلك التجربةَ **(قال)** أبو بكر **(الشِّبْلي للحصري)** هو[٢] أبو الحسن علي بن إبراهيم البصري، سكن بغداد، مات بها سنة ٣٧١ **(إن كان يخطر علىٰ قلبك)** ولفظ الرسالة[٣]: وكان الشبلي يقول للحصري في ابتداء أمره: إن خطر ببالك **(من الجمعة إلىٰ الجمعة)** الثانية **(التي تأتيني)** وفي نسخة: تأتينا. وفي أخرىٰ: تأتي **(فيها شيء غير الله تعالىٰ)** أي إذا سكن قلبك إلىٰ غير الله **(فحرام عليك أن تأتيني)** ولفظ الرسالة: أن تحضرني. أي فلا تصحبني، وفائدة قوله «من الجمعة إلىٰ الجمعة» تعليمه دوام ودِّه لما خطر له من ذلك، فإنه إذا دام الودُّ قويَ القلبُ بما دام عليه.

(وهذا التجرُّد لا يمكن إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالىٰ علىٰ القلب حتىٰ يكون في صورة العاشق المستهتر الذي ليس له إلا همٌّ واحد) وتقدَّم عن الأستاذ أبي علي أنه قال: الإرادة لوعة في الفؤاد، لدغة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن. فهذه كلها صفات العاشق، وبتمامها يتم صدقُ الإرادة **(فإذا صار كذلك ألزمه الشيخُ زاويةً)** من زوايا البيت **(ينفرد بها)** بنفسه **(ويوكِّل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال، فإن أصل طريق الدين القوت الحلال)** وكل مريد

---

(١) السابق ص ٦٢٢.

(٢) السابق ص ١٢٥.

(٣) السابق ص ٦٢١. إحكام الدلالة ٢/ ١٠٦٥ - ١٠٦٦.

لم يراعِ ذلك لا يجيء منه شيء في الطريق (**وعند ذلك يلقِّنه ذكرًا من الأذكار حتىٰ يشتغل به لسانه وقلبه**) معًا (**فيجلس ويقول مثلاً: الله الله، أو: سبحان الله، أو ما يراه الشيخ من الكلمات**) المناسبة لحاله في سلوكه، فمَن غلب عليه الجذب فهذا ذِكرُه، ومَن غلب عليه السلوك فالمناسب له النفي والإثبات، كما تقدمت الإشارة إليه (**ولا يزال**) المريد (**يواظب عليه حتىٰ تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنَّها جارية علىٰ اللسان من غير تحريك، ثم لا يزال يواظب عليه حتىٰ يسقط الأثرُ عن اللسان وتبقىٰ صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتىٰ تنمحي عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقىٰ حقيقة معناه لازمة للقلب، حاضرة معه، غالبة عليه**) ولفظ الرسالة[١]: فإذا جرَّبه شيخه فيجب أن يلقِّنه ذكرًا من الأذكار علىٰ ما يراه شيخه، فيأمره أن يذكر ذلك الاسم بلسانه، ثم يأمره أن يسوِّي قلبه مع لسانه فيقول له: اثبُتْ علىٰ استدامة هذا الذكر كأنك مع ربك أبدًا بقلبك، ولا يجري علىٰ لسانك غير هذا الاسم ما أمكنك (**قد فرَّغ القلب**) أي أخلاه (**عن كل ما سواه؛ لأن القلب إذا شُغل بشيء خلا عن غيره أيّ شيء كان**) لأنه ليس له إلا وجهة واحدة (**فإذا شُغِل بذكر الله تعالىٰ وهو المقصود**) الأعظم (**خلا لا محالة عن غيره، وعند ذلك**) أي بعد تفريغ القلب عن السوىٰ وإثبات ذكر الله فيه (**يلزمه**) أي المريد (**أن يراقب**) أي يحافظ (**وساوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا وما يتذكَّر فيه**) أي في القلب (**ممَّا قد مضىٰ من أحواله وأحوال غيره، فإنه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذكر**) والفكر (**في تلك اللحظة، وكان ذلك نقصانًا**) لحاله. وعبارة الرسالة[٢]: ثم يأمره بإيثار الخلوة والعزلة، ويجعل اجتهاده في هذه الحالة لا محالة في نفي الخواطر الدنيَّة والهواجس الشاغلة للقلب (**فليجتهد في دفع ذلك**) عن قلبه (**ومهما دفع الوساوس كلَّها وردَّ النفسَ إلىٰ هذه الكلمة**) التي

---

(١) السابق ص ٦٢٢.

(٢) السابق ص ٦٢٣.

لقَّنها له شيخه (**جاءته الوساوس من هذه الكلمة وأنها ما هي**) أي ما حقيقتها، وإنه يقبح بالمريد الذاكر أن لا يتحقق حقيقة ما يذكره (**وما معنىٰ قولنا: الله**) هل هو مبتدأ خبره محذوف أو بالعكس؟ وما المحذوف الذي يقدَّر هنا؟ (**ولأي معنىٰ كان إلهًا وكان معبودًا؟ وتعتريه عند ذلك خواطر**) مختلفة (**تفتح عليه باب الفكر، وربما يَرِدُ عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر**) صراح (**أو بدعة**) مذمومة (**ومهما كان كارهًا لذلك ومشمِّرًا لإماطته**) أي إزالته (**عن القلب لم يضرَّه ذلك، والخواطر منقسمة إلىٰ ما يُعلَم قطعًا أن الله تعالىٰ منزَّه عنه ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه علىٰ خاطره، فشرطه أن لا يبالي به**) ولا يهتم له (**ويفزع إلىٰ ذكر الله تعالىٰ ويبتهل إليه**) ويتضرَّع بباطنه (**ليدفعه عنه، كما قال الله تعالىٰ**: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝﴾) [الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠١] وعبارة الرسالة[١]: واعلمْ أنه يكون للمريدين علىٰ الخصوص بلايا من هذا الباب، وذلك أنهم إذا خلوا في مواضع ذِكرهم أو كانوا في مجالس سماع أو غير ذلك فيهجس في نفوسهم ويخطر ببالهم أشياء منكرة يتحقَّقون أن الله منزَّه عن ذلك، وليس تعتريهم شُبهة في أن ذلك باطل، ولكن يدوم ذلك فيشتد تأذِّيهم به حتىٰ يبلغ ذلك حدًّا يكون أصعب شتم وأقبح قول وأشنع خاطر [بحيث] لا يمكن للمريد إجراء ذلك علىٰ اللسان ولا إبداؤه لأحد، وهذا أشد شيء يقع لهم، فالواجب عند هذا تركُ مبالاتهم بتلك الخواطر، واستدامة الذكر، والابتهال إلىٰ الله تعالىٰ باستدفاع ذلك، وتلك الخواطر ليست من وساوس الشيطان، وإنما هي من هواجس النفس، فإذا قابلها العبد بترك المبالاة بها ينقطع ذلك عنه. ا.هـ. كلام القشيري.

وأنت ترىٰ أنه جعل ما يجري علىٰ قلب المريد بما ذُكر من هواجس النفس لا من وساوس الشيطان، والمصنف جعله من الوساس، والأمر في ذلك سهل

---

(١) السابق ص ٦٢٣ - ٦٢٤.

قريب، وقد تقدم للمصنف ذكر[1] حديث: «إن الشيطان يأتي أحدَكم فيقول: مَن خلق كذا؟ مَن خلق كذا؟ حتىٰ يقول: مَن خلق ربَّك؟ فإذا كان ذلك فليستعذ بالله ولينتهِ». وجاء بعض الصحابة إلىٰ النبي ﷺ فقالوا: تقع في نفوسنا أمور يودُّ أحدنا أن يخرَّ من السماء فتخطفه الطير ولا يقع له ذلك. فقال: «أوَجدتموه»؟ قالوا: نعم. قال: «ذلك صريح الإيمان». يعني ردهم لذلك وتألُّمهم وتمنِّيهم الموت ممَّا وقع لهم لا نفس الوسوسة، وحاصله أنه إذا ضاق علىٰ المريد شيء من ذلك التجأ إلىٰ الله فيه، واستعاذ به، وأعرض عن الفكرة فيه، فإن الله يزيله عن قلبه ويقوِّي يقينَه. والله الموفِّق.

(وإلىٰ ما يُشَك فيه، فينبغي أن يعرض ذلك علىٰ شيخه، بل كلما يجد في قلبه من الأحوال من فترة) في الإرادة أو في السلوك **(أو نشاط)** فيهما **(أو التفات إلىٰ علقة)** دنيوية أو أخروية **(أو صِدق في إرادة فينبغي أن يُظهِر ذلك لشيخه، وأن يُسِرَّه)** أي يكتمه **(عن غيره فلا يُطلِع عليه أحدًا)** وعبارة الرسالة[2]: ثم يجب عليه حفظُ سرِّه حتىٰ عن زره إلا عن شيخه، ولو كتم نفَسًا من أنفاسه عن شيخه فقد خانه في حق صحبته. ا.هـ. وذلك[3] لأن الشيخ قد ترك شغله مع مولاه في خاصَّته وعاهد اللهَ علىٰ أن يفرِّغ قلبَه في إصلاح هذا المريد، فحقه أن لا يكتم عنه شيئًا ليفعل به ما يراه إصلاحًا له **(ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياسته، فإن علم أنه لو تركه أو أمره بالفكر تنبَّه من نفسه لحقيقة الحق فينبغي أن يحيله علىٰ الفكر ويأمره بملازمته حتىٰ يُقذَف في قلبه من النور ما)** ينشرح به صدره و **(تنكشف له به حقيقته، وإن علم أن ذلك ممَّا لا يقوَىٰ عليه مثلُه ردَّه إلىٰ الاعتقاد الصحيح بما يحتمله قلبه من وعظ)** ونصيحة **(وذكر دليل قريب من فهمه)** ونص القشيري[4]:

(١) إحكام الدلالة ٢/ ١٠٧٠.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٦٢٢.

(٣) إحكام الدلالة ٢/ ١٠٦٧.

(٤) الرسالة القشيرية ص ٦٢٣.

واعلمْ أن المريد قلَّما يخلو في أوان خلوته في ابتداء إرادته من الوساس في الاعتقاد لا سيَّما إن كان في المريد كياسة قلب، وقلَّما مريد لا تستقبله هذه الحالة في ابتداء إرادته، وهذه من الامتحانات التي تستقبل المريد، فالواجب علىٰ شيخه إن رأىٰ فيه كياسة أن يحيله علىٰ الحجج العقلية، فإنَّ بالعلم يتخلَّص لا محالة المتعرِّف ممَّا يعتريه من الوساوس. وإن تفرَّس شيخه فيه القوة والثبات في الطريق أمره بالصبر واستدامة الذكر حتىٰ تسطع في قلبه أنوار القبول، وتطلع في سرِّه شموس الوصول، وعن قريب يكون ذلك، ولكن لا يكون هذا إلا لأفراد المريدين، فإن الغالب أن تكون معالجتهم بالرد إلىٰ النظر وتأمُّل الآيات بشرط تحصيل علم الأصول علىٰ قدر الحاجة الداعية للمريدين.

(وينبغي أن يتأنَّق الشيخ ويتلطَّف به، فإن هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها، وكم من مريد اشتغل بالرياضة) وسلك سبيل المجاهدة **(فغلب عليه خيال فاسد لم يقوَ علىٰ كشفه)** وإزالته عن قلبه **(فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة، وذلك هو الهلاك العظيم)** قال القشيري في الرسالة[١]: وقفة المريد شرٌّ من فترته، والفرق بين الفترة والوقفة أن الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها، والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالة الكسل، وكل مريد وقف في ابتداء إرادته لا يجيء منه شيء.

(ومَن تجرَّد للفكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يَخْلُ عن أمثال هذه الأفكار، فإنه قد ركب سفينة الخطر، فإن سَلِمَ كان من ملوك الدين، وإن أخطأ كان من الهالكين، ولذلك قال ﷺ: عليكم بدين العجائز) قال العراقي[٢]: قال ابن طاهر في كتاب التذكرة[٣]: هذا اللفظ تداوله العامة، ولم أقف له علىٰ أصل يرجع إليه من

(١) السابق ص ٦٢٢.

(٢) المغني ٢/ ٧٤٥.

(٣) تذكرة الحفاظ ص ٢١٩ (ط - دار الصميعي بالرياض).

رواية صحيحة ولا سقيمة، حتىٰ رأيتُ حديثًا لمحمد بن عبد الرحمن بن البيلماني عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «إذا كان في آخر الزمان واختلفت الأهواء فعليكم بدين أهل البادية والنساء». وابن البيلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يُتَّهَم بوضعها. ا.هـ. وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان في الضعفاء[١] في ترجمة ابن البيلماني. والله أعلم.

قلت: ورواه[٢] من هذا الوجه أيضًا الديلميُّ في مسند الفردوس[٣]. وأورده الذهبي في الميزان[٤] في ترجمة محمد بن الحارث عن ابن البيلماني، ثم قال: ومن عجائبه هذا الحديث. وعبارة ابن حبان في الضعفاء في ترجمته: حدَّث عن أبيه بنسخة شبيهًا بمائتي حديث كلها موضوعة، لا يجوز الاحتجاج به ولا ذِكره إلا علىٰ وجه التعجُّب. ا.هـ. ونظرًا إلىٰ ظاهر سياقه مشىٰ غالب الحفَّاظ علىٰ أنه موضوع، وفيه نظرٌ. قال السخاوي: وعند رزين في جامعه ممَّا أضافه لعمر بن عبد العزيز ينميه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: تركتم علىٰ الواضحة، ليلها كنهارها، كونوا علىٰ دين الأعراب والغلمان والكُتَّاب. ا.هـ. وقد أشار المصنف إلىٰ معناه فقال: (**وهو تلقِّي أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير**) قال ابن الأثير في جامع الأصول[٥] بعد إيراده ما سبق عن رزين: أراد بقوله «دين الأعراب والغلمان» الوقوف عند قبول ظاهر الشريعة واتِّباعها من غير تفتيش عن الشُّبَه وتنقير عن أقوال أهل الزيغ والأهواء، ومثله قوله «عليكم بدين العجائز». ا.هـ. وهذا السياق يدل علىٰ أن الحديث له أصل. ا.هـ. قلت: ومنهم من يزيد بعد قوله «العجائز»: الماء والمحراب. ولم أجد له أصلاً، وكأنه تفسير لمعناه

(١) المجروحون من المحدثين ٢/ ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٢) المقاصد الحسنة ص ٢٩٠. فيض القدير ١/ ٤٢٤.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٢٥٦.

(٤) ميزان الاعتدال ٣/ ٥٠٤.

(٥) جامع الأصول ١/ ٢٩٣.

(**فإن الخطر في العدول عن ذلك كثير**) فمَن لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أهلها بعضهم بعضًا كان أمره أهون ممَّن سمع بها وهو جاثم لا يشخص به طلبُ التمييز بين الحق والباطل[١]، ولهذا كان الفخر الرازي - فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر[٢] - مع تبحُّره في الأصول يقول: مَن التزم دينَ العجائز فهو الفائز. وقال ابن السمعاني في الذيل عن الهمذاني: سمعت أبا المعالي - يعني إمام الحرمين - يقول: قرأت خمسين ألفًا في خمسين ألفًا ثم خلَّيت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم وغصتُ في الذي نهىٰ أهل الإسلام عنه، وكل ذلك في طلب الحق وهربًا من التقليد، والآن فقد رجعت من العمل إلىٰ كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطفه وأموت علىٰ دين العجائز وتُختَم عاقبة أمري عند الرحيل علىٰ الحق وكلمة الإخلاص «لا إله إلا الله» فالويل لابن الجويني[٣].

(**ولهذا قيل: يجب علىٰ الشيخ أن يتفرَّس في المريد**) أي ينظر إليه بنور الإيمان وفراسته (**فإن لم يكن ذكيًّا فطنًا متمكِّنًا من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر**) لأن مثله تَردُ عليه في أثناء ذكره وفكره شُبَهٌ ووساوس ربما تتمكَّن من قلبه، وليس عنده التمكُّن في أصل الاعتقاد فيضره ذلك ولا يجيء منه في الطريق شيء (**بل يردُّه إلىٰ الأعمال الظاهرة**) كصلاة الليل وصلاة الضحىٰ والإشراق والأوَّابين ومتابعة الصيام (**والأوراد المتواترة**) وأفضلها القرآن (**أو يشغله بخدمة المتجرِّدين للفكر**) والذكر من كنس خلاويهم وملء أباريقهم (**لتشمله بركتُهم**) ويعمَّه إمدادُهم (**فإن العاجز عن المجاهدة في صف القتال ينبغي أن يسقي القوم**) ويعينهم في أمورهم (**ويتعهَّد دوابَّهم**) بالربط والسقي والتعليق، ويداوي جرحاهم (**ليُحشَر يوم القيامة**

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ٤/ ٤٦٩.

(٢) لسان الميزان ٦/ ٣١٩.

(٣) أورده ابن الجوزي في المنتظم ١٦/ ٢٤٥، والسبكي في طبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/ ١٨٥، والذهبي في سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٧١.

في زمرتهم وتعمَّه بركتُهم وإن كان لا يبلغ درجتهم) والأعمال بالنيات **(ثم المريد المتجرِّد للذكر والفكر قد تقطعه قواطع كثيرة)** وتصيبه بلايا **(من العُجْب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال)** السَّنية **(وما يبدو من أوائل الكرامات)** وهي ما يكرمه الله تعالىٰ به **(ومهما التفت إلىٰ شيء من ذلك وشغل به نفسه كان ذلك فتورًا في طريقه)** وهو الإعراض عن الإرادة والسلوك، والترك لِما هو فيه **(أو وقوفًا)** وهو السكون عن السير باستلذاذ حالة الكسل، والثاني أشد من الأول؛ لأن مَن استلذَّ حالةً لم ينتقل عنها لمحبته لها، بخلاف صاحب الوقوف فإنه يُرجَىٰ له الرجوع إلىٰ ما كان عليه، فإذا حصل للمريد الوقوف في أوائله لا يجيء منه شيء؛ لأنه يفتقد كمالَ نفسه واستحسان حاله فيبعُد منه الانتقالُ إلىٰ ما هو أعلىٰ **(بل ينبغي أن يلازم حالَه جملة عمره ملازمة العطشان الذي لا ترويه البحار ولو أُفيضت عليه ويداوم علىٰ ذلك)** مداومة العاشق المستهتر الذي لا يسمع دون محبوبه عذل المفند فيه **(ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلىٰ الحق والخلوة)** عنهم حتىٰ تجتمع له حواسُّه **(قال بعض)** هذه الطائفة من **(السائحين)** في الأرض: **(قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق: كيف الطريق إلىٰ التحقيق)** والوصول إلىٰ الحق؟ **(فقال: أن تكون في الدنيا كأنَّك عابر طريق. وقال مرة: قلت له: دُلَّني علىٰ عمل أعمله أجد فيه قلبي مع الله تعالىٰ)** في كل وقت **(علىٰ الدوام)** أي من غير أن يَرِدَ عليه ما يمنعه عنه **(فقال لي: لا تنظر إلىٰ الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة)** أي يورث ظلمةً في القلب فيكون سبب الحجاب بينك وبين الله تعالىٰ **(قلت: لا بد لي من ذلك)** أي من النظر إليهم **(قال)**: فإذا نظرتَ إليهم **(فلا تسمع كلامهم، فإن كلامهم قسوة)** أي يورث القسوةَ والغِلظة في القلب، فهو أيضًا حجاب **(قلت: لا بد لي من ذلك)** أي من سماع كلامهم، ولا أستغني عن ذلك **(قال)**: فإذا سمعتَ كلامهم **(فلا تعاملهم، فإن معاملتهم وَحشة)** أي يورث الوحشة والتنافر في القلوب، وهو أيضًا حجاب **(قلت: أنا بين أظهُرهم، لا بد لي من معاملتهم)** فكيف أفعل؟ **(قال: فلا تسكن إليهم)** بقلبك **(فإن السكون إليهم)** بالقلب **(هلكة)** أي هلاك أبديٌّ **(قال: قلت:**

هذه هي العلة) كذا في النسخ، والذي في القوت: قلت: هذه العلة **(قال: يا هذا، تنظر إلىٰ الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البَطَّالين وتريد أن تجد قلبك مع الله** عَزَّوَجَلَّ **علىٰ الدوام؟! هذا ما لا يكون أبدًا)** أورده صاحب القوت[١].

(فإذًا منتهىٰ الرياضة أن يجد قلبه مع الله أبدًا) بحيث لا يتخلَّل في هذا الوجدان شيءٌ يخالفه **(ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو من غيره)** فلا يكون لخطوره فيه مَساغ **(ولا يخلو من غيره إلا بطول المجاهدة)** ولا تتم المجاهدةُ إلا بمخالفة النفس، فحينئذٍ تحصل له مبادئ الهداية المفهومة من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فإذا تمَّت له الهداية ارتقىٰ إلىٰ مقام الإحسان الذي فُسِّر في الحديث: «أن تعبد ربَّك كأنك تراه»، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ أي بمعيَّة الشهود والانكشاف **(فإذا حصل قلبُه مع الله)** عند دخوله في حظيرة الإحسان **(انكشف له جلال الحضرة الربوبية)** الجامعة للحضرات الأربعة **(وتجلَّىٰ له الحقُّ)** من وراء حجاب من الحُجُب الأسمائيَّة **(وظهر له من لطائف)** رحمة **(الله تعالىٰ ما لا يجوز أن يوصَف، بل لا يحيط به الوصفُ أصلاً)** وأراد[٢] بذلك التجلِّي الصفاتيَّ الذي مبدؤه صفة من الصفات من حيث تعيُّنها وامتيازها عن الذات، ودلَّ علىٰ ذلك قولُه: وظهر ... الخ، وذلك لأن التجلي الذي مبدؤه الذات من غير اعتبار صفة من الصفات معها لا يتحصل إلا بواسطة الأسماء والصفات؛ إذ لا يتجلَّىٰ الحق من حيث ذاته علىٰ الموجودات إلا من وراء حجاب من الحُجُب الأسمائية، وأصل التجلي: هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، وإنما جُمع «الغيوب» باعتبار تعدُّد موارد التجلي، فإن لكل اسم إلهيّ بحسب حيطته ووجوهه تجلِّيات متنوِّعة **(وإذا انكشف للمريد شيء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظًا ونصحًا)** أي بطريقهما **(ويتصدَّىٰ للتذكير)**

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٨٦.

(٢) التعريفات للجرجاني ص ٥٣.

علىٰ ملأ من الناس (**فتجد النفس فيه لذة**) غريبة (**ليس وراءها لذة، فتدعوه تلك اللذة إلىٰ أن يتفكَّر في كيفية إيراد تلك المعاني وتحسين الألفاظ المعبِّرة عنها**) بأنواع البلاغة والجزالة (**وترتيب ذِكرها وتزيينها بالحكايات**) المناسبة لها (**وشواهد القرآن والأخبار**) لكل معنىٰ من تلك المعاني (**وتحسين صورة الكلام**) بالألحان (**لتميل إليه القلوب والأسماع**) وترغب إليه، وهذا حسن في الجملة إذا كان من غير قصد مع حسن النية (**و**) لكن (**الشيطان ربما يخيِّل إليه: أن هذا منك إحياء لقلوب الموتىٰ الغافلين عن الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما أنت واسطة بين الله وبين الخلق لدعوة عباده إليه**) وهذا مقام شريف (**وما لك فيه نصيب، ولا لنفسك فيه لذَّة**) فإذا خُيِّلَ له ذلك واستقرَّ في قلبه حصل له الركون والسكون، وهو عين الهلاك إن لم يأخذ الله بيده (**ويتَّضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه**) وذوي عصره (**من يكون أحسن كلامًا منه وأجزل لفظًا وأقوىٰ علىٰ جلب قلوب العوام، فإنه يتحرك في باطنه لا محالة عقرب الحسد**) ويدبُّ فيه (**إن كان محرِّكه لذة القبول**) بين العامة (**وإن كان محركه هو الحق حرصًا علىٰ دعوة عباد الله إلىٰ صراطه المستقيم فيعظُم فرحُه بذلك**) وينشرح صدره (**فيقول: الحمد لله الذي عضدني وأيَّدني**) أي قوَّاني (**بمَن يؤازرني**) ويعينني (**علىٰ إصلاح عباده**) فهذا هو التمييز بين المحركينِ (**كالذي وجب عليه**) وجوب كفاية (**مثلاً أن يحمل ميتًا**) أي يجهزه بالغسل والتكفين (**ليدفنه إذا وجده ضائعًا وتعيَّن عليه ذلك شرعًا فجاء مَن أعانه عليه فإنه يفرح به ولا يحسد مُعينه**) ولا يخطر ذلك بباله (**والغافلون**) عن طريق الحق (**موتىٰ القلوب**) أي بمنزلة الأموات وإن كانوا أحياء في الظاهر (**والوُعَّاظ هم المنبِّهون**) لهم عن رقدة الغفلة (**والمُحيون لهم**) من موتة القلوب (**ففىٰ كثرتهم استرواح وتناصُر**) وتعاون (**فينبغي أن يعظُم الفرحُ بذلك**) ويكثُر السرورُ به (**وهذا عزيز الوجود جدًّا**) لاستحواذ الشيطان علىٰ قلوب أكثر الخلق (**فينبغي أن يكون المريد علىٰ حذر منه، فإنه أعظم حبائل الشيطان**) وأكبر مصائده وفخوخه (**في قطع الطريق علىٰ مَن

انفتحت له أوائل الطريق) قال القشيري[١]: أضرُّ الأشياء بالمريد استئناسه بما يُلقىٰ إليه في سرِّه من تقريبات الحق سبحانه له ومنَّته عليه بأني خصصتك بهذا وأفردتك عن أشكالك، فإنه لو قال بترك هذا فعن قريب سيُختطَف عن ذلك مما يبدو له من مكاشفات الحقيقة **(فإن إيثار الحياة الدنيا طبع غالب علىٰ الإنسان)** قد جُبل عليه **(ولذلك قال تعالىٰ:** ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾) [الأعلىٰ: ١٦ - ١٧] أي يختارونها علىٰ الآخرة فلا يفعلون ما يسعدهم في الآخرة، ولو علموا علمًا يقينيًّا فناءها وبقاء الآخرة لَما آثروها **(ثم بيَّن أن الشر قديم في الطباع وأن ذلك مذكور في الكتب السالفة)** أي الماضية **(فقال:** ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾) [الأعلىٰ: ١٨ - ١٩] بدل من «الصحف الأولىٰ». قال[٢] السُّدِّي: إن هذه السورة نزلت في صحف إبراهيم وموسىٰ مثل ما نزلت علىٰ النبي ﷺ. أخرجه ابن أبي حاتم. وقال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولىٰ. أخرجه ابن جرير[٣]. وقال الحسن: أي في كتب الله كلها. أخرجه ابن أبي حاتم. وفي حديث أبي ذر من تخريج عبد ابن حميد وابن مردويه وابن عساكر[٤]: قلت: يا رسول الله، هل أنزل الله عليك شيئًا ممَّا كان في صحف إبراهيم وموسىٰ؟ قال: «يا أبا ذر، نعم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ وفي هذا الحديث أن الله تعالىٰ أنزل علىٰ إبراهيم عشر صحائف، وعلىٰ موسىٰ قبل التوراة عشر صحائف.

وقد آثر المصنف ختم هذا الكتاب بما ختم الله به هذه السورة لِما فيها من تزكية النفس من الأدناس، وذكر الله تعالىٰ، والصلاة، والتنبيه علىٰ إيثار الآخرة، وترك شهوات الدنيا ولذَّاتها، وأن الآخرة هي دار البقاء، وفي كل ذلك تهذيب

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٦٢٦.

(٢) الدر المنثور ١٥/ ٣٧٦ - ٣٧٩.

(٣) جامع البيان ٢٤/ ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٤) تاريخ دمشق ٢٣/ ٢٧٧ - ٢٧٩.

للنفوس، وهو معظم مقصود الكتاب، ولذلك قال: (**فهذا منهاج رياضة المريد وترتيبه في التدريج إلىٰ لقاء الله تعالىٰ، أما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتي**) بيانه (**فإنَّ أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه، أعني به الشهوات المتعلقة بها**) اعلمْ أن النفس - كما تقدم - مجبولة علىٰ صحبة العاجل وإيثاره علىٰ الآجل، ولها قوتان: جالبة ودافعة، فالجالبة الشهوة وأعظمها ما تعلَّق بالبطن والفرج واللسان، وأما الدافعة فأشار إليها بقوله: (**ثم الغضب الذي هو كالجند لحماية الشهوات**) وله ثمرات مذمومة يأتي بيانها (**ثم مهما أحب الإنسانُ شهوة البطن والفرج وأنسَ بها**) بحيث استولت علىٰ قلبه (**أحب الدنيا**) وآثرها لنفسه، وهكذا شأن المحب للشيء يؤثره علىٰ غيره (**ولا يتمكَّن منها إلا بالمال والجاه**) وهما ركنان عظيمان (**وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعُجب والرياسة**) والعلوُّ وأصناف الشهوة العقلية. وظهر من سياق المصنف أن ظهور هذه الأوصاف في المريدين نتائج القوة الجالبة، وهو ظاهر، ولكن هذه القوة بنفسها لا تُحدِث هذه الأصناف إلا بمجاورتها العقل، فإنه الذي يُكسِبها محبة تلك الأوصاف؛ لِما تقدم أن العقل له وجهان: وجه إلىٰ النفس ووجه إلىٰ الروح، كما أن بمجاورة النفس والشيطان تحدث صفات أُخَر كالمكر والحيلة والخداع وأصناف ذلك، وهذه هي الأصول الأربعة، وما عدا ذلك فروع تتشعَّب منها، فتأملْ (**وإذا ظهر ذلك ولم تسمح نفسه بترك الدين رأسًا تمسَّك من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور، فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين**) أعني شرح عجائب القلب ورياضة النفس (**أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله تعالىٰ**) فيكون المجموع عشرة كتب، ثم سردها فقال: (**كتاب في كسر**) الشهوتين (**شهوة البطن و**) شهوة (**الفرج، وكتاب في آفات اللسان، وكتاب في كسر الغضب والحقد والحسد، وكتاب في كسر شَره الكلام**[1]) أي حدَّته وسَوْرته (**وكتاب في ذم الدنيا**

(١) كذا قال، وليس في الإحياء كتاب بهذا الاسم، فيما اعتمدنا عليه.

وتفصيل خِدَعها) وتلبيسات الشيطان فيها **(وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه، وكتاب في كسر حب المال وذم البخل، وكتاب في ذم الكبر والعُجب، وكتاب في مواقع الغرور. وبذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضُنا من هذا الربع)** الذي هو الثالث **(إن شاء الله تعالىٰ، فإن ما ذكرناه في الكتاب الأول)** من هذه الكتب العشرة **(هو شرح لصفات القلب الذي هو معدن المهلكات والمنجيات، وما ذكرناه في الكتاب الثاني)** الذي بعده **(هو إشارة كلِّية إلىٰ طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب، أما تفصيلها فإنما يأتي في هذه الكتب إن شاء الله تعالىٰ)** وهذا آخر كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق، وقد عنَّ لي أن أختمه بفوائد نافعة تتعلق بآداب المريدين ممَّا اقتطفته من كتب القوم، وجعلتها في فصول[1] هيٰ مهمة، ولهذا الكتاب تتمَّة.

فصل: إذا أحكم [المريد] بينه وبين الله عقده فيجب أن يحصِّل من علم الشريعة إما بالتحقيق وإما بالسؤال من الأئمة ما يؤدي به فرضه، وإن اختلفت عليه فتاوىٰ الفقهاء يأخذ بالأحوط، ويقصد أبدًا الخروج من الخلاف. وهل يجوز له تقليد المفضول؟ فقيل: نعم، ورجَّحه ابن الحاجب[2]، وقيل: لا، والمختار عند التاج السبكي[3] جوازه لمَن اعتقده أفضل من غيره أو مساويًا له، بخلاف مَن اعتقده مفضولاً. ولا يتتبَّع الرُّخَص في المذاهب بأن يأخذ من كلٍّ منها ما هو الأسهل فيما يقع من المسائل، فإن الرُّخَص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال، وهذه الطائفة ليس لهم شغل سوىٰ القيام بحقِّه سبحانه، ولهذا قيل: إذا انحطَّ الفقير عن درجة الحقيقة إلىٰ رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله،

---

(١) غالب هذه الفصول نقلها الشارح عن كتاب إحكام الدلالة بشرح الرسالة لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري ٢/ ١٠٦٤ - ١٠٩٢.

(٢) شرح مختصر ابن الحاجب لأبي الثناء الأصفهاني ٣/ ٣٦٧.

(٣) جمع الجوامع ص ١٢٢.

ونقض عهده فيما بينه وبين الله، فالمحمود ملازمته من الأفضل ما يجد من نفسه القدرة علىٰ الدوام عليه وإن كان فيه بعض مشقة.

فصل: إذا وقعت للمريد مخالفة فيما أشار عليه به شيخُه فيجب عليه أن يقرَّ له بما وقع له بين يديه [في الوقت] ثم يستسلم لِما يحكم عليه به شيخه عقوبةً له علىٰ مخالفته وجنايته إما بسفر يكلفه أو أمر ما يراه صلاحًا في حقِّه ووظيفته معه كالعليل مع الطبيب لا يخرج عمَّا يأمره به من الأدوية والأغذية والحِمْية، ولا ينبغي للشيوخ التجاوز عن زَلاَّت المريدين؛ لأن ذلك تضييع لحقوق الله المطلوبة من الطرفين.

فصل: إذا شهد قلب الشيخ للمريد بصحة العزم فيشترط عليه أن يرضىٰ بما يستقبله في هذه الطريقة من فنون تصاريف القضاء، فيأخذ عليه العهد بأن لا ينصرف عن هذه الطريقة بما يستقبله من الضرر والذل والفقر والأسقام والآلام، وأن لا يجنح بقلبه إلىٰ السهولة، وأن لا يترخَّص عند هجوم الفاقات وحصول الضرورات، وأن لا يؤثر الدعة، وأن لا يستشعر الكسلَ.

فصل: يأمر الشيخُ المريدَ أن يكون أبدًا في الظاهر علىٰ الطهارة، وأن لا يكون نومه إلا غلبةً، وأن يقلِّل من غذائه بالتدريج شيئًا بعد شيء حتىٰ يقوىٰ علىٰ ذلك، ولا يأمره أن يترك عادته بمرة، فإنَّ ذلك يغيِّر مزاجه وأحواله، ففي الخبر: «إن المُنْبَتَّ لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقىٰ».

فصل: لا يذكر المريد لشيخه كلَّ ما يهجس في خاطره، بل يزيله باستدامة الذكر علىٰ بساط الصدق أو المراقبة، فإن لم يندفع به المرة بعد المرة عرض ذلك علىٰ شيخه في محل خلوته، وما يقع لكثير من المنتسبين لهذه العصابة من شكاية الخواطر بمعنىٰ ذِكر الإنسان لشيخه جميعَ ما يَرِدُ عليه وما يخطر في نفسه من أيِّ شيء كان فهذا أمر ما عُهد عند أئمة هذا الشأن، بل ربما يكون هذا باعثًا لإبليس علىٰ

الولع بالقلب ووازعًا يغيِّر الباطن ويهيِّئه للخواطر فيعود ذلك بنقيض المقصود.

فصل: ومن آداب المريد بل من [فرائض] حاله: أن يلازم موضعَ إرادته وهو الخلوة، وأن لا يسافر قبل أن تقبله الطريق وقبل الوصول بالقلب إلىٰ الرب سبحانه، فإن السفر للمريد في غير وقته سم قاتل، ولا يصل أحد منهم إلىٰ ما كان يُرجَىٰ له إذا سافر في غير وقته؛ لأنه إذا سافر بغير إذنه فظاهر، وإن سافر بإذنه دلَّ علىٰ أنه عنده لم يصلُح لهذا الشأن، وقد امتحنه فلم يرَه أهلاً لِما رغب فيه فأعرض عنه وتركه. نعم، إن تمكَّن في حاله وصار يأنس بربِّه في خلوته [وجلوته] كان سفره زيادة في تحقيق أحواله بكل حال؛ لِما في بعده عن الأوطان حينئذٍ من التوكل والرضا بما يجريه الله تعالىٰ [عليه].

فصل: إذا أراد الله بمريد خيرًا ثبَّته وقوَّاه في أول إرادته، وإذا أراد به شرًّا ردَّه إلىٰ ما خرج منه من حرفته أو حالته. وإذا أراد الله بمريد محنة وابتلاء شرَّده في مطارح غربته، هذا إذا كان المريد يصلُح للوصول، فأما إذا كان شابًّا طريقته الخدمة في الظاهر بالنفس للفقراء وزيارة الصالحين والاقتداء بأعمالهم وهو أدونهم في هذه الطريقة رتبةً فهو وأمثاله يكتفون بالترسُّم في الظاهر، فينقطعون في الأسفار، وغاية نصيبهم من هذه الطريقة حجَّات يحصِّلونها وزيارات لمواضع يرتحلون إليها ولقاء الشيوخ بظاهر سلام فيشاهدون الظواهر، ويكتفون بما في هذا الباب من السير، فهؤلاء الواجب عليهم دوام السفر حتىٰ لا تؤدِّيهم الدعة إلىٰ ارتكاب محظور، فإن الشاب إذا وجد الراحة والدعة تعرَّض للفتنة بميل نفسه إلىٰ الشهوات.

فصل: إذا توسَّط المريد جَمْعَ الفقراءِ والأصحاب في بدايته فهو مضرٌّ له جدًّا، فإن امتُحِن بذلك بأن دعته الضرورة للخلطة فليكن سبيله احترام الشيوخ، والخدمة للأصحاب، والقيام بما فيه راحة فقير، والجهد في أن لا يستوحش منه قلب شيخ. ويجب أن يكون في صحبته مع الفقراء أبدًا خصمهم علىٰ نفسه، ولا يكون خصم نفسه عليهم، فيقبل عذرهم، ولا يقبل عذر نفسه؛ لِما يعرف من سوء أدبه، وأن يرىٰ

لكل واحد عليه حقًّا واجبًا، ولا يرىٰ لنفسه واجبًا ولا مندوبًا علىٰ أحد؛ لئلاً يطلب المكافأة عليه. وأن لا يخالف أحدًا، وإن علم أن الحق معه يسكت؛ لئلاً يخجل من يبحث معه، ويُظهِر الوفاق لكل أحد فيما يجوز فيه الوفاق. وكل مريد يكون فيه ضحكٌ ولجاج ومُماراة فإنه لا يجيء منه شيء. وإذا كان في جمع من الفقراء إما في سفر أو حضر فينبغي أن لا يخالفهم في الظاهر، لا في أكل ولا شرب ولا صوم ولا سكون ولا حركة، بل يخالفهم بسرِّه وقلبه، فيحفظ قلبه مع الله تعالىٰ. وإذا أشيرَ إليه بالأكل مثلاً يأكل لقمة أو لقمتين، ولا يعطي النفس شهوتها.

فصل: رأس مال المريد الاحتمال عن كل أحد بطِيبة النفس، وتلقِّي ما يستقبله بالرضا، والصبر علىٰ الضر والفقر، وترك السؤال والمعارضة في القليل والكثير فيما هو حظٌّ له، ومَن لم يصبر علىٰ ذلك فليدخل السوق، فإن من اشتهىٰ ما يشتهيه الناس فالواجب أن يحصِّل شهوته من حيث يحصِّلها الناس من كدِّ اليمين وعرق الجبين.

فصل: إذا التزم مريد استدامةَ الذكر وآثر الخلوةَ فإن وجد في خلوته ما لم يجده قلبه إما في النوم أو في اليقظة أو بينهما من خطاب يسمعه أو معنىٰ يشاهده ممَّا يكون نقضًا للعادة فينبغي أن لا يشتغل بذلك البتَّة، ولا يسكن إليه، ولا ينبغي له أن ينتظر حصول أمثال ذلك، فإن هذه كلها شواغل عن الحق سبحانه، ولا بد له في هذه الأحوال من وصف ذلك لشيخه إن لم يندفع بالذكر حتىٰ يصير قلبه فارغًا من ذلك، ويجب علىٰ شيخه أن يحفظ عليه سرَّه، ويكتم عن غيره أمرَه، ويصغِّر ذلك في عينه، ويأمره بالإعراض عنه، فإن ذلك كله اختبارات له، والمساكنة إليها مكر، فليحذر المريد عن ذلك وعن ملاحظتها، وليجعل همَّته فوق ذلك.

فصل: ومن أحكام المريد: إذا لم يجد مَن يتأدَّب به في موضعه أن يهاجر إلىٰ مَن هو منصوب في وقته لإرشاد المريدين، ثم يقيم عليه ولا يبرح سُدَّته إلىٰ وقت الإذن.

فصل: تقديم معرفة رب البيت علىٰ زيارة البيت واجب، فلولا معرفة رب البيت ما وجبت زيارةُ البيت. وأما الشباب الذين يخرجون إلىٰ الحج من هؤلاء من غير إشارة الشيوخ فإنما هي بدلالات نشاط النفس، فهم مترسِّمون بهذه الطريقة، وليس سفرهم مبنيًّا علىٰ أصل، والذي يدل علىٰ ذلك أنه لا يزداد سفرهم بهذا الوجه إلا وتزداد تفرقة قلوبهم، ولو أنهم ارتحلوا من عند أنفسهم بخطوة لكان أحظَىٰ لهم من ألف سفرة.

فصل: من شرط المريد إذا زار شيخًا أن يدخل عليه بالحرمة والأدب، وينظر إليه بالحشمة، فإن أهَّله الشيخُ لشيء من الخدمة عدَّ ذلك من جزيل النعمة، فليغتنمْه، فإنه أتاه علىٰ وجه الفتح من الله تعالىٰ.

فصل: ولا ينبغي للمريد أن يعتقد في المشايخ العصمةَ وإن كانوا محفوظين؛ لأن ذلك يخالف الواقع، ولأنه يؤدي إلىٰ نفرته منهم وعدم انتفاعه بهم إذا صدر منهم الذنب. والفرق بين العصمة والحفظ أن العصمة تمنع من جواز وقوع الذنب، والحفظ لا يمنع منه، لكن الله تعالىٰ يحفظ من يشاء ويترك من يشاء؛ لأن الأولياء لا يقدح زللُهم في قواعد الدين، بخلاف الأنبياء، فإن المعجزة دلَّت علىٰ عصمتهم فيما يخبرون به عن الله تعالىٰ وفيما يفعلونه بيانًا للتكاليف. بل الواجب عليه أن يذرهم وأحوالهم، فيحسن بهم الظنَّ فيما يراه حقًّا، ويمسك عمَّا يراه خطأ، فإن أراد أن يزيله من صدره فليسألهم عنه، وليورده علىٰ وجه السؤال لا علىٰ وجه الاعتراض، وكذا إذا أجابوه بجواب لا يشفيه فإما سلَّم له وهو الأسلم، وإما سأل قائلاً: أحِبُّ التصدُّقَ عليَّ ببيانه، وهو مطمئن القلب، سالم من أدنىٰ تردُّد ما لم يكن ذلك في مبادئ إرادته، فلا يسوغ له أدبًا أن يسأل لا بإشارة ولا غيرها، بل يكون علىٰ أعدل الاستسلام. ويراعي مع الله حدَّه فيما يتوجَّه عليه من الأمر والنهي، والعلم بأحكام الله كافيه في التفرقة بين ما هو محمود وما هو معلول.

فصل: وكل مريد بقي في قلبه شيء من عروض الدنيا له مقدار وخطر فاسم «الإرادة» له مجاز، وإذا بقي في قلبه اختيار فيما يخرج عنه من معلومه الدنيوي فيريد أن يخصَّ به نوعًا من أنواع البر أو شخصًا دون شخص فهو متكلِّف في حاله، وبالخطر أن يعود [سريعًا] إلىٰ الدنيا؛ لأن قصد المريد في حذف العلائق الخروجَ منها لا السعي في أعمال البر، وقبيح بالمريد أن يخرج من معلومه من رأس ماله وقُنْيته ثم يكون أسير حرفة، وينبغي أن يستوي عنده وجود ذلك وعدمه حتىٰ لا ينافر لأجله فقيرًا ولا يضايق به أحدًا، ويكون الأولىٰ به تعوُّد الصبر حتىٰ يكون فقره وصبره رأس ماله فيكون [حاله] كما قيل:

إذا افتقروا عضُّوا علىٰ الفقر ضِنَّةً وإن أيسروا عادوا سِراعًا إلىٰ الفقر[١]

فصل: قبول قلوب المشايخ للمريد أصدقُ شاهدٍ لسعادته، ومَن ردَّه قلب شيخ فلا محالة أنه يرىٰ غِب ذلك ولو بعد حين، ومَن خُذِل بترك حرمة الشيوخ فقد أظهر رقم شقاوته، وذلك لا يخطئ.

فصل: ومن أصعب الآفات في هذه الطريقة صحبة الأحداث، ومَن ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع الشيوخ ذلك عبدٌ أهانه الله وخذله، بل عن نفسه شغله ولو بألف ألف كرامة أهَّله، فليحذر المريد من مجالستهم، فإنَّ اليسير منه فتح باب الخذلان وبدء حال الهجران.

فصل: ومن آفات المريد ما يتداخل النفسَ من خفيِّ الحسد للإخوان والتأثُّر بما يفرد اللهُ به أشكاله من هذه الطريقة وحرمانه إياه ذلك، وليعلم أن الأمور قِسَمٌ، وإنما يتخلَّص العبد عن هذا باكتفائه بوجود الحق وقِدَمه عن مقتضَىٰ جوده ونِعَمه، فكل مَن رأيتَ أيها المريد قدَّم الحقُّ سبحانه رتبتَه فاحمل أنت غاشيته، فإن الظرفاء من القاصدين علىٰ ذلك استمرت سُنَّتُهم.

---

(١) البيت في عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٣٥٤ منسوب لأحد الأعراب. وفيه: حسبة، بدل: ضنة.

فصل: من حق المريد إذا اتفق وقوعه في جمعٍ إيثارُ الكل بالكل، فيقدِّم الشبعانُ الجائعَ علىٰ نفسه، ويُتلمذ لكل مَن أظهر عليه التشيُّخ وإن كان هو أعلم منه، ولا يصل إلىٰ ذلك إلا بتبرِّيه عن حوله وقوته، وتوصُّلُه إلىٰ ذلك بطَوْل الحق ومنَّته.

فصل: مَن تبرَّك بمريد فقد جارَ عليه؛ لأنه يضرُّه لقلة قوَّته، فالواجب علىٰ المريد تركُ تربية الجاه عند مَن قال بتركه وإثباته.

فصل: إن ابتُلي المريد بجاه أو معلوم أو صحبة حدثٍ أو ميل إلىٰ امرأة أو سكون إلىٰ معلوم وليس هناك شيخ يدلُّه علىٰ حيلة يتخلَّص بها من ذلك فعند ذلك حلَّ له السفر والتحوُّل عن ذلك الموضع لئلاَّ يشوِّش علىٰ نفسه تلك الحالةَ، ولا شيء أضرُّ علىٰ قلوب المريدين من حصول الجاه لهم قبل خمود بشريَّتهم.

فصل: ومن آداب المريد: أن لا يسبق علمه في هذه الطريقة منازلته بأن لا يتكلم في المقامات العالية بمحض العلم حتىٰ يبلغها، فإنه إذا تعلَّم سِيَر هذه الطائفة وتكلَّف الوقوفَ علىٰ معرفة مسائلهم وأحوالهم قبل تحقُّقه بها بالمنازلة والمعاملة بعد وصوله إلىٰ هذه المعاني، ولهذا قالوا: إذا حدَّث العارف عن المعارف فجهِّلوه، فإن الإخبار عن المنازل دون المعارف، ومَن غلب علمُه منازلتَه فهو صاحب علم لا صاحب سلوك.

فصل: ومن آداب المريدين: أن لا يتعرَّضوا للتصدُّر للتعليم والتدريس، وأن يكون لهم مريد أو تلميذ، فإن المريد إذا صار مرادًا قبل خمود بشريَّته وسقوط آفته فهو محجوب عن الحقيقة، لا تنفع أحدًا إشارتُه ولا تعليمه.

فصل: إذا خدم المريد الفقراء فخواطر الفقراء رُسُلهم إليه، فلا ينبغي أن يخالف المريدُ ما حكم به باطنُه عليه من الخلوص في الخدمة وبذل الوسع والطاقة.

فصل: من شأن المريد إذا كانت طريقته خدمة الفقراء الصبرُ علىٰ جفاء القوم معه، وأن يعتقد أنه يبذل روحه في خدمتهم ثم لا يحمدون له أثرًا فيعتذر إليهم من تقصيره ويقرُّ بالجناية علىٰ نفسه تطييبًا لقلوبهم وإن علم أنه بريء الساحة.

فصل: من شأن المريد دوام المجاهدة في ترك الشهوات، فإنَّ مَن وافق شهوتَه عَدِمَ صفوتَه، وأقبح الخصال بالمريد رجوعُه إلىٰ شهوة تركها لله تعالىٰ.

فصل: من شأن المريد حفظُ عهوده مع الله تعالىٰ، فإنَّ نقض العهد في طريق الإرادة كالرِّدَّة عن الدين لأهل الظاهر، ولا يعاهد اللهَ تعالىٰ علىٰ شيء باختياره ما أمكنه، فإنَّ في لوازم الشرع ما يستوفي منه كلَّ وسعٍ.

فصل: من شأن المريد قِصَرُ الأمل، فإن الفقير ابن وقته، فإذا كان له تدبير في المستقبل وتطلُّعٌ لغير ما هو فيه من الوقت وأمل فيما يستأنفه لا يجيء منه شيء.

فصل: ومن شأن المريد أن لا يكون له معلوم وإن قلَّ لا سيَّما إذا كان بين الفقراء، فإنَّ ظُلمة المعلوم تطفئ نورَ الوقت.

فصل: ومن شأن المريد التباعُد عن أبناء الدنيا، فإن صحبتهم سم مجرَّب؛ لأنهم ينتفعون به وهو ينقُص بهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ الآية [الكهف: ٢٨] ولأن الزهاد يُخرِجون المالَ من الكيس تقرُّبًا إلىٰ الله تعالىٰ، وأهل الصفاء يُخرِجون الخلق والمعارف من القلب تحقُّقًا بالله عَزَّوَجَلَّ.

فصل: ومن آداب المريد مع شيخه: اعتقاده أنه لا أكمل منه من حيث علمه في البشر بزمانه، وحفظُ حرمته حسب الإمكان فلا يجهر له بالقول كجهر الإنسان لصاحبه، ولا يرفع صوته علىٰ صوته، وعدم محادثة من بجانبه في حضرته إلا في أمر يُلزِم به الشرعُ، بل يكون موجَّه الفكر والظاهر لِما يَرِد في حضرته، وأن لا يضحك في حضرته إلا تبسُّمًا من مقتضٍ، وأن لا يكون في مجالسته له إلا علىٰ طهارة، وعدم مسابقته قوله إلا أن ينتهي من كلامه، وأن يكون جلوسه بين يديه كهيئة المتشهد

في الصلاة، كأنَّ علىٰ رأسه الطير، غاضَّ الطرفِ، يسارق وجهُه النظرَ، وأن لا يخاصم أحدًا من أتباعه احترامًا لحق شيخه، وأن يراعي منصبَه في حرمه وآل بيته، وأن يراعيه في غيبته كمراعاته في الحضور في جميع الأحوال والأقوال والأفعال، وأن يحفظ متعلقاته عن الجراءة عليها فلا يلبس ثوبه ولا نعله، ولا يركب دابَّته، ولا يجلس علىٰ سجَّادته، ولا يشرب من الإناء الذي أُعِدَّ له، ونحو ذلك، وإنما يحاسب نفسه علىٰ ما فُتح له من صحبته، فإن وجد تأخُّرًا نسب التقصيرَ إلىٰ نفسه، وأن يكون أحب إليه من ولده ووالده وماله والناس أجمعين.

فصل: قال الشيخ الأكبر قُدِّس سره في التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية[1]: ينبغي للمريد أن لا يُكثِر الحركةَ فإنها مفرِّقة، ولهذا منعناه من السفر إلا في طلب شيخ يرشده، فإذا خرج إلىٰ المساجد أو إلىٰ ضرورة، فلا يلتفت يمينًا ولا شمالاً، وليجعل بصره حيث يجعل قدميه مخافةَ النظرة الأولىٰ، ويكون مشتغلاً بالذكر في مشيه، ويرد السلام علىٰ من يسلِّم عليه، ولا يقف مع أحد، ولا يقل لأحد: كيف حالك؟ وليحذر من هذا فإنه صعب عندنا، ويزيل من طريقه كلَّ ما يجده من أذىً من حجر أو شوك أو عَذِرة، ولا يجد رقعة في الأرض إلا يرفعها في كُوَّة ولا يتركها تداس بالأرجل، ويرشد الضالَّ، ويعين الضعيف، ويحمل عن المثقل. هذا كله واجب عليه، وإياك والسعي في مشيك، ولكن بالتأنِّي من غير عُجب فإنه أوفر لهمَّتك، فإذا كنت حاملاً شيئًا فأردتَ الراحة فتعدل عن طريق الناس ولا تضيِّق عليهم. وإياك وحضور مجالس السماع، فإن أشار عليك شيخك بحضورها فاحضر معهم ولا تسمع، واشتغلْ بالذكر، فإنَّ سماعك من ذكرك أَولىٰ من سماعك من الشعر ولا سيَّما والقَوَّال قلَّما ينشد إلا في باب المحبة والشوق، والنفس تهتز عند ذلك وتورث الدعوىٰ عندك، فإن أنشد القَوَّال في الموت وما يردُّك إلىٰ الخوف والقبض والحزن والبكاء في ذكر جهنم أو ذهاب العمر أو

---

(١) التدبيرات الإلهية ص ١١٦ - ١١٨ (ط - دار الكتب العلمية).

الموت وكرباته والحساب والقَصاص ومواقف القيامة فأصْغِ إلىٰ ذلك وفكِّرْ فيما جاء به، فإن غلب عليك حال يفنيك عن إحساسك وقمت فليس قيامك لك، وإنما أقامك واردُك، فمتىٰ ما رجعت عنه إلىٰ إحساسك فاقعد من حينك، وارجع إلىٰ هيئة اعتدالك، فإن الحركة في السماع انحراف عن مجرىٰ الاعتدال، وتتنوَّع بحسب القصد. وإن اضطررت إلىٰ الصحبة ولا بد فصاحِبِ العُبَّاد والمجتهدين من أهل المعاملة حتىٰ تجد الشيخ، فإن لم تجدهم في المدن فاطلبهم بالسواحل والمساجد الخربة فإنهم يطرقونها وقنن الجبال وبطون الأودية، وإذا عزمت علىٰ أن تكون منهم فإياك أن يدخل عليك وقت الصلاة إلا وأنت في المسجد، والمفرِّط من المريدين من يصلي والصلاة تقام، فإن جئت المسجدَ والصلاة تُقام فقد فرَّطت غاية التفريط، ولست منهم، وأما أن تفوتك تكبيرةُ الإحرام أو ركعة مع الإمام فلا يُتكلم علىٰ هذا فإنَّ هذا من حكم العامة[1]، فتُبْ إلىٰ الله تعالىٰ واستأنِفْ، وإياك وملازمة مسجد واحد ولا صف واحد ولا موضع واحد في المسجد.

وبهذا ختمتُ شرح هذا الكتاب بحمد الله تعالىٰ وحسن توفيقه، وأسأله الإعانة علىٰ إتمام ما بقي منه. كان ذلك علىٰ يد مسوِّده أبي الفيض محمد مرتضىٰ الحسيني لطف الله به بعد العشاء من ليلة الأحد ثالث محرَّم الحرام افتتاح سنة ١٢٠٠، أرانا الله خيرها، وكفانا ضرَّها، حامدًا لله مصلِّيًا مسلِّمًا.

---

(١) بعده في التدبيرات: المطعون في إيمانهم.

فهرس كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق

كتـاب كسر الشهوتين

- بيان فضيلة الجوع وذم الشبع
- بيان آفات الشبع وفوائد الجوع
- بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن
- بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه
- بيان آفة الرياء المتطرِّق إلىٰ مَن ترك أكل الشهوات أو قلَّل الطعام
- القـول فـي شـهوة الفـرْج
- بيان ما علىٰ المريد في ترك التزويج وفعله
- فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

٢٣ - كتاب كسر الشهوتين (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

الله ناصر كل صابر.

الحمد لله المثيب لمَن واظب علىٰ طاعاته، وزجر نفسه عن معاصيه وكُسر عن شهواته، المقبل علىٰ مَن أقبل إليه بأنواع قُرُباته، والهادي لمَن اعتصم به سبيلَ الرشد والتوفيق بعناياته، أحمده سبحانه وتعالىٰ حمدًا أستفتح به أبواب هِباته، وأشكره شكرًا أستجلب به المزيدَ من صوب سحائب رحماته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تعرب عن صميم المخلص في طويَّاته، وتقرِّب مقلدها من حظائر قدسه وحضراته، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله وحبيبه وخليله، صفوة كائناته وخلاصة خلاصاته، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ووارثيه وهُداته وسلَّم تسليمًا وعظَّم تعظيمًا.

وبعد، فهذا شرح كتاب «كسر الشهوتين: شهوة البطن وشهوة الفرج»، وهو الكتاب الثالث من الربع الثالث من كتاب الإحياء للإمام حُجة الإسلام قطب الأئمة الأعلام أبي حامد الغزالي، سقىٰ الله بعهاد الرحمة ثَراه، وأجزل في جنة الفردوس قِراه، تتبَّعت فيه تفصيل ما أجمله، وبيان ما أهمله، وضمُّ ما أبداه ونشره، ونظمُ ما بدَّده ونثره، بوجه يفيد للمُطالِع مَضامِنه، ويبرز للمُراجِع مكامنه، ويبيِّن للطالب

(١) انظر الكلام عن ذلك في: قوت القلوب ١/ ٢٧٣ - ٢٨٦، ٣/ ١٣٧٣ - ١٤٠٤، ١٦٠٣ - ١٦٤٨.

مقاصده، ويقيِّد للراغب أوابده، ويعلي للراقي مصاعده، ويقرِّب للشائق معاهده، ويبهج للناظر مشاهده، سلكت فيه طريق الإيجاز في البيان، ونبَّهت فيه علىٰ فوائد شريفة هي جواهر حِسان، والله أسأل الإعانة والتوفيق والإبانة عن وجه التحقيق، لا إله غيره، ولا خير إلا خيره، وهو حسبي ونِعم الوكيل.

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ في مفتتح كتابه: **(بسم الله الرحمن الرحيم)** استفتاحًا لهذا الباب بمفتاح هو مفتتح كل كتاب وعنوان كل خطاب، ثم أردفه بجملة الحمد؛ ليجمع بين الذِّكرين، ويعمل بمقتضَىٰ الخبرين، فقال: **(الحمد لله)** وهو ذِكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال، وهذا له تعالىٰ خاصةً **(المنفرد بالجلال)** أي المتناهي في عِظَم القدْر **(في كبريائه)** أي عظمته **(وتعاليه)** أي رفعته، وهو تفاعُلٌ من العلوِّ بمعنىٰ الفوقية المطلقة في الرتبة، ومعنىٰ تفردُّه به فيهما أن لا يحيط به وصفُ الواصفين بل علمُ العارفين[١] **(المستحِق)** أي المستوجِب **(للتحميد)** أي لأنْ يُحمَد وبحمده لنفسه أزلاً وبحمد عباده له أبدًا، فهو المحمود المثنَىٰ عليه[٢] **(والتقديس)** هو[٣] التنزيه عن كل وصف يدركه حسٌّ أو يتصوره خيال أو يسبق إليه وهم أو يختلج به ضمير أو يفضي إليه فكر **(والتسبيح)** هو التقديس والتنزيه، يقال: سبَّحت الله: أي نزَّهته عمَّا يقول الظالمون الجاحدون **(والتنزيه)** يقال: نزَّهت الله عن السوء: أي برَّأته منه. وفي ذِكر التقديس والتنزيه بعد ذِكره التعالي الذي هو تفاعُلٌ من العلو، وفيه نوع مبالغة إشارة إلىٰ أنه[٤] العليُّ المطلق الذي له الفوقية لا بالإضافة، وبحسب الوجوب لا بحسب الوجود الذي يقارنه إمكان نقيضه، وهو منزَّه عن العلو بالإضافة إلىٰ بعض الموجودات والإضافة إلىٰ الوجود **(القائم بالعدل)** أي السواء **(فيما يبرمه)** أي يُحكِمه **(ويقضيه)** أي يقدِّره من أفعاله، قد[٥]

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب ص ٣٤٥.
(٢) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ١٤١.
(٣) السابق ص ٧١.
(٤) السابق ص ١١٨.
(٥) السابق ص ١٠٥.

خلق أقسام الموجودات جسمانيها وروحانيها، ناقصها وكاملها، وأعطىٰ كلَّ شيء خلقه، وهو بذلك جواد، ورتَّبه في موضعه اللائق به، ولا يفهم صفة قيامه بالعدل إلا مَن أحاط علمًا بأفعال الله تعالىٰ من ملكوت السموات إلىٰ منتهىٰ الثَّرَىٰ، حتىٰ إذا لم يرَ في خلق الرحمن من تفاوت ثم رجع فما رأىٰ من فطور، ثم رجع كَرَّة أخرىٰ فانقلب إليه البصر خاسئًا وهو حسير، قد بهره جلال الحضرة الربوبية، وحيَّره اعتدالها وانتظامها، فحينئذٍ يعلق بفهمه شيء من هذه الصفة **(المتطوِّل بالفضل)** هو ابتداء إحسان بلا علَّة، وتطول به من **(فيما ينعم به ويسديه)** أي يوصله، يقال: أسدىٰ إليه معروفًا: إذا اتخذه عنده **(المتكفِّل)** تفعُّلٌ من الكفل وهو حياطة الشيء من جميع جهاته حتىٰ يصير عليه كالفلك الدائر[1] **(بحفظ عبده في جميع موارده ومجاريه)** أي جهاته؛ إذ[2] ركَّبه من متعاديات ومتضادَّات؛ إذ لا بد له من حرارة غريزية لو بطلت لبطلت حياته، ولا بد له من رطوبة تكون غذاء لبدنه كالدم وما يجري مجراه، ولا بد من يبوسة بها تتماسك أعضاؤه وخصوصًا ما صلبَ منها كالعظام، ولا بد من برودة تكسر سَوْرة الحرارة حتىٰ تعتدل ولا تحلِّل الرطوبات الباطنة بسرعة. فهذه متعاديات متنازعات، وقد جمع الله هذه [المتضادات] في إهابه، ولولا حفظه إياها لتنافرت وتباعدت، وبطل امتزاجُها، واضمحلَّ تركيبها، وبطل المعنىٰ الذي صارت به مستعدة لقبوله بالتركيب والمزاج، وحفظُ الله تعالىٰ [إياها] بتعديل قُواها مرةً، وبإمداد المغلوب منها ثانيًا **(المنعم عليه بما يزيد علىٰ مهمَّات مقاصده، بل بما يفي بأمانيه)** جمع[3] أمنية، وهي تقدير الوقوع فيما يترامَىٰ إليه الأمل **(فهو)** الأصل **(الذي يرشده)** بتوفيقه **(ويهديه)** إلىٰ سبيل الخير. والرشد[4]: عناية إلهيَّة تعين الإنسان عند توجُّهه في أموره فتقوِّيه علىٰ ما فيه

---

(١) نقله البقاعي في نظم الدرر ٤/ ٣٥٨ عن أبي الحسن الحرالي.

(٢) المقصد الأسنىٰ ص ١٢٠.

(٣) نظم الدرر ١/ ٤٩١.

(٤) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ٧٧ - ٧٨.

صلاحه وتفتره عمَّا فيه فساده، وأكثر ما يكون ذلك من الباطن، نحو قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ الآية [الأنبياء: ٥١] وللهداية ثلاث منازل في الدنيا، الأول: تعريف [طريق] الخير والشر، والثاني: ما يُمَدُّ به [العبد] حالاً فحالاً بحسب استزادته من العلم والعمل الصالح، والثالث: نور الولاية التي هي في أفق نور النبوة. وبتحرِّي هذه المنازل الثلاث يتوصل إلىٰ الهداية للجنة **(وهو الذي يميته)** بعد خلقه **(ويحييه)** ثانيًا بعد موته **(وإذا مرض)** بطرآن العلة في تركيب صورته **(فهو)** الذي **(يشفيه)** أي يزيل عنه تلك العلةَ **(وإذا ضعفَ)** عن حمل ما حُمِّلَ **(فهو)** الذي **(يقوِّيه)** ويدفع عنه ذلك الضعف **(وهو الذي يوفِّقه للطاعة)** أي يلهمه إياها إلهامًا ويسهِّل له سبلها **(ويرتضيه)** أي يجعله مَرْضيًّا **(وهو الذي يطعمه ويسقيه)** أشار بهذه الفِقَر إلىٰ قوله تعالىٰ حكايةً عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾ الآية [الشعراء: ٧٩ - ٨١] **(ويحفظه من الهلاك ويحميه)** بصيانة بعض المتعاديات والمتضادَّات بعضها عن بعض **(ويحرسه بالطعام والشراب عمَّا يهلكه ويُرديه)** أي يوقعه في الرَّدَىٰ، وذلك[1] لأن إمداد المغلوب إنما يتم بخلق الأطعمة والأدوية، وخلق الآلات المُصلِحة لها، وخلق المعرفة الهادية إلىٰ استعمالها، حفظًا لبدنه من المتضادَّات، وهذه هي الأسباب التي تحفظ الإنسان من الهلاك الداخل **(ويمكِّنه من القناعة)** أي الاكتفاء **(بقليل القوت ويقوِّيه)** أي يحفظ عليه قوته **(حتىٰ تضيق به)** أي بالقناعة بالقوت اليسير **(مجاري الشيطان)** أي مداخله **(الذي يناويه)** أي يعاديه، وذلك لأنه يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، كما في الخبر، فإذا أقلَّ القوتَ ضاقت العروق ولم يتولَّد دم كثير؛ إذ إنما يتحصَّل بسبب الغذاء الكثير فلا يَرِدُ علىٰ القلب من تلك المجاري دمٌ فيفيض ويصفو ويشرق نورُه **(ويكسر به سطوة النفس التي تعاديه)** فإن الشهوات إنما تنبعث من امتلاء العروق بالدم الحاصل من كثرة الأغذية، فإذا قلَّ الغذاءُ قلَّ الدمُ فقلَّت سطوة النفس الأمَّارة بالسوء **(فيدفع شرها)** بتلك الرياضة **(ثم يعبد ربه)** بجمع همَّته **(ويتَّقيه)** وتمام التقوىٰ لا يكون

---

(١) المقصد الأسنىٰ ص ١٢١.

إلا بعد مخالفة الهوىٰ ومعاداة النفس وكسر سَوْرتها (**هذا بعد أن يوسع عليه**) بأنواع النعم وأصناف الأفضال (**ما يلتذُّ به ويشتهيه، ويكثر عليه ما يهيِّج بواعثَه**) أي يحركها (**ويؤكد دواعيه، كل ذلك ليمتحنه به ويبتليه**) فإذا[١] قهر تلك الشهوات ودفعها صار بذلك حرًّا نقيًّا، بل يصير إلهيًّا ربانيًّا، فتقلُّ حاجاته، ويصير محسنًا في معاملاته، فإن لم يمكنه إماتتها صار ملحقًا بالبهائم، قال تعالىٰ: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧، الملك: ٢] (**فينظر كيف يؤثره**) أي يختاره (**علىٰ ما يهواه**) ويستلذُّه (**وينتحيه**) أي يقصده بميل النفس إليه (**وكيف يحفظ أوامره**) فيأتمر بها (و) كيف (**ينتهي عن نواهيه**) ومناهيه، أي منهيَّاته ممَّا نهىٰ الله عن ارتكابها (و) كيف (**يواظب**) أي يداوم (**علىٰ طاعته و**) كيف (**ينزجر عن معاصيه. والصلاة**) مع السلام (**علىٰ**) سيدنا (**محمد عبده**) ونبيِّه (**النبيه**) من نَبُهَ نباهةً: إذا شَرُفَ (**ورسوله الوجيه**) من وَجُهَ وجاهةً: إذا كان له حظ ورتبة[٢] (**صلاة تزلفه**) أي تقرِّبه إليه (**وتحظيه**) أي ترفع منزلته عنده (**وترفع محلَّه**) في أعلىٰ عِلِّيِّين (**وتعليه**) علىٰ مقامات إخوانه (**وعلىٰ الأبرار من عترته**) أي نسله (**وأقربيه**) هم الأدنون في النسب (**والأخيار من صحابته وتابعيه**) أي تابعي طريقته وسنَّته.

(**أما بعد، فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فبها أُخرِج آدم وحواء عليهما السلام من دار القرار**) التي هي الجنة (**إلىٰ دار الذل والافتقار**) التي هي الأرض (**إذ نُهيا عن**) أكل (**الشجرة**) هي الحنطة، أو الكرمة، أو التينة، أو شجرة مَن أكل منها أحدث. والأَولىٰ أن لا تُعيَّن من غير قاطع كما لم تُعيَّن في الآية لعدم توقُّف ما هو المقصود عليه. قاله البيضاوي[٣] (**فغلبتهما شهوتُهما**) بوسوسة إبليس، ألقىٰ في خاطرهما (**حتىٰ أكلا منها فبدتْ لهما سوءاتهما**) أي انكشفت عوراتهما وأُخرِجا ممَّا كانا فيه من الكرامة والنعيم، والقصة مشهورة في القرآن (**والبطن علىٰ التحقيق ينبوع الشهوات ومنبع الأدواء والآفات؛ إذ تتبعه شهوةُ الفرج وشدة الشَّبَق**) محرَّكة،

(١) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ٥٢.

(٢) معنىٰ النباهة والوجاهة أخذه الشارح عن المصباح المنير ص ٥٩١، ٦٤٩.

(٣) أنوار التنزيل ١/ ٧٢ - ٧٣.

أي الهيجان (إلىٰ المنكوحات، ثم تتبع شهوةَ الطعام والنكاح شدةُ الرغبة) والمَيل (في الجاه والمال اللذينِ هما الوسيلة إلىٰ التوسُّع في المنكوحات والمطعومات، ثم يتبع استكثارَ المال والجاه أنواعُ الرعونات) وأصل[1] الرعونة إفراط الجهالة، أو الوقوف مع حظ النفس ومقتضَىٰ طباعها (وضروبات المنافسات والمحاسدات، ثم تتولَّد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعَىٰ ذلك إلىٰ) ارتكاب (الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلىٰ اقتحام البغي والمنكر والفحشاء، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة و) ترك سياستها وإهمال (ما يتولَّد منها من بطر الشبع والامتلاء) أي البَطَر الحاصل منهما (ولو ذلَّل العبد نفسه بالجوع وضيَّقَ به مجاري الشيطان) التي يدخل منها (لأذعنت لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ ولم تسلك سبيل البطر والطغيان) علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ (ولم ينجرَّ به ذلك إلىٰ الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة علىٰ الآجلة) وقد ذمَّ الله تعالىٰ هذا الإيثار فقال: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلىٰ: ١٦ - ١٧] (ولم يتكالب كل هذا التكالُب علىٰ الدنيا) والتكالُب هو التواثُب (وإذا عظمت آفةُ شهوة البطن إلىٰ هذا الحد وجب شرحُ غوائلها وآفاتها تحذيرًا منها، ووجب إيضاحُ طريق المجاهدة لها، والتنبيه علىٰ فضلها ترغيبًا فيها، وكذلك شرح شهوة الفرج، فإنها تابعة لها) أي لشهوة البطن (ونحن نوضِّح ذلك بعون الله تعالىٰ في فصول نجمعها، وهي: بيان فضيلة الجوع) وما فيها من الأخبار والآثار (ثم فوائده، ثم طريق الرياضة في كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير، ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس، ثم بيان الرياضة في ترك الشهوة، ثم القول في شهوة الفرج، ثم بيان ما علىٰ المريد في ترك التزوُّج وفعله، ثم بيان فضيلة مَن يخالف شهوة البطن والفرج والعين) فهي ثمانية فصول.

---

(١) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف ص ١٧٩. والمعنىٰ الثاني في التعريفات للجرجاني ص ١١٦.

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع

ولنذكر أولاً مناسبة إيراد المصنف هذا الكتاب عقيب كتاب رياضة النفس، فنقول: لما كان ختام هذا الكتاب المتقدم في الكلام علىٰ الإرادة والمريد ولا بد للمريد من خصال سبع: الصدق في الإرادة، وعلامته إعداد العدَّة. ولا بد له من التسبُّب إلىٰ الطاعة، وعلامة ذلك هجر قرناء السوء. ولا بد له من المعرفة بحال نفسه، وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس. ولا بد له من مجالسة عالِم بالله، وعلامة ذلك إيثاره علىٰ ما سواه. ولا بد له من توبة نصوح، فبذلك يجد حلاوة الطاعة ويثبُت علىٰ المداومة، وعلامة التوبة قطعُ أسباب الهوىٰ والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه. ولا بد له من طعمة حلال، وعلامة ذلك المطالبة عنه، وحلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع. ولا بد له من قرين صالح يؤازره علىٰ حاله، وعلامته معاونته علىٰ البر والتقوىٰ ونهيه إياه عن الإثم والعدوان. فهذه الخصال السبع قوت[1] الإرادة، لا قوام لها إلا بها، ويستعين علىٰ هذه السبع بأربع هن أساس بنيانه، وبها قوة أركانه، أولها: الجوع، ثم السهر، ثم الصمت، ثم الخلوة. فهذه الأربع سجن النفس وضِيقها وتقييدها، بهن تضعُف صفاتُها، وعليهن تحسُن معاملاتها. فلهذا أعقبه بهذا الكتاب؛ ليكون كالتتمَّة لتلك الخصال التي ذكرها، وابتدأ بما ورد في فضل الجوع فقال: (**قال رسول الله ﷺ: جاهِدوا أنفسكم بالجوع والعطش، فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله، وإنه ليس من عمل أحب إلىٰ الله من جوع وعطش**) قال العراقي[2]: لم أجد له أصلاً.

(**وقال ابن عباس**) ﷺ: (**قال رسول الله ﷺ: لا يدخل ملكوت السماء مَن**

---

(١) أي طعامها.

(٢) المغني ٢/ ٧٤٩.

ملأ بطنه) قال العراقي[(١)]: لم أجد له أصلاً.

(وقيل: يا رسول الله، أيُّ الناس أفضل؟ قال: مَن قلَّ مَطعمه وضحكُه ورضي) من اللباس **(بما يستر به عورته)** قال العراقي[(٢)]: لم أجد له أصلاً.

(وقال رسول الله ﷺ: سيد الأعمال الجوع، وذلُّ النفس لباس الصوف) قال العراقي[(٣)]: لم أجد له أصلاً.

(وقال أبو سعيد الخُدري) رضي الله عنه: **(قال رسول الله ﷺ: البسوا واشربوا وكلوا في أنصاف البطون، فإنه جزء من النبوَّة)** قال العراقي[(٤)]: لم أجد له أصلاً.

قلت: وسيأتي للمصنف نحوه قريبًا من حديث الحسن عن أبي هريرة.

(وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ مرسلاً: **(قال النبي ﷺ: التفكُّر نصف العبادة، وقلة الطعام هي العبادة)** قال العراقي[(٥)]: لم أجد له أصلاً.

قلت: ورویٰ أبو نعيم في الحلية[(٦)] من طريق سالم بن أبي الجعد قال: قيل لأم الدرداء: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ فقالت: التفكُّر.

(وقال الحسن أيضًا: قال النبي ﷺ: أفضلكم عند الله منزلةً يوم القيامة أطولكم جوعًا وتفكُّرًا في الله سبحانه، وأبغضكم عند الله عز وجل يوم القيامة كل نَؤُم أَكُول شَرُوب) أي كثير النوم، كثير الأكل، كثير الشراب. قال العراقي[(٧)]: لم أجد له أصلاً.

---

(١) السابق ٢/ ٧٤٩.

(٢) السابق ٢/ ٧٤٩.

(٣) السابق ٢/ ٧٤٩.

(٤) السابق ٢/ ٧٤٩.

(٥) السابق ٢/ ٧٤٩.

(٦) حلية الأولياء ١/ ٢٠٨.

(٧) المغني ٢/ ٧٤٩.

(وفي الخبر: إن النبي ﷺ كان يجوع من غير عوز. أي مختارًا له) ولفظ القوت: وفي حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يجوعون من غير عوز. أي مختارين لذلك.

قال العراقي[١]: رواه البيهقي في الشعب[٢] من حديث عائشة قالت: لو شئنا أن نشبع لشبعنا، ولكن محمدًا ﷺ كان يؤثر علىٰ نفسه. وإسناده معضل.

(وقال ﷺ: إن الله تعالىٰ يباهي الملائكة بمَن قلَّ مَطعمه ومشربه في الدنيا، يقول الله تعالىٰ: انظروا إلىٰ عبدي، ابتليتُه بالطعام والشراب في الدنيا فصبر وتركهما، اشهدوا يا ملائكتي ما من أكلة يَدَعها إلا أبدلتُه بها درجات في الجنة) رواه[٣] ابن عدي في الكامل، وقد تقدم في الصيام.

(وقال ﷺ: لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثُر عليه الماءُ) قال العراقي[٤]: لم أقف له علىٰ أصل.

(وقال ﷺ: ما ملأ آدميٌّ وعاء شرًّا من بطنه، حسب ابن آدم لُقَيمات يُقِمْنَ صلبه، وإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه) رواه الترمذي من طريق المقدام، وقد تقدم في الصيام[٥].

(وفي حديث أسامة بن زيد وأبي هريرة) رضي الله عنهما **(الطويل ذكر فضيلة الجوع؛ إذ قال فيه: إن أقرب الناسِ من الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة مَن طال جوعُه وعطشه وحزنه في الدنيا، الأحفياء)** بالحاء المهملة، وبالمعجمة[٦] **(الأتقياء، الذين إن شهدوا لم**

---

(١) المغني ٢/ ٧٥٠.

(٢) شعب الإيمان ٣/ ٦٢، ٧/ ٤٤١.

(٣) المغني للعراقي ٢/ ٧٥٠.

(٤) السابق ٢/ ٧٥٠.

(٥) بل في كتاب آداب الأكل.

(٦) يعني: الأخفياء.

يُعرَفوا) أي لخفائهم بين الناس **(وإن غابوا لم يُفتَقدوا)** أي لم يُطلَبوا **(تعرفهم بقاع الأرض، وتحفُّ بهم الملائكة)** ولفظ القوت: ملائكة السماء **(نعمَ الناسُ بالدنيا)** أي بلذائذها **(ونعموا بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فرش الناسُ الفُرُش الوثيرة)**: الليِّنة **(وافترشوا الجِباه والرُّكَب، ضيَّع الناس فِعلَ النبيين وأخلاقهم، و)** هم **(حفظوها، تبكي الأرض إذا فقدتْهم، ويسخط الجبارُ)** جلَّ وعز **(علىٰ كل بلدة ليس فيها منهم أحد، لم يتكالبوا)** أي لم يتواثبوا **(علىٰ الدنيا تكالُب الكلاب)** أي تواثُبها **(علىٰ الجِيَف)** وهي أمتعة الدنيا **(أكلوا العلق)** جمع عُلقة بالضم، وهو اليسير من الطعام **(ولبسوا الخِرَق)** أي البالي من الثياب **(شُعثًا)** رؤوسهم **(غُبرًا)** وجوههم **(يراهم الناس فيظنون أن بهم داءً)** أي علة **(وما بهم داء، ويقال)** إنهم **(قد خولِطوا وذهبت عقولهم، وما ذهبت عقولهم)** ولا خولِطوا **(ولكن نظر القوم بقلوبهم إلىٰ أمر جدٍّ أذهب عنهم)** حب **(الدنيا، فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول)** أي علىٰ هيئة مَن لا عقل له **(عقلوا حين ذهبت عقول الناس، لهم الشرف)** أي الرتبة العالية **(في الآخرة، يا أسامة، إذا رأيتَهم في بلدة فاعلمْ أنهم أمان لأهل تلك البلدة، ولا يعذب الله)** أبدًا **(قومًا هم فيهم، الأرض بهم فَرِحة، والجبار عنهم راضٍ، اتخِذْهم لنفسك إخوانًا عسىٰ أن تنجو بهم، وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعلْ، فإنك بذلك تدرك شرف المنازل، وتحل مع النبيين، وتفرح بقدوم روحك الملائكةُ، ويصلي عليك الجبَّار)** هكذا رواه صاحب القوت.

قال العراقي[١]: الحديث بطوله رواه الخطيب في الزهد[٢] من حديث سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ وأقبل علىٰ أسامة ... فذكره مع تقديم وتأخير، ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات[٣]، وفيه حيَّان بن عبد الله بن جَبَلة

(١) المغني ٢/ ٧٥٠ - ٧٥١.

(٢) الزهد والرقائق ص ١١٨.

(٣) الموضوعات ٣/ ١٤٨.

أحد الكذَّابين، وفيه مَن لا يُعرَف، وهو منقطع أيضًا، ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده[١] من هذا الوجه.

قلت: وقد رُوي بعضه من حديث معاذ، أخرج أبو نعيم في الحلية[٢] من طريق أبي قلابة عن عبد الله بن عمر قال: مر عمر بن الخطاب بمعاذ وهو يبكي، فقال: [ما يبكيك يا معاذ؟ فقال]: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَحَبُّ العِبادِ إلىٰ الله الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يُفتَقدوا، وإن شهدوا لم يُعرَفوا، أولئك أئمة الهدىٰ ومصابيح العلم»[٣].

(**وروىٰ الحسن**) البصري رحمه الله تعالىٰ (**عن أبي هريرة**) رضي الله عنه (**أن رسول الله ﷺ قال: البسوا الصوف وشمِّروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء**) قال العراقي[٤]: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس[٥] بسند ضعيف.

(**وقال عيسىٰ** عليه السلام: **يا معشر الحواريِّين، أجيعوا أكبادكم**) ولفظ القوت: وفي خبر عن عيسىٰ عليه السلام قال: يا معشر الحواريين، جوِّعوا بطونكم، وعطِّشوا أكبادكم (**وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترىٰ الله** عز وجل) يعني بحقيقة الزهد وصفاء القلب، فالجوع مفتاح الزهد وباب الآخرة، وفيه ذلُّ النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها، وفي ذلك حياة القلب وصلاحه.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية[٦] من طريق موسىٰ بن سعيد عن مالك بن دينار

---

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ص ٤٣١.

(٢) حلية الأولياء ١/ ١٥.

(٣) هو عند ابن ماجه من طريق زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر (٣٩٨٩)، والحاكم في المستدرك ١/ ٤، وقال صحيح ووافقه الذهبي. وآخره: قلوبهم مصابيح الهدىٰ، يخرجون من كل غبراء مظلمة.

(٤) المغني ٢/ ٧٥١.

(٥) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ١٠٢.

(٦) حلية الأولياء ٢/ ٣٧٠.

قال: بلغني أن عيسىٰ عليه السلام قال لأصحابه: أجيعوا أنفسكم وأظمِئوها وأعروها وأنصِبوها لعل قلوبكم أن تعرف الله عز وجل.

(ورُوي ذلك عن نبيِّنا ﷺ أيضًا، رواه طاووس) مرسلاً. قال العراقي[١]: لم أجده.

قلت: ورواه عبد الرحيم بن يحيىٰ الأسود في كتاب الإخلاص هكذا عن طاووس عن النبي ﷺ أنه قاله. كذا في القوت.

(وقيل: مكتوب في التوراة: إن الله) عز وجل **(لَيبغضُ الحبر السمين)** رواه أبو نعيم في الحلية[٢] من طريق سَيَّار، حدثنا جعفر، سمعت مالك بن دينار يقول: قرأت في الحكمة: إن الله يبغض كل حبر سمين.

ورواه البيهقي في الشعب[٣] من طريق محمد بن ذكوان عن رجل عن كعب من قوله: إن الله يبغض أهل البيت اللحمين والحبر السمين.

قال البيهقي في تأويل الجملة الزائدة: إنهم هم الذين يُكثِرون أكل اللحم. قال: وقرانه بالجملة الأخرىٰ كالدلالة علىٰ ذلك.

وأخرج ابن جرير[٤] وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبيَّ ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة علىٰ موسىٰ، هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين»؟ وكان حبراً سمينًا، فغضب وقال: ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء [فقال له أصحابه الذين معه: ويحك! ولا موسىٰ؟ فقال: ما أنزل الله علىٰ بشر من

(١) المغني ٢/ ٧٥١.
(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٦٢.
(٣) شعب الإيمان ٧/ ٤٥٩.
(٤) جامع البيان ٩/ ٣٩٤.

شيء] فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ الآية [الأنعام: ٩١] وهكذا أخرجه الواحدي في أسباب النزول[١]. وأخرجه الطبري في تفسيره من طريق جعفر ابن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير. وعزاه [القرطبي[٢]] أيضًا للحسن البصري.

وعند أبي نعيم في الطب النبوي[٣] من طريق بشر الأعور قال: قال عمر: إياكم والبِطنة ... الحديث، وفي آخره: وإن الله لَيبغضُ الحبر السمين.

(لأن السِّمَن يدل علىٰ الغفلة وكثرة الأكل، وذلك قبيح) مطلقًا **(خصوصا بالحبر)** وهو العالِم، ونقل البيهقي[٤] عن الشافعي أنه قال: لا يعدو العاقل من إحدىٰ حالتين: إما أن يهتمَّ لآخرته ومعاده أو لدنياه ومعاشه، والشحم مع الهم لا ينعقد، فإذا خلا عن المعنيين صار في حدِّ البهائم لعقد الشحم **(ولأجل ذلك قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن الله يبغض القارئ السمين من الشبع)** رواه صاحب القوت كذلك. وفي موضع آخر من كتابه: لَيمقتُ الحبر السمين. وعزاه أبو الليث السمرقندي في بستانه[٥] لأبي أمامة الباهلي مرفوعًا. قال السخاوي[٦]: وما أعلمه مرفوعًا.

(وفي خبر مرسل: إن الشيطان لَيجري من ابن آدم مَجرىٰ الدم، فضيِّقوا مجاريه بالجوع والعطش) قال العراقي[٧]: تقدم في الصيام دون الزيادة التي في آخره، وذكر المصنف هنا أنه مرسل، والمرسل رواه ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» من

---

(١) أسباب نزول القرآن ص ٢٢٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٤٥٥، وفيه: «وقال الحسن وسعيد بن جبير: الذي قاله أحد اليهود، قال: لم ينزل الله كتابا من السماء».

(٣) الطب النبوي ١/ ٢٤٣.

(٤) مناقب الشافعي ٢/ ١٢٠.

(٥) بستان العارفين ص ٦٨ (ط - المطبعة اليوسفية).

(٦) المقاصد الحسنة ص ١٢٥.

(٧) المغني ٢/ ٧٥١.

حديث علي بن الحسين دون الزيادة أيضًا[(١)].

(وفي الخبر: **إن الأكل علىٰ الشبع يورث البرصَ**) نقله صاحب القوت قال: وقد يُروَىٰ في خبر ... ثم ساقه.

قال العراقي[(٢)]: لم أجد له أصلاً.

(وقال عليه الصلاة والسلام: **المؤمن يأكل في مِعًىٰ واحد**) بكسر الميم وبالعين المهملة مقصور، وفيه لغة أخرىٰ: مِعْيٌ، بالكسر والسكون بعدها ياء، حكاها صاحب المحكم[(٣)]، والجمع: الأمعاء، وهي المصارين (**والكافر**) وفي نسخة: المنافق، بدل: الكافر (**يأكل في سبعة أمعاء**) قال العراقي[(٤)]: متفق عليه[(٥)] من حديث ابن عمر وحديث أبي هريرة.

قلت: رواه[(٦)] البخاري من طريق مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة بلفظ: «يأكل المسلم في معًىٰ واحد، والكافر في سبعة أمعاء، وأخرجه مسلم والترمذي[(٧)] والنسائي[(٨)] من طريق مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ضافه ضيفٌ وهو كافر ... فذكر قصته، وفي آخرها: «المؤمن يشرب في معىٰ واحد، والكافر يشرب في سبعة أمعاء». وأخرجه مسلم أيضًا من رواية العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة مقتصرًا علىٰ الحديث دون

---

(١) هو عند البخاري في صحيحه عن علي بن الحسين مرسلًا وموصولًا (٢٠٣٨).

(٢) المغني ٢/ ٧٥١.

(٣) المحكم لابن سيده ٢/ ١٩٢.

(٤) المغني ٢/ ٧٥٢.

(٥) صحيح البخاري ٤/ ٤٣٤ - ٤٣٥. صحيح مسلم ٢/ ٩٩٠ - ٩٩١.

(٦) طرح التثريب ٦/ ١٦ - ٢٠.

(٧) سنن الترمذي ٣/ ٤٠٦.

(٨) السنن الكبرىٰ ٦/ ٣٠٨.

القصة، وأخرجه البخاري والنسائي[١] وابن ماجه[٢] من رواية عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة أن رجلاً كان يأكل أكلاً كثيرًا، فأسلم فكان يأكل أكلاً قليلاً، فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إن المؤمن يأكل في معىً واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». واختُلف في المراد بهذا الحديث علىٰ أقوال، أحدها: قال ابن عبد البر[٣]: الإشارة فيه إلىٰ كافر بعينه لا إلىٰ جنس الكفار، ولا سبيل إلىٰ حمله علىٰ العموم؛ لأن المشاهدة تدفعه، ألا ترىٰ أنه قد يوجد كافر أقل أكلاً من مؤمن، ويُسلِم الكافر فلا ينقص أكلُه ولا يزيد، وفي حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة ما يدل علىٰ أنه في رجل بعينه، ولذلك جعله مالك في موطئه[٤] بعده مفسِّرًا له، وهذا عموم، والمراد به الخصوص، فكأنَّه قال: هذا إذ كان كافرًا كان يأكل في سبعة أمعاء، فلما آمن عوفي وبورك له في نفسه فكفاه جزءٌ من سبعة أجزاء ممَّا كان يكفيه إذ كان كافرًا خصوصًا له، فكأنه قال: هذا الكافر، وهذا المؤمن. ا.هـ. وسبقه إلىٰ ذلك الطحاويُّ فقال[٥]: هذا الكافر مخصوص. حكاه عنه ابن طاهر في مبهماته[٦]. ثم اختُلف في تعيين الكافر الذي أسلم وكان سبب ورود الحديث علىٰ أقوال، أحدها: أنه جهجاه الغِفاري، رواه أبو يعلىٰ[٧] والبزار[٨] والطبراني[٩]، قال ابن بشكوال[١٠]: وهو الأكثر. قال العراقي في شرح الترمذي: إنه لا يصح؛ لأن مدار حديثه علىٰ

---

(١) السابق ٦/ ٢٧٠.

(٢) سنن ابن ماجه ٥/ ٨.

(٣) التمهيد ١٨/ ٥٣ - ٥٥.

(٤) الموطأ ٢/ ٩٢٤.

(٥) شرح مشكل الآثار ٥/ ٢٥٤.

(٦) إيضاح الإشكال لابن طاهر ص ١٠٥ - ١٠٦ (ط - مكتبة المعلا بالكويت).

(٧) مسند أبي يعلىٰ ٢/ ٢١٨.

(٨) كشف الأستار عن زوائد البزار ٣/ ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٩) المعجم الكبير ٢/ ٢٧٤.

(١٠) الغوامض والمبهمات ١/ ٢٦٠.

موسىٰ بن عبيدة الرَّبَذي، وهو ضعيف. الثاني: أنه أبو بصرة الغفاري، رواه أحمد في مسنده[١] بإسناد صحيح، وجزم به الخطيب في مبهماته[٢]. الثالث: أنه أبو غزوان، رواه الطبراني[٣] بإسناد صحيح. الرابع: أنه نضلة بن عمرو، رواه أحمد[٤] والبزار[٥] بإسناد رجاله ثقات. قال العراقي: وهذه قصة أخرىٰ، وليس هو المبهم في حديث أبي هريرة. الخامس: أنه ثمامة بن أثال. السادس: أنه بصرة بن أبي بصرة الغفاري، حكاهما القاضي عياض[٦] والنووي[٧]، وحكىٰ ابن بشكوال[٨] كونَه ثمامة بن أثال عن ابن إسحاق[٩]، وصدَّرَ به المازريُّ[١٠] كلامه، وقال العراقي: لم أجد في طرق الحديث ما يدل علىٰ هذين القولين. الثاني من الأقوال: أن هذا مثل ضُرب للمؤمن وزهده في الدنيا، وللكافر وحرصه عليها، وإليه أشار المصنف بقوله: **(أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن)** وكأنَّ المؤمن لزهده في الدنيا وتقلُّله منها يأكل في معًىٰ واحد، فليس المراد حقيقة الأمعاء ولا حقيقة الأكل، وإنما المراد الاتساع في الدنيا والتقلُّل منها، فكأنَّه عبَّر بالأكل عن أخذ الدنيا، وبالأمعاء عن أسباب ذلك، والعرب ترفع في ذِكر ضِعف الشيء وأضعافه إلىٰ سبعة. وهذا هو القول الثالث **(أو تكون شهوته)** أي الكافر **(سبعة أضعاف شهوته)** أي المؤمن؛ لأنه غير واقف مع المقصد الشرعي، وإنما هو تابع لشهوة نفسه، مسترسل فيها، غير خائف من تبعة

---

(١) مسند أحمد ٤٥/ ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة ص ٣٤٨ - ٣٥٠ (ط - مكتبة الخانجي).

(٣) المعجم الكبير ١٤/ ٧٧ - ٧٨ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) مسند أحمد ٣١/ ٢٩٤.

(٥) كشف الأستار عن زوائد البزار ٣/ ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٦) إكمال المعلم ٦/ ٥٥٥ - ٥٥٨.

(٧) شرح صحيح مسلم ١٤/ ٣٥.

(٨) الغوامض والمبهمات ١/ ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٩) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

(١٠) المعلم بفوائد مسلم ٣/ ١٢٠.

الحرام وورطته، بخلاف المؤمن فإن الغالب من حاله قلة الأكل؛ لعلمه أن مقصود الشرع من الأكل ما يسد الجوعَ ويمسك الرمقَ ويقوِّي علىٰ عبادة الله تعالىٰ، وخوفه من حساب الزيادة علىٰ ذلك، فصار أكلُه إذا نُسب لأكل الكافر كأنه سُبعه، وهذا هو القول الرابع (ويكون المعىٰ) علىٰ هذا القول (**كناية عن الشهوة؛ لأن الشهوة هي التي تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذه المعىٰ، وليس المعنىٰ زيادة عدد أمعاء المنافق علىٰ أمعاء المؤمن**) وهذا[1] القول اختيار سهل التستري رحمه الله تعالىٰ، كأنه قال: المنافق يأكل في سبعة أمعاء: شره وطمع وشهوة وحرص ورغبة وغفلة وعادة، فهو يأكل بهذه المعاني، والمؤمن يأكل بمعنىٰ الفاقة والزهد. ولكن ليس ذلك أمرًا مطَّردًا في حق كل مسلم وكافر، فقد يكون في المؤمنين مَن يأكل كثيرًا بحسب العادة أو لعارض، ويكون في الكفار مَن يعتاد قلة الأكل إما لمراعاة الصحة كالأطباء، أو للتقلُّل كالرهبان، أو لضعف المعدة، وحينئذٍ فهذا خرج مَخرج الغالب، والسبع علىٰ سبيل التقريب دون التحديد. القول الخامس: أن هذا تحضيض للمؤمنين علىٰ قلة الأكل إذ أُعلِموا أن هذه صفة المؤمن الكامل الإيمان، وتنفير من كثرة الأكل إذ أُعلِموا أن هذه صفة الكفار، فإن نفس المؤمن تنفر من الاتِّصاف بصفة الكافر، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: ١٢]. القول السادس: أن المراد به أن المؤمن يسمي الله تعالىٰ عند طعامه فلا يشركه الشيطان فيه فيقل أكلُه لذلك، والكافر لا يسمي الله فيشاركه الشيطان فيه. وفي صحيح مسلم[2]: «إن الشيطان لَيستحلُّ الطعام إن لم يُذكَر اسم الله عليه». القول السابع: أن المراد بالمؤمن هنا تام الإيمان، المُعرِض عن الشهوات، المقتصر علىٰ سد خلَّته. والمراد بالكافر المتعدِّي في طغيانه، المنهمك علىٰ الدنيا، الشديد الإعراض عن الآخرة. فأريدَ

(١) من هنا إلىٰ قوله (الفاقة والزهد) عن قوت القلوب، وما بعده تتمة كلام العراقي في طرح التثريب.
(٢) صحيح مسلم ٢/ ٩٧١ من حديث حذيفة بن اليمان.

مؤمن بوصف مخصوص وكافر بوصف مخصوص. القول الثامن: قال النووي: المختار أن معناه: بعض المؤمنين يأكل في معىً واحد، وأن أكثر الكفار يأكلون في سبعة أمعاء، ولا يلزم أن كل واحد من السبعة مثل معىً المؤمن.

تنبيه: اختُلف في المراد بالأمعاء السبعة، فحكىٰ القاضي عياض عن أهل الطب والتشريح أن أمعاء الإنسان سبعة: المعدة، ثم ثلاثة أمعاء بعدها متصلة بها: البواب والصائم والرقيق، وهي كلها رِقاق، ثم ثلاثة غِلاظ: الأعور والقولون والمستقيم، وطرفه الدبر. قال: فيكون علىٰ هذا موافقًا لِما قاله ﷺ أن الكافر المذكور وإن كان بعينه أو بعض الكفار أو مَن يأكل منهم بشرهه وجشعه أو لا يذكر اسم الله تعالىٰ علىٰ أكله لا يشبعه إلا ملء أمعائه السبعة كالأنعام أو آكلة الخضر، والمؤمن المقتصد في أكله يشبعه ملء معىً واحد. قال: وقيل: المراد بالسبعة صفات سبعة: الحرص والشره وبُعد الأمل والطمع وسوء الطبع والحسد وحب السِّمَن. قال: وقيل: شهوات الطعام علىٰ سبعة: شهوة الطبع، وشهوة النفس، وشهوة العين، وشهوة الفم، وشهوة الأذن، وشهوة الأنف، وشهوة الجوع وهي الضرورية التي بها يأكل المؤمن، وأما الكافر فإنه يأكل بجميع شهواته. وحكىٰ القاضي أبو بكر ابن العربي[1] قريبًا من هذا القول عن بعض مشايخ الزهد، فذكر الحواس الخمس والحاجة والشهوة.

(وروىٰ الحسن) البصري (**عن عائشة** ﵂ **أنها قالت: سمعت رسول الله** ﷺ **يقول: أديموا قرع باب الجنة يُفتَح لكم. قلت: وكيف نُديم قرع باب الجنة؟ قال: بالجوع والظمأ**) كذا في القوت. قال العراقي[2]: لم أقف له علىٰ أصل.

(**ورُوي أن أبا جُحَيفة**) وهب بن عبد الله السوائي ﵁، توفي رسول الله ﷺ وهو مراهق (**تجشَّأ في مجلس رسول الله** ﷺ، **فقال له: أقصِرْ من جُشائك، فإن**

---

(١) عارضة الأحوذي ٨/ ١٣.

(٢) المغني ٢/ ٧٥٢.

أطول الناس جوعًا يوم القيامة أكثرهم شبعًا في الدنيا) ولفظ القوت: وفي حديث أبي جحيفة لما تجشأ عند رسول الله ﷺ من ثريد ولحم، قال: كنت أكلتُه، فقال له: «اكفُفْ عنا جُشاءك، فإنَّ أطولكم شبعًا في الدنيا أكثركم جوعًا في الآخرة». فقال: واللهِ ما تملأت طعامًا من يومئذٍ إلىٰ يومي هذا، وأرجو أن يعصمني الله عَزَّوَجَلَّ فيما بقي.

قال العراقي[١]: رواه البيهقي في الشعب[٢] من حديث أبي جحيفة، وأصله عند الترمذي[٣] وحسَّنه وابن ماجه[٤] من حديث ابن عمر: تجشأ رجل ... الحديث، لم يذكر أبا جحيفة.

قلت: وأخرجه البزار[٥] أيضًا من حديث أبي جحيفة بلفظ: «إن أكثر الناس شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة». قال الحافظ ابن حجر[٦]: وسنده ضعيف، وحديث ابن عمر عند ابن ماجه في سنده مقالٌ.

(وكانت عائشة ﵂ تقول: إن رسول الله ﷺ لم يمتلئ قط شبعًا، وربما بكيتُ رحمةً له ممَّا أرىٰ به من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلَّغتَ من الدنيا بقدْر ما يقوتك ويمنعك من الجوع. فيقول: يا عائشة، إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا علىٰ ما هو أشد من هذا فمضوا علىٰ حالهم فقَدِموا علىٰ ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحي إن ترفَّهت في معيشتي أن يُقصَر بي غدًا دونهم، فالصبر أيامًا يسيرة أحب إليَّ من أن ينقص حظي غدًا في

---

(١) المغني ٢/ ٧٥٢.

(٢) شعب الإيمان ٧/ ٤٤٣.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٢٦٠.

(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٢.

(٥) مسند البزار ١٠/ ١٦٢.

(٦) فتح الباري ٩/ ٤٣٨.

الآخرة، وما من شيء أحب إليَّ من اللحوق بأصحابي وإخواني. قالت عائشة: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتىٰ قبضه الله إليه) قال العراقي[(١)]: لم أجده.

قلت: وهو أشبهُ بمخاطبة عمر رضي الله عنه مع ابنته حفصة حين لامت عليه في خشونة العيش. أورده الذهبي في «نِعم السمر في سيرة عمر».

(وعن أنس) رضي الله عنه **(قال: جاءت فاطمة عليها السلام بكسرة خبز إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه الكسرة؟ قالت: قرصٌ خبزتُه، لم تطبْ نفسي حتىٰ أتيتك منه بهذه الكسرة. فقال رسول الله ﷺ: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام)** قال العراقي[(٢)]: رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده[(٣)] بسند ضعيف.

قلت: أخرجه القشيري في الرسالة[(٤)] فقال: أخبرنا علي بن أحمد الأهوازي، أخبرنا أحمد بن عبيد الصَّفَّار، حدثنا عبد الله بن أيوب، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا أبو هاشم صاحب الزعفراني، حدثنا محمد بن عبد الله، عن أنس بن مالك أنه حدَّثه قال: جاءت فاطمة عليها السلام بكسرة خبز ... فساقه. قال: وفي بعض الروايات: جاءت فاطمة بقرص شعير.

(وقال أبو هريرة) رضي الله عنه: **(ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعًا من خبز الحِنطة حتىٰ فارق الدنيا)** رواه مسلم، وقد تقدم[(٥)].

---

(١) المغني ٢/ ٧٥٢.

(٢) السابق ٢/ ٧٥٢. قال: لم أجده مجموعًا في حديث، وهو مفرق في عدة أحاديث.. إلخ، ثم ذكر أحاديث.

(٣) وكذلك الطبراني في المعجم الكبير ١/ ٢٥٩، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ١/ ٢٤٤، والبيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ٥٦، والضياء في الأحاديث المختارة ٧/ ١٦٦ - ١٦٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ ١٢٢. ورواه أحمد في مسنده ٢٠/ ٤٤٠ مختصرا.

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٥٨.

(٥) في كتاب أخلاق النبوة.

(**وقال ﷺ: إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة، وإن أبغض الناس إلىٰ الله تعالىٰ المتخمون الملأىٰ**) أي الذين يملأون بطونهم من الطعام حتىٰ يتخمون، والتُّخمة: فساد الطعام في المعدة (**وما ترك عبدٌ أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة**) قال العراقي[1]: رواه الطبراني في الكبير[2] وأبو نعيم في الحلية[3] من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

قلت: لفظ الطبراني: «إن أهل الشبع في الدنيا هم أهل الجوع غدًا في الآخرة». قال المنذري[4]: إسناده حسن. وقال الهيثمي[5]: فيه يحيىٰ بن سليمان القرشي، فيه مقال.

وأخرج ابن ماجه[6] والحاكم[7] من حديث سلمان بلفظ: «إن أكثر الناس شبعًا في الدنيا أطولهم يوم القيامة جوعًا». قال الحافظ ابن حجر[8]: في سنده لينٌ. وقد أخرجه ابن ماجه أيضًا من حديث ابن عمر بنحوه، وقد تقدم عند ذكر حديث أبي جحيفة. وتقدم عن كعب: إن الله يبغض أهل البيت اللحمين. أخرجه البيهقي في الشعب. وهم المكثرون من أكل اللحم حتىٰ يتخموا.

(**وأما الآثار. فقد قال عمر رضي الله عنه: إياكم والبِطنة فإنها ثقل في الحياة، نتنٌ في الممات**) أخرجه أبو نعيم في كتاب الطب النبوي[9] من طريق بِشر الأعور قال: قال

---

(١) المغني ٢/ ٧٥٣.

(٢) المعجم الكبير ١١/ ٢٦٧.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ٣٤٦.

(٤) الترغيب والترهيب ص ٨٣٢ - ٨٣٣.

(٥) مجمع الزوائد ١٠/ ٤٣٩.

(٦) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٣.

(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٣٤.

(٨) فتح الباري ٩/ ٤٣٨.

(٩) الطب النبوي ١/ ٢٤٣.

عمر بن الخطاب: إياكم والبِطنة في الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسد، مورثة للفشل[(١)]، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما، فإنه أصلحُ للجسد وأبعدُ من السرف.

وقد رُوي عن عمرو بن العاص وغيره من الصحابة: البِطنة تذهب بالفِطنة.

(وقال **شقيق البلخي**) رحمه الله تعالىٰ: (**العبادة حرفة حانوتها الخلوة، وآلتها المجاعة**)[(٢)] يشير بذلك إلىٰ أن الخلوة والجوع ركنان عظيمان لأساس العبادة، ولا تتم إلا بهما، وفيهما سجن النفس وضيقها، ويتبع الخلوةَ الصمتُ، ويتبع الجوعَ السهرُ، فهي أركان أربعة.

(**وقال لقمان لابنه**) وهو يعظه: (**يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة**) أي تكاسلت.

(**وكان الفضيل بن عياض**) رحمه الله تعالىٰ (**يقول**) مخاطبًا (**لنفسه: أيُّ شيء تخافين؟ أتخافين أن تجوعي؟ لا تخافي ذلك، أنتِ أهون علىٰ الله من ذلك، إنما يجوع محمد ﷺ وأصحابه**) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(**وكان كهمس**) بن الحسن العابد، معاصر للحسن البصري، روىٰ عن جماهير التابعين (**يقول: إلهي، أجعتني، وأعريتني، وفي ظُلَم الليالي بلا مصباح أجلستني، فبأيِّ وسيلة بلَّغتني ما بلغتني**) نقله صاحب القوت.

(**وكان فتح**) بن شُخرف (**الموصلي**) رحمه الله تعالىٰ (**إذا اشتدَّ مرضه وجوعه يقول: إلهي، ابتليتني بالمرض والجوع، وكذلك تفعل بأوليائك، فبأيِّ**

---

(١) في الطب النبوي: للسقم.

(٢) هذا الكلام نسبه السلمي في طبقات الصوفية ص ٣٥ ليحيىٰ بن معاذ الرازي، ولكن بلفظ: «العبادة حرفة، حوانيتها الخلوة، ورأس مالها الاجتهاد بالسنة، وربحها الجنة».

عمل أؤدي شكر ما أنعمت به عليَّ)[١] نقله صاحب القوت.

(**وقال**) أبو يحيىٰ (**مالك بن دينار**) البصري رحمه الله تعالىٰ: (**قلت لمحمد ابن واسع**) البصري: (**يا أبا عبد الله، طوبَىٰ لمَن كانت له غُلَيلة تقوته وتغنيه عن الناس. فقال لي: يا أبا يحيىٰ، طوبىٰ لمَن أصبح جائعًا وأمسىٰ جائعًا وهو عن ربِّه راضٍ**)[٢] نقله صاحب القوت.

(**وكان الفضيل بن عياض**) رحمه الله تعالىٰ (**يقول: إلهي، أجعتني وأجعت عيالي، وتركتني في ظُلَم الليالي بلا مصباح، وإنما تفعل هذا بأوليائك، فبأيِّ منزلة نلتُ هذا منك**)[٣]؟ نقله صاحب القوت.

(**وقال**[٤] **يحيىٰ بن معاذ**) الرازي رحمه الله تعالىٰ: (**جوع الراغبين مَنْبَهة**) أي ممَّا يحمل علىٰ النباهة، أي الشرف والرفعة (**وجوع التائبين تجربة**) بتعوُّد أنفسهم إياه واستئناسهم به (**وجوع المجتهدين**) في العبادة (**كرامة**) يكرمهم الله تعالىٰ بها ليشغلهم بمناجاته (**وجوع الصابرين سياسة، وجوع الزاهدين حكمة**) أخرجه القشيري في الرسالة بلفظ: الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللعارفين

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٢٩٢ والخطيب في تاريخ بغداد ١٤/ ٣٦١ من طريق بشر بن الحارث قال: كان فتح الموصلي إذا كانت ليالي الشتاء جمع عياله وقام بكسائه عليهم ثم قال: اللهم أفقرتني وأفقرت عيالي، وجوعتني وجوعت عيالي، وأعريتني وأعريت عيالي، بأي وسيلة توسلتها إليك؟ وإنما تفعل هذا بأوليائك وأحبابك، فهل أنا منهم حتىٰ أفرح؟

(٢) رواه بنحوه ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع ص ١٠٢. ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٦/ ١٥٤ عن الفضيل بن عياض قال: قال مالك بن دينار: إني لأغبط الرجل يكون عيشه كفافا فيقنع به. قال محمد بن واسع: أغبط واللهِ من ذلك عندي من أن يصبح جائعا ويمسي جائعا وهو عن الله راضٍ. وروىٰ البيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٣٨٥ الجملة الأخيرة فقط ولم يذكر كلام مالك. ورواه في الزهد الكبير ص ١٨٠ من طريقين.

(٣) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٥/ ٤٢٧ مطولا عن عبد الصمد بن يزيد، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧٨/ ٣٩٥ من طريق الدينوري باللفظين.

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٥٩. إحكام الدلالة ١/ ٤٧٠.

مكرمة. وقد عُلم من هذا أن الجوع لا يستغني عنه مريد متفرِّغ للطاعة، ولا تائب عن الذنب، ولا زاهد قد أعرض عن الدنيا، ولا عارف كمُل شغلُه بالمولىٰ.

(**وفي التوراة: اتقِ الله، وإذا شبعتَ فاذكر الجياع**[١]).

وقال أبو سليمان) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني رحمه الله تعالىٰ: (**لأن أترك لقمة من عشائي أحب إليَّ من قيام ليلة إلىٰ الصبح**) أخرجه القشيري في الرسالة[٢] فقال: سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت محمد بن أحمد ابن سعيد الرازي يقول: سمعت العباس [بن حمزة] يقول: قال أحمد بن أبي الحواري: قال أبو سليمان الداراني: لأنْ أترك من عشائي لقمة أحب إليَّ من أن أقوم الليل إلىٰ آخره. أي[٣] لأن حال العبد مع الجوع في عبادته بعض الليل أقرب إلىٰ الخشوع من قيامه وهو شبعان كل الليل.

(**وقال**) الداراني (**أيضًا: الجوع عند الله في خزانة، لا يعطيه إلا لمَن أحبه**) نقله صاحب القوت[٤].

(**وكان**) أبو محمد (**سهل بن عبد الله التستري**) رحمه الله تعالىٰ (**يطوىٰ**

---

(١) رواه ابن حبان في الثقات ٨/ ٤١٩ عن هشام بن خالد الربعي قال: قرأت في التوراة: إذا شبعت فاذكر الجائع.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٦١. ورواه أيضا أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٧٤، ١٠/ ١٨، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٤٧٧، ٤٨١، والخطيب في تاريخ بغداد ١١/ ٥٢٥، وابن أبي الدنيا في كتاب الجوع ص ١٠٤.

(٣) إحكام الدلالة ١/ ٤٧٣.

(٤) الذي في قوت القلوب ٣/ ١٤٩٤: «قال أبو سليمان الداراني: الأعمال كلها في الخزائن مطروحة إلا شيئين فإنه مخزون مختوم عليهما لا يعطاهما إلا من طبعه الله بطابع الشهداء: الفقر مع المعرفة». وقد رواه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٤٨١ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٧٨ بلفظ: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وإن الجوع عنده في خزائن مدخر لا يعطيه إلا من أحب خاصة».

نيِّفًا وعشرين ليلة لا يأكل) وعبارة القوت[1]: وقيل: كان سهل بن عبد الله لا يأكل الطعام إلا في كل خمسة عشر يومًا، فإذا دخل شهر رمضان كان لا يأكل حتىٰ يرىٰ الهلال، وكان يفطر كل ليلة علىٰ الماء القراح **(وكان يكفيه لطعامه في السنة درهم)** واحد يشتري له به الشعير فيطحن ويقرص، وكان يأكل كل يوم منه أوقية، كما تقدم ذلك قريبًا **(وكان يعظِّم)** شأنَ **(الجوع ويبالغ فيه، حتىٰ قال: لا يوافي القيامة عملُ برٍّ أفضل من ترك فضول الطعام اقتداءً بالنبي ﷺ في أكله)** والمراد بفضول الطعام: ما زاد عن إقامة الصُّلب لعبادة الله تعالىٰ.

(وقال) أيضًا: **(لم يرَ الأكياس)** أي العقلاء **(شيئًا أنفع من الجوع في الدنيا والدين.**

وقال) أيضًا: **(لا أعلم شيئًا أضر علىٰ طلاب الآخرة من الأكل)** أي لِما زاد عن الحاجة.

(وقال) أيضًا: **(وُضعت الحكمة والعلم في الجوع، ووُضعت المعصية والجهل في الشبع)** لأن[2] العبد إذا شبع تحركت شهواته، وإذا جاع ذلَّ وفترت همَّتُه عن كثير من الأمور الدنيوية، وتفرَّغ القلب للاجتهاد في الطاعات، ونال العلم والحكمة.

وقال القشيري في الرسالة[3]: أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبيد الله، حدثنا علي بن الحسين الأَرَّجاني، حدثنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الإصطخري بمكة قال: قال سهل بن عبد الله: لما خلق الله الدنيا جعل في الشبعِ المعصيةَ والجهل، وجعل في الجوعِ العلمَ والحكمة.

---

(١) بل هذه عبارة القشيري في الرسالة ص ٢٥٩.

(٢) إحكام الدلالة ١/ ٤٧٠.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٢٥٩.

(وقال) أيضًا: (ما عُبِدَ الله بشيء أفضل من مخالفة الهوىٰ في ترك الحلال، وقد جاء في الحديث) الذي تقدم ذِكرُه قريبًا: (ثلث للطعام) وثلث للشراب، وثلث للنفَس (فمَن زاد عليه فإنما يأكل من حسناته.

وسُئل) سهل (عن الزيادة) ما علامتها؟ (فقال: لا يجد الزيادة حتىٰ يكون الترك أحب إليه من الأكل، ويكون إذا جاع ليلةً سأل اللهَ أن يجعلها ليلتين، فإذا كان ذلك وجد الزيادة.

وقال) سهل أيضًا: (ما صار الأبدال أبدالاً إلا بإخماص البطون والصمت والسهر والخلوة) وهي الأركان الأربعة التي أُسِّست عليها الإرادة. ولفظ القوت: وقال سهل رحمه الله تعالىٰ: اجتمع الخير كلُّه في هذه الأربع خصال وبها صار الأبدال أبدالاً: إخماص البطون، والصمت، والسهر، والاعتزال عن الناس[١].

(وقال) أيضًا: (رأس كل برٍّ نزل من السماء إلىٰ الأرض الجوع، ورأس كل فجور بينهما الشبع[٢].

وقال) أيضًا: (مَن جوَّع نفسَه انقطعت عنه الوساوس) أي لأن الشيطان تضيق مجاريه إلىٰ القلب فلا يقدر علىٰ أن يوسوس.

(وقال) أيضًا: (إقبال الله علىٰ العبد بالجوع والسقم، والبلاء نعمة من الله تعالىٰ) عليه؛ إذ لولا أنه اختاره لَما بلاه.

(وقال) أيضًا: (اعلموا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه) الأمَّارة بالسوء (وقتلها بالجوع والسهر والجهد)[٣] في طاعات الله عز وجل.

---

(١) تقدم هذا الكلام في كتاب تهذيب النفس.

(٢) روىٰ ابن أبي الدنيا الشطر الأول منه في كتاب الجوع ص ٧٦ عن يوسف بن أسباط بلفظ: «الجوع رأس كل بر في الأرض».

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٠١، وزاد: لفساد ما عليه أهل الزمان.

(وقال) أيضًا: **(ما مر علىٰ وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتىٰ روي فسَلِمَ من المعصية وإن شكر الله تعالىٰ، فكيف الشبع من الطعام)** هذه الأقوال كلها لسهل رحمه الله تعالىٰ، وزاد صاحب القوت فقال: وقال سهل: مَن لم يصبر علىٰ الجوع والضر لم يتحقق هذا الأمرَ.

(وسُئل حكيم) من الحكماء: **(بأيِّ قيد تقيَّد النفس)**؟ وفي بعض النسخ: أقيِّد النفسَ **(قال: قيِّدْها بالجوع والعطش، وذلِّلْها بإخماد العز وترك الذكر، وصغِّرْها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة، واكسرها بترك زِي الأغنياء)** أي هيئتهم **(عن ظاهرها، وانْجُ من آفاتها بدوام ظن السوء بها، واصحبْها بخلاف هواها)** أي بمخالفة ما تهواه.

(وكان عبد الواحد بن زيد) البصري رحمه الله تعالىٰ **(يقسم بالله تعالىٰ ما صافَىٰ اللهُ تعالىٰ أحدًا إلا بالجوع، ولا مشوا علىٰ الهواء والماء إلا به، ولا طُويت لهم الأرض ولا تولاهم الله تعالىٰ إلا بالجوع)** وكان يعدُّ الأخلاق الشريفة السَّنِيَّة المحمودة ويحلف أنهم ما نالوها إلا بالجوع. رواه صاحب القوت فقال: حدثني محمد الجهضمي، عن أحمد بن شاكر قال: سمعت أبا سعيد الخَرَّاز يقول: سمعت الثقات من العلماء يقولون عن عبد الواحد بن زيد ... فذكره. وقال في موضع آخر: وكان عبد الواحد بن زيد يحلف بالله ما تحوَّل الصدِّيقون [صديقين] إلا بالجوع والسهر.

(وقال أبو طالب المكي) رحمه الله تعالىٰ في كتابه القوت: **(مثل البطن مثل المِزهر)** بكسر الميم **(وهو العود المجوَّف ذو الأوتار، إنما حسُن صوتُه لخفَّته ورقَّته، ولأنه أجوف غير ممتلئ)** ولو كان ثقيلاً جاسيًا ممتلئًا لم يكن له صوت **(وكذلك الجوف إذا خلا)** عن الطعام والشراب **(كان)** أرق للقلب، و**(أعذب للتلاوة، وأدوم للقيام، وأقل للمنام.**

وقال **بكر بن عبد الله المُزَني**) البصري رحمه الله تعالىٰ: (**ثلاثة يحبهم الله تعالىٰ: رجل قليل النوم، قليل الأكل، قليل الراحة**) أي في عبادة الله تعالىٰ؛ لأنها لا تحصل إلا بجهد ومشقَّة.

(**ورُوي أن عيسىٰ** عليه السلام **مكث يناجي ربَّه ستين صباحًا لم يأكل**) شيئًا (**فخطر بباله**) في أثناء مناجاته (**الخبز، فانقطع عن**) أنس (**المناجاة، فإذا رغيف موضوع بين يديه، فجلس يبكي لفقد**) أنسِ (**المناجاة، وإذا بشيخ قد أظلَّه**) أي أشرف عليه (**فقال له عيسىٰ: بارك الله فيك يا ولي الله، ادْعُ الله لي، فإني كنت في حالة**) المناجاة (**فخطر ببالي الخبز فانقطعتْ عني**) تلك الحالة (**فقال الشيخ: اللهم إن كنتَ تعلم أن الخبز خطر ببالي منذ عرفتك فلا تغفر لي، بل كان إذا خطر لي شيءٌ أكلتُه من غير فكر وخاطر**.

ورُوي أن موسىٰ عليه السلام **لمَّا قرَّبه الله نجيًّا**) أي في مقام المناجاة (**كان قد ترك الأكل أربعين يومًا ثم ثلاثين ثم عشرًا، علىٰ ما ورد به القرآن؛ لأنه أمسك بغير تبييت يومًا فزِيدَ عشرة لأجل ذلك**) وفي القوت: روينا عن أبي سعيد الخرَّاز قال: قال جماعة من الحكماء: إن الله تعالىٰ لا يكلم أحدًا وفي بطنه شيء من الدنيا. فهذا يدل علىٰ أمره لموسىٰ عليه السلام بترك الأكل؛ ليلقاه خاليًا من الدنيا، وبنفس ساكنة عن المنازعة إلىٰ شيء من المُلك، وروح روحانية قد أحياها الحي بحياته، فعند ذلك صلُح هذا الشخصُ لمخاطبته قبلاً بلا ترجمان. وروىٰ عن مكحول قال: ثلاث خصال يحبها الله عز وجل: قلة الأكل، وقلة النوم، وقلة الكلام. وكان بعض السلف يقول: أدنىٰ أحوال المؤمن قلة الأكل والنوم، وأفضل أحوال المنافق كثرة الأكل والنوم.

وقال القشيري في الرسالة[1]: قال يحيىٰ بن معاذ: لو أن الجوع يباع في السوق

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

لَما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره. وقال أيضًا: الجوع نور، والشبع نار، والشهوة مثل الحطب يتولَّد منه الإحراق، ولا تنطفئ ناره حتىٰ تحرق صاحبها. وكان سهل التستري إذا جاع قويَ، وإذا أكل ضعُفَ. وقال أبو عثمان المغربي: الربَّاني لا يأكل أربعين يومًا، والصَّمَداني لا يأكل ثمانين يومًا.

بيان آفات الشبع وفوائد الجوع

(قال رسول الله ﷺ: جاهِدوا أنفسكم بالجوع والعطش، فإنَّ الأجر في ذلك) كأجر المجاهد في سبيل الله. تقدم هذا الحديث قريبًا، قال العراقي: لم أجد له أصلاً.

(ولعلك تقول: هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو؟ وما سببه؟ وليس فيه إلا إيلام المعدة) بتخليتها عن الطعام والشراب **(ومقاساة الأذىٰ، فإن كان كذلك فينبغي أن يعظُم الأجر في كل ما يتأذَّىٰ به الإنسان من ضربه لنفسه وقطعه للحمه وتناوله للأشياء المكروهة وما يجري مجراه. فاعلمْ أن هذا يضاهي قول مَن شرب دواء فانتفع به وظن أن منفعته لمرارة الدواء أو كراهته فأخذ يتناول كل ما يكرهه من المذاق، وهو غلط)** نشأ من غفلة **(بل نفعُه في خاصِّية في الدواء)** قائمة به **(وليس لكونه مرًّا)** أو كريهًا **(وإنما يقف علىٰ تلك الخاصية الأطباء)** الحُذَّاق **(وكذلك لا يقف علىٰ علة نفع الجوع إلا سماسرة العلماء)** ونُقَّادهم **(ومَن جوَّع نفسَه مصدِّقًا لِما جاء في الشرع من مدح الجوع)** وذم الشبع **(انتفع به وإن لم يعرف علة المنفعة، كما أن مَن شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعًا، ولكنا نشرح لك ذلك إن أردتَ أن ترتقي من درجة الإيمان إلىٰ درجة العلم)** المضاعَفة بسبعين درجة، كما في الخبر، وتقدم في كتاب العلم **(قال الله تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾** [المجادلة: ١١] **فنقول: في الجوع عشر فوائد:**

الفائدة الأولىٰ: صفاء القلب) وهو بياضه الذي يحصل من قلة إمداد الدم الواصل من العروق **(وإيقاد القريحة)** أي تنوُّرها، والقريحة هي الطبيعة من حيث صدور العلم عنها[1] **(وإنفاذ البصيرة)** أي إمضاؤها **(فإن الشبع يورث البلادة)**

---

(١) في التوقيف للمناوي ص ٢٧٠: «القريحة: أول ما يخرج من البئر، ثم استعمل في محله مجازا، ثم استعير لطبيعة الإنسان من حيث صدور العلم عنها، يقال: لفلان قريحة، ويراد أنه مستنبط للعلوم».

والجمود (**ويعمي القلبَ**) بتراكُم الحُجُب عليه (**ويُكثِر البخارَ في الدماغ شِبه السكْر**) بصعوده من المعدة إليه (**حتىٰ يحتوي علىٰ معادن الفكر فيثقل القلبُ** بسببه **عن الجريان في**) ميدان (**الأفكار وعن سرعة الإدراك**) لِما يُلقَىٰ إليه (**بل الصبي إذا أكثر الأكلَ بطل حفظُه، وفسد ذهنُه، وصار بطيء الفهم والإدراك**) لِما يُلقَىٰ إليه، كما هو مشاهَد (**قال أبو سليمان الداراني**) رحمه الله تعالىٰ: (**عليك بالجوع، فإنه مذلَّة للنفس، ورقة للقلب، وهو يورث العلم السماويَّ**) أراد به العلم الذي يأتي من فوق من غير اكتساب.

(**وقال ﷺ: أحيوا قلوبَكم بقلة الضحك وقلة الشبع، وطهِّروها بالجوع تصفو وترِقُّ**) قال العراقي[١]: لم أجد له أصلاً.

قلت: لكن مقابل الجملة الأولىٰ قد رواه القضاعي في مسند الشهاب[٢] من حديث أبي هريرة: «كثرة الضحك تميت القلبَ». وعند ابن ماجه[٣]: «لا تكثروا الضحكَ، فإنَّ كثرة الضحك تميت القلوب». وسيأتي في الكتاب الذي يليه.

(**وقال: مثل الجوع مثل الرعد، ومثل القناعة مثل السحاب، والحكمة كالمطر**) الأشبه أن هذا من كلام أبي سليمان الداراني وليس بحديث.

(**وقال النبي ﷺ: مَن أجاع بطنَه عظمت فكرتُه وفطن قلبُه**) قال العراقي[٤]: لم أجد له أصلاً.

(**وقال ابن عباس**) ﷺ: (**قال النبي ﷺ: مَن شبع ونام قسا قلبُه**) أي غلظ واشتدَّ (**ثم قال**) ﷺ: (**لكل شيء زكاة، وزكاة البدن الجوع**) قال العراقي[٥]: رواه

---

(١) المغني ٢/ ٧٥٣.

(٢) مسند الشهاب ١/ ٩٩.

(٣) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٠٧.

(٤) المغني ٢/ ٧٥٣.

(٥) السابق ٢/ ٧٥٣.

ابن ماجه[١] من حديث أبي هريرة: «لكل شيء زكاة، وزكاة الجسد الصوم». وإسناده ضعيف.

قلت: ورواه كذلك البيهقي[٢]. ورواه أيضًا الطبراني[٣] وابن عدي[٤] والبيهقي[٥] أيضًا من حديث سهل بن سعد. وأما الجملة الأولىٰ من الحديث فلم أقف لها علىٰ أصل.

(وقال) أبو بكر **(الشِّبْلي)** رحمه الله تعالىٰ: **(ما جعتُ لله يومًا إلا رأيت في قلبي بابًا مفتوحًا من الحكمة)** أي العلم الإلهي **(والعبرة)** أي الاعتبار **(ما رأيتُها قط)** قبل ذلك.

(وليس يخفَىٰ أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلىٰ) مقام **(المعرفة)** في الله **(والاستبصار بحقائق الحق)** كما هي **(والشبع يمنع من ذلك)** لِما فيه من تبليد الفكر **(والجوع يفتح بابه، والمعرفة باب من أبواب الجنة، فبالحريِّ أن تكون ملازمة الجوع قرعًا لباب الجنة)** المشار إليه في الخبر السابق: «أديموا قرع باب الجنة» **(ولهذا قال لقمان لابنه: يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة)** وقد تقدم قريبًا.

(وقال أبو يزيد البِسطامي) رحمه الله تعالىٰ: **(الجوع سحاب، فإذا جاع العبد أُمطِر القلب الحكمة)**[٦] أي كما يمطر السحابُ الماءَ.

(وقال النبي ﷺ: نور الحكمة الجوع، والتباعُد من الله تعالىٰ الشبع، والقُربة

(١) سنن ابن ماجه ٣/ ٢٢٢.

(٢) شعب الإيمان ٥/ ١٩٩.

(٣) المعجم الكبير ٦/ ١٩٣.

(٤) الكامل في الضعفاء ٢/ ٦٥٧.

(٥) شعب الإيمان ٥/ ١٩٩.

(٦) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٩.

إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ حب المساكين والدنو منهم، لا تشبعوا فينطفئ نورُ الحكمة من قلوبكم، ومَن بات يصلي في خفَّة من الطعام بات الحور حوله حتىٰ يصبح) قال العراقي[١]: ذكره أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس[٢] من حديث أبي هريرة، وكتب عليه أنه مسند، وهي علامة ما رواه بإسناده.

قلت: ورواه أيضًا ابن عساكر في التاريخ[٣] بلفظ: «نور الحكمة الجوع، ورأس الدين تركُ الدنيا، والقُربة إلىٰ الله حب المساكين والدنو منهم، والبعد من الله الذي قُوِيَ به علىٰ المعاصي الشبعُ، فلا تُشبِعوا بطونكم فيطفأ نورُ الحكمة من صدوركم، فإن الحكمة تسطع في القلب مثل السراج».

(الفائدة الثانية: رقَّة القلب وصفاؤه الذي يتهيَّأ به لإدراك لذَّة المناجاة والتأثر بالذِّكر) أي انتقاشه فيه **(فكم من ذِكر يجري علىٰ اللسان مع حضور القلب)** لِما يذكر وفهم معانيه **(ولكن القلب لا يلتذُّ به ولا يتأثَّر)** منه؛ لفوات موجِب الاستعداد الذي هو الرقَّة والصفاء الحاصلان من الجوع **(حتىٰ كان بينه)** أي بين القلب **(وبينه)** أي بين أثر الذكر **(حجابًا من قساوة القلب)** وهو حجاب معنويٌّ **(وقد يرقُّ في بعض الأحوال)** والأحيان **(فيعظُم تأثُّره بالذكر وتلذُّذه بالمناجاة)** فيكون لها فيه وقعٌ عظيم **(وخلو المعدة)** عن الطعام والشراب **(هو السبب الأظهر فيه)** أي في رقَّته.

(وقال أبو سليمان الداراني) رحمه الله تعالىٰ: **(أحلىٰ ما تكون إليَّ العبادة إذا التصق ظهري ببطني)** هو إشارة إلىٰ ما ذُكر من وجدان التلذُّذ في تلك الحالة، والتصاق الظهر بالبطن كناية عن قلة الأكل.

---

(١) المغني ٢/ ٧٥٤.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٢٤٧.

(٣) تاريخ دمشق ١٩/ ٤٤٧.

(وقال الجنيد) رحمه الله تعالىٰ: (**يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة**) نقله صاحب القوت بلفظ: يقوم أحدهم في صلاته فيجعل بينه وبين الله زنبيل طعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة أو يسمع فهم الخطابِ.

(وقال أبو سليمان) الداراني رحمه الله تعالىٰ: (**إذا جاع القلب وعطش صفا ورقَّ، وإذا شبع عمي وغلظ**)[1] فغِلظُ القلب وعماه إنما يكون من الشبع.

(**فإذًا تأثُّرُ القلب بلذة المناجاة أمرٌ وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة، فهي فائدة ثانية**.

الفائدة الثالثة: الانكسار والذل وزوال البَطَر والفرح والأَشَر الذي هو مبدأ الطغيان) والتعدِّي عن الحدود (**والغفلة عن الله تعالىٰ، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع**) فإن فيه إماتتها واستكانتها وضعفها، وفي ذلك حياة القلب (**فعنده**) تطمئن و(**تسكن لربِّها وتخشع له، وتقف علىٰ عجزها وذلِّها**) وافتقارها (**إذا ضعُفت مُنتها**) بضم الميم، أي قوَّتها (**وضاقت حيلتها بلقمة طعام فاتتها وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها، وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرىٰ عزة مولاه ولا قهره**) وبه فُسِّر الخبر: «مَن عرف نفسه فقد عرف ربه». أي مَن عرف نفسه بالذل والافتقار عرف ربه بالعز والاقتهار (**وإنما سعادته في أن يكون دائمًا مشاهدًا نفسه بعين الذل والعجز**) والانكسار (**و**) مراقبًا (**ربه**[2] **بعين العز والقدرة والقهر**) ومَن أراد الرقي إلىٰ هذا المقام (**فليكن دائمًا جائعًا، مضطرًّا إلىٰ مولاه، مشاهدًا للاضطرار بالذوق**) بنور عرفانيٍّ يقذفه الحق في قلبه (**ولأجل ذلك لمَّا عُرضت الدنيا وخزائنها علىٰ النبي ﷺ قال: لا، بل أجوع يومًا وأشبع**

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٦٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٤٧٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ١٢٩.

(٢) في غير الزبيدي: مولاه.

يومًا، فإذا جعتُ صبرت، وإذا شبعت شكرت. أو كما قال) رواه أحمد والترمذي وحسَّنه وابن سعد والطبراني والبيهقي من حديث أبي أمامة بلفظ: «عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، فقلت: لا يا رب، ولكني أشبع يومًا وأجوع يومًا، فإذا جعت تضرَّعت إليك [وذكرتك] وإذا شبعت حمدتك وشكرتك». وقد تقدم الكلام على هذا الحديث[1] **(فالبطن والفرج باب من أبواب النار، وأصله الشبع. والذل والانكسار باب من أبواب الجنة، وأصله الجوع ومَن أغلق)** على نفسه **(بابًا من أبواب النار فقد فتح)** لها **(بابًا من أبواب الجنة بالضرورة؛ لأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب، فالقرب من أحدهما بعدٌ عن الآخَر)** كما هو شأن المتقابلين.

(الفائدة الرابعة: أن لا ينسى بلاء الله وعذابه) وامتحانه **(ولا ينسى أهل البلاء)** والامتحان **(فإنَّ الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع)** وفي المشهور على ألسنة العامة: الشبعان يفتُّ للجيعان فتًّا بطيئًا[2] **(والعبد الفَطِن)** المتبصِّر بنور الإيمان **(لا يشاهد بلاءً من غيره إلا ويتذكَّر بلاء الآخرة، فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة)** حين تدنو الشمس من الرؤوس ويلجمهم العرق **(ومن جوعه جوعَ أهل النار، حتى إنهم لَيجوعون)** فيها **(فيُطعَمون الضَّريع)** الذي لا يُسمِن ولا يغني من الجوع، وهو يبيس الشُّبْرُق **(والزَّقُّوم)** والغِسْلين **(ويُسقَون)** فيها من عين آنية **(الغَسَّاق والمُهْل)** وكل ذلك مذكور في القرآن **(فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها)** وشدائدها **(فإنه هو الذي يهيِّج الخوفَ)** ويثيره في قلبه **(فمَن لم يكن في ذلة)** بين أبناء جنسه **(ولا علَّة)** في بدنه **(ولا قلة)** في ماله وجاهه **(ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثَّل في نفسه)** خياله **(ولم يغلب على قلبه، فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء)** في نفسه **(أو مشاهدة بلاء)** من غيره **(وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع، فإنَّ فيه فوائد جَمَّة)** أي كثيرة **(سوى تذكُّر عذاب الآخرة،**

---

(١) في الفصل الثالث من كتاب الصوم.

(٢) ذكره الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٢٦٨ وقال: «يضرب لمن لا يهتم بشأنك ولا يأخذه ما أخذك».

وهذا أحد الأسباب الذي اقتضىٰ اختصاصَ البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل) كما ورد في الخبر: «نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء، ثم الأمثل فالأمثل». يعني[1] أقرب شبهًا بنا فالأقرب، فرفع أهلَ البلاء إليه، ووصف نفسه به، وجعلهم الأمثل فالأمثل منه، فمن كان به ﷺ أمثل كان هو الأفضل **(ولذلك لمَّا قيل ليوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ**: لِمَ تجوع وفي يديك)** أي في قبضتك ومُلكك **(خزائن الأرض)** من الذخائر وغيرها؟ **(فقال: أخاف أن أشبع فأنسىٰ الجائع)**[2] نقله صاحب القوت **(فذِكرُ الجائعين والمحتاجين إحدىٰ فوائد الجوع، فإن ذلك يدعو إلىٰ الرحمة)** والبر **(والإطعام والشفقة علىٰ خلق الله** عَزَّوَجَلَّ**)** تعظيمًا لأمره تعالىٰ **(والشبعان في غفلة عن ألم الجائع)** لا يدري عنه، ولا يذكره علىٰ لسانه، ولا يخطر حاله في قلبه.

(الفائدة الخامسة، وهي من أكبر الفوائد) وأجمعها: **(كسرُ شهوات)** باعثة علىٰ **(المعاصي كلِّها)** جليلها وحقيرها **(والاستيلاء)** أي الغلبة **(علىٰ النفس الأمَّارة بالسوء)** بقمع حدَّتها **(فإنَّ منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوىٰ، ومادة القوىٰ والشهوات لا محالة الأطعمة)** الواصلة آثارها إليها **(فتقليلها يُضعِف كلَّ شهوة وقوة)** ويُبطِل عملَها **(وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه)** فيصرفها في الخير كيف يشاء، كما أن **(الشقاوة كلها في أن تملكه نفسُه)** فتحمله في المعاصي حيث شاءت **(وكما أنك لا تملك الدابة الجَمُوح)** الصعبة المِراس **(إلا بضعف الجوع)** أي إذا أضعفتَها بقلة العلف **(فإذا شبعت قويت وشردت)** عنك **(وجمحت)** عليك **(فكذلك النفس)** هي بمنزلة مطيَّتك، إن أشبعتها قويت عليك، وإن أضعفتها بالجوع لانت وانقادت. ولله دَر البوصيري حيث قال:

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ علىٰ ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

---

(١) قوت القلوب ٢/ ٥٨٤.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٧٣ والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٤٦٧ عن الحسن البصري. ورواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٤٦ عن وهب بن منبه.

وقال غيره(١):

فإنك مهما تعطِ فرجك سُؤْلَه   وبطنَك نالا منتهىٰ الذم أجمعا

(**كما قيل لبعضم: ما بالك مع كبرك**) أي طعنك في السن (**لا تتعاهد بدنك**) بأن تراعيه من جهة المأكل والمشرب والاستحمام (**وقد انهدَّ؟ فقال**): لا أتعاهده (**لأنه سريع المرح**) أي النشاط (**فاحش الأَشَر، فأخاف أن يجمح بي فيورطني**) أي يوقعني في ورطة المعاصي (**فلأن أحمله علىٰ الشدائد أحب إليَّ من أن يحملني علىٰ الفواحش**) فيهلكني.

(**وقال ذو النون**) المصري رحمه الله تعالىٰ: (**ما شبعت قط إلا عصيت**) بالفعل (**أو هممت بمعصية**) نقله صاحب القوت.

(**وقالت عائشة ﷺ: أول بدعة أُحدِثت بعد رسول الله ﷺ الشبع، إن القوم لمَّا شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلىٰ هذه الدنيا**)(٢) ولفظ القوت(٣): وقال بعض الصحابة: أول بدعة ... الخ، وفيه: جمحت بهم شهواتهم.

(**وهذه ليست فائدة واحدة، بل هي خزانة الفوائد**) باعتبار جمعها وضمِّ ما انتشر من الفوائد، كما أن الخزانة تجمع أصناف الأموال النفيسة (**ولذلك قيل: الجوع خزانة من خزائن الله تعالىٰ**) قد جمع الله فيها كل خير (**وأول ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام، فإن الجائع لا تتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلَّص به من آفات اللسان**) كلها (**كالغِيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها**) مما سيأتي ذكرها في الكتاب الذي يليه (**فيمنعه الجوع من كل ذلك**)

---

(١) هو حاتم الطائي، والبيت في ديوانه ص ٦٨.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع ص ٤٣ بلفظ: «إن أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد قضاء نبيها ﷺ الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فتصعبت قلوبهم وجمحت شهواتهم».

(٣) قوت القلوب ١/ ٢٨١. ونسبه في موضع آخر ٣/ ١٣٨١ إلىٰ عائشة.

ويقطع مادَّته (**وإذا شبع افتقر إلىٰ فاكهة**) أي تاقت نفسه إليها (**فيتفكَّه لا محالة بأعراض الناس، ولا يكُبُّ الناس في النار علىٰ مناخرهم**) ووجوههم (**إلا حصائد ألسنتهم**) كما في حديث معاذ، وسيأتي (**وأما شهوة الفرج فلا تخفَىٰ غائلتُها، والجوع يكفي شرَّها**) فلا تنبعث (**وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعته التقوىٰ**) عن ذلك (**فلا يملك عينه، فالعين تزني، كما أن الفرج يزني**) ففي الخبر: «زنا العينين النظر» (**فإن ملك عينَه بغضِّ الطرف فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما تتشوَّش به مناجاته**) وتختلُّ (**وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة**) التي هي معراج المؤمن ومحل مناجاته (**وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالاً وإلا فجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع. قال حكيم**) من الحكماء: (**كل مريد صبر علىٰ السياسة فصبر علىٰ الخبز البحت**) أي الخالص وحده (**سنة**) كاملة لا يتخلَّلها ما يضادُّ (**لا يخلط به شيئًا من الشهوات**) من أنواع الإدامات (**ويأكل في نصف بطنه**) أي من غير شبع، وإنما هو بقدر سد الرمق (**رفع الله عنه مؤنة النساء**) أي فحينئذٍ تموت شهوته ولا يريدهنَّ حرامًا أو حلالاً.

(**الفائدة السادسة: دفع النوم ودوام السهر، فإنَّ مَن شبع**) من الطعام (**شرب كثيرًا**) فإن حرارة الطعام في المعدة تستدعي ذلك (**ومَن كثُر شربُه**) ارتخت عروقُه و(**كثر نومه**) وخمدت أعضاؤه (**ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام: معاشر المريدين، لا تأكلوا كثيرًا فتشربوا كثيرًا فترقدوا كثيرًا فتخسروا كثيرًا**) ولفظ القوت: وقيل: كان شباب في بني إسرائيل يتعبَّدون، وكانوا إذا حضر عشاؤهم قام فيهم عالِمهم فقال: يا معشر المريدين ... الخ[1] (**وأجمع رأي سبعين صِدِّيقًا علىٰ أن كثرة النوم من كثرة الشرب**)[2] نقله صاحب القوت

---

(١) وروىٰ أحمد في الزهد ص ٨٦، وروىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع ص ١٨٢، ورواه قوام السنة في الترغيب والترهيب ١/ ٤٩٤.

(٢) تقدم ذلك في كتاب تهذيب النفس عن إبراهيم الخواص.

(وفي كثرة النوم ضياع العمر) قال بعض الناس لفيلسوف من الحكماء: صِفْ لي شيئًا أستعمله حتىٰ أكون أنام النهار. فقال: يا هذا، ما أضعف عقلك! إن نصف عمرك نوم، والنوم من الموت، تريد أن تجعل ثلاثة أرباعه نومًا وربعه حياة؟ قال: وكيف؟ قال: أنت إذا عشت أربعين سنة فإنما هي عشرون سنة، أفتريد أن تجعلها عشر سنين؟ (و) في كثرة النوم **(فوت التهجُّد)** وهو صلاة آخر الليل **(وبلادة الطبع وقساوة القلب)** وطول الغفلة ونقصان الفطنة، وفي هذه الأشياء الفوت، وفي الفوت الحسرة بعد الموت **(والعمر أنفس الجواهر)** وأغلاها **(وهو رأس مال العبد، فبه يتَّجر)** وبه يربح **(والنوم موت)** مجازيٌّ **(فتكثيره يُنقِص من العمر)** كما تقدم ذلك من قول الحكيم **(ثم فضيلة التهجُّد لا تخفَىٰ)** قد أثنىٰ الله علىٰ المتهجِّدين في كتابه، ووردت به الأخبار والآثار، علىٰ ما تقدم في كتاب ترتيب الأوراد **(وفي النوم فواتها)** أي تلك الفضيلة **(ومهما غلب النوم فإن)** وفَّقه الله للقيام و**(تهجَّد لم يجد حلاوة العبادة)** لِما عنده من شواغل الغلبة **(ثم المتعزِّب)** من المريدين **(إذا نام علىٰ الشبع احتلم، ويمنعه ذلك أيضًا من التهجُّد، ويحوجه إلىٰ الغسل إما بالماء البارد فيتأذَّىٰ به)** فلا يجد حلاوة العبادة أيضًا **(أو يحتاج إلىٰ الحمَّام، وربما لا يقدر عليه بالليل)** فإنهم ما يفتحونه إلا قرب الفجر **(فيفوته الوترُ إن كان قد أخَّره إلىٰ التهجد، ثم يحتاج إلىٰ مؤنة الحمَّام)** أي كلفته، وربما لا يوجد عنده من أجرته **(وربما تقع عينه علىٰ عورة مَن دخل الحمام، فإنَّ فيه أخطارًا)** كثيرة **(ذكرناها في كتاب الطهارة، وكل ذلك أثر الشبع، وقد قال أبو سليمان الداراني)** رحمه الله تعالىٰ: **(الاحتلام عقوبة)** نقله صاحب القوت[1] **(وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة)** ويعيق عنها **(لتعذُّر الغسل في كل حال، فالنوم)** إذًا **(منبع الآفات، والشبع مَجلبة له)** أي

---

(١) قوت القلوب ٢/ ٥١٦. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٦٧ بلفظ: «أقمت عشرين سنة لم أحتلم، فدخلت مكة فأحدثت بها حدثا، فما أصبحت حتىٰ احتلمت. فقلت له: فأي شيء كان ذلك الحدث؟ قال: تركت صلاة العشاء في المسجد الحرام في جماعة، فما أصبحت حتىٰ احتلمت. وكان يقول: الاحتلام عقوبة».

يحمله علىٰ الجلب له (**والجوع مَقْطَعة له**) أي يحمله علىٰ قطعه.

(**الفائدة السابعة: تيسير المواظبة علىٰ العبادة**) أي تسهيل المداومة عليها (**فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات؛ لأنه يحتاج إلىٰ زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلىٰ زمان في شراء الطعام وطبخه**) واحتاج إلىٰ آلات لذلك (**ثم يحتاج إلىٰ غسل اليد و**) استعمال (**الخلال**) في أسنانه ليُخرِج فضولَ الطعام منها (**ثم يكثُر تردادُه إلىٰ بيت الماء لكثرة شربه**) وامتلاء معدته (**والأوقات المصروفة إلىٰ هذا لو صرفها إلىٰ الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثُر ربحُه**) وعظُم أجرُه (**قال السري**) السَّقَطي رحمه الله تعالىٰ: (**رأيت مع علي**) ابن إبراهيم (**الجُرجاني سويقًا يستفُّ منه، فقلت**) له: (**وما دعاك إلىٰ هذا؟ فقال: إني حسبت ما بين المضغ إلىٰ الاستفاف سبعين تسبيحة، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة**)[1] أي كيلا يضيع وقته بالمضغ.

وقد وقع مثل ذلك لداود الطائي، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية[2] من طريق إسماعيل بن الريان قال: قيل لداود الطائي: أما تشتهي الخبز؟ قال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية. ومن طريق عامر بن إسماعيل الأحمسي قال: قلت لداود الطائي: بلغني أنك تأكل الخبز اليابس تطلب به الخشونة. فقال: سبحان الله! كيف وقد ميَّزتُ بين أكل الخبز اليابس وبين اللين فإذا هو قدْر قراءة مائتي آية، ولكن ليس لي من يخبز فربما يبسَ عليَّ.

(**فانظر كيف أشفق علىٰ وقته ولم يضيعه في المضغ**) ومحافظة الوقت عندهم أمر أكيد (**وكل نفَس من**) أنفاس (**العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها**) ولذلك قالوا: تضييع الوقت يورث المقتَ (**فينبغي أن يستوفي منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها، وذلك بصرفه إلىٰ ذكر الله تعالىٰ وطاعته**) ولا يَدَعه يذهب مجانًا (**ومن**

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١١٠.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣٥٠.

جملة ما يتعذَّر بكثرة الأكلِ الدوامُ علىٰ الطهارة وملازمة المسجد، فإنه يحتاج إلىٰ الخروج) منه كل ساعة (لكثرة شرب الماء وإراقته) ضرورةً (ومن جملته الصوم[١]، فإنه يتيسَّر لمَن تعوَّدَ الجوعَ) ويسهُل عليه (فالصوم ودوام الاعتكاف) في المسجد (ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلىٰ العبادة أرباح كثيرة) لا يحصي مقدارها إلا الذي وفَّقه الله لها (وإنما يستحقرها الغافلون الذين لا يعرفون قدْر الدين لكن) هم كما قال الله تعالىٰ فيهم: (﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس: ٧] ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧] وقد أشار أبو سليمان الداراني) رحمه الله تعالىٰ (إلىٰ ست آفات في الشبع فقال: مَن شبع دخل عليه ست آفات) الأولىٰ: (فقدُ حلاوة المناجاة، و) الثانية: (تعذُّر حفظ الحكمة) الإلهية (و) الثالثة: (حرمان الشفقة علىٰ الخلق؛ لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شِباع، و) الرابعة: (ثقل العبادة) علىٰ البدن (و) الخامسة: (زيادة الشهوات، و) السادسة: (أن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد) للاعتكاف والعبادة (والشباع يدورون حول المزابل) وبيوت الماء لإخلاء المعدة.

(الفائدة الثامنة: يستفيد) المريد (من قلة الأكل صحة البدن) واستقامته (ودفع الأمراض) عنه (فإن سببها) أي الأمراض (كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق) كما قال الشاعر[٢]:

فإن الداء أكثر ما تراه … يكون من الطعام أو الشراب

(ثم المرض يمنع من العبادات) أي من أدائها علىٰ الوجه المشروع (ويشوِّش القلبَ، ويمنع من الذكر والفكر، وينغِّص العيشَ، ويحوج إلىٰ الفصد والحجامة) عند تبوُّغ الدم (والدواء والطبيب، وكل ذلك يحتاج إلىٰ مؤن ونفقات) فمنها ما يُصرَف إلىٰ الأدوية، ومنها ما يُصرَف إلىٰ الطبيب الذي يصفها (لا يخلو الإنسان

---

(١) أي: جملة ما يتعذر عليه الصوم.

(٢) هو ابن الرومي، والبيت في ديوانه ١/ ١٤٩.

منها بعد) تحمُّل (التعب من أنواع[1] المعاصي واقتحام الشهوات) وارتكاب الأخطار (وفي الجوع ما يمنع ذلك كلَّه) بلا مشقَّة (وحُكي) في أخبار الخلفاء (أن) هارون (الرشيد) أيام خلافته (جمع أربعة أطباء: هندي ورومي وعراقي وسوادي) أي من سواد العراق، وكلٌّ منهم ماهر في فنِّه (وقال) لهم: (ليصفْ كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه. فقال) الطبيب (الهندي: الدواء الذي لا داء فيه عندي هو الهليلج الأسود) المعروف بالكابُلي (وقال) الطبيب (الرومي: هو عندي حب الرشاد الأبيض. وقال) الطبيب (العراقي: هو عندي الماء الحار. وقال) الطبيب (السوادي، وكان أعلمهم: الإهليلج) فيه أنه (يعفص المعدةَ) لِما فيه من العفوصة والقبض (وهذا داء، وحب الرشاد) الأبيض فيه أنه (يزلق المعدةَ) ولفظ القوت: يرتق المعدة (وهذا داء، والماء الحار) فيه أنه (يرخي المعدة، وهذا داء. فقال) الرشيد: (فما عندك؟ فقال: الدواء الذي لا داء معه عندي أن لا تأكل الطعام حتىٰ تشتهيه، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه. فقال: صدقتَ) نقله صاحب القوت، وهو في كتاب «أخبار الخلفاء» لابن أبي الدنيا[2].

(وذُكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي ﷺ: ثلث طعام، وثلث شراب، وثلث للنفَس) وقد تقدم بلفظ: «حَسْبُ ابن آدم لُقَيمات يُقِمْنَ صلبه، فإن كان لا بد فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفَس» (فتعجَّب منه) الحكيم واستحسنه (وقال: ما سمعت كلامًا في قلة الطعام أحكم من هذا، وإنه لَكلام حكيم) ثم قال: جهدت الأطباءُ من الفلاسفة أن يقولوا مثل هذا في التقلُّل من الأكل فلم يهتدوا إليه، فأكثر ما قالوا: لا تقعد علىٰ طعام حتىٰ تشتهيه، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه. ومنهم من قال: تأكل بعد الجوع، وترفع قبل الشبع.

---

(١) في م الإمام وط المنهاج ٥/ ٣١١: لا يخلو الإنسان فيها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشبهات.

(٢) روىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع ص ١٦٧ نحو هذه القصة عن ضمرة بن حبيب.

وبعضهم يقول: لا تأكل إلا بعد جوع مفرط، ولا تشبع شديدًا. وإنما كان مرادهم هذا المعنىٰ الذي ذكره نبيُّكم ﷺ. هكذا أورده صاحب القوت.

وقد[١] نبَّه ﷺ في الخبر السابق «المؤمن يأكل في مِعىً واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء» أنه لا يُستحب للإنسان إلا الأكل في سُبع بطنه، وهو ما ذكره في هذا الخبر من اللُّقَيمات، وذلك دون عشر لقم؛ لأن الجمع[٢] بالألف والتاء لِما دون العشرة، ثم رخَّص لمَن غلب عليه النهم أن يبلغ إلىٰ ثلث بطنه، فحصل من ذلك أن أكل المؤمن في اليوم ينبغي أن يكون في سبع بطنه أو ثلث بطنه.

(وقال ﷺ: البِطنة أصل الداء، والحمية أصل الدواء، وعوِّدوا كل جسد ما اعتاد) قال العراقي[٣]: لم أجد له أصلاً.

قلت: رواه[٤] الخَلاَّل من حديث عائشة بلفظ: «الأزم دواء، والمعدة بيت الداء، وعوِّدوا بدنًا ما اعتاد». وقيل: «الحمية رأس الدواء» من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب. وروىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت[٥] من طريق وهب بن منبه قال: أجمعت الأطباء علىٰ أن رأس الطب الحمية، وأجمعت الحكماء علىٰ أن رأس الحكمة الصمت.

وبخط الحافظ ابن حجر: الجملة الأولىٰ من الحديث لها أصل من حديث أوله: «أصل كل داء البَرَدة». والبَرَدة محرَّكة: هي التخمة؛ قاله الجوهري[٦]. وهو

---

(١) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ٢٠٨.

(٢) في الذريعة: جمع القلة.

(٣) المغني ٢/ ٧٥٤.

(٤) المقاصد الحسنة ص ٣٨٩.

(٥) الصمت وآداب اللسان ص ٢٧٨.

(٦) الصحاح ٢/ ٤٤٦.

حديث ضعيف رواه ابن عدي في الكامل وأبو نعيم في الطب النبوي[١]. ا.هـ. ما وُجد بخطه.

قلت: هذا[٢] الحديث، أعني «أصل كل داء البردة» رواه أيضًا المستغفري في الطب النبوي والدارقطني في العلل[٣]، كلهم من طريق تمام بن نجيح عن الحسن البصري عن أنس رفعه بهذا، وتمام ضعَّفه الدارقطنيُّ وغيره، ووثَّقه ابن معين وغيره. ولأبي نعيم أيضًا من حديث ابن المبارك عن السائب بن عبد الله عن علي بن زحر عن ابن عباس مرفوعًا مثله، ومن طريق عمرو بن الحارث عن دَرَّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رفعه: «أصل كل داء من البردة». ومفرداتها ضعيفة. وقد ذكر الدارقطني عقب حديث أنس ما لفظه: وقد رواه عَبَّاد بن منصور عن الحسن من قوله، وهو أشبهُ بالصواب. وجعله الزمخشري في الفائق[٤] من كلام ابن مسعود.

(**وأظن تعجُّب الطبيب**) المذكور إنما (**جرىٰ من**) سماع (**هذا الخبر، لا من ذاك**) فقد قال ابن زكريا المتطبِّب: ما ترك ﷺ في الطب شيئًا إلا أتىٰ به في هذه الكلمات الثلاث. نقله الراغب في الذريعة[٥].

(**وقال**) أبو الحسن علي (**ابن سالم**) البصري شيخ صاحب القوت: (**مَن أكل خبز الحنطة بحتًا**) أي وحده بلا إدام (**بأدب لم يعتلَّ إلا علة الموت. قيل: وما الأدب؟ قال: يأكل بعد الجوع، ويرفع قبل الشبع**) نقله صاحب القوت. قال:

---

(١) الكامل في الضعفاء ٢/ ٥١٣، ٣/ ٩٨١، ٦/ ٢٣١٨. الطب النبوي ١/ ٢٤٥ - ٢٤٧ من حديث أنس وأبي سعيد الخدري وابن عباس.

(٢) المقاصد الحسنة ص ٦١ - ٦٢.

(٣) العلل ١٢/ ٧٣.

(٤) الفائق في غريب الحديث ١/ ١٠٢.

(٥) الذريعة ص ٢٠٧.

والأصل في هذا أن العلل داخلة علىٰ الأجسام من اختلاف نبات الأرض؛ لأن المعدة مركَّبة علىٰ طبائع أربعة: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وكذلك منابت الأرض علىٰ هذه الطبائع، فإذا أكثر من اختلاف منابتها أمالت الحرارة والبرودة من النبات غرائزَ الطبائع من [الحرارة والبرودة من المعدة، وأمالت] الرطوبة واليبوسة [من النبات غرائز الطباع من الرطوبة واليبوسة] فزاد بعض علىٰ بعض وقويَ وضعُف عن مثله، فكانت الأمراض من ذلك؛ لأن كل مأكول من نبات الأرض يعمل في وصف من معاني الجسم، وأن الحنطة مخالفة لسائر نبات الأرض؛ لأنها معتدلة في الطبائع الأربع كاعتدال الماء في سائر الأشربة، وقال بعض الأطباء: كلْ من الخبز بحتًا [ما شئت] فإنه لا يضرُّك. وقال غيره: أكلُ الخبز يابسًا وحده خير من أكله مع الأُدْم الضار.

(**وقال بعض أفاضل الأطباء في ذم الاستكثار** من الأكل: (**إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان**) فإنه[1] بأسره جيد الكيموس، قليل الغذاء، وفي جميع أصنافه حتىٰ الحامض جلاء مع القبض (**وأضَرَّ ما أدخل معدته الملح**)[2] لأنه يحرق الدم، ويُضعِف البصرَ، ويضر الدماغ والرئة، ويقلِّل المني، ويورث الجرب والحكَّة (**ولأن يقلِّل من الملح**[3] **خير له من أن يستكثر من الرمان**) فإن القليل من المضرِّ ربما لا يضر، والكثير من النافع ربما يضر. ولفظ القوت: «المالح» في الموضعين.

(**وفي الحديث: صوموا تصحُّوا**) قال العراقي[4]: رواه الطبراني في الأوسط[5] وأبو نعيم في الطب النبوي[6] من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

---

(١) القانون في الطب لابن سينا ١/ ٦٦٦ - ٦٦٧.

(٢) في غير الزبيدي: المالح.

(٣) في غير الزبيدي: وفي الصوم والجوع وتقليل.. إلخ.

(٤) المغني ٢/ ٧٥٤.

(٥) المعجم الأوسط ٨/ ١٧٤.

(٦) الطب النبوي ١/ ٢٣٦.

قلت: هكذا[١] رواه أبو نعيم مقتصرًا في كتابه المذكور، ورواه في موضع آخر منه[٢] بلفظ: «اغزوا تغنموا، وسافِروا تصحُّوا». ورواه أحمد بلفظ: «سافِروا تربحوا، وصوموا تصحُّوا، واغزوا تغنموا»[٣]. وهو عند الطبراني بلفظ: «اغزوا تغنموا، وصوموا تصحوا، وسافروا تستغنوا». ورواه ابن نُجَيب في جزئه بلفظ: «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا، واغزوا تغنموا».

(**وفي الصوم جوعٌ**) ومن هنا اشتهر علىٰ ألسنة العامة: جوعوا تصحوا. ومعناه صحيح، لكنه ليس بحديث (**وفي تقليل الطعام صحة الأجسام من الأسقام**) والأمراض (**وصحة القلوب من سقم الطغيان والبَطَر وغيرهما**.

الفائدة التاسعة: خفَّة المؤنة) للمريد (**فإنَّ مَن تعوَّدَ قلة الأكل كفاه من المال قدرٌ يسير**) أي قليل (**والذي تعوَّدَ الشبعَ صار بطنه غريمًا ملازمًا له، آخذًا بمخنقه في كل يوم**) وهو كناية عن تملكُّه منه بالكلية كما يتمكَّن الآخذ بمخنق الإنسان، وهو موضع خنقه (**فيقول: ماذا تأكل اليوم؟ فيحتاج إلىٰ أن يدخل المداخل**) من حيث اتُّفِق (**فيكتسب من الحرام فيعصي**) الله تعالىٰ (**أو من الحلال فيذل ويتعب**) وقد نُهي عن إذلال المؤمن نفسه (**وربما احتاج إلىٰ أن يمد أعين الطمع إلىٰ الناس، وهو غاية الذل والقماءة**) أي الحقارة (**والمؤمن**) من شأنه أن يكون (**خفيف المؤنة. وقال بعض الحكماء: إني لأقضي عامة حوائجي بالترك**) فإذا تركتُها فكأني قضيتها (**فيكون ذلك أروح لقلبي**) وفي نسخة: لنفسي. فإن الاضطراب إنما يحصل بالتطلُّع.

(**وقال آخر: إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة**) أقضيها (**أو زيادة**) أدَّخرها (**استقرضت من نفسي فتركت الشهوة، فهي خير غريم لي**) فيصير الترك

---

(١) المقاصد الحسنة ص ٢٣٦.

(٢) الطب النبوي ١/ ٢٣٩.

(٣) لفظ أحمد في مسنده ١٤/ ٥٠٧: «سافروا تصحوا، واغزوا تستغنوا».

حينئذٍ والمنع للنفس غذاء وعادة كما كان الأكل والأخذ عادة. كذا في القوت.

(وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالىٰ يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقال: إنها غالية، فيقول: أرخِصوها بالترك) وكان ينشد[1]:

فإذا غلا شيء عليَّ تركتُه   فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

أخرجه أبو نعيم في الحلية[2].

(وقال سهل) التستري **(رحمه الله تعالىٰ: الأكول مذموم في ثلاثة أحوال: إن كان من أهل العبادة فيكسل)** ويضعُف **(وإن كان مكتسبًا فلا يَسلم من الآفات، وإن كان ممَّن يدخل عليه شيء)** من الفيض من غير كسب **(فلا ينصف اللهَ تعالىٰ من نفسه.**

وبالجملة، سبب هلاك الناس حرصُهم علىٰ الدنيا) وتواثُبهم عليها **(وسبب حرصهم علىٰ الدنيا البطن والفرج، وسبب شهوة الفرج شهوة البطن)** لأنه هو الذي يجرُّها **(وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأبواب كلَّها)** ويسدها **(وهي أبواب النار، وفي حسمها فتحُ أبواب الجنة، كما قال ﷺ: أديموا قرع باب الجنة بالجوع)** تقدم هذا الحديث، وأن العراقي قال: لم أقف له علىٰ أصل **(فمَن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضًا وصار حرًّا)** غير مستعبَد ولا مستذَلٍّ **(واستغنىٰ عن الناس، واستراح من التعب)** والمشقَّة **(وتخلَّىٰ لعبادة الله عَزَّ وَجَلَّ)** في آناء الليل وأطراف النهار **(وتجارة الآخرة)** من العبادة والزهد والقناعة **(فيكون من الذين)** قال الله في حقهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ﴾) أي لا تشغلهم (﴿تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] **وإنما لا تلهيهم)** تلك **(لاستغنائهم عنها بالقناعة)** ولو اتَّجروا **(وأما**

---

(١) الذي في القوت: وقال بعض الأدباء في معناه ... فذكر البيت. والمقصود ببعض الأدباء: محمود الوراق، والبيت في ديوانه ص ١٢١.

(٢) الحلية: ٨/ ٣٢.

المحتاج فتلهيه لا محالة.

الفائدة العاشرة: أن يتمكَّن) المريد (**من الإيثار**) على إخوانه بما فضل من المال (**والصدقة بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته، كما ورد الخبر به**) وهو ما رواه الحاكم من حديث عُقبة بن عامر: «كل امرئ في ظل صدقته»، وقد تقدم في كتاب الزكاة (**وما يأكله فخزانته الكَنِيف**) أي بيت الماء (**وما يتصدَّق به فخزانته فضل الله تعالى، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدَّق فأبقى أو أكل فأفنى أو لبس فأبلى**) وروى أحمد وعبد ابن حميد ومسلم من حديث أبي هريرة: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاثٌ: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس». وروى ابن المبارك والطيالسي وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن حبان من حديث ابن الشخير: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدَّقت فأمضيت»[1] (**فالتصدُّق بفضلات الطعام أَولى من التخمة والشبع. وكان الحسن**) البصري (**رحمه الله تعالى إذا تلا قوله تعالى**) وهما الآيتان من آخر سورة الأحزاب: (﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾) إلى آخر السورة [الأحزاب: ٧٢ - ٧٣] (**قال: عرضها**) الله (**على السموات السبع الطِّباق و**) السبع (**الطرائق التي زيَّنها بالنجوم وحَمَلة العرش العظيم، فقال لها سبحانه وتعالى: هل تحملين**) هذه (**الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: إن أحسنتِ جوزيتِ، وإن أسأتِ عوقبتِ. فقالت: لا. ثم عرضها على الأرض كذلك فأبت، ثم عرضها على الجبال الشُّم الشوامخ**) أي المرتفعة إلى السماء (**الصِّلاب الصِّعاب فقال لها: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ فذكر الجزاء والعقوبة**) على الإحسان والإساءة (**فقالت: لا. ثم**

---

(١) سيأتي هذان الحديثان في كتاب ذم الدنيا.

عرضها على الإنسان) المراد به آدم ﷺ **(فحملها، إنه كان ظلومًا لنفسه، جهولاً بأمر ربه، فقد رأيناهم واللهِ اشتروا الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافًا، فماذا صنعوا فيها؟ وسَّعوا بها دُورهم، وضيَّقوا بها قبورهم، وأسمنوا براذينهم)** وهي خيل الروم **(وأهزلوا دينَهم، وأتعبوا أنفسهم بالغدوِّ والرواح إلى باب السلطان، يتعرَّضون للبلاء)** لأن أبواب السلطان فيها فتن كمبارك الإبل، كما ورد في الخبر **(وهم من الله في عافية، يقول أحدهم: ابغوني[1] كذا وكذا، وائتوني بكذا وكذا، يتَّكئ على شِماله، ويأكل من غير ماله)** من غصب وظلم **(خَدَمتُه)** الذين يحفُّون به **(مُسخَّرة)** أي أذلاَّء **(وماله)** الذي جمعه **(حرام، حتى إذا أخذته الكِظة)** وهو بالكسر: ثقل المعدة بالطعام **(ونزلت به البِطنة)** وهي التخمة **(قال: يا غلام، ائتني بشيء يهضم طعامي)** ثم خاطبه وقال: **(يا لُكَع)** أي يا أحمق **(أطعامك تهضم)**؟ أي الذي تريد هضمه هو طعامك؟ **(إنما دينك تهضم)** أي بل تهضم دينك **(أين الفقير؟ أين الأرملة)**؟ هي المنقطعة التي مات أهلها **(أين المسكين؟ أين اليتيم الذين أمرك الله بهم[2])**؟

وهذه إشارة إلى هذه الفائدة، وهي أن ما يصرف من فاضل الطعام إلى الفقير ليدَّخر به الأجر فذلك خير له من أن يأكله حتى يتضاعف الوزرُ عليه) فإن الحسن رحمه الله تعالى في آخر كلامه حذَّر وأنذر عن ترك طعام الفقراء والمساكين. وأما ما سبق من تفسيره للآية فقد[3] أخرج ابن جرير[4] وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد[5] عن ابن عباس نحوه، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن ابن جريج نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه،

---

(١) في غير الزبيدي: تبيعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا.

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٦/ ٩٥ بنحوه. وروى بعضه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٣/ ٤٥.

(٣) الدر المنثور ١٢/ ١٥٦ - ١٥٩.

(٤) جامع البيان ١٩/ ١٩٦ - ٢٠٦.

(٥) الأضداد ص ٣٨٨ - ٣٩٢ (ط - المكتبة العصرية ببيروت).

وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه.

(ونظر رسول الله ﷺ إلىٰ رجل سمين البطن فأومأ) أي أشار **(إلىٰ بطنه بأصبعه وقال: لو كان هذا في غير هذا لكان خيرًا لك. أي لو قدَّمتَه لآخرتك وآثرتَ به غيرك)** قال العراقي[١]: رواه أحمد[٢] والحاكم في المستدرك[٣] والبيهقي في الشعب[٤] من حديث جعدة الجشمي، وإسناده جيد.

قلت: هو جعدة بن خالد بن الصِّمَّة الجُشَمي، وسمَّاه ابن قانع[٥]: جعدة بن معاوية. حديثه في الجعديات[٦]. ورواه أيضًا الطيالسي[٧] وأبو يعلىٰ والباوردي والضياء بلفظ: فطعن بطنه بأصبعه وقال: «لو كان بعض هذا في غير هذا لكان خيرًا لك».

(وعن الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ **(قال: واللهِ لقد أدركت أقوامًا إن كان الرجل منهم لَيمسي وعنده من الطعام ما يكفيه، ولو شاء لأكله، فيقول: واللهِ لا أجعل هذا كلَّه لبطني حتىٰ أجعل بعضه لله)** فيتصدَّق منه[٨].

(فهذه عشر فوائد للجوع، تتشعَّب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهَىٰ فوائدها) لكثرتها **(فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة)** تجمعها **(ولأجل هذا قال بعض السلف: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد، والشبع مفتاح**

---

(١) المغني ٢/ ٧٥٥.
(٢) مسند أحمد ٢٥/ ٢٠٣ - ٢٠٥، ٣١/ ٣٢٠.
(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٢٢٦، ٤٦٠.
(٤) شعب الإيمان ٧/ ٤٥٨ - ٤٥٩.
(٥) معجم الصحابة ١/ ١٥٣.
(٦) مسند ابن الجعد ص ٣٩٩، وفيه حديث غير هذا.
(٧) مسند الطيالسي ٢/ ٥٦٢.
(٨) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٧٢.

الدنيا وباب الرغبة) قال القشيري في الرسالة[1]: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت محمد بن علي العلوي يقول: سمعت علي بن إبراهيم القاضي بدمشق يقول: سمعت محمد بن علي بن خلف يقول: سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع. ا.هـ. وأما قوله «الجوع باب الزهد، والشبع باب الرغبة» فقد ذكره صاحب القوت في أثناء كلام **(بل ذلك صريح في الأخبار التي رويناها، وبالوقوف علىٰ تفصيل هذه الفوائد تدرك معاني تلك الأخبار إدراك علم وبصيرة)** وترتقي من رتبة إدراك الإيمان **(فإذا لم تعرف هذا وصدَّقتَ بفضل الجوع كانت لك مرتبة المقلِّدين في الإيمان. والله أعلم بالصواب)**.

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٦٠.

بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن

(اعلمْ أن علىٰ المريد في بطنه ومأكوله أربع وظائف) الوظيفة (الأولىٰ: أن لا يأكل إلا حلالاً، فإن العبادة مع أكل الحرام) لا تثبُت، فهي (كالبناء علىٰ أمواج البحار) أو علىٰ شفا جُرُف هارٍ (وقد ذكرنا ما تجب مراعاته من درجات الورع في كتاب الحلال والحرام) فاستغنينا عن ذِكره هنا (وتبقىٰ ثلاث وظائف خاصة بالأكل وهي: تقدير قدر الطعام في القلة والكثرة، وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة، وتعيين الجنس المأكول في تناول المشتهيات وتركها. أما الوظيفة الأولىٰ) من هذه الوظائف الثلاثة (في تقليل الطعام فسبيل الرياضة فيه التدريج، فمَن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة إلىٰ القليل لم يحتمله مزاجُه، وضعُف) حاله (وعظُمت مشقَّته) واشتدت بليَّته (فينبغي أن يتدرَّج إليه قليلاً قليلاً، وذلك بأن يُنقِص قليلاً قليلاً من طعامه المعتاد) عليه (فإن كان يأكل) كل يوم (رغيفين مثلاً وأراد أن يردَّ نفسه إلىٰ رغيف واحد فيُنقِص في كل يوم ربع سُبع رغيف وهو أن يُنقِص جزءًا من ثمانية وعشرين جزءًا، أو جزءًا من ثلاثين جزءًا، فيرجع إلىٰ رغيف في شهر) برياضة وتمهُّل (ولا يستضرُّ به، ولا يظهر أثره) أي أثر النقصان عليه (فإن شاء فعل ذلك بالوزن) بأن يعيره بعود رَطْب ويُنقِص كل ليلة بقدر نشاف العود (وإن شاء بالمشاهدة، فيترك كلَّ يوم مقدارَ لقمة ويُنقِصه عمَّا أكله بالأمس، وهذا فيه أربع درجات، أقصاها أن يردَّ نفسه إلىٰ قدر القوام الذي لا يبقىٰ دونه) والمراد بالقوام: الضروري من القوت، وهو ما سد الجوعة وأعان علىٰ أداء الفرائض (وهو عادة الصدِّيقين، وهو اختيار) أبي محمد (سهل) بن عبد الله (التستري رحمه الله تعالىٰ؛ إذ قال: إن الله استعبد الخلقَ بثلاث: بالحياة والعقل والقوة، فإن خاف العبد علىٰ اثنتين منها وهي الحياة والعقل أكل وأفطر إن كان صائمًا، وتكلَّف الطلب إن كان

فقيرًا، وإن لم يَخَفْ عليهما بل على القوة. قال: فينبغي أن لا يبالي ولو ضعُف حتىٰ صلىٰ قاعدًا ورأىٰ أن صلاته قاعدًا مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائمًا مع كثرة الأكل) فعُلم من هذا أن المحافظة علىٰ العقل مقدَّمة علىٰ محافظة القوة، فإن لم يصلُح عقل المريد بالخبز البحت فلا بأس أن يأتدم ببعض الأدهان. وقد كان سهل رحمه الله تعالىٰ يقول للمتقلِّلين من أهل عَبَّادان: احفظوا عقولكم وتعاهدوها بالأدهان والدسم، فإنه ما كان وليٌّ لله ناقص العقل.

(وسُئل سهل) رحمه الله تعالىٰ **(عن بدايته وما كان يقتات به)** ولفظ القوت: وقد حدثني الحسن بن يحيىٰ البُسْتي عن أحمد بن مسروق قال: لقيت سهل بن عبد الله فلما دخلت عليه بشَّ بي وقبَّلني، وكان فيَّ إرادة وتذلُّل، فقلت له: أحب أن تصف لي بدايتك وما كنت تتقوَّت به **(فقال: كان قوتي في كل سنة ثلاثة دراهم، كنت آخذ بدرهم دبسًا، وبدرهم دقيق الأرز، وبدرهم سمنًا، وأخلط الجميع وأسوِّي منه بنادق ثلاثمائة وستين أكرة، آخُذ في كل ليلة أكرة أفطر عليها. فقيل له: فالساعة)** ولفظ القوت: فقلت له: الساعة **(كيف تعمل؟ قال: آكل بغير حدٍّ ولا توقيت)** وفيه إشارة إلىٰ أن العارف إذا بلغ درجة الصدِّيقين سقط عنه الحدُّ والتوقيت في الأقوات. ثم إنه تقدَّم للمصنف قريبًا أن سهلاً كان في بدايته وهو في تستر يشتري له الفَرَق من الشعير بدرهم، ويعمل منه ثلاثمائة وستين رغيفًا، فيفطر كل ليلة علىٰ رغيف. وذكر صاحب القوت أيضًا في موضع آخر من كتابه ما لفظه: وحدثونا عن سهل أنه سُئل كيف كان في بدايته، فأخبر بضروب من الرياضات، منها أنه كان يقتات ورق النبق[1] مدة، ومنها أنه أكل دقاق التبن ثلاث سنين، ثم ذكر أنه اقتات ثلاثة دراهم في ثلاث سنين، قيل: وما هو؟ قال: كنت أشتري في كل سنة بدانقين تمرًا وأربعة دوانق كُسْبًا، ثم أعجنها عجنة واحدة، ثم أجزِّئها ثلاثمائة وستين كُبَّة، أفطر كل ليلة علىٰ كبة. قال: فقلت له: فكيف أنت في وقتك هذا؟ قال: آكل بلا حدٍّ ولا توقيت. ا.هـ.

---

(١) النبق أو السدر: جنس أشجار وشجيرات ينتمي للفصيلة السدرية التي تتبع رتبة الورديات.

ولعل هذا باعتبار الأوقات والأحوال.

(وحُكي عن بعض الرَّهابين) جمع رُهبان جمع راهب وهو عابد الدير **(أنهم قد يردُّون أنفسهم إلىٰ قدر درهم من الطعام)** وهذا كما فعل سهل رحمه الله تعالىٰ في الرواية الثانية.

(الدرجة الثانية: أن يردَّ نفسه بالرياضة في اليوم والليلة إلىٰ نصف مُدٍّ) والمُدُّ هو رطل وثلث بالبغدادي عند أهل الحجاز، فهو ربع صاع؛ لأن الصاع خمسة أرطال وثلث، وعند أهل العراق المد رطلان؛ كما في المصباح[1] **(وهو رغيف وشيء)** إذا كان كل رغيف نصف رطل وشيئًا **(ممَّا يكون الأربعة منه مَنًّا)** بالتشديد، وهو لغة تميم، وهو ما يوزَن به رطلان، لكن يزيد ثلثين ونصف ثلث؛ إذ نصف المُد هو نصف رطل ونصف الثلث، فتأملْ **(ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حق الأكثرين كما ذكر النبي ﷺ)**: ثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفَس **(وهو فوق اللُّقَيمات)** لأنه ﷺ قال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه»، فدلَّ علىٰ أن ما نقص من ملء البطن فهو خير، ثم قال: «حَسْبُ ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صلبه»، ثم ترقَّىٰ فقال: «فإن كان ولا بد فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفَس»، فعُلم من ذلك أنه رتبة فوق رتبة اللقيمات **(لأن هذه الصيغة في الجمع)** بالألف والتاء **(للقلة وهو لِما دون العشرة)** من العدد، وفيه أيضًا مع التقليل التصغيرُ؛ لأن «لقيمة» تصغير لقمة. وفي القوت: معنىٰ الحديث: فثلث للطعام أن يأكل شبعه المعتاد، فيصير ثلث الشبع قوام الجسم باعتياد ثانٍ كما كان ملء البطن من الشبع هو العادة الأولىٰ، وثلث الشبع هو ثمان أواقٍ، فهذا علىٰ معنىٰ الخبر الآخَر: «طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة». وفي هذا خمسة أوجه، قال بعض علمائنا البصريين: طعام الواحد شبعًا يكفي الاثنين قوتًا، وطعام الاثنين شبعًا يكفي الأربعة قوتًا. ومنهم من قال: طعام المسلم يكفي

---

(١) المصباح المنير ص ٥٦٦.

مؤمنين، وطعام مسلمين يكفي أربعة من خصوص المؤمنين. ويجوز أن يكون طعام الواحد من المنافقين يكفي المسلمينِ علىٰ معنىٰ قوله ﷺ: «المؤمن يأكل في مِعًىٰ واحد، والمنافق في سبعة أمعاء». ويصلُح أن يكون معناه: طعام الواحد من الصُّنَّاع المتصرِّفين في المعايش يكفي اثنين ممَّن هو قاعد لا يتصرَّف. ويصلُح أيضًا: طعام واحد من المفطرين يكفي طعام صائمين [من الخصوص]. وفي الخبر أن عمر حين قال لابن مسعود وأبي موسىٰ ﷺ في قصة المرتدِّ الذي قتلاه قبل أن يستتيباه: ويحكما! ألا طيَّنتم عليه بيتًا وألقيتم إليه كل يوم رغيفًا ثلاثة أيام فلعله أن يتوب أو يرجع إلىٰ الإسلام؟ اللهم إني لم آمُر ولم أعلم ولم أرضَ إذ بلغني. فدل بهذا أن في رغيف كفاية كل يوم، وثلاثة أرغفة عندنا بالحجاز رطل؛ لأن الرطل المكي عدد ستة أقراص منذ ذاك إلىٰ يومنا هذا، فيكون رغيفان[1] ثمان أواقٍ، فهذه كما قلناه إن ثمان أواقٍ ثلث الشبع؛ لقوله «ثلث طعام» بعد قوله «لقيمات» جمعٌ لِما دون العشرة (**وقد كان ذلك عادة عمر** رضي الله عنه) فما ذكرنا مواطئ لفعله (**إذ**) رُوي أنه (**كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم.**

الدرجة الثالثة: أن يردَّها) بالرياضة والتدريج (**إلىٰ مقدار المُد**) وهو رطل وثلث بالبغدادي عند أهل الحجاز، كما تقدم (**وهو رغيفان ونصف، وهذا يزيد علىٰ ثلث البطن في حق الأكثرين، ويكاد ينتهي إلىٰ ثلثَي البطن، ويبقىٰ ثلث**) ثالث (**للشراب، ولا يبقىٰ شيء للذكر. و**) جاء (**في بعض الألفاظ**) من الحديث المذكور: (**ثلث للذكر، بدل قوله: للنفَس**) هكذا أورده صاحب القوت، قال: فدلَّ أيضًا علىٰ أن ملء البطن يمنع من الذكر، وما منع من الذكر فهو شرٌّ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝٧٣﴾ [طه: ٧٣]. ورواية هذا اللفظ أغفلها العراقي.

(**الدرجة الرابعة: أن يزيد علىٰ المُد**) حتىٰ يبلغ (**إلىٰ المَنِّ**) وهو ما يُكال به رطلان (**ويشبه أن يكون ما وراء المن إسرافًا مخالفًا لقوله تعالىٰ:** ﴿وَكُلُوا۟

(١) في القوت: فيكون كل رغيف.

وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ [الأعراف: ٣١] **أعني في حق الأكثرين)** وفي القوت: أكلُ أربعة أرغفة كل يوم سرف، ورغيفين قتر، وثلاثة أرغفة قوام حسن، وهذا أعدل الأقوات **(فإن مقدار الحاجة إلىٰ الطعام يختلف بالسن والشخص والعمل الذي يشتغل به)** فإن الشاب الجَلد تدعوه نفسه إلىٰ الطعام أكثر من الشيخ الفاني، وكذلك الرجل السمين اللحيم ليس له صبر علىٰ الجوع، بخلاف النحيف الهزيل، وكذلك الأعمال والصنائع تختلف فمنها ما هو داعٍ إلىٰ كثرة الحاجة إلىٰ الطعام **(وههنا طريق خامس لا تقدير فيه ولكنه موضع غلط)** واشتباه علىٰ أكثر الناس **(وهو أن يأكل إذا صدق جوعُه)** واشتهت إلىٰ الطعام نفسُه وترامت عليه **(ويقبض يده)** عن الطعام **(وهو علىٰ شهوة صادقة بعدُ، ولكن الأغلب أن من لم يقدِّر لنفسه رغيفًا أو رغيفين فلا يتبيَّن له حد الجوع الصادق، ويشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة)** والفرق[1] بين الصادقة منها والكاذبة أن الصادقة ما يختلُّ البدن بدونه، والكاذبة ما لا يختل بدونه **(وقد ذُكر للجوع الصادق علامات، إحداها: أن لا تطلب النفس الأُدم)** مع الخبز **(بل يأكل الخبز وحده بشهوة، أيُّ خبز كان، فمهما طلبت نفسه خبزًا بعينه أو طلبت أدمًا فليس ذلك بالجوع الصادق)** اعلمْ أن للجوع حدًّا في الأوقات وحدًّا في الأقوات، فحد الجوع الأول من الوقت إلىٰ مثله كالغد أربعة وعشرون ساعة، وحده الآخَر اثنتان وسبعون ساعة، وأما في الأقوات فحده الأول أن لا تطلب النفس الإدام، فإذا طلبت فليس جائعًا، فهذا حده الأول، وحده الثاني أن لا تطلب الخبز ولا تميِّز بينه وبين غيره، فمتىٰ تاقت النفس إلىٰ الخبز بعينه فليس جائعًا؛ لأن لها شهوة في الخبز، ومتىٰ لم تميِّز بين خبز وغيره فهذا هو الجوع الصادق وهو الفاقة والحاجة إلىٰ الطعام الذي جعله الله غذاء للأجسام، وهذا يكون في آخر الحدين من الأوقات بعد الثلاث إلىٰ سبع وخمس، ويكون طلبُ العبد عند هذا الجوعِ القوامَ من العيش والضرورة من القوت وهو ما سد الجوعة وأعان علىٰ أداء الفرائض، وهذا حال الصدِّيقين **(وقد قيل: من علامته)**

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٧٠.

ولفظ القوت: وقد سمعت بعض هذه الطائفة يقول: حد الجوع **(أن يبصق)** العبد **(فلا يقع الذباب عليه)** أي علىٰ بُزاقه **(أي لا يبقىٰ فيه دُهنية ولا دسومة، فيدل ذلك علىٰ خلوِّ المعدة)** ولفظ القوت: فإن لم يقع علىٰ بزاقه ذبابٌ فقد خلت معدتُه من الطعام. يريد أن بزاقه قد خلا من الدسومة والدُّهنية وصار صافيًا مثل الماء فلا يسقط عليه الذباب مع لطف حاسَّته التي رُكِّبت فيه وخفيِّ إدراكه لِما يقع عليه. وقد ذكره صاحب العوارف[1] أيضًا هكذا **(ومعرفة ذلك غامض)** أي خفيٌّ **(فالصواب للمريد أن يقدِّر مع نفسه القدرَ الذي لا يُضعِفه عن العبادة التي هو بصددها، فإذا انتهىٰ إليه وقف وإن بقيت شهوته. وعلىٰ الجملة، فتقدير الطعام لا يمكن؛ لأنه يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص)** كما ذكرنا **(نعم، قد كان قوت جماعة من الصحابة)** رضوان الله عليهم **(صاعًا من حنطة في كل جمعة، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعًا ونصفًا)** نقله صاحب القوت **(وصاع الحنطة أربعة أمداد، فيكون كل يوم قريبًا من نصف مُد وهو ما ذكرنا أنه قدر ثلث البطن، واحتيجَ في التمر إلىٰ زيادة لسقوط النوىٰ منه، وقد كان أبو ذر)** الغفاري (رضي الله عنه) **يقول: طعامي في كل جمعة صاع من شعير علىٰ عهد رسول الله ﷺ، واللهِ لا أزيد عليه شيئًا حتىٰ ألقاه، فإني سمعته يقول: أقربكم مني منزلاً يوم القيامة وأحبُّكم إليَّ مَن مات علىٰ ما هو عليه اليوم)** هكذا أورده صاحب القوت.

قال العراقي[2]: رواه أحمد في كتاب الزهد[3] ومن طريقه أبو نعيم في الحلية دون قوله «وأحبكم إليّ» [وهو منقطع].

قلت: أما قوله: كان قوتي ... الخ، فقد أخرجه أيضًا أبو نعيم في الحلية دون قوله «من شعير»، وهذا لفظه[4]: حدثنا محمد بن علي بن حبيش، حدثنا يوسف

---

(١) عوارف المعارف ص ١٦١.

(٢) المغني ٢/ ٧٥٥.

(٣) الزهد ص ١٢١.

(٤) حلية الأولياء ١/ ١٦١ - ١٦٢.

ابن موسىٰ بن عبد الله المروروذي، حدثنا عبد الله بن خبيق، حدثنا يوسف بن أسباط، حدثنا سفيان الثوري، أراه عن حبيب بن حسان، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر رضي الله تعالىٰ عنه قال: كان قوتي علىٰ عهد رسول الله ﷺ صاعًا، فلا أزيد عليه حتىٰ ألقاه[١].

وقال أيضًا: حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبي، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل له: ألا تتخذ ضيعة كما اتخذ فلان وفلان؟ قال: وما أصنع بأن أكون أميرًا، وإنما يكفيني كل يوم شربة من ماء أو لبن، وفي الجمعة قفيز من قمح.

قلت: والقفيز[٢] مكيال، وهو ثمانية مكاكيك، والمَكُّوك صاعان ونصف، وهو أيضًا ثلاث كيلجات، والكَيْلَجة مَنا وسبعة أثمان منا.

وأما الحديث المرفوع فقد قال أبو نعيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن عمرو قال: سمعت عراك بن مالك يقول: قال أبو ذر: إني لأقربكم مجلسًا من رسول الله ﷺ يوم القيامة، وذلك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة مَن خرج من الدنيا كهيئة ما تركتُه فيها». واللهِ ما منكم من أحد إلا وقد تشبَّث بشيء منها غيري[٣].

(وكان) رضي الله عنه **(يقول في)** بعض **(إنكاره علىٰ بعض الصحابة: قد غيَّرتم)** أي السنَّة **(يُنخَل لكم الشعير)** أي دقيقه **(ولم يكن يُنخَل)** بل يُنفَخ، فما طار منه

(١) في الحلية: حتىٰ ألقىٰ الله عز وجل.

(٢) المصباح المنير ص ٥١١، ٥٧٧.

(٣) أحمد في مسنده (٢١٤٩٦)، وابن أبي شيبة ١٢/ ١٢٥.

بالنفخ وما لم يَطِرْ أُبقي (وخبزتم المرقّق) أي الخبز الرِّقاق (وجمعتم بين أُدمين[١]، واختُلِف عليكم بألوان الطعام، وغدا أحدُكم في ثوب وراح في آخر، ولم تكونوا هكذا علىٰ عهد رسول الله ﷺ) نقله صاحب القوت. وإنكار أبي ذر رضي الله عنه علىٰ أهل عصره وأمرُه إياهم بالمعروف والصدع بالحق مشهور، فإنه كان يقول ولا يبالي في الله لومةَ لائم، فلما لم يمكنه وضجَّ منه الناس أمره عثمان رضي الله عنه بالخروج إلىٰ الرَّبَذة، فخرج إليها حتىٰ مات بها رضي الله عنه.

(وقد كان قوت أهل الصُّفَّة) وهم جماعة من فقراء الصحابة لم يكن لهم موضع يأوون إليه، فكانوا يأوون إلىٰ صُفَّة المسجد (مُدًّا من تمر بين اثنين في كل يوم) نقله صاحب القوت.

قال العراقي[٢]: رواه الحاكم[٣] وصحَّح إسناده من حديث طلحة النصري.

قلت: هو طلحة بن عمرو النصري، بالنون، له صحبة، روىٰ عنه أبو حرب ابن أبي الأسود[٤].

(والمُد رطل وثلث) بالبغدادي عند أهل الحجاز؛ كذا في القوت (ويسقط منه النوىٰ.

وكان الحسن) البصري (رحمه الله تعالىٰ يقول: المؤمن مثل الغُنَيمة) تصغير «غنم»، ولفظ القوت: مثل العُنَيزة (يكفيه الكفُّ من الحَشَف) وهو محرَّك: التمر الرديء (والقبضة من السويق والجرعة من الماء، والمنافق مثل السبع الضاري) أي اللهِج بأكل اللحم (بلعًا بلعًا) أي يبلع في حلقومه بلعًا كثيرًا (وسرطًا سرطًا) أي

---

(١) في غير الزبيدي: أدامين.
(٢) المغني ٢/ ٧٥٥.
(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ١٧، ٥/ ١٠.
(٤) انظر: الاستيعاب ١/ ٤٦٣. أسد الغابة ٣/ ٨٩. الإصابة ٥/ ٢٣٦.

يزدرد في حلقه ازدرادًا كثيرًا **(لا يطوي بطنه)** علىٰ الجوع **(لجاره)** أي لأجل جاره بأن يأخذ من طعامه فيعطيه **(ولا يؤثر أخاه)** المؤمن **(بفضله)** أي ما فضل منه من الطعام **(وجِّهوا هذه الفضول أمامكم)** كذا نقله صاحب القوت.

(وقال) أبو محمد **(سهل)** التستري رحمه الله تعالىٰ: **(لو كانت الدنيا دمًا عبيطًا)** بالعين المهملة، أي طريًّا خالصًا لا خلطة فيه **(لكان قوت المؤمن منها حلالًا)** نقله صاحب القوت، قال: وظن بعضهم أن هذا من كلامه ﷺ، وهو خطأ[١]، إنما هو من كلام إمامنا سهل التستري **(لأن أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط)** وقال الحافظ السخاوي في المقاصد[٢]: هذا الكلام لا يُعرَف له إسناد، ولكن معناه صحيح، فإن الله لم يحرِّم علىٰ المؤمن ما يضطر إليه من غير معصية.

وفي القوت: وقد سُئل رحمه الله تعالىٰ عن قوت المؤمن، قال: قوته الله. قال: سألت عن قوامه. فقال: الذِّكر. قال: إنما سألت عن غذائه. قال: غذاؤه العلم. قال: سألت عن طُعمة الجسم. قال: ما لك وللجسم؟ دعِ الجسمَ إلىٰ مَن تولاَّه قديمًا يتولاَّه الآن. وكان رحمه الله تعالىٰ يقول: القوت للمؤمنين، والقوام للصالحين، والضرورة للصدِّيقين.

(الوظيفة الثانية: في وقت الأكل ومقدار تأخيره، وفيه أيضًا أربع درجات، الدرجة العليا: أن يطوي ثلاثة أيام فما فوقها) سبعة وعشرة وخمسة عشر يومًا، وصاحب هذه الدرجة لا يعرض للأقوات، ولكن يعمل في زيادة الأوقات، فيؤخِّر أكله وقتًا بعد وقت حتىٰ ينتهي إلىٰ أكثر طاقة النفس لحمل الجوع بضَعف الجسم عن الفرض أو خشية اضطراب العقل، فمَن أراد هذه الطريق أخَّرَ فطره كل ليلة

---

(١) عبارة صاحب القوت: «ومن الناس من يضيف هذا الكلام إلىٰ رسول الله ﷺ، وهو مخطئ في ذلك، إنما ...» الخ.

(٢) المقاصد الحسنة ص ٣٤٦.

إلىٰ نصف سُبع الليل حتىٰ يكون قد طوىٰ ليلةً في نصف شهر، وهذا طريق من أراد الطي المذكور؛ لأنه يعمل في تجوُّعه علىٰ مزيد الأيام، ولا يعمل في نقصان الطعام، فلا يؤثر ذلك نقصًا في عقله ولا ضعفًا عن أداء فرضه إذا كان علىٰ صحة قصدٍ وحُسن نية وصِدق عقدٍ فإنه يُعان علىٰ ذلك ويُحفَظ فيه، ويكون طُعمُه إذا أكل عند كل وقت يزيد فيه ينقص ضرورةً عن غير تعمُّلٍ لنقصانه؛ لأن مِعاه تضيق لا محالة، فكلما زاد جوعه نقص أكله علىٰ هذا إلىٰ أن ينتهي في الجوع وينتهي في قلة الطُّعم، ولا تُنال فضيلة الجوع التي وردت في الأخبار السابقة إلا بالطي. وإليه الإشارة بقول المصنف: (**وفي المريدين مَن رد الرياضة إلىٰ الطي لا إلىٰ المقدار حتىٰ انتهىٰ بعضهم إلىٰ ثلاثين يومًا وأربعين يومًا**) أيضًا (**وانتهىٰ إليه**) أي إلىٰ ثلاثين وأربعين (**جماعة من العلماء يكثُر عددُهم**) ولفظ القوت: وممَّن اشتهر بالطي وكثرة التقلُّل عنه بذلك الخمس عشرة يومًا إلىٰ العشرين إلىٰ شهر جماعة من العلماء يكثُر عددهم (**منهم محمد بن عمرو العُرَني**) هكذا في النسخ بضم العين المهملة وفتح الراء وكسر النون، وفي بعض نسخ القوت: العوفي. وفي تهذيب التهذيب[1] للحافظ ابن حجر: محمد بن عمرو بن حجاج الغَزِّي، صدوق، مات سنة ثمانين ومائتين. ورسم عليه بعلامة الدال علىٰ أنه من رجال أبي داود. ولم يذكره الذهبي في الكاشف (**وعبد الرحمن بن إبراهيم**) بن[2] عمرو بن ميمون القرشي، أبو سعيد الدمشقي، لقبه (**دُحَيم**) مصغرًا، ويُعرَف أيضًا بابن اليتيم، مولىٰ آل عثمان بن عفان، قاضي الأردن وفلسطين، قَدِمَ بغداد سنة اثنتي عشرة ومائتين فحدَّث بها، وكان ينتحل في الفقه مذهب الأوزاعي، وقَدِم مصر فكتب بها وكُتب عنه، وهو ثقة حافظ ثبت، وُلد في شوال سنة ١٧٠، وتوفي بالرملة سنة ٢٤٥، روىٰ عنه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه (**وإبراهيم**) ابن[3] يزيد بن شريك (**التيمي**) تيم

---

(١) بل في تقريب التهذيب ص ٨٨٢ - ٨٨٣.

(٢) تهذيب الكمال ١٦/ ٤٩٥ - ٥٠١. تاريخ بغداد ١١/ ٥٤٩ - ٥٥١.

(٣) تهذيب الكمال ٢/ ٢٣٢ - ٢٣٣.

الرباب، أبو أسماء الكوفي، كان من العُبَّاد، ثقة، صالح الحديث، قال الأعمش: سمعت إبراهيم التيمي يقول: إني لأمكث ثلاثين يومًا لا آكل. قتله الحجاج ولم يبلغ أربعين سنة. روىٰ له الجماعة (**وحجاج بن فُرافِصة**) بضم[1] الفاء الأولىٰ وكسر الثانية بعدها صاد مهملة، الباهلي البصري، صدوق، عابد، روىٰ له أبو داود والنسائي. وقال القشيري في الرسالة[2]: سمعت أبا عبد الله الشيرازي يقول: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا الحسين بن منصور، حدثنا داود بن معاذ، سمعت مجالدًا يقول: كان الحجاج بن فُرافِصة معنا بالشام، فمكث خمسين ليلة لا يشرب الماء ولا يشبع من شيء يأكله (**وحفص العابد المصِّيصي والمسلم بن سعد**) وفي بعض النسخ: ابن سعيد (**وزهير**) بن[3] نعيم البابي السلولي، أبو عبد الرحمن السِّجستاني، نزيل البصرة، عابد، مات بعد المائتين، روىٰ له أبو داود في كتاب «المسائل» له (**وسليمان الخَوَّاص و**) أبو محمد (**سهل بن عبد الله التستري**) وقد تقدم عنه ما يدل علىٰ ذلك (و) أبو[4] إسحاق (**إبراهيم بن أحمد الخَوَّاص**) من أقران الجنيد، مات بالري سنة ٢٩١. هكذا سرد هؤلاء الأربعةَ صاحبُ القوت، ثم قال: (**وقد كان أبو بكر الصدِّيق** رضي الله عنه **يطوي ستة أيام، وكان عبد الله بن الزبير**) رضي الله تعالىٰ عنه (**يطوي سبعة أيام، وكان أبو الجوزاء**) أوس[5] بن عبد الله الرَّبَعي، محرَّكة. ثقة، من قرَّاء أهل البصرة، روىٰ له الجماعة (**يطوي سبعًا، وكان صاحب ابن عباس**) وقد تُكُلِّم في سماعه من عائشة (**ورُوي أن**) سفيان (**الثوري وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثًا ثلاثًا**) زاد صاحب القوت: وقد رأينا من كان يطوي تسعًا وخمسًا وكثيرًا ممَّن كان يطوي ثلاثًا (**كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع علىٰ طريق الآخرة**)

---

(١) تقريب التهذيب ص ٢٢٤.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٥٩.

(٣) تقريب التهذيب ص ٣٤٣.

(٤) الرسالة القشيرية ص ٩٧.

(٥) تهذيب الكمال ٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣.

قال السهروردي في العوارف[١]: واشتهر حال جدِّنا محمد بن عبد الله المعروف بعمويه - وكان صاحب أحمد الأسود الدينوري - أنه كان يطوي أربعين يومًا، وأقصىٰ ما بلغ في هذا المعنىٰ من الطي رجل أدركنا زمانه وما رأيتُه كان بأبهر[٢] يقال له: الزاهد خليفة، كان يأكل في كل شهر لوزة، ولم نسمع أن أحدًا بلغ في هذه الأمة بالطي والتدريج إلىٰ هذا الحد، فكان في أول أمره - علىٰ ما حُكي - يُنقِص القوتَ بنشاف العود، ثم يطوي، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ اللوزة في الأربعين، فقد يسلك في هذه الطريق جمعٌ من الصادقين، وقد يسلك غير الصادق هذا لوجود هوًىٰ مستكنٍّ في باطنه يهوِّن عليه ترك الأكل إذا كان له استحلاء لنظر الخلق، وهذا عين النفاق، نعوذ بالله من ذلك. والصادق ربما يقدر علىٰ الطي إذا لم يعلم بحاله أحد، وربما تضعف [عزيمته] إذا علم بأنه يطوي، فإنَّ صِدقه في الطي ونظره إلىٰ من يطوي لأجله يهوِّن عليه الطيَّ، فإذا علم به أحدٌ تضعُف عزيمته في ذلك، وهذه علامة الصادق، فمهما أحسَّ في نفسه أنه يحب أن يُرَىٰ بعين التقلُّل فليتَّهم نفسه، فإن فيه شائبة نفاق، ومَن يطوي لله خالصًا يعوِّضه الله تعالىٰ فرحًا في باطنه ينسيه الطعامَ، وقد لا ينسىٰ الطعام ولكن امتلاء قلبه بالأنوار يقوِّي جاذبَ الروح الروحاني فيجذبه إلىٰ مركزه ومستقرِّه من العالَم الروحاني، وينفر بذلك عن أرض الشهوة النفسانية، وأما أثر جاذب الروح إذا تخلَّف عنه جاذب النفس عند كمال طمأنينتها وانعكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستنير فأجلُّ من جذب المغناطيس للحديد؛ إذ المغناطيس يجذب الحديد لروح في الحديد مُشاكِل للمغناطيس، فيجذبه بنسبته الجنسية الخاصة، فإذا تجنَّست النفس بعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير في النفس روح استمدَّها القلب من الروح وأدَّاها إلىٰ النفس، فيجذب

---

(١) عوارف المعارف ص ١٦١ - ١٦٢.

(٢) أبهر: مدينة قديمة تقع ضمن محافظة زنجان شمال غرب إيران، وتبعد عن طهران العاصمة حوالي ٢٣٠ كم، فتحها المسلمون سنة ٢٤ هـ. وفي معجم البلدان ١/ ٨٢: «قال بعض العجم: معنىٰ أبهر مركب من آب وهو الماء، وهر وهي الرحا، كأنه ماء الرحا».

الروح النفس بجنسية الروح الحادث فيه فيزدري الأطعمة الدنيوية والشهوات الحيوانية، ويتحقَّق بمعنىٰ قول رسول الله ﷺ: «أَبِيتُ عند ربي يطعمني ويسقيني»، ولا يقدر علىٰ ما ذكرناه إلا عبدٌ تصير أعماله وأقواله وسائر أحواله ضرورة، فيتناول من الطعام أيضًا ضرورة، ولو تكلم مثلاً بكلمة من غير ضرورة التهب فيه نار الجوع التهابَ الحلفاء بالنار؛ لأن النفس الراقدة تستيقظ بكل ما يوقظها، وإذا استيقظت نزعت إلىٰ هواها، فالعبد المراد بهذا إذا فطن لسياسة النفس ورُزق العلم سهُل عليه الطيُّ وتداركته المعونةُ من الله تعالىٰ لا سيَّما إن كوشِفَ بشيء من المِنَح الإلهية، وقد حكىٰ لي فقير أنه اشتدَّ به الجوع، وكان لا يطلب ولا يتسبَّب، قال: فلما انتهىٰ جوعي إلىٰ الغاية بعد أيام فتح الله عليَّ بتفاحة. قال: فتناولت التفاحة وقصدت أكلها، فلما كسرتها كوشفت بحوراء نظرت إليها عقب كسر التفاحة، فحدث عندي من الفرح بذلك ما استغنيت به عن الطعام أيامًا.

(**وقال بعض العلماء**) ولفظ القوت: وقد كان بعض العلماء يقول. والمراد به سهل التستري، كما صرَّح به صاحب العوارف[١] (**مَن طوىٰ لله أربعين يومًا**) أي من الطعام (**ظهرت له قدرة من الملكوت. أي كوشف ببعض الأسرار الإلهية**) وكان يقول أيضًا: لا يبلغ العبد حقيقة الزهد الذي لا شوبة فيه إلا بمشاهدة قدرة من غيب الملكوت. نقله صاحبا القوت والعوارف[٢].

(**وقد حُكي أن بعض أهل هذه الطائفة**) من الصوفية (**مر براهب**) في دير له (**فذاكره بحاله وطمع في إسلامه وتركِ ما هو عليه من الغرور، فكلَّمه في ذلك كلامًا كثيرًا، إلىٰ أن قال له الراهب: إن المسيح كان يطوي أربعين يومًا، وإن ذلك معجزة لا تكون إلا لنبي أو صدِّيق**) ولفظ القوت: وإنَّا نعتقد إعجاز هذا، وأنه لا يكون إلا لنبي (**فقال له الصوفي: إن طويتُ خمسين يومًا تركتَ ما أنت عليه وتدخل في دين**

(١) عوارف المعارف ص ١٦٢.
(٢) السابق ص ١٦٢.

الإسلام وتعلم أنه حق) ولفظ القوت: أن ما نحن عليه حق **(وأنك علىٰ باطل؟ قال: نعم. فجلس لا يبرح إلا بحيث يراه حتىٰ طوىٰ خمسين يومًا)** ولفظ القوت: فقعد عنده لا يبرح ولا يذهب إلا حيث يراه الراهب إلىٰ أن طوىٰ خمسين يومًا **(ثم قال: وأزيدك أيضًا. فطوىٰ إلىٰ تمام الستين)** يومًا **(فتعجَّب الراهب منه)** واعتقد فضله وفضل دينه **(وقال: ما كنت أظن أن أحدًا يجاوز المسيح)** عَلَيْهِ السَّلَامُ، أي فِعله في الطي، ولكن هذه أمّة تشبَّه بالأنبياء في العلم والفضل **(فكان ذلك سبب إسلامه)** نقله صاحب القوت، قال: وبعضهم يقول: لا يوقن العبد يقينًا ثابتًا يُحكَم عليه بالاستقامة فيه ولبسة حال لازمة وعلم نافذ في الملكوت إلا بمشاهدة قدرة من قُدَر الغيب برأي عين تظهر له شهادة دائمة يقوم بها وتضطره، فعند هذا يعرف من الله تعالىٰ وصفه المخصوص القيُّوم به، ويصح لعبد مراد بهذا الطريق المنهج له طيُّ أربعين في سنة وأربعة أشهر، علىٰ ما نزَّلنا من تأخير الأوقات وقتًا بعد وقت حتىٰ تندرج الليالي في الأيام وتدخل الأيام في الليالي، فتكون الأربعون بمنزلة يوم واحد وليلة واحدة، وهذا طريق المقرَّبين. وقد أشار المصنف لهذا فقال: **(وهذه درجة عظيمة قلَّما يبلغها إلا)** مراد به **(مكاشَف)** له بشهادة **(محمول)** فيه قد **(شُغِل بمشاهدة ما)** شغله عن نفسه و **(قطعه عن طبعه وعادته واستوفىٰ نفسه في لذَّته وأنساه جوعته وحاجته)** وكشف له حقيقته ومرجوعه، قال صاحب القوت: وقد عرفنا من كان فعل ذلك وظهرت له آيات من الملكوت، وكُشف له عن معاني قدرة من الجبروت تجلَّىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بها ومنها كيف شاء.

وقال صاحب العوارف(١): قيل لسهل التستري رحمه الله تعالىٰ: هذا الذي يأكل في كل أربعين أو أكثر أكلة واحدة أين يذهب لهب الجوع [عنه] قال: يطفئه النور. وقد سألت بعض الصالحين عن ذلك، فذكر لي كلامًا بعبارة دلَّت علىٰ أنه يجد فرحًا بربِّه ينطفئ معه لهب الجوع، وهذا في الخلق واقع أن الشخص يطرقه

---

(١) السابق ص ١٦٠.

فرحٌ وقد كان جائعًا فيذهب عنه الجوع، وهكذا في طرق الخوف يقع ذلك.

ثم قال صاحب العوارف[١]: واعلمْ أن هذا المعنىٰ من الطي والتقلُّل لو أنه عين الفضيلة ما فات أحدًا من الأنبياء، ولكان رسول الله ﷺ يبلغ من ذلك إلىٰ أقصىٰ غاية، ولا شك أن لذلك فضيلة لا تُنكَر، ولكن لا تنحصر مواهب الحق تعالىٰ في ذلك، فقد يكون من يأكل كل يوم أفضل ممَّن يطوي أربعين يومًا، وقد يكون مَن لا يكاشَف بشيء من معاني القدرة أفضل ممَّن يكاشَف بها إذا كاشفه الله تعالىٰ بصرف المعرفة، فالقدرة أثر من القادر، ومَن أُهِّلَ لقرب القادر لا يستغرب ولا يستنكر شيئًا من القدرة، ويرىٰ القدرة تتجلَّىٰ له من سِجْف أجزاء علم الحكمة.

(الدرجة الثانية: أن يطوي يومين إلىٰ ثلاثة) أيام **(وليس ذلك خارجًا عن العادة بل هو قريب، لكن لا وصول إليه إلا بالجد والمجاهدة)** ومراعاة التدريج بالوجه الذي ذُكر آنفًا.

(الدرجة الثالثة، وهي أدناها: أن يقتصر في اليوم والليلة علىٰ أكلة واحدة، وهذا هو الأكل[٢]، وما جاوز ذلك) فهو **(إسراف ومداومة للشبع حتىٰ لا تكون له حالة الجوع)** فإذا جعل العبد شبعه بين جوعتين كان جوعه أكثر من شبعه وسَلِمَ من خبر أبي جحيفة، ومن كانت له جوعة بعد كل شبعة اعتدل جوعه وشبعه، ومَن أكل في كل يوم مرتين فقد تابع الشبع وتحقَّق بخبر أبي جحيفة، وشبعه حينئذٍ أكثر من جوعه **(وذلك فعلُ المترفين، وهو بعيد عن السنَّة)** وقد كانوا يعدُّونه سرفًا. هكذا نقله صاحب القوت، ولكن قال القشيري في الرسالة[٣]: سمعت محمد بن عبد الله بن عبيد الله يقول: سمعت علي بن الحسين الأَرَّجاني يقول: سمعت أبا محمد الإصطخري يقول: سمعت سهل بن عبد الله وقد قيل له: الرجل يأكل في اليوم أكلة. فقال: أكلُ الصدِّيقين. قال: فأكلتين. قال: أكل المؤمنين. قال: فثلاثة.

---

(١) السابق ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) في غير الزبيدي: الأقل. بالقاف.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٢٦٠.

قال: قل لأهلك يبنون لك معلقًا. فهذا بظاهره يدل على أن الأكلتين في يوم من عمل المؤمنين وهم تحت الصدِّيقين، فليُتأمَّل في الجمع بين الكلامين **(فقد روى أبو سعيد)** مالك بن سِنان **(الخُدري)** الأنصاري رضي الله عنه **(أن النبي ﷺ كان إذا تغدَّى لم يتعشَّ، وإذا تعشَّى لم يتغدَّ)** هكذا نقله صاحب القوت.

وقال العراقي[١]: لم أجد له أصلاً في المرفوع، ورواه البيهقي في الشعب[٢] من فعل أبي جحيفة.

قلت: بل أخرجه أبو نعيم في الحلية[٣] في ترجمة عطاء بن أبي رباح: حدثنا محمد بن عمر بن مسلم وأحمد بن السِّندي قالا: حدثنا جعفر بن محمد الفِرْيابي، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، حدثنا أيوب بن حسان، حدثنا الوضين بن عطاء، عن عطاء بن أبي رباح قال: دُعي أبو سعيد الخدري إلى وليمة، وأنا معه، فرأى صفرة وخضرة، فقال: أما تعلمون أن رسول الله ﷺ كان إذا تغدَّى لم يتعشَّ، وإذا تعشَّى لم يتغدَّ.

(وكان السلف يأكلون في كل يوم أكلة) نقله صاحب القوت.

(وقال النبي ﷺ لعائشة) رضي الله عنها: **(إياكِ والسَّرف، فإنَّ أكلتين في كل يوم من السرف)** كذا في القوت.

قال العراقي[٤]: رواه البيهقي في الشعب[٥] من حديث عائشة وقال: في إسناده ضعفٌ.

---

(١) المغني ٢/ ٧٥٥.

(٢) شعب الإيمان ٧/ ٤٤٤. وهو تتمة حديثه السابق في التجشؤ.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ٣٢٣.

(٤) المغني ٢/ ٧٥٥.

(٥) شعب الإيمان ٧/ ٤٥٨، ولفظه: «رآني رسول الله ﷺ وأنا آكل في يوم مرتين، فقال: يا عائشة، اتخذتِ الدنيا بطنك؟ أكثر من أكلة كل يوم سرف، والله لا يحب المسرفين».

(**وأكلة واحدة في كل يومين إقتار، وأكلة في كل يوم قوام بين ذلك، وهو المحمود في كتاب الله عز وجل**) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧] ولفظ القوت بعد إيراده هذه الآية: فكأنَّ الأكلتين في يوم من الإسراف، وأكلة في يومين من الإقتار، وأكلة في يوم قوامًا بين ذلك، وأقول على هذا: إن أكل أربعة أرغفة سرف، ورغيفين قتر، وثلاثة أرغفة قوام حسن، وهذا أعدل الأقوات، ولا يعجبني أكل أربعة أرغفة في مقام واحد؛ لأني لا آمن الازدياد فيصير ذلك معتادًا، فإن كان عن جوع شديد أو عُدَّة لسفر أو عُدْم فلا بأس، وقد كان للصحابة أكلتان وشربتان، فالأكلتان: الوجبة والغبوق، فالوجبة من الوقت إلى الوقت، والغَبُوق: أن يشرب مذقة لبن أو يأكل كف تمر عند النوم أو بعد عتمة أو يكون عند الظهيرة، وقد يكون سَحَرًا، والشربتان: العَلَل والنَّهَل، فالنهل: الشربة الأولى من اللبن بمنزلة الوجبة، والعلل: الشربة الثانية بمثابة الغبوق من نقيع تمر أو زبيب أو لبن يقوم مقام الأكلتين، فهي تمام الرِّي، والأولى عُلالة للنفس من العطش، فسُمِّي عَلَلاً. وكان من أخلاق السلف تركُ الشبع اختيارًا لأنفسهم لخفة الجسم أو مواساة الفقراء أو مساواة لهم في الحال لئلاً يتفضَّلوا عليهم في حالهم (**ومَن اقتصر في كل يوم على أكلة واحدة**) وكان صائمًا (**فيُستحَب له أن**) يعمل في تأخير الإفطار على رياضة و(**يأكلها**) أي تلك الأكلة (**سَحَرًا**) أي في وقت السَّحَر ولا يجاوزه وهو (**قبل طلوع الفجر، فيكون أكلُه بعد التهجُّد وقبل الصبح، فيحصل له**) بذلك خمسة أشياء: (**جوع النهار للصيام**) أي لأجله، والأولى: بالصيام (**وجوع الليل للقيام، وخلو القلب لفراغ المعدة ورقَّة الفكر**) أي صفائه (**واجتماع الهم**) بخلو القلب (**وسكون النفس إلى المعلوم فلا تنازعه قبل وقته**) فإن النفس إذا علمت أنها ستأكل رغيفًا في السحر اطمأنَّت بالليل ولم تنازع، وهذا أوسط الطرقات وأحبُّها إليَّ، وهو طريق السائرين. كذا في القوت، قال: ومَن لم يكن له معلوم فلا بأس أن يأكل شِبعه ثم يتربَّص حتى ينتهي جوعه،

وتركُ المعلوم في الطعام طريق صوفية البغداديين، والوقوف مع المعلوم طريقة البصريين، ولمَّا قَدِم صوفية أهل البصرة علىٰ أبي القاسم الجنيد بعد وفاة أبي محمد سهل قال لهم: كيف تعملون في الصوم؟ فقالوا: نصوم بالنهار، فإذا أمسينا قمنا إلىٰ قِفافنا. فقال: آه آه، لو كنتم تصومون بلا قِفاف كان أتم لحالكم. أي لا تسكنون إلىٰ معلوم، فقالوا: لا نقوىٰ علىٰ هذا. قال صاحب القوت: ولعمري إن طريق البغداديين بترك المعلوم من المطعوم أعلىٰ، وهو طريق المتوكلين الأقوياء، وطريق البصريين بالمعلوم والتوقيت أسلم من آفات النفوس وأقطع للتشرُّف والتطلُّع، وهو طريق المريدين والعاملين.

(وفي حديث عاصم بن كُلَيب) بن[1] شهاب بن المجنون الجَرْمي الكوفي، صدوق، مات سنة بضع وثلاثين ومائة، روىٰ له البخاري تعليقًا ومسلم والأربعة **(عن أبيه)** تابعي[2] صدوق، روىٰ له البخاري في كتاب «رفع اليدين» والأربعة أصحاب السنن **(عن أبي هريرة)** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **(قال: ما قام رسول الله ﷺ قيامكم هذا قط، وإن كان لَيقومُ حتىٰ تزلع قدماه)** أي تتورَّم وتتشقَّق **(وما واصل وصالَكم هذا قط، غير أنه قد أخَّر الفطر إلىٰ السَّحَر)** كذا هو في القوت.

قال العراقي[3]: رواه النسائي[4] مختصرًا: كان يصلي حتىٰ تزلع قدماه. وإسناده جيد.

قلت: وروىٰ الجماعة – سوىٰ أبي داود – من حديث المغيرة: كان يقوم من الليل حتىٰ تنفطر قدماه[5].

(١) تقريب التهذيب ص ٤٧٣.
(٢) السابق ص ٨١٣.
(٣) المغني ٢/ ٧٥٦.
(٤) سنن النسائي ص ٢٧١.
(٥) تقدم هذا الحديث في الباب الثاني من كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

(وفي حديث عائشة ﵂ قالت: كان النبي ﷺ يواصل إلىٰ السحر) كذا في القوت.

قال العراقي[١]: لم أجده من حديث عائشة، لكن رواه أحمد[٢] من حديث علي، ولا يصح، ورواه الطبراني[٣] من حديث جابر. لكنه لم يصحَّ من فعله، وإنما هو من قوله: «فأيُّكم أراد أن يواصل فليواصل حتىٰ السحر». رواه البخاري[٤] من حديث أبي سعيد، وأما هو فكان يواصل، وهو من خصائصه.

(فإن كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب إلىٰ الإفطار وكان ذلك يشغله عن حضور القلب في التهجُّد فالأولىٰ أن يقسم طعامه نصفين، فإن كان رغيفين مثلاً أكل رغيفًا عند الفطر ورغيفًا عند السحر؛ لتسكن النفس) عن الالتفات والاضطراب **(ويخفُّ بدنه عند التهجُّد)** وإحياء الليل بالذكر **(ولا يشتد بالنهار جوعُه لأجل التسحُّر، فيستعين بالرغيف الأول علىٰ التهجُّد، وبالثاني علىٰ الصوم)** وقد استحسنه صاحب القوت، وأشار إليه صاحب العوارف[٥] **(ومن كان)** من عادته أنه **(يصوم يومًا ويفطر يومًا)** وهو أعدل طرقات الصيام **(فلا بأس أن يأكل يوم الفطر وقت الظهر، ويوم صومه وقت السحر)** فإن لم يفعل فليأكل يوم فطره نصف أكله بالأمس، فكأنه صائم، فإن لم يفعل اضطرب جسمه وداخَلَه الفتورُ في حاله. كذا في القوت **(فهذه هي الطريق في مواقيت الأكل وتباعُده وتقاربُه)** وبقيت

---

(١) المغني ٢/ ٧٥٦.

(٢) مسند أحمد ٢/ ١٠٩، ٣٧٨.

(٣) المعجم الأوسط ٤/ ١١٧.

(٤) صحيح البخاري ٢/ ٤٨ - ٤٩.

(٥) وعبارته ص ١٥٩: «الأولىٰ أن يقتنع بالخبز والملح، ويتناول كل ليلة رطلًا واحدًا بالبغدادي، يتناوله بعد العشاء الآخرة، وإن قسمه نصفين يأكل أول الليل نصف رطل وآخر الليل نصف رطل، فيكون ذلك أخف للمعدة وأعون علىٰ قيام الليل وإحيائه بالذكر والصلاة، وإن أراد تأخير فطوره إلىٰ السحر فليفعل».

عليه طريق أخرىٰ في المريد الذي لا يصوم ولا يقتصر علىٰ أكلة واحدة في اليوم والليلة ويريد قوام جسده للطاعة فالمستحَب له إن كان ذا معلوم أن لا يزيد علىٰ رغيفين في اليوم والليلة، وليجعل بينهما وقتًا طويلاً مرة وقصيرًا أخرىٰ علىٰ حسب الحاجة وتوقان النفس إلىٰ الغذاء لا علىٰ طريق العادة والشهوة. والرغيف ست وثلاثون لقمة يكون قوام النفس في كل ساعة ثلاث لقمات، فإذا أراد أن يأكل الرغيف علىٰ هذا التقسيم فليجرع بعد كل ثلاث لُقَم جرعةَ ماء، فذلك اثنتا عشرة جرعة في تضاعيف ستة وثلاثين لقمة، ففي ذلك قوام الجسد وصلاحه في كل يوم وليلة علىٰ هذا الترتيب، وفيه بلاغ للعابدين.

تنبيه: أما أكل العادات والتنقُّل في الشهوات والأكل حتىٰ يشبع فهذا عند [بعض] العلماء مكروه، وآكله عندهم بمنزلة البهائم، وأما الأكل علىٰ شبع والامتلاء حتىٰ يتخم فهذا فسق عند بعض العلماء، وقد قاله بعض العارفين، ويُروَىٰ أنه قيل لأبي بكرة: إن ابنك أكل البارحة حتىٰ بَشِمَ. فقال: لو مات ما صليت عليه[1].

تنبيه: ذكر[2] بعض العلماء أن مراتب الشبع تنحصر في سبعة، الأول: ما تقوم به الحياة. والثاني: أن يزيد حتىٰ يصوم ويصلي من قيام، وهذان واجبان. الثالث: أن يزيد حتىٰ يقدر علىٰ أداء النوافل. الرابع: أن يزيد حتىٰ يقدر علىٰ الكسب، وهذان مندوبان. الخامس: أن يملأ الثلث، وهذا جائز. السادس: أن يزيد عليه، وبه يثقل البدنُ ويكثُر النومُ، وهذا مكروه. السابع: أن يزيد حتىٰ يتضرَّر، وهي البِطنة المنهيُّ عنها، وهذا حرام. قال الحافظ ابن حجر بعد أن نقله: ويمكن دخول الثالث في الرابع، والأول في الثاني.

(الوظيفة الثالثة: في نوع الطعام وترك الإدام) وهو - أي الطعام - علىٰ ثلاث

---

(١) رواه وكيع في الزهد ص ٣٠٢ وأحمد في الزهد ص ١٦٣، ولكن عندهما: سمرة بن جندب، بدل: أبي بكرة.

(٢) فتح الباري ٩/ ٤٣٩.

مراتب (**وأعلىٰ الطعام مخ البُر**) أي لُبابه الذي يتحصَّل بعد نخل دقيقه بالمنخل الحرير بعد المنقلة (**فإن نُخِل**) كذلك (**فهو غاية الترفُّه**) وخبزه يُعرَف بـ «السَّمِيذ»، أو لاً يُنخَل مطلقًا، وخبزه هو المعروف بـ «الخُشْكار»، وفيه مرتبة تليها وذلك أن يُنخَل بالمنخل الغير مانع، وهي ملحَقة بالأولىٰ؛ لِما فيها من الترفُّه أيضًا (**وأوسطه شعير منخول**) كما ذكرنا (**وأدناه شعير لم يُنخَل**) وإنما يُعجَن بما فيه من النُّخالة، سواء نُفِخ فطار منه ما طار أو لم يُنفَخ (**وأعلىٰ الأُدْم اللحم**) وقد وردت فيه أخبار تؤذِن بعلوه، ففي حديث بُرَيدة عند البيهقي في الشعب[1]: «سيد الإدام في الدنيا والآخرة اللحم» (**والحلاوة**) وهي المركَّبة من سمن وعسل، ولها أنواع تقدم ذِكرُها في كتاب الأطعمة (**وأدناه الملح والخل**) أي كلٌّ منهما بانفراده عن الآخَر (**وأوسطه المزوَّرات**) وهي الأطعمة التي لا يكون فيها شيء من اللحوم، بخلاف المزفَّرات، وإنما اتُّخِذت (**بالأدهان**) والأدهان كسائر السُّمُون وما يُعصَر من قلوب الأشجار كاللوز والفستق والجوز وكالزيت ودهن السمسم (**من غير لحم**) أي من غير أن يكون فيها شيء من لحم، كما ذكرناه. وفي القوت: فإن كان لا بد من فاكهة مع الخبز الذي هو قوت النفس فكما أطعم الله الفقراء في الكفارة وهو التوسُّط في الإدام الذي أمر به وأحبه للفقراء من الخبز واللبن؛ لأن أعلىٰ الإدام اللحم والحلواء، وأدناه الملح والخل، فلم يأمر تعالىٰ بأعلاه؛ لأنه يشق علىٰ الأغنياء، ولم يأمر بأدناه؛ لأنه يشق علىٰ الفقراء، وتوسط الأمر بينهما فقال: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] فهو ما ذكرناه علىٰ ذلك (**وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الإدام علىٰ الدوام، بل الامتناع من الشهوات**) مطلقًا (**فإنَّ كل لذيذ يشتهيه الإنسان**) وتدعوه إليه نفسُه وتطالبه به (**فأكله اقتضىٰ ذلك بَطَرًا في نفسه**) من جهة متابعته للشهوة (**وقسوة في قلبه، وأُنسا له بلذَّات الدنيا حتىٰ يألفها**) ويأنس بها (**ويكره الموت ولقاء الله تعالىٰ**) لا محالة؛ لأن الفطم عن المألوف صعب

---

(١) شعب الإيمان ٨/ ٦٩، ١٨٦ - ١٨٧.

(وتصير الدنيا جنة في حقه، ويكون الموت سجنًا له) ومضيقًا **(وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيَّق عليها وحرمها)** أي منعها **(لذَّاتها صارت الدنيا سجنًا عليه ومضيقًا له فاشتهت نفسُه الانفلاتَ منها)** سريعًا **(فيكون الموت إطلاقها)** من ذلك المضيق والحبس، وقد روىٰ مسلم[١] من حديث أبي هريرة: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

ورواه البزار[٢] والعسكري والقضاعي[٣] من حديث ابن عمر مثله.

وروىٰ أبو نعيم[٤] من حديث ابن عمر مرفوعًا: «يا أبا ذر [إن] الدنيا سجن المؤمن، والقبر أمنُه، والجنة مصيره. يا أبا ذر، إن الدنيا جنة الكافر، والقبر عذابه، والنار مصيره، والمؤمن من لم يجزع من دنياه[٥] ...» الحديث.

وروىٰ أحمد[٦] من حديث عبد الله بن عمرو: «الدنيا سجن المؤمن وسَنَتُه[٧]، فإذا فارق الدنيا فارق السجن والسَّنَة».

(وإليه الإشارة بقول يحيىٰ بن معاذ) الرازي الواعظ رحمه الله تعالىٰ **(حيث قال: معاشر الصدِّيقين، جوِّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس، فإن شهوة الطعام علىٰ قدر تجويع النفس)** نقله صاحب القوت. ففيه إشارة إلىٰ أن من يؤثر الآخرة ولذَّتها وطعامها ينهىٰ نفسه عن لذة الدنيا ويكفُّها عن شهواتها، وكلما زادت رياضة النفس بالتجويع زادت شهوتها إلىٰ الطعام.

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٣٥٢.

(٢) مسند البزار ١٢/ ٢٨٩.

(٣) مسند الشهاب ١/ ١١٨.

(٤) حلية الأولياء ٦/ ٣٥٣.

(٥) في الحلية: «يا أبا ذر، إن المؤمن من لم يجزع من ذل الدنيا ولم يبل من أهلها وعزها».

(٦) مسند أحمد ١١/ ٤٤٢.

(٧) أي: القحط والجدب: قال ابن الأثير: أخذتم السنة إذا أجدبوا وأقحطوا ٢٠/ ٤١٣.

(فكل ما ذكرناه من آفات الشبع) فيما تقدَّم (فإنه يجري في كل الشهوات وتناوُل اللذات، فلا نطوِّل بإعادته، فلذلك يعظُم الثواب في ترك الشهوات من المباحات، ويعظُم الخطرُ في تناولها، حتىٰ قال ﷺ: شِرار أمَّتي الذين يأكلون مخ الحنطة) قال العراقي[1]: لم أجد له أصلاً (وهذا) إن صح ورودُه (ليس بتحريم) لمخ الحنطة (بل هو مباح علىٰ معنىٰ أن مَن أكله مرة أو مرتين لم يعصَ) اللهَ تعالىٰ (ومَن داوم عليه أيضًا فلا يعصي) الله تعالىٰ (بتناوله، ولكن تتربَّىٰ نفسه بالنعيم فتأنس بالدنيا وتألف اللذَّات وتسعىٰ في طلبها) علىٰ قدر الجهد (فيجرُّها ذلك إلىٰ المعاصي، فهم شِرار الأمَّة) بهذا المعنىٰ (لأن مخ القمح) مع المداومة عليه (يقودهم إلىٰ اقتحام) أي ارتكاب (أمور، تلك الأمور معاصٍ) لله تعالىٰ.

(وقال ﷺ: شِرار أمَّتي الذين غُذُّوا بالنعيم وبُنيتْ عليه أجسامهم، وإنما همَّتهم أنواع الطعام وأنواع اللباس، ويتشدَّقون في الكلام) أي يتوسَّعون فيه من غير تحرُّز ولا احتياط. قال العراقي[2]: رواه ابن عدي في الكامل[3]، ومن طريقه البيهقي في الشعب[4] من حديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ. ورُوي من حديث فاطمة بنت الحسين مرسلاً، قال الدارقطني في العلل[5]: إنه أشبهُ بالصواب. ورواه أبو نعيم في الحلية[6] من حديث عائشة بإسناد لا بأس به.

قلت: وكذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة[7] وابن عساكر[8]، كلهم من

---

(١) المغني ٢/ ٧٥٦.

(٢) السابق ٢/ ٧٥٦.

(٣) الكامل في الضعفاء ٥/ ١٩٥٦.

(٤) شعب الإيمان ٧/ ٤٦٠.

(٥) العلل ١٥/ ١٨٤.

(٦) لم أقف عليه في الحلية من حديث عائشة، وإنما رواه ٦/ ٩٠، ١٢٠ من حديث أبي أمامة ومن حديث عروة بن رويم.

(٧) ذم الغيبة والنميمة ص ٢٨.

(٨) تاريخ دمشق ٢٧/ ٣٦٦.

طريق عبد الله بن الحسن عن أمه عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولفظ حديثهم: «شِرار أمَّتي الذين غُذُّوا بالنعيم، الذين يأكلون أنواع الطعام، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدَّقون في الكلام». وقال البيهقي بعد أن أورده: تفرَّد به علي بن ثابت عن عبد الحميد الأنصاري. ا.هـ. وعلي بن ثابت ساقه الذهبي في الضعفاء[١] وقال: ضعَّفه الأزدي. قال[٢]: وعبد الحميد ضعَّفه القَطَّان، وهو ثقة. ا.هـ. وجزم المنذري بضعفه.

وقد رُوي هذا الحديث أيضًا عن عبد الله بن جعفر وعن ابن عباس، فحديث عبد الله بن جعفر لفظه: «شرِار أمتي الذين وُلدوا في النعيم وغُذُّوا به، يأكلون من الطعام ألوانًا، ويلبسون من الثياب ألوانًا، ويركبون من الدواب ألوانًا، يتشدَّقون في الكلام». رواه الحاكم في المستدرك[٣] والبيهقي في الشعب، وقال الحاكم: صحيح. وتعقَّبه الذهبي بأن فيه أصرم بن حوشب وهو ضعيف.

وأما لفظ حديث ابن عباس: «شِرار أمتي الذين وُلدوا في النعيم وغُذُّوا به، الذين يأكلون طيِّب الطعام، ويلبسون ليِّن الثياب، هم شرار أمتي حقًّا حقًّا». رواه الديلمي في مسند الفردوس[٤].

(وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ ﷺ): يا موسىٰ **(اذكر أنك ساكن القبر، فإنَّ ذلك يمنعك من كثير الشهوات.**

---

(١) المغني في الضعفاء ٢/ ١٠.

(٢) ديوان الضعفاء ص ٢٣٦. وفي المغني له ١/ ٥٢٦: «عبد الحميد بن جعفر المدني، صدوق، قال أبو حاتم: لا يحتج به. ضعفه القطان، وفيه قدرية».

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ٧٠٠. ولم يصححه. وعبارة الذهبي في التلخيص: «أظنه موضوعا، فإسحاق بن واصل الضبي متروك، وأصرم متهم بالكذب». ولم أقف علىٰ الحديث في شعب الإيمان.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٣٦٩.

وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيذ الأطعمة وتمرين النفس عليها، ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة، ورأوا منع اللهِ تعالىٰ منه غاية السعادة) ومن هنا قول العامة: ومن العصمة أن لا تجد[1] **(حتىٰ رُوي أن وهب بن منبه)** اليماني رحمه الله تعالىٰ **(قال: التقىٰ مَلَكان في السماء الرابعة، فقال أحدهما للآخر: من أين)** مجيئك هذا؟ **(قال: أُمرتُ بسَوْق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودي لعنه الله)** تعالىٰ **(وقال الآخر: أُمرتُ بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد)** فقد ادَّخر الله له في الآخرة كل ذلك. ذكره صاحب القوت.

(وهذا) فيه **(تنبيه علىٰ أن تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير)** فلا يُفرَح بمثله، وقد انقطع بمثله خلقٌ كثيرون يرون الشهوات تُساق إليهم فيعدُّونها منَّة عظيمة فيكون سبب إخلادهم في النقص **(ولهذا امتنع عمر** رضي الله عنه **عن شربة ماء بارد بعسل وقال: اعزلوا عني حسابها)** رواه جعفر بن سليمان حدثنا حوشب عن الحسن قال: أُتِي عمر بشربة عسل، فذاقها فإذا ماء وعسل، فقال: اعزلوا عني حسابها، اعزلوا عني مؤنتها[2]. وروىٰ سليمان بن المغيرة عن ثابت قال: اشتهىٰ عمر الشراب، فأُتي بشربة من عسل، فجعل يدير الإناء في يده ويقول: لا أشربها وتذهب حلاوتها وتبقىٰ مرارتها. ثم دفعها إلىٰ رجل من القوم فشربها[3]. وإنما قال ذلك لأنه علم أنه حلال، وفي الحلال حساب، وفي الحساب نوع عذاب، فمَن حوسِب نوقِش. وقد أشار إلىٰ ذلك أبو سعيد الخَرَّاز حين نوَّع الجوعَ فقال: ومنهم مَن وجد الشيء الصافي فتركه زهدًا فيه من مخافة طول الحساب والوقوف والسؤال.

---

(١) هذا عجز بيت، صدره:

لا تشعرن قلبك حب الغني

وهو لمحمود الوراق في ديوانه ص ٢١٣.

(٢) رواه أحمد في الزهد ص ٩٩.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٢٠٥، وابن أبي الدنيا في كتاب الجوع ص ٤٨، ١٦٢.

(فلا عبادة لله تعالىٰ أعظم من مخالفة النفس في الشهوات وترك اللذَّات) وإن كانت مباحة (كما أوردناه في كتاب رياضة النفس. وقد روىٰ نافع عن ابن عمر ﷺ أنه كان مريضًا، فاشتهىٰ سمكة طرية، فالتُمِست له بالمدينة فلم توجَد) أي لبُعدها عن البحر (فوُجدت بعد كذا وكذا) يومًا (فاشتُريت له بدرهم ونصف، فشُويت) علىٰ النار (وحُملت إليه علىٰ رغيف) ليأكل (فقام سائل علىٰ الباب، فقال) ابن عمر: (للغلام) وهو نافع (لُفَّها برغيفها وادفعها إليه) أي إلىٰ السائل (فقال له الغلام: أصلحك الله، قد اشتهيتَها منذ كذا وكذا فلم نجدها، فلمَّا وجدناها اشتريناها بدرهم ونصف، نحن نعطيه ثمنها. فقال: لُفَّها وادفعها إليه. ثم قال) أي الغلام (له) للسائل: (هل لك أن تأخذ درهمًا وتتركها؟ قال) السائل: (نعم. فأعطاه درهمًا وأخذها وأتىٰ بها) ثانيًا (فوضعها بين يديه وقال: قد أعطيتُه درهمًا وأخذتها منه. فقال: لُفَّها وادفعها إليه، ولا تأخذ منه الدرهم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أيُّما امرئ اشتهىٰ شهوة فردَّ شهوته وآثر بها علىٰ نفسه غفر الله له) قال العراقي[1]: رواه أبو الشيخ ابن حيان في «الثواب» بإسناد ضعيف جدًّا، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات[2].

(وقال ﷺ: إذا استدَّ) بالسين المهملة. وفي نسخة العراقي: إذا سددت (كَلَب الجوعِ) بتحريك اللام، وهو الحرص علىٰ الأكل الكثير (برغيف وكوز من الماء القَراح) الذي لا يشوبه شيء. وفي غالب النسخ بدون ذِكر «القراح» (فعلىٰ الدنيا وأهلها الدمار) أي الهلاك (أشار) ﷺ (إلىٰ أن المقصود) من الأكل (رد كلب الجوع) أي شدته (ودفع ضرره دون التنعُّم بلذَّات الدنيا) قال العراقي[3]: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس[4] من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

---

(١) المغني ٢/ ٧٥٧.

(٢) الموضوعات ٣/ ١٣٨.

(٣) المغني ٢/ ٧٥٧.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ٣٤٩.

قلت: ورواه ابن عدي[١] والبيهقي[٢]، ولكن لفظ الحديث عندهم: «يا أبا هريرة، إذا اشتد كَلَبُ الجوع فعليك برغيف وجرٍّ من ماء القَراح وقلْ علىٰ الدنيا وأهلها الدمار». وفي إسناده الحسين بن عبد الغفار الأزدي، قال الذهبي[٣]: متهم. وقال الدارقطني: متروك[٤]. وفيه أيضًا أبو يحيىٰ الوقار، قال الذهبي[٥]: كذوب. وفيه أيضًا الماضي بن محمد، قال الذهبي[٦]: مصري مجهول. وقال أبو حاتم[٧]: الحديث الذي رواه باطل.

وليس[٨] المراد من قوله «فعلىٰ الدنيا وأهلها الدمار» الدعاء عليهم بالهلاك، بل إنزالهم منزلة الهالكين، فإنَّ مَن هلك لا يقدر علىٰ شيء، وكذلك الدنيا وأهلها. والقصد الحث علىٰ التقنُّع باليسير، والزهد في الدنيا، والإعراض عن شهواتها.

(**وبلغ عمرَ** رضي الله عنه **أن يزيد بن أبي سفيان**) بن[٩] حرب الأموي، أخو معاوية، أسلم يوم الفتح، وكان أفضل بني أمية[١٠]، أمَّره عمر علىٰ دمشق حتىٰ مات بها سنة تسع عشرة (**يأكل أنواع الطعام، فقال عمر لمولىٰ له**) يقال له: يرفأ (**إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلِمْني. فأعلمه، فدخل عليه، فقُرِّب عشاؤه، فأتوه بثريد ولحم، فأكل معه عمر، ثم قُرِّب الشواء**) أي اللحم المشوي (**فبسط يزيد يده، وكف**

(١) الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٤٢٥.

(٢) شعب الإيمان ١٣/ ١٣.

(٣) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٨٩.

(٤) نقله عنه الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٥٤٠.

(٥) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ١٤٥.

(٦) السابق ص ٣٣٣.

(٧) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٤٤٢.

(٨) فيض القدير ١/ ٢٨٢.

(٩) تهذيب الكمال ٣٢/ ١٤٥ - ١٤٦. تقريب التهذيب ص ١٠٧٥.

(١٠) في تهذيب الكمال: أفضل بني أبي سفيان.

عمرُ يده وقال: الله الله يا يزيد بن أبي سفيان! أطعام بعد طعام؟! والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سننهم ليخالَفنَّ بكم عن طريقهم) رواه إسماعيل بن عيَّاش، حدثني يحيىٰ الطويل، عن نافع، عن ابن عمر قال: بلغ عمرَ أن يزيد بن أبي سفيان يأكل ألوان الطعام، فقال ليرفأ: إذا حضر طعامه فأعلِمْني ... فساقه، وفيه: والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنَّته ليخالفن بكم عن طريقه[١]. فأشار عمر إلىٰ أنهم كانوا يكتفون بطعام واحد ولون واحد ولا يزيدون، فمَن خالف نهجَهم الذي سلكوه خولِفَ به عن طريقهم، والخير كل الخير في اتِّباع السلف.

(وعن يسار بن نُمَير) مولىٰ عمر، ثقة، نزل الكوفة، ليس له في الكتب الستة شيء، وإنما ذكره الحافظ في التهذيب[٢] للتمييز بينه وبين يسار مولىٰ ابن عمر **(قال: ما نخلت لعمر دقيقًا قط إلا وأنا له عاصٍ)**[٣] رواه الأعمش عن شقيق عنه. أي لم يكن يأمرني بنخله، فإذا نخلته خالفت أمره وكنت عاصيًا له.

(ورُوي أن عتبة) بن أبان **(الغلام)** رحمه الله تعالىٰ **(كان يعجن دقيقه ويجفِّفه في الشمس ثم يأكله ويقول: كسرة وملح حتىٰ يتهيَّأ لي في الآخرة الشواء والطعام الطيب. وكان يأخذ الكوز فيغرف به من حُب)** بضم الحاء، وهو دُن الماء **(كان في الشمس نهاره، فتقول مولاة له: يا عتبة، لو أعطيتَني دقيقك فخبزته لك وبرَّدت لك الماء. فيقول لها: يا أم فلان، قد سددتِ عني كَلَب الجوع)** أي شدته. أخرجه أبو نعيم في الحلية[٤] فقال: حدثنا أبو محمد ابن حيان، حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا أحمد الدورقي، حدثنا إبراهيم بن عبد الرحمن بن مهدي،

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٩٤، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٥/ ٦٩، ٢٥١.

(٢) تقريب التهذيب ص ١٠٨٦.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٩٦، وابن أبي شيبة في المصنف ١٢/ ٥٧، وابن أبي الدنيا في كتاب الجوع ص ١١٦، وأبو داود في الزهد ص ٩٥.

(٤) حلية الأولياء ٦/ ٢٢٩.

حدثني أبي، عن بكر قال: كان عتبة يأخذ دقيقه فيبلُّه بالماء ويعجنه ويضعه في الشمس حتىٰ يجف، فإذا كان الليل جاء فأخذه وأكل منه لقمًا. قال: ثم يأخذ الكوز فيغرف من حُب كان في الشمس نهاره، فتقول مولاة له: يا عتبة، لو أعطيتَني دقيقك فخبزته لك وبرَّدت لك الماء. فيقول لها: يا أم فلان، قد سددتِ عني كَلَب الجوع. وحدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا جعفر بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثنا محمد بن الحسين، حدثنا عبد الله بن الفرج العابد قال: كان عتبة يعجن دقيقه ويجفِّفه في الشمس ثم يأكله ويقول: كسرة وملح حتىٰ يتهيَّأ في الدار الأخرىٰ الشواء والطعام الطيب.

[(قال شقيق بن إبراهيم: لقيت إبراهيم بن أدهم بمكة في سوق الليل عند مولد النبي ﷺ يبكي وهو جالس بناحية من الطريق، فعدلت إليه وقعدت عنده وقلت: إيش هذا البكاء يا أبا إسحاق؟ فقال: خير. فعاودتُه مرة واثنتين وثلاثًا، فقال: يا شقيق، استرْ عليَّ. فقلت: يا أخي، قلْ ما شئتَ. فقال لي: اشتهت نفسي منذ ثلاثين سنة سكباجًا، فمنعتُها جهدي، حتىٰ إذا كان البارحة كنت جالسًا وقد غلبني النعاس إذا أنا بفتىٰ شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج. قال: فاجتمعتُ بهمَّتي عنه، فقرَّبه وقال: يا إبراهيم، كلْ. فقلت: ما آكل، قد تركتُه لله عَزَّوَجَلَّ. فقال لي: قد أطعمك الله، كلْ. فما كان لي جواب إلا أني بكيت، فقال لي: كلْ رحمك الله. فقلت: قد أُمِرنا أن لا نطرح في وعائنا إلا من حيث نعلم. فقال: كلْ عافاك الله، فإنما أُعطيتُه فقيل لي: يا خَضِر، اذهب بهذا وأطعِمْه نفس إبراهيم بن أدهم فقد رحمها اللهُ من طول صبرها علىٰ ما يحملها من منعها، اعلمْ يا إبراهيم أني سمعت الملائكة يقولون: مَن أُعطِي فلم يأخذ طلب فلم يُعْطَ. فقلت: إن كان كذلك فها أنا بين يديك لأجل العقد مع الله تعالىٰ. ثم التفتُّ فإذا أنا بفتىً آخر ناوله شيئًا وقال: يا خضر، لَقِّمْه أنت. فلم يزل يلقمني حتىٰ نعست، فانتبهت وحلاوته في فمي. قال شقيق: فقلت: أرني كفك. فأخذت بكفِّه فقبَّلتها وقلت: يا

من يطعم الجياع الشهوات إذا صحَّحوا المنع، يا من يقدح في الضمير اليقينَ، يا من يشفي قلوبهم من محبته، أترىٰ لشقيق عندك حالاً؟ ثم رفعت يد إبراهيم إلىٰ السماء وقلت: بقدر هذا الكف عندك وبقدر صاحبه وبالجود الذي وجد منك جُدْ علىٰ عبدك الفقير إلىٰ فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحقَّ ذلك. قال: فقام إبراهيم ومشىٰ حتىٰ أدركنا البيتَ][1][2].

ورُوي عن) أبي يحيىٰ **(مالك بن دينار)** البصري رحمه الله تعالىٰ **(أنه بقي أربعين سنة يشتهي لبنًا فلم يأكله)** أخرجه أبو نعيم في الحلية[3] من طريق عثمان بن إبراهيم الحِمْيَري جليس مالك بن دينار عن مالك أنه قال لرجل من أصحابه: إني لأشتهي رغيفًا ليِّنًا بلبن رائب. قال: فانطلق فجاء به. قال: فجعله علىٰ الرغيف، فجعل مالك يقلِّبه وينظر إليه ثم قال: اشتهيتك منذ أربعين سنة فغلبتك، حتىٰ كان اليوم تريد أن تغلبني؟ إليك عني. وأبىٰ أن يأكله.

(وأُهدي إليه يومًا رُطَب، فقال لأصحابه: كلوا، فما ذقته منذ أربعين سنة) نقله صاحب القوت.

(وقال أحمد بن أبي الحواري) رحمه الله تعالىٰ: **(اشتهىٰ أبو سليمان الداراني)** رحمه الله تعالىٰ **(رغيفًا حارًّا بملح، فجئت به إليه، فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي وقال: عُجِّلت إليَّ شهوتي بعد إطالة جهدي وشقوتي، قد عزمت علىٰ التوبة، فأقِلْني. قال أحمد: فما رأيته أكل الملح حتىٰ لقي الله تعالىٰ)**[4] رواه العباس بن حمزة عن أحمد بن أبي الحوارىٰ.

وقد وقع مثل ذلك لداود الطائي. من طريق محمد بن بشر قال: دخلت علىٰ

(١) هذا النص ليس في نسخة الزبيدي، ومستدرك من طبعة الشعب ٨/ ١٥٠٧، ١٥٠٨.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦/ ٣٢٧.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٦٦.

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ١٣٠.

داود الطائي المسجد، فصليت معه المغرب، ثم أخذ بيدي، فدخلت معه البيت، فقام إلىٰ دُن له كبير فأخذ منه رغيفًا يابسًا فغمسه في الماء ثم قال: ادْنُ فكلْ. قلت: بارك الله لك. فأفطر، فقلت له: يا أبا سليمان، لو أخذتَ شيئًا من ملح. قال: فسكت ساعة ثم قال: إن نفسي تنازعني ملحًا، ولا ذاق داود ملحًا [ما دام] في الدنيا [فما ذاقه] حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ(١).

(وقال مالك بن ضيغم: مررت علىٰ سوق بالبصرة، فنظرت إلىٰ البقل، فقالت لي نفسي: لو أطعمتَني الليلة من هذا) البقل **(فأقسمت بالله أن لا أُطعِمها إياه أربعين سنة)** أراد بذلك مخالفتها وكسر شهوتها لتتأدَّب وتكفَّ عن النزوع.

(ومكث مالك بن دينار) رحمه الله تعالىٰ **(بالبصرة خمسين سنة ما أكل رُطَبة لأهل البصرة ولا بُسرة قط، وقال: يا أهل البصرة، عشت فيكم خمسين سنة، ما أكلت لكم رُطَبة ولا بسرة، فما زاد فيكم ما نقص مني، ولا نقص مني ما زاد فيكم(٢))**.

وقال) أيضًا: **(طلَّقتُ الدنيا منذ خمسين سنة، اشتهتْ نفسي منذ أربعين سنة طعامًا، فواللهِ لا أطعمتُها حتىٰ ألحق بالله عَزَّوَجَلَّ)** ذكره ابن حبان في كتاب المصاحف(٣) وقال: كان يكتب المصاحف بالأجرة ويتقوَّت بأجرته، وكان يجانب الإباحات جهده، ولا يأكل شيئًا من الطيبات، وكان من المتعبِّدة الصُّبُر والمتقشِّفة الخُشن.

وقد روىٰ أبو نعيم في الحلية(٤) عن أحمد بن جعفر، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبو معمر، حدثنا أبي، عن جدي قال: كنت عند مالك بن دينار، فأخذ جِلد ساعِده فقال: ما أكلتُ العام رُطَبة ولا عنبة ولا بطيخة. فجعل يعدِّد كذا وكذا، ألستُ مالك بن دينار؟

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٣٤٩.

(٢) ذكره القشيري في الرسالة ص ٢١٠ بلفظ قريب.

(٣) الصواب: في كتاب الثقات ٥/ ٣٨٣.

(٤) حلية الأولياء ٢/ ٣٦٥ - ٣٦٦.

وأخرج أيضًا من طريق الهيثم بن معاوية: حدثني شيخ لي قال: كان رجل من الأغنياء بالبصرة، وكانت له ابنة نفيسة [فائقة] الجمال ... فساق القصة في عرضه إياها علىٰ مالك، وفيه: فقال مالك: عجبًا لك يا فلان! أوَ ما تعلم أني قد طلَّقت الدنيا ثلاثًا.

ومن طريق الحجاج بن نصر، حدثني المنذر أبو يحيىٰ قال: رأيت مالكًا ومعه كراع من هذه الأكارع التي قد طُبخت. قال: فهو يشمُّه ساعة فساعة. قال: ثم مر علىٰ شيخ مسكين علىٰ ظهر الطريق يتصدَّق، فقال: هاه يا شيخ. فناوله إياه، ثم مسح يده بالجدار، ثم وضع كساءه علىٰ رأسه وذهب، فلقيت صديقًا له فقلت له: رأيت من مالك [اليوم] كذا وكذا. فقال: أنا أخبرك، كان يشتهيه منذ زمان فاشتراه، فلم تطِبْ نفسُه أن يأكله فتصدَّقَ به.

(**وقال حماد بن أبي حنيفة**) النعمان بن ثابت الفقيه، روىٰ عن أبيه، ضعَّفه ابن عدي[1] (**أتيت داود**) بن نصير (**الطائي**) رحمه الله تعالىٰ أزوره (**والباب مغلق عليه، فسمعته يقول: نفسي، اشتهيتِ جزرًا فأطعمتكِ جزرًا، ثم اشتهيتِ تمرًا فآليت أن لا تأكليه أبدًا. فسلَّمت ودخلت فإذا هو وحده**) أخرجه أبو نعيم في الحلية[2] فقال: حدثنا إبراهيم بن عبد الله، حدثنا محمد بن إسحاق. ح. وحدثنا أبو محمد ابن حيان، حدثنا أحمد بن علي بن الجارود قالا: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثني عبيد الله بن عبد الكريم، عن حماد بن أبي حنيفة ... فساقه، وفيه: آليت أن لا تأكليه أبدًا. فاستأذنت وسلَّمت ودخلت فإذا هو يعاتب نفسه.

وأخرج من طريق الوليد بن عقبة قال: حدثني جار لداود الطائي قال: سمعت داود يعاتب نفسه: اشتهيتِ البارحة تمرًا فأطعمتُكِ، فاشتهيتِ الليلة تمرًا، لا ذاق داود تمرة ما دام في دار الدنيا. قال: فما ذاقها حتىٰ مات.

---

(١) الكامل في الضعفاء ٢/ ٦٦٩، وفيه: «لا أعلم له رواية مستوية».

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣٤٩ - ٣٥٠.

وأخرج من طريق إبراهيم بن حسان قال: جئت إلىٰ باب داود الطائي أريد أن أدخل عليه، فسمعته يخاطب نفسه، فظننت أن عنده إنسانًا يكلِّمه، فأطلت الوقوف بالباب، ثم استأذنت، فقال: ادخل. فدخلت، فقال: ما بدا لك من الاستئذان عليَّ؟ قال: قلت: سمعتك تتكلم فظننت أن عندك إنسانًا تخاصمه. قال: لا، ولكن [كنت] أخاصم نفسي [اشتهيت البارحة تمرًا فخرجت أشتريه، فلما جئت بالتمر اشتهيت الجزر] فأعطيت الله عهدًا أن لا آكل الجزر والتمر حتىٰ ألقاه.

(ومر أبو حازم) سلمة بن دينار الأعرج التابعي الثقة العابد (**يومًا في السوق، فرأىٰ الفاكهة فاشتهاها، فقال لابنه: اشترِ لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة لعلَّنا نذهب إلىٰ الفاكهة التي لا**) هي (**مقطوعة ولا ممنوعة. فلما اشتراها وأتىٰ بها إليه قال لنفسه: قد خدعتيني حتىٰ نظرت واشتهيت، وغلبتيني حتىٰ اشتريتُ، واللهِ واللهِ لا ذقتيه. فبعث بها إلىٰ يتامىٰ من الفقراء**) بالمدينة.

(وعن موسىٰ **الأشج**) رحمه الله تعالىٰ (**أنه قال: نفسي تشتهي ملحًا جريشًا منذ عشرين سنة**) فما أطعمتُها إياه.

(**وعن أحمد بن خليفة**) رحمه الله تعالىٰ (**قال: نفسي تشتهي منذ عشرين سنة ما طلبت مني إلا الماء حتىٰ تروىٰ، فما أرويتُها**) فمثل هذه التشديدات في ترك المباحات أرادوا بذلك كبحًا لها ومخالفة لشهواتها رجاءَ أن يَسلم لهم حالهم مع الله تعالىٰ.

(ورُوي أن عتبة) بن أبان (**الغلام**) رحمه الله تعالىٰ (**اشتهىٰ لحمًا سبع سنين، فلما كان بعد ذلك قال: استحييت من نفسي أن أدافعها منذ سبع سنين سنة بعد سنة، فاشتريت قطعة لحم علىٰ خبز وشويتها وتركتها علىٰ رغيف، فلقيت صبيًّا فقلت**) له: (**ألستَ أنت ابن فلان وقد مات أبوك؟ قال: بلىٰ. فناولتُه إياها. قالوا: وأقبل يبكي ويقرأ**) قوله تعالىٰ: (﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا

﴿٨﴾ [الإنسان: ٨] **ثم لم يذقه بعد ذلك)** أخرجه أبو نعيم في الحلية[1] فقال: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا جعفر بن أحمد بن فارس، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثنا أحمد بن عمر الأنباري، حدثنا أحمد بن حاتم أبو عبد الله البصري، حدثنا أحمد بن عطاء أبو عبد الله اليربوعي قال: نازعت عتبةَ الغلام نفسُه لحمًا، فقال لها: اندفعي عني إلىٰ قابل. فما زال يدافعها سبع سنين حتىٰ إذا كان في السابعة أخذ دانقًا ونصف أفلاس فأتىٰ بها صديقًا له من أصحاب عبد الواحد بن زيد [خبازًا] فقال: يا أخي، إن نفسي تنازعني لحمًا منذ سبع سنين، وقد استحييت منها، كم أَعِدُها وأخلفها، فخذ لي رغيفين وقطعة من لحم بهذا الدانق ونصف. فلما أتاه به إذا هو بصبي، قال: يا فلان، ألستَ أنت ابن فلان وقد مات أبوك؟ قال: بلىٰ. قال: فجعل يبكي ويمسح رأسه وقال: قرَّة عيني من الدنيا أن تصير شهوتي في بطن هذا اليتيم. فناوله ما كان معه، ثم قرأ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

(ومكث) عتبة الغلام **(يشتهي تمرًا سنين، فلما كان ذات يوم اشترىٰ تمرًا بقيراط ورفعه إلىٰ الليل ليفطر عليه. قال: فهبَّت ريح شديدة حتىٰ أظلمت الدنيا، ففزع الناس، فأقبل عتبة علىٰ نفسه يقول: هذه)** الريح التي هبَّت **(من جرأتي عليك وشرائي التمر بالقيراط. ثم قال لنفسه: ما أظن أُخِذَ الناس إلا بذنبك، عليَّ أن لا تذوقيه)** أخرجه أبو نعيم في الحلية[2] فقال : حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا جعفر بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثني خالد بن خداش، حدثنا عبد القاهر بن عبد الرحيم قال: هاجت ريح بالبصرة حمراء، ففزع الناس لها. قال: فجعل عتبة يبكي ويقول: واجرأتي عليك وشرائي التمر بالقراريط.

حدثنا أبو محمد ابن حيان، حدثنا أحمد بن الحسين الحَذَّاء، حدثنا أحمد الدورقي، حدثنا إبراهيم بن عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا عبد السلام الزهراني،

---

(١) السابق ٦/ ٢٣٠.

(٢) السابق ٦/ ٢٢٨ - ٢٢٩.

حدثنا أبو دعامة الزهراني قال: كان عتبة يفتل الشريط في بيت مع أصحاب له، فهاجت ريح، فأتيته وهو لا يدري، فقلت: يا عتبة، أما ترىٰ ما في السماء؟ قال: فطرح الشريط فقام فقال: يا عتبة، تجترئ علىٰ ربك وتشتري التمر بالقراريط؟ وكان اشترىٰ يومئذٍ بقيراط.

حدثنا أحمد بن [أحمد بن] بندار، حدثنا جعفر بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله الخُتَّلي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الثقفي البصري، حدثنا رباح القيسي قال: صحبت عتبة الغلام وقد اشترىٰ تمرًا بقيراط، فلما كان عند المغرب هاجت ريح، فقال عتبة: [إلهي] أنا أشتهي التمر منذ سنة لم آكله، حتىٰ إذا أخذتُ شهوتي أردتَ أن تأخذني عندها؟ لا آكلها. فتصدَّقَ بها.

(واشترىٰ داود) بن نصير **(الطائي)** رحمه الله تعالىٰ **(بنصف فَلْس بقلاً، وبفلس خلاً، وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه: ويلك يا داود! ما أطول حسابك يوم القيامة! ثم لم يأكل بعده إلا قفارًا)** أي خبزًا يابسًا وحده.

(وقال عتبة) بن أبان **(الغلام يومًا لعبد الواحد بن زيد)** رحمهما الله تعالىٰ: **(إن فلانًا يصف من نفسه)** ولفظ القوت: من قلبه **(منزلة ما أعرفها من نفسي)** ولفظ القوت: لا أعرفها. ولم يذكر «من نفسي» **(قال: لأنك تأكل مع خبزك تمرًا، وهو لا يزيد علىٰ الخبز شيئًا)** ولفظ القوت: إن فلانًا لا يأكل التمر وأنت تأكله **(قال: فإن أنا تركت أكل التمر عرفتُ تلك المنزلة؟ قال: نعم وغيرها. فأخذ يبكي، قال له بعض أصحابه: لا أبكىٰ الله عينَك، أعلىٰ التمر تبكي؟ فقال عبد الواحد: دَعْه، فإن نفسه قد عرفت صِدق عزمه في الترك، وهو إذا ترك شيئًا لم يعاوده)** ولفظ القوت: وهو إذا ترك شيئًا لم يعاوَد فيه أبدًا[١].

(وقال) أبو[٢] محمد **(جعفر)** بن محمد **(بن نصير)** الخُلْدي البغدادي، صحب

---

(١) في ط المنهاج ٥/ ٣٣٧، ومخطوطة الإمام مثل لفظ القوت سواء.

(٢) الرسالة القشيرية ص ١١٦.

الجنيدَ وانتمىٰ إليه، وصحب النوري ورُوَيمًا وسمنون، مات ببغداد سنة ٣٤٨ **(أمرني الجنيد أن أشتري له التين الوزيري**[١]**، فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضعها في فمه، ثم ألقاها وجعل يبكي، ثم قال: احملْه. فقلت له في ذلك، فقال: هتف بي)** في قلبي **(هاتف: أما تستحي؟ تركتَه من أجلي ثم تعود إليه)** أورده القشيري في الرسالة[٢] بلفظ: وقال جعفر بن نصير: دفع إليَّ الجنيد درهمًا وقال: اشترِ لي به التين الوزيري. فاشتريته له، فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها في فمه وألقاها وبكىٰ وقال: احملْه. فقلت له في ذلك، فقال: هتف بي هاتف في قلبي: أما تستحي؟ شهوة تركتَها من أجلي منذ ثلاثين سنة ثم تعود إليها.

(وقال صالح) بن بشير **(المُرِّي)** تقدم ذِكرُه في كتاب العلم **(قلت: لعطاء السُّلَيمىٰ)** من رجال الحلية، وقد تقدم ذِكرُه أيضًا **(إني متكلِّف لك شيئًا، فلا تردَّ عليَّ كرامتي. فقال: افعلْ ما تريد. فبعثت إليه مع ابني شربة من سويق قد لتته بسمن وعسل، فقلت: لا تبرح حتىٰ يشربها. فلما كان من الغد جعلت له نحوها، فردَّها ولم يشربها، فعاتبته ولُمْتُه علىٰ ذلك، وقلت: سبحان الله! رددتَ عليَّ كرامتي. فلما رأىٰ وجدي لذلك قال: لا يسوءك هذا، إني قد شربتها أول مرة، وقد راودت نفسي في المرة الثانية علىٰ شربها فلم أقدر علىٰ ذلك، كلما أردتُ ذلك تذكَّرتُ قوله تعالىٰ: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ الآية** [إبراهيم: ١٧] **قال صالح: فبكيت وقلت في نفسي: أنا في وادٍ وأنت في وادٍ آخر)** أخرجه أبو نعيم في الحلية[٣] فقال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا عمرو بن أبي رزين وعبد الله ابن سليمان - يزيد أحدُهما علىٰ صاحبه - عن صالح المري قال: كان عطاء السليمي قد أضرَّ بنفسه حتىٰ

---

(١) ليست في الزبيدي.

(٢) السابق ص ٢٧٨.

(٣) حلية الأولياء ٦/ ٢١٨.

ضعُف. قال: فقلت له: إنك قد أضررت بنفسك، وأنا متكلِّف لك شيئًا، فلا تردَّ عليَّ كرامتي. قال: افعلْ. قال: فاشتريت سويقًا من أجود ما وجدت وسمنًا. قال: فجعلت له شُرَيبة فلتتها وحلَّيتها فأرسلتها مع ابني وكوزًا من ماء، فقلت له: لا تبرح حتىٰ يشربها. قال: فرجع فقال: قد شربها. فلما كان من الغد جعلت له نحوها، ثم سرَّحت بها مع ابني، فرجع بها لم يشربها. قال: فأتيته فلمته وقلت له: سبحان الله! رددتَ عليَّ كرامتي، إن هذا ممَّا يعينك ويقوِّيك علىٰ الصلاة وعلىٰ ذِكر الله تعالىٰ. قال: فلما رآني قد وجدت من ذلك قال: يا أبا بشر، لا يسوءك الله، قد شربتها أول ما بعثتَ بها، فلما كان الغد زاولتُ نفسي علىٰ أن أسيغها فما قدرت علىٰ ذلك، إذا أردت أن أشربه ذكرت هذه الآية: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ الآية. فبكىٰ صالح عند هذا، فقلت في نفسي: ألا أراني في وادٍ وأنت في آخَر.

(**وقال السري السقطي**) رحمه الله تعالىٰ: (**نفسي منذ ثلاثين سنة تطالبني أن أغمس جزرة في دبس، فما أطعتُها**)[1] أخرجه القشيري في الرسالة[2] سماعًا عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن أبي العباس البغدادي، عن جعفر بن نصير، عن الجنيد قال: سمعت السري يقول... فساقه، إلا أنه قال: منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة. وقد تقدم.

(**وقال أبو بكر ابن الجَلاَّء**) رحمه الله تعالىٰ، وهو من مشايخ صاحب القوت ومن معاصريه (**أعرف رجلاً تقول له نفسه: أنا أصبر لك علىٰ طيٍّ عشرة أيام وأطعِمْني بعد ذلك شهوة أشتهيها، فيقول لها: لا أريد أن تطوي عشرة أيام، ولكن اتركي هذه الشهوة**) التي اشتهيتها. أورده صاحب القوت وقال: سمعت أبا بكر ابن الجلاء يقول: أنا أعرف إنسانًا ... فساقه.

---

(١) في بعض نسخ الإحياء والرسالة: فما أطعمتها.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢٧٣.

(ورُوي) عن وهب بن منبه وغيره (**أن عابدًا دعا بعض إخوانه، فقرَّب إليه رُغْفانًا**) جمع رغيف، ككثيب وكثبان (**فجعل أخوه**) أي العابد (**يقلِّب**) بعض (**الأرغفة**) جمع آخر لرغيف، كحمير وأحمِرة (**ليختار أجودها**) أي أحسنها (**فقال له العابد: مَهْ**) أي كُفَّ عن هذا التقليب (**أيُّ شيء تصنع؟ أما علمتَ أن في الرغيف الذي رغبتَ عنه**) ولم تقنع به (**كذا وكذا حكمة، وعمل فيه كذا وكذا صانع**) وظهرت كذا وكذا صنعة (**حتىٰ استدار**) أي صار مستديرًا (**من السحاب الذي يحمل الماء، والماء الذي يسقي الأرض، والرياح، والأرض**) التي أنبتت (**والبهائم، وبني آدم، حتىٰ صار إليك، ثم أنت بعد هذا تقلِّبه ولا ترضىٰ به**) هكذا أورده صاحب القوت من رواية وهب بن منبه. قال: (و) قال الآخر زيادة (**في الخبر: لا يستدير الرغيف ويوضَع بين يديك حتىٰ يعمل فيه ثلاثمائة وستون صانعًا**) ولفظ القوت: ثلاثمائة وستون ما بين صانع وصنعة (**أولهم ميكائيل** عليه السلام) يقال إن اسمه عبد الرزاق وكنيته أبو الفتوح (**الذي يكيل الماء من خزائن الرحمة**) أي من تحت العرش (**ثم الملائكة التي تزجر السحاب**) أي تسوقه (**والشمس والقمر والأفلاك وملائكة الهواء ودواب الأرض، وآخرهم الخبَّاز** ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾) [النحل: ١٨] قال العراقي[1]: هذا الحديث لم أجد له أصلا.

قلت: رواه صاحب القوت عن وهب بن منبه باللفظ الأول، وعن غيره باللفظ الثاني، والقصة واحدة وهي قصة دعاء العابد لبعض إخوانه، وقد صرَّح صاحب القوت بذلك، وميَّز بين السياقين، حيث قال: وقال الآخر زيادة في الخبر. أي في هذا الخبر الذي ساقه، وأراد به هذه القصة، ولم يُرِدْ صاحب القوت بقوله «في الخبر» أنه مرفوع إلىٰ نبيِّنا ﷺ، فمن هنا جاء الاشتباه، والحق أن سياق المصنف مُشعِر بأنه في الخبر النبوي، ولكن حيث وجدنا أصل الكلام الذي هو مأخذ المصنف في كتابه هذا استرحنا، فهو خبر إسرائيلي من قول ذلك العابد الذي

(١) المغني ٢/ ٧٥٧.

دعا مخاطبًا به أخاه، وهذا موضع شديد الالتباس، وناهيك بالمصنف مع جلالة قدره كيف يغفل عن ذلك ويزيد في كلامه لبسًا حتىٰ يظن من جاء بعده أنه كلام نبوي، ولكن مراجعة الأصول الصحيحة تمنع من الوقوع في الغلط. والله أعلم.

(**وقال بعضهم**) ولفظ القوت: وحدثونا عن بعض هذه الطائفة قال: (**أتيت قاسمًا الجُوْعِي**) هو القاسم بن عثمان الدمشقي، قال ابن السمعاني في الأنساب[1]: ولعله كان يبقىٰ جائعًا كثيرًا فلُقِّب بالجوعي، له كرامات، روىٰ عن أبي اليمان الحكم بن نافع، وعنه محمد بن المعافَىٰ العابد (**فسألته عن الزهد أيُّ شيء هو؟ فقال**) لي: (**أيّ شيء سمعتَ فيه؟ فعددت أقوالاً**) قيلت فيه (**فسكت**) ولفظ القوت: فقلت: قالوا: الزهد قِصَر الأمل. فقال: حسن، وأيش سمعتَ أيضًا؟ فقلت: قالوا: الزهد ترك الادخار. فقال: حسن. حتىٰ عددت عليه أقوالاً. قال: فسكت (**فقلت: وأيّ شيء تقول فيه أنت؟ فقال: اعلمْ أن البطن دنيا العبد، فبقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد، وبقدر ما يملكه بطنُه تملكه الدنيا**) زاد صاحب القوت: وعلىٰ هذا المعنىٰ كان شيخنا ابن سالم يقول: إذا أعطيتَ البطن حظه من الشبع طلبت كلُّ جارحة حظها من اللهو فجمحت بك النفسُ إلىٰ الهلكة، وإذا منعتَ البطن حظه قصرت كل جارحة عن حظها فاستقام القلب لذلك واعتدل.

(**وكان**) أبو نصر (**بشر بن الحارث**) الحافي رحمه الله تعالىٰ (**قد اعتلَّ مرة، فأتىٰ عبدَ الرحمن المتطبِّب يسأله عن شيء يوافقه من المأكولات، فقال**) له عبد الرحمن: (**تسألني فإذا وصفت لك لم تقبل مني. قال**) له بشر: (**صِفْ لي حتىٰ أسمع**) فقال: تحتاج أن تستعمل ثلاثة أشياء، فإنَّ فيهن صلاح جسمك (**قال: تشرب سكنجبينًا**) وهو المعمول بالخل والعسل (**وتمص سفرجلاً، وتأكل بعد ذلك إسفيدباجًا**) وهو الشَّوْرَباج، ويُعرَف بالمسلوقة، فإنه يقوِّي الجسد ويرطِّبه

---

(١) الأنساب ٢/ ١٢٣. وذكره ابن حبان في الثقات ٩/ ١٧ وقال: من أهل دمشق من المتعبدين، يروي عن أبي اليمان وقد كان راويًا لابن رافع، حدثنا عنه محمد بن المعافي بعيداء وغيره. وقال ابو حاتم الرازي: صدوق. انظر الجرح والتعديل ٧/ ١١٤، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٧٣.

(فقال له بشر: هل تعلم شيئًا أقل) ثمنًا (من السكنجبين يقوم مقامه؟ قال: لا. قال: أنا أعرف. قال: ما هو؟ قال: الهِندباء بالخل. ثم قال: أتعرف شيئًا أقل) ثمنًا (من السفرجل يقوم مقامه؟ قال: لا. قال: أنا أعرف. قال: ما هو؟ قال: الخرنوب الشامي. ثم قال: أتعرف شيئًا أقل) ثمنًا (من الاسفيدباجة يقوم مقامها؟ قال): أما هذا (لا. قال: أنا أعرف. قال: ما هو؟ قال: ماء الحِمَّص بسمن البقر في معناها. فقال له عبد الرحمن: أنت أعلم مني بالطب فلِمَ تسألني)؟ هكذا أورده صاحب القوت.

(فقد عرفتَ بهذا أن هؤلاء) الطائفة إنما (امتنعوا من) أكل (الشهوات ومن الشبع من الأقوات، وكان امتناعهم للفوائد التي ذكرناها) آنفًا (و) أنه كان ذلك (في بعض الأوقات؛ لأنهم كانوا لا يصفو لهم الحلال، فلا يرخِّصوا لأنفسهم إلا في قدر الضرورة) ورعًا (و) معلوم أن (الشهوات ليست من الضرورات، حتىٰ قال أبو سليمان) الداراني رحمه الله تعالىٰ: (الملح شهوة؛ لأنه زيادة علىٰ الخبز، وما وراء الخبز شهوة) ولفظ القوت: وكانوا يقولون: ما زاد علىٰ الخبز فهو شهوة حتىٰ الملح[1] (وهذا هو النهاية، فمَن لم يقدر علىٰ ذلك) بل زاد علىٰ الخبز (فينبغي أن لا يغفل عن نفسه) ولا يهملها في عاداتها (ولا ينهمك في الشهوات) بل يقتصر مع الخبز علىٰ شهوة واحدة ملحًا أو إدامًا آخر، ومَن جمع بين أُدم كثيرة فقد انهمك في الشهوات (فكفىٰ بالمرء إسرافًا أن يأكل من كل ما يشتهيه ويفعل كلَّ ما يهواه) فقد[2] روىٰ ابن ماجه[3] وابن أبي الدنيا في كتاب الجوع[4] والبيهقي في

---

(١) روىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع ص ٩٨ ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٣/ ٢٥٦ عن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبي قال: سمعت وهيب بن الورد قال: خُلق ابن آدم وخلق الخبز معه، فما زاد علىٰ الخبز فهو شهوة. فحدثت به سليمان بن أبي سليمان (يعني الداراني) فقال: صدق، الخبز مع الملح شهوة.

(٢) فيض القدير ٢/ ٥٢٦ - ٥٢٧.

(٣) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٤.

(٤) الجوع ص ١١٩.

الشعب[١] من حديث أنس: «إن من السَّرَف أن تأكل كل ما اشتهيتَ». وفي لفظ: «إن من الإسراف». وسنده ضعيف، فيه بقية وحاله معروف، عن يوسف بن أبي كثير ضعيف، عن نوح بن ذكوان منكر الحديث، عن الحسن، عن أنس. ولذا أورده ابن الجوزي في الموضوعات[٢]. وتُعُقِّب بأن له شواهد بعضها أمثل من بعض، وبعضها حسن، وبعضها من تصحيح الحاكم. فالسرف على كل الحال في الأكل والفعل مذموم، ومَن أسرف في ماله أسرف في دينه، ومَن فعل ذلك خالف طريق السلف (**فينبغي**) للمتقشِّف من المريدين (**أن لا يواظب على أكل اللحم**) أو الدسم، بل يقتصر عليهما في الشهر مرتين، فإن أكله أربعًا فلا بأس به، قد كان السلف يفعلون كذلك. كذا في القوت (**قال علي كرَّم الله وجهه: مَن ترك اللحم أربعين يومًا ساءَ خُلقه، ومَن داوم عليه أربعين يومًا قسا قلبُه**)[٣] كذا في القوت (**وقيل: إن المداومة على اللحم لها ضراوة**) أي لهج بالإنسان (**كضراوة الخمر**) فإنَّ مَن ضَرِيَ بها لا يقدر على تركها إلا بمشقة، فكذلك اللحم، فينبغي لأجل ذلك عدم الملازمة عليه لئلاَّ تعتاده النفس فيكون فطمُها صعبًا، ونظرًا إلى أن ترك اللحم مما يسيء الخُلُقَ ويخلُّ بجوهر العقل كان سهل التستري رحمه الله تعالى يقول للمتقلِّلين من أهل عَبَّادان: احفظوا عقولكم وتعاهدوها بالأدهان والدسم، فإنه ما كان وليٌّ لله ناقص العقل (**ومهما كان**) المريد (**جائعًا وتاقت نفسه إلى الجماع فلا ينبغي أن يأكل ويجامع فيعطي نفسه شهوتين**) ويجمع لها بين حظَّين، بل يقتصر على الجماع

---

(١) شعب الإيمان ٧/ ٤٨٤.

(٢) الموضوعات ٣/ ٣٠.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٨/ ٦٨ بلفظ: «اللحم من اللحم، فمن لم يأكل اللحم أربعين يوما ساء خلقه». ورواه أبو نعيم في الطب النبوي ٢/ ٧٣٧ بهذا اللفظ، ثم رواه بلفظ: «كلوا اللحم فإنه ينبت اللحم، كلوه، فإنه جلاء للبصر، من تركه أربعين يوما ساء خلقه». وقد رواه ابن أبي الدنيا في كتاب إصلاح المال ص ٦٩ عن حفص بن عمرو قال: كان يقال: من أكل اللحم أربعين يوما قسا قلبه، ومن تركه أربعين يوما ساء خلقه.

دون الأكل، وإذا جمع بينهما فهي تطلبهما، فربما طلبت النفس الجماعَ للتعفُّف وهي تريد الأكل (**فتقوىٰ عليه، وربما طلبت النفس الأكل لتنشط في الجماع**) وفي الجمع بين شهوتين تقوية للنفس وإجراء عادة لها (**ويُستحَب**) للمريد إذا أكل (**أن لا ينام علىٰ الشبع فيجمع بين غفلتين فيعتاد الفتورَ**) والكسل (**ويقسو قلبه لذلك، ولكن ليصلِّ أو يجلس يذكر الله تعالىٰ**) بأيِّ ذِكر ألهمه الله تعالىٰ في وقته (**فإنه أقرب إلىٰ الشكر**) لنعمة الله عَزَّوَجَلَّ (**وفي الحديث: أذيبوا طعامكم**) أي[1] اهضموه (**بالصلاة والذِّكر**) وفي لفظ: بذكر الله والصلاة (**ولا تناموا عليه**) قبل انهضامه عن أعالي المعدة (**فتقسوَ**) منصوب بفتحة علىٰ الواو؛ لأنه جواب النهي (**قلوبُكم**) أي تغلظ وتشتد وتكتسب ظلمة وحجابًا.

قال العراقي[2]: رواه الطبراني في الأوسط[3] وابن السني في اليوم والليلة[4] من حديث عائشة بسند ضعيف.

قلت: رواه عبد الرحمن بن مبارك عن بزيع عن هشام عن عروة عن عائشة، ومن هذا الطريق أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني وكذا أبو نعيم في الطب[5] والبيهقي[6]. وقد رُوي أيضًا من طريق أبي الأشعث عن أصرم بن حوشب عن عبد الله الشيباني عن هشام، ومن هذه الطريق أخرجه ابن السني. وقد تُكُلِّم في الحديث من جهة بزيع وأصرم بن حوشب وكثُر فيهما الكلامُ، وحكم ابن الجوزي[7] بوضعه وقال: بزيع متروك، وأصرم كذاب. وقد تعقَّبه الحافظ السيوطي

---

(١) فيض القدير ١/ ٤٥٨ - ٤٥٩.

(٢) المغني ٢/ ٧٥٧.

(٣) المعجم الأوسط ٥/ ١٦٣.

(٤) عمل اليوم والليلة ص ٢٩٢.

(٥) الطب النبوي ١/ ٢٦٥.

(٦) شعب الإيمان ٨/ ١٦٧.

(٧) الموضوعات ٣/ ٦٩ - ٧٠.

في اللآلئ المصنوعة[1]. وغاية ما يقال فيه إنه ضعيف، ولذا اقتصر عليه العراقي.

(**وأقل ذلك أن يصلي أربع ركعات**) بتسليمتين (**أو يسبِّح مائة تسبيحة أو يقرأ جزءًا من القرآن عقب كل أكلة**) كذا في القوت. فإن وجد نشاطًا أطال في صلاته إما بإطالة القراءة في الركعات أو زاد علىٰ عدد الركعات، فإنَّ لحركة الأعضاء قيامًا وقعودًا سرًّا بليغًا في إذابة الطعام، وكذا إن زاد علىٰ التسبيح بالتهليل والتكبير فحسن ليجمع الباقيات الصالحات، وكان بعض مشايخنا يأمر المريد بعد أكله أن يراقب بالجلالة ويستمر عليه لحظات، قال: فإنه يمرئ الطعامَ في الحال (**فقد كان سفيان الثوري**) رحمه الله تعالىٰ (**إذا شبع في ليلة أحياها**) بالقيام (**وإذا شبع في يوم واصلَه بالصلاة والذكر، وكان**) يتمثَّل و(**يقول: أشبع الزنجيَّ**) أي العبد الأسود (**وكِدَّه**)[2] أي أتعِبْه في الخدمة (**ومرة يقول: أشبع الحمارَ وكِدَّه**)[3] وكان إذا جاع كأنَّه يتراخَىٰ في ذلك. كذا في القوت، وأصله عند أبي نعيم في الحلية.

(**ومهما اشتهىٰ**) المريد (**شيئًا من الطعام وطيبات الفواكه فينبغي أن يترك الخبز ويأكلها بدلاً منه**) أي يجعل ما اشتهاه بدلاً من الخبز ويقطع به جوعه (**ليكون**) ذلك له (**قوتًا**) عند الحاجة إلىٰ طُعمٍ (**ولا يكون تفكُّهًا؛ لئلاًّ يجمع للنفس بين عادة وشهوة**) فإنه أسرعُ لملله؛ لأنه إذا شبع من الطيبات غير الخبز شبعة أو شبعتين كان أقرب إلىٰ تركه وانقطاع شهوته (**نظر**) أبو محمد (**سهل**) التستري رحمه الله تعالىٰ (**إلىٰ**) أبي الحسن علي (**ابن سالم**) البصري شيخ صاحب القوت رحمهما الله

---

(١) اللآلئ المصنوعة ٢/ ٢٥٤.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٣٨٩ من طريق يحيىٰ بن أبي ثابت قال: أُتي سفيان الثوري وهو في المسجد الحرام بسويق فيه نحو من مُد أهل مكة، ثلثاه سويق وثلثه سكر، فشربه حتىٰ حل إزاره، ثم شد إزاره وقال: أشبع الزنجي وكده. ثم قام من أول الليل إلىٰ آخره.

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٠/ ٢٢٦ من طريق عبد الرزاق الصنعاني قال: قدم علينا الثوري صنعاء، فطبخت له قدر سكباج، فأكل، ثم أتيته بزبيب الطائف فأكل، ثم قال: يا عبد الرزاق، اعلف الحمار وكده. ثم قام يصلي حتىٰ الصباح.

تعالىٰ (**وفي يده خبز وتمر، فقال له: ابدأ بالتمر، فإن قامت كفايتك به وإلا أخذتَ من الخبز بقدر حاجتك**) وقال: إن التمر مبارك، والخبز مشؤم. يعني أنه كان سبب إخراج آدم عليه السلام من الجنة، وأما بركة التمر فإن الله تعالىٰ ضرب النخلة مثلاً لكلمة التوحيد في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وهي النخلة، وليس في الثمار أحلىٰ من الرطب، ولذلك شبَّه رسولُ الله ﷺ المؤمنَ في حلاوته ولِينه وقوته وثبات أصله بالنخلة فقال: «لا يسقط ورقُها مثلها كمثل المؤمن». يقول سهل رحمه الله تعالىٰ: إذا استغنيتَ عن الخبز بغيره من الطُّعم كان خيرًا لك. يريد أن لا توقف نفسَك مع عادة فتنازعك إليها. نقله صاحب القوت، قال: وقد ذكرت هذه الحكاية لأبي بكر الجَلاَّء فأعجبتْه وقال: هذا كلام الحكماء، وكان ذلك يلائم حالَه.

(**ومهما وجد**) المريد (**طعامًا**) ذا لونين (**لطيفًا وغليظًا**) بالإضافة إلىٰ أحدهما (**فليقدِّم اللطيف**) فلعل كفايته تتم به (**فإنه لا يشتهي الغليظ بعده**) فيستريح منه (**ولو قدَّم الغليظ لأكل اللطيف أيضًا للطافته**) فإنما قدَّم أهل الدنيا غليظ الألوان علىٰ الرقيق ليتَّسعوا في الأكل وتتفتَّق شهواتهم، فيكون لكل لون لطيف مكان آخر. وشبَّه بعضُهم المعدة بمنزلة جِراب ملأتَه جوزًا حتىٰ لم يبقَ فيه فضلٌ للجوز فجئتَ بسمسم فصببته عليه فأخذ لنفسه موضعًا في خلال الجوز فوسع الجرابُ السمسمَ للطفه مع الجوز، فكذلك المعدة إذا ألقيتَ فيها طعامًا رقيقًا لطيفًا بعد طعام خشن غليظ أخذته الشهوات في أماكنها فتمكَّنَ فيها بعد الشبع ممَّا قبله، والعرب تعيب ذلك ولا تفعله؛ إذ من سنَّتها أن تبتدئ باللحم قبل الثريد، قال رجل من العرب لبعض الأنباط: أنت من الذين يبتدئون بالثريد قبل الشواء. فذمَّ أهل العراق بذلك. هذا إذا استوىٰ اللونان في الحكم أو لم يكن للمريد في ترك الأفضل منهما نية، فأما إن كان قد ترك الشهوات ثم قُدِّمت إليه وكان علىٰ عقد نيته وقوة عزمه فلا بأس بأكل الأدون.

(وكان بعضهم يقول لأصحابه: لا تأكلوا الشهوات، فإن أكلتموها فلا تطلبوها، فإن طلبتموها فلا تحبُّوها) نقله صاحب القوت.

(وطلبُ بعض أنواع الخبز شهوة) حتىٰ قال بعضهم: الخبز من أكبر الشهوات (قال عبد الله بن عمر) ﷺ: (ما تأتينا من العراق فاكهة أحب إلينا من الخبز)(١) رواه صاحب القوت (فرأىٰ ذلك الخبز) المخصوص (فاكهة) بالإضافة إلىٰ غيره.

(وعلىٰ الجملة، لا سبيل إلىٰ إهمال النفس في الشهوات في المباحات واتِّباعها بكل حال) فإنه يُخشَىٰ منه علىٰ المريد أن يتخذه عادة، ولا يأمن من تأُلُّم(٢) قلبه وتوقان نفسه إليه ومنازعتها إياه لا سيَّما إذا كان مبتدئًا في السلوك غِرًّا لا يعرف خبء النفس ودواهيها ولا يفطن لمكرها وآفاتها، فإنَّ ترك ذلك أفضلُ، فليتركه حينئذٍ لأجل الله تعالىٰ خوفًا أن يشتهيه فيحرص علىٰ مثله ويدخل مداخل السوء من أجله ويبيع دينه فيه، أو خشية تمكُّن العادة منه فتتعذَّر عليه التوبة؛ لدخوله في الشُّبهات عند اعتياد الشهوات؛ لأن العادة جند من جنود الله تعالىٰ يقهر العقل [والابتلاء سلطان من سلطان الله يقهر العلم] لأجله تعذَّرت الاستقامة، ولولا العادة لكنَّا تائبين(٣)، ولولا الابتلاء لكان التائبون مستقيمين، فليترك حينئذٍ أكل الطيبات إذا صارت شهوات وخشي منها مطالبة العادات ودعاوي النفس بالآفات، ناويًا بذلك صلاح قلبه وتسكين نفسه ليملك بذلك نفسَه قبل أن تملكه، ويفطم عادتها قبل أن تهلكه، ويغلب بالترك طبعَه وهواه قبل أن يكونا بالشهوة يغلبانه (فبقدر ما يستوفي العبد من شهوته يُخشَىٰ أن يقال له يوم القيامة: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها. وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتَّع في الدار الآخرة

(١) ورد هذا الأثر بسياق آخر، فقد روىٰ الدولابي في الكنىٰ والأسماء ٣/ ١٠٤٨ عن النوشجان أبي المغيرة قال: سألت ابن عباس عن الجبن، فقال: ما تأتينا من العراق فاكهة أحب إلينا منه.

(٢) تالم.

(٣) في القوت: لولا العداوة لكان الناس تائبين.

بشهواته) وقد كان هذا طريق طائفة من السلف إلىٰ الله تعالىٰ، ثم انقرضوا فانمحَىٰ طريقهم، وخلف من بعدهم خلفٌ من العلماء اتَّبعوا الشهوات، ولم يتغالوا[١] في هذه المقامات، ولا سُلك بهم هذه الطرقات، فلم يتكلموا في ترك الشهوات، فلذلك درس هذا الطريقُ وعفا أثرُه لفقد سالكه وعدم كاشِفه، فمَن عمل به وسلكه فقد أظهره، ومَن أظهره فقد أحيا أهلَه **(قال)** صاحب القوت: حدثني **(بعض)** علمائنا عن بعض المريدين من **(أهل البصرة)** قال: **(نازعتني نفسي خبزًا)** ولفظ القوت: خبز[٢] أرز **(وسمكًا، فمنعتُها، فقويتُ مطالبتُها واشتدت مجاهدتي لها عشرين سنة)** قال: **(فلما مات رآه بعضهم في المنام فقال)** ولفظ القوت: قال: فمات، فرأيته في النوم فقلت: **(ماذا فعل الله بك؟ فقال: لا أُحسِنُ أن أصف)** لك **(ما تلقَّاني به ربي من النعم والكرامات)** ولفظ القوت: من النعيم والكرامة[٣] **(وكان أول شيء استقبلني به خبز أرز وسمكًا وقال: كلِ اليوم شهوتَك هنيئًا بغير حساب)** إلىٰ هنا آخر القصة **(وقد قال)** الله **(تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾)** [الحاقة: ٢٤] أي الماضية **(و)** كأنهم **(كانوا قد أسلفوا ترك الشهوات)** لما تركوها وقدَّموا الجوع والعطش في خلوِّ أيامهم فاستقبلهم بالأكل والشرب، ويقال: لكل عملٍ جزاءٌ في الآخرة من جنسه وبمعناه **(ولذلك قال أبو سليمان)** الداراني رحمه الله تعالىٰ: **(تركُ شهوة من الشهوات أنفعُ للعبد من صيام سنة وقيامها)** لفظ القوت: تركُ شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها. وهو الذي قال: لأن أترك لقمة من عشائي أحب إليَّ من قيام ليلة. وقد تقدم قريبًا. وكان رحمه الله تعالىٰ شديد الأمر في الجوع، وكان قد ترك أكل الشهوات وأكل الخبز أيضًا ثلاثين سنة، كما نقله صاحب القوت.

---

(١) في القوت: ولم يُقاموا.

(٢) وهي في بعض نسخ الإحياء كذلك.

(٣) وهي في بعض نسخ الإحياء كذلك.

بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه

(اعلمْ أن المطلوب الأقصىٰ في جميع الأمور والأخلاق الوسط؛ إذ خير الأمور أوسطها) كما ورد في الخبر وتقدم الكلام عليه **(وكِلا طرفَي قصد الأمور ذميم)** قال صاحب القوت: قال وهب بن منبه: لكل شيء وسط وطرفان، فإذا أمسكتَ أحد الطرفين مال الآخر، وإن أمسكت الوسط اعتدل الطرفان. قلت: أخرجه صاحب الحلية[1] من طريق عبد الصمد بن معقل عن عمه وهب، وزاد: ثم قال: عليكم بالأوسط من الأشياء **(وما أوردناه في فضائل الجوع فربما يومئ)** أي يشير **(إلىٰ أن الإفراط فيه مطلوب، وهيهات! فمن أسرار حكمة الشريعة)** الخفية **(أن كل ما يطلب الطبعُ فيه الطرفَ الأقصىٰ)** أي الأبعد **(وكان فيه فساد)** إما حالاً أو مآلاً **(جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه)** والزجر عنه **(علىٰ وجه يومئ عند الجاهل)** بالأسرار **(إلىٰ أن المطلوب مضادَّة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان، والعالِم)** الكامل في معرفته **(يدرك)** من ذلك **(أن المقصود)** هو **(الوسط؛ لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع حتىٰ يكون الطبع باعثًا والشرع مانعًا فيتقاومان ويحصل الاعتدال، فإنَّ من يقدر علىٰ قمع الطبع بالكلية بعيد، فيُعلَم أنه لا ينتهي إلىٰ الغاية، فإنه إن أسرف مسرف في مضادَّة الطبع كان في الشرع أيضًا ما يدل علىٰ إساءته، كما أن الشرع بالغ في الثناء علىٰ قيام الليل وصيام النهار، ثم لمَّا علم النبيُّ ﷺ من حال بعضهم)** وهو عبد الله بن عمرو بن العاص **(أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهىٰ عنه)** كما هو في الصحيحين، ومر في كتاب صلاة الليل **(فإذا عرفتَ هذا فاعلمْ أن الأفضل بالإضافة إلىٰ الطبع المعتدل أن يأكل بحيث**

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٤٥. وقد رواه أيضا أبو يعلىٰ في مسنده ١٠/ ٥٠١.

لا يحس بثقل المعدة و) بحيث (**لا يحس بألم الجوع، بل ينسىٰ بطنه فلا يؤثِّر فيه الجوع أصلاً، فإنَّ مقصود الأكل بقاء رمق الحياة وقوة العبادة)** بأن يكون أداؤه للفرائض من قيام (**وثقلُ المعدة يمنع من العبادة)** أي من القيام إليها (**وألم الجوع أيضًا يشغل القلبَ ويمنع منها)** فكلاهما من المشوِّشات (**فالمقصود أن يأكل أكلاً لا يبقىٰ للمأكول فيه أثرٌ)** لا في ظاهره ولا باطنه (**ليكون متشبِّهًا بالملائكة)** عليهم السلام (**فإنهم)** عِباد مكرَمون (**مقدَّسون عن ثقل الطعام وألم الجوع، وغاية الإنسان)** في فضله (**الاقتداء بهم)** واللحوق بزمرتهم (**وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعدُ الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال، ومثال طلب الآدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلىٰ الوسط مثال نملة أُلقيتْ في وسط حلقة محميَّة بالنار مطروحة علىٰ الأرض، فإن النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها، لا تقدر علىٰ الخروج منها، فلا تزال تهرب)** في كل ناحية منها (**حتىٰ تستقر علىٰ المركز الذي هو الوسط، فلو ماتت ماتت علىٰ الوسط؛ لأن الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة. فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة، والملائكة خارجون عن تلك الحلقة، ولا مَطمع للإنسان في الخروج)** منها؛ إذ هي خُلقت معه فلا تفارقه (**وهو)** مع ذلك (**يريد أن يتشبَّه بالملائكة)** بخروجه عن الصفات البهيمية (**في الخلاص)** منها (**فأشبهُ أحواله بهم البعد)** عن الشهوات (**وأبعد المواضع عن الأطراف الوسطُ، فصار الوسط مطلوبًا في جميع هذه الأحوال[1] المتقابلة، وعنه عُبِّر بقوله ﷺ: خير الأمور أوسطها)** قال العراقي[2]: رواه البيهقي في الشعب مرسلاً، وقد تقدم.

قلت: أخرجه من قول مطرف، وكذلك رواه ابن جرير في التفسير أيضًا.

---

(١) الصواب أن تثبت لفظة: (الأخلاق) لأنها التي في الزبيدي ثم نذكر الخلف فيها. الزبيدي ٧/ ٤٢٢، ط الشعب ٨/ ١٥١٤.

(٢) المغني ٢/ ٧٥٨.

ويُروَىٰ من قول يزيد بن مُرَّة الجُعْفي، رواه ابن جرير أيضًا. ورُوي ذلك عن علي مرفوعًا بسند فيه مجاهيل، رواه ابن السمعاني في الذيل وأبو بكر الجياني في الأربعين. ويُروَىٰ أيضًا عن ابن عباس، أخرجه الديلمي بلا سند. وقد تقدم الكلام علىٰ ذلك مفصَّلا[١].

(**وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾**) [الأعراف: ٣١] وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ الآية [الإسراء: ٢٩] وكذا قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] (**ومهما لم يحسَّ الإنسان بجوع ولا شبع تيسَّرت له العبادة والفكر**) والمراقبة ونحوها (**وخفَّ في نفسه وقويَ علىٰ العمل في خفته**) وفي بعض النسخ: وقويَ بالعمل علىٰ خفَّته (**ولكن هذا بعد اعتدال الطبع، أما في بداية الأمر إذا كانت النفس جموحة**) رافعة رأسها (**متشوِّقة إلىٰ الشهوات مائلة إلىٰ الإفراط فالاعتدال لا ينفعها، بل لا بد من المبالغة في إيلامها**) أي إتعابها (**بالجوع كما يبالغ في إيلام الدابَّة التي ليست مروَّضة**) أي منقادة مهذَّبة (**بالجوع والضرب وغيرهما إلىٰ أن تعتدل**) وهذا مشاهَد (**فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلىٰ الاعتدال ترك تعذيبها وإيلامها**) وأطلق لها الإكرام (**ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مريدَه بما لا يتعاطاه هو في نفسه، فيأمره بالجوع**) والصبر عليه (**وهو**) بنفسه (**لا يجوع، ويمنعه**) تناول (**الفواكه والشهوات**) ويحذِّره منها (**وهو قد لا يمتنع منها**) بل يتناولها (**لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنىٰ عن التعذيب**) إذ صارت مذلَّلة في العبادة (**ولمَّا كان الأغلب علىٰ النفس الشَّره والشهوة والجِماح والامتناع عن العبادة**) بالتكاسل (**كان الأصلح لها الجوع الذي تحس بألمه في أكثر الأحوال لتنكسر**)[٢] فالامتناع عن

---

(١) في كتاب تهذيب النفس.

(٢) في ط الشعب (٨/ ١٥١٤)، وط المنهاج ٥/ ٣٤٨: لتنكسر نفسه.

العبادة ثمرة الكسل، والكسل ثمرة امتلاء المعدة، وكذا الجماع إنما يحركه باعثُ الشهوة، والشهوة تنبعث من الطعام، وقِسْ عليهما بقيةَ الأوصاف الذميمة، والجوع مَقطعة للكل (والمقصود أن تنكسر) النفس (حتىٰ تعتدل فترُدُّ بعد ذلك أيضًا في الغذاء إلىٰ الاعتدال، وإنما يمتنع من ملازمة الجوع من سالكي طريق الآخرة) رجلان (إما صدِّيق) قد بلغ الغايةَ القصوىٰ في مرتبة صدقه في العبادة (وإما مغرور أحمق. أما الصدِّيق فلاستقامة نفسه علىٰ الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يُساق بسياط الجوع إلىٰ الحق) فهو لا يلازم الجوعَ، ولا حد له في أكله ولا توقيت (وأما المغرور فلظنِّه بنفسه أنه الصدِّيق المستغني عن تأديب نفسه) وترويضها (الظانُّ بها خيرًا، وهذا غرور عظيم) وقع في الناس (وهو الأغلب) علىٰ أحوالهم (فإنَّ النفس قلَّما تتأدَّب تأدُّبًا كاملاً، وكثيرًا ما تغترُّ فتنظر إلىٰ الصدِّيق ومسامحته نفسه في ذلك فيسامح نفسه) فيكون حاله (كالمريض ينظر إلىٰ مَن قد صحَّ من مرضه فيتناول ما يتناوله) الصحيح (ويظن بنفسه الصحة فيهلك، والذي يدل علىٰ أن تقدير الطعام بمقدار يسير في وقت مخصوص ونوع مخصوص ليس مقصودًا في نفسه وإنما هو) لأجل (مجاهدة نفس) جموحة (متنائية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال) فهي رياضة المريدين وطريق المجاهدين (أن رسول الله ﷺ لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه) ولا تجزئة ولا تقسيم (قالت عائشة ﷺ: كان رسول الله ﷺ يصوم حتىٰ نقول لا يفطر، ويفطر حتىٰ نقول لا يصوم) رواه البخاري[١] ومسلم[٢].

(وكان) ﷺ (يدخل علىٰ أهله فيقول: هل عندكم من شيء؟ فإن قالوا نعم أكل، وإن قالوا لا قال: إني إذًا صائم) قال العراقي[٣]: رواه أبو داود[٤] والترمذي[٥]

(١) صحيح البخاري ٢/ ٥٠.
(٢) صحيح مسلم ١/ ٥١٣.
(٣) المغني ٢/ ٧٥٨.
(٤) سنن أبي داود ٣/ ١٩١.
(٥) سنن الترمذي ٢/ ١٠٣.

وحسَّنه والنسائي[1] من حديث عائشة، وهو عند مسلم بنحوه كما سيأتي.

(وكان) ﷺ **(يقدِّم إليه الشيء فيقول: أما إني قد كنت أردت الصوم. ثم يأكل)** قال العراقي[2]: رواه البيهقي[3] من حديث عائشة بلفظ: «وإني قد كنت فرضتُ الصوم». وقال: إسناده صحيح. وعند مسلم[4]: «قد كنت أصبحت صائمًا».

(وخرج ﷺ **يومًا وقال: إني صائم. فقالت له عائشة** ﵂**: قد أُهدِيَ لنا حَيْس)** وهو[5] تمر يُنزَع نواه ويُدَق مع أَقِط ويُعجَنان بالسمن ثم يُدلَك باليد حتىٰ يبقىٰ كالثَّرِيد، وربما جُعل معه السويق **(فقال: كنت أردت الصوم، ولكن قرِّبيه)** قال العراقي[6]: رواه مسلم بلفظ: «قد كنت أصبحت صائمًا». وفي رواية له: «أدنيه فلقد أصبحت صائمًا» فأكل. وفي لفظ للبيهقي[7]: «إني كنت أريد الصوم، ولكن قرِّبيه».

قال صاحب القوت: الأفضل لمَن عقد لله تعالىٰ صومًا أن يتمَّه، فإن فسخه لغير الله عوقب علىٰ ذلك من عقوبات القلوب أو عقوبات الجوارح في طرقات الآخرة، فتلك عقوبة تركِ فضائل الأعمال. قيل لبشر بن الحارث رحمه الله تعالىٰ: إن فلانًا الغنيَّ يصوم الدهر. فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، إنما حاله أن يُطعِم الجياع ويكسو العراة ويواسي المحتاجين، فهذا أفضل له من صيامه الدهر. ثم قال بشر: عبادة الغنيِّ كروضة علىٰ مزبلة، وعبادة الفقير كعِقد الجوهر في جِيد الحسناء. ودخل سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ يومًا علىٰ أبي إسحاق الفَزاري، فقدَّم إليه قصعة فيها خبيص، فقال: لولا أني صائم لأكلت معك. فقال

---

(١) سنن النسائي ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٢) المغني ٢/ ٧٥٨.

(٣) السنن الكبرىٰ ٤/ ٤٥٧.

(٤) صحيح مسلم ١/ ٥١٢.

(٥) المصباح المنير ص ١٥٩.

(٦) المغني ٢/ ٧٥٨.

(٧) السنن الكبرىٰ ٤/ ٤٥٦.

الفزاري: دخل عليَّ أخوك إبراهيم بن أدهم فقعد في موضعك هذا، فقدَّمت إليه خبيصًا في هذه القصعة فأكل، فلما أراد الانصراف قال: أما إني كنت صائمًا، إلا أني أحببت أن آكل معك أسرُّك بذلك. فوضع الثوري يده فجعل يأكل وتأدَّب بإبراهيم.

(ولذلك حُكي عن سهل) التستري رحمه الله تعالىٰ (أنه قيل له: كيف كنت في بدايتك)؟ أي ابتداء حالك في السلوك (فأخبر بضروب من الرياضات) وأنواع من المجاهدات (منها: أنه كان يقتات ورق النبق مدة، ومنها: أنه أكل دِقاق التين)[1] وهو ما تكسَّر منه (مدة ثلاث سنين، ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين) قيل: وما هو؟ قال: كنت أشتري في كل سنة بدانقين تمرًا وأربعة دوانق كُسْبًا، ثم أعجنهما عجنة، ثم أجزِّئها ثلاثمائة وستين كُبَّة، أفطر في كل [يوم و] ليلة علىٰ كُبَّة. قال: (فقيل له: فكيف أنت في وقتك هذا؟ قال: آكل بلا حدٍّ ولا توقيت) نقله صاحب القوت، وقد تقدم له وللمصنف قريبًا نحو هذا، وكذا أورده القشيري في الرسالة في ترجمة سهل.

(وليس المراد بقوله «بلا حدٍّ ولا توقيت» أني آكُل كثيرًا، بل) المراد (أني لا أقدِّر بمقدار واحد ما آكله.

وقد كان) أبو محفوظ (معروف) بن فيروز (الكرخي) رحمه الله تعالىٰ (يُهدَىٰ إليه طيب الطعام فيأكل، فقيل له: إن أخاك بشر) بن الحارث الحافي (لا يأكل مثل هذا. فقال: إن أخي بشرًا قبضه الورع، وأنا بسطتني المعرفة. ثم قال: إنما أنا ضيف في دار مولاي، فإذا أطعمني أكلت، وإذا جوَّعني صبرت، ما لي والاعتراض والتمييز)؟ وفي نسخة: التخيُّر. هكذا أورده صاحب القوت.

(ودفع إبراهيم بن أدهم) رحمه الله تعالىٰ (إلىٰ بعض إخوانه دراهم فقال: خذ لنا بهذه الدراهم زبدًا وعسلاً وخبزًا حواريًّا. فقيل له: يا أبا إسحاق، هذا كله)؟!

---

(١) في الزبيدي: بالباء. وفي المنهاج والشعب وم الإمام: بالياء. وكأنه الأصح.

كأَنَّه استكثره (قال: ويحك! إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال) نقله صاحب القوت، وأصله في الحلية لأبي نعيم.

(وأصلح) إبراهيم بن أدهم (مرةً طعامًا كثيرًا ودعا إليه نفرًا يسيرًا فيهم) أبو عمرو (الأوزاعي و) سفيان (الثوري، فقال له الثوري: يا أبا إسحاق، أما تخاف أن يكون هذا إسرافًا؟ فقال: ليس في الطعام إسراف، إنما الإسراف في اللباس والأثاث) نقله صاحب القوت، وأصله في الحلية لأبي نعيم.

(فالذي أخذ العلم من السماع والنقل تقليدًا) محضًا (يرىٰ هذا) الصنيع (من إبراهيم بن أدهم ويسمع عن مالك بن دينار) أبي يحيىٰ البصري (أنه قال: ما دخل بيتي الملحُ منذ عشرين سنة) أخرجه أبو نعيم في الحلية (وعن السري السقطي) رحمه الله تعالىٰ (أنه منذ أربعين سنة يشتهي أن يغمس جزرة في دِبْس فما فعل) أخرجه القشيري في الرسالة بالشك: منذ ثلاثين سنة أو أربعين. ورواية صاحب القوت: منذ ثلاثين. من غير شكٍّ (فيراه متناقضًا) مع بعضه (فيتحيَّر) عند الوقوف عليه (ويقطع بأن أحدهما مخطئ) لا محالة (والبصير) العارف الناقد (بأسرار العلم يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالإضافة إلىٰ اختلاف الأحوال) والأشخاص (ثم هذه الأحوال المختلفة يسمعها فَطِنٌ محتاط) لدينه (أو غبي مغرور) بحاله وعلمه (فيقول المحتاط: ما أنا من جملة العارفين حتىٰ أسامح نفسي) ما سامح به أولئك القومُ (فليست نفسي أطوع من نفس سري السقطي ومالك بن دينار) رحمهما الله تعالىٰ، ومَن يكون مثلهما (وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات، فيقتدي بهم. والمغرور يقول: ما نفسي بأعصىٰ عليَّ من نفس معروف الكرخي وإبراهيم بن أدهم) رحمهما الله تعالىٰ (فأقتدي بهما وأرفع التقدير في مأكولي، فأنا أيضًا ضيف في دار مولاي فما لي وللاعتراض؟ ثم إنه لو قصَّر أحدٌ في حقه وتوقيره أو في ماله وجاهه) بل وحاشيته (بطريقة[1] واحدة قامت القيامة عليه واشتغل

---

(١) في ط المنهاج ٥/ ٣٥١: بطرفة عين واحدة. والمثبت هو الأصح.

بالاعتراض) ولم يُبْقِ في المجال شيئًا **(وهذا مجال رَحْب)** أي واسع **(للشيطان مع الحمقىٰ)** قلائل العقول **(بل رفعُ التقدير)** والتوقيت **(في الطعام والصيام وأكلُ الشهوات لا يَسلم إلا لمَن ينظر من مِشكاة الولاية والنبوة فيكون بينه وبين الله تعالىٰ علامة في استرساله وانقباضه)** قال صاحب القوت بعد أن أورد الأحاديث المتقدمة في الصيام والأكل: وكان بينه ﷺ وبين الله تعالىٰ علامة في صومه وفطره، وكان الوجود علامة فطره يكون مرادًا به، وكان العدم علامة صومه يكون معه مرادًا به. قال: وعلىٰ هذا المعنىٰ تصريف قلوب العارفين، ومن هذه المِشكاة تضيء بصائر الشاهدين ولا يوكَّلون إلىٰ حال، ولا يوقَفون مع مقام **(ولا يكون ذلك)** ولا يتم **(إلا بعد)** تمام ثلاث خصال، إحداها: **(خروج النفس عن مسامحة[١] الهوىٰ و)** توقانها إلىٰ **(العادة بالكلِّية)** والثانية: حسن النية **(حتىٰ يكون أكلُه إذا أكل علىٰ نية، كما يكون امتناعه[٢])** من الأكل **(بنيَّة)** فيستوي فطره وصومه؛ إذ كان العامل فيهما واحدًا **(فيكون عاملا لله في أكله وإفطاره)** والثالثة: أن يحفظ الجوارح الست بحسن الرعاية وهنَّ السمع والبصر واللسان والقلب واليد والرِّجل، ويكون مفطرًا بالبطن والفرج، فيكون ما حفظ أكثر وأبلغ وأحب إلىٰ الله تعالىٰ، ويكون أفضل ممَّن صام بجارحتين. فإن لم يكن مَن أصبح صائمًا ثم أفطر بهذه الأوصاف الثلاث دخلت عليه الشهوة الخفية [التي فسَّرها رسول الله ﷺ] فيما رُوي عنه ﷺ أنه لمَّا قال: «أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية»، فقيل: ما الشهوة الخفية؟ فقال: «أن يصبح أحدكم صائمًا ثم يعرِض له الطعامُ يشتهيه فيفطر لأجله»[٣] **(فينبغي أن يتعلَّم الحزم من عمر** رضي الله عنه، **فإنه كان يرىٰ رسول الله ﷺ يحب العسل ويأكله)** قال العراقي[٤]:

---

(١) في غير الزبيدي إطاعة الهوىٰ.

(٢) في غير الزبيدي: إمساكه

(٣) أحمد في مسنده (١٧١٦١) الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٣٠، وفيه عبد الواحد بن زيد وهو متروك.

(٤) المغني ٢/ ٧٥٩.

متفق عليه[١] من حديث عائشة: كان يحب الحلواء والعسل ... الحديث، وفيه قصة شربه العسل عند بعض نسائه (**ثم لم يَقِسْ نفسَه عليه، بل لمَّا عُرضت عليه شربة باردة ممزوجة بعسل جعل يدير الإناء في يده ويقول: أشربُها وتذهب حلاوتها وتبقىٰ تبعتُها، اعزلوا عني حسابها. وتركها**) وقد علم أنه كان حلالاً، فامتنع عن شربه خوفًا من الحساب، وقد تقدم ذلك قريبًا (**وهذه الأسرار**) الخفية (**لا يجوز لشيخ**) من شيوخ الطريقة (**أن يكاشف بها مريدَه، بل يقتصر علىٰ مدح الجوع فقط، ولا يدعوه إلىٰ الاعتدال، فإنه يقصِّر لا محالة عمَّا يدعوه إليه، فينبغي أن يدعوه إلىٰ غاية الجوع حتىٰ يتيسَّر له الاعتدالُ**) فيما بعد (**ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغني عن الرياضة**) وتهذيب الأخلاق (**فإن الشيطان يجد لذلك من قلبه متعلقًا فيلقي إليه كل ساعة: إنك عارف كامل، وما الذي فاتك من المعرفة والكمال**)؟ فيقع المريد في غرور عظيم ولا يجيء منه شيء في الطريق (**بل كان من عادة**) أبي إسحاق (**إبراهيم**) بن أحمد (**الخَوَّاص**) رحمه الله تعالىٰ، من أقران الجنيد، مات بالري سنة ٢٩١ (**أن يخوض مع المريد في كل رياضة كان يأمره بها كي لا يخطر بباله أن الشيخ لِمَ**) أي لأيِّ شيء (**يأمره بما لم يفعل فينفِّره ذلك عن رياضته**) فكان يفعل ذلك الشيخ دفعًا لنفوره، وقطعًا لِما يخطر في باله (**والقوي**) الشديد (**إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير لزمه النزول إلىٰ حد الضعفاء تشبُّهًا بهم وتلطُّفًا في**) حسن (**سياقهم إلىٰ السعادة، وهذا ابتلاء عظيم للأنبياء والأولياء**) ومَن علىٰ قدمهم، وقد خفي ذلك علىٰ كثيرين فلم يحيطوا به علمًا (**وإذا كان حد الاعتدال خفيًّا في حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغي أن لا يُترَك في كل حال**) حتىٰ يقع علىٰ حد الاعتدال فيتمسك به ويستقيم عليه (**ولذلك أدَّب عمرُ رضي الله عنه ولده عبد الله؛ إذ دخل عليه فوجده يأكل لحمًا مأدومًا بسمن**) أي مطبوخًا به (**فعلاه بالدِّرَّة**) أي السوط (**وقال: لا أم لك**) لا تفعل هكذا (**كلْ يومًا خبزًا ولحمًا**) وهما أعلىٰ الطعام

(١) صحيح البخاري ٣/ ٤٠٤، ٤٤١، ٤/ ١٥، ١٨، ٣٣، ٢٩١. صحيح مسلم ٢/ ٦٧٨.

والأُدم (**ويومًا خبزًا ولبنًا، ويومًا خبزًا وسمنًا، ويومًا خبزًا وزيتًا**) وهؤلاء الثلاثة من أعلىٰ الطعام وأوسط الأدم (**ويومًا خبزًا وملحًا**) وهما من أعلىٰ الطعام وأدنىٰ الإدام (**ويومًا خبزًا قفارًا**) أي وحده بلا إدام.

(**وهذا هو الاعتدال، فأما المواظبة علىٰ اللحم**) في كل يوم (**و**) علىٰ (**الشهوات**) كالفواكه وغيرها (**فإفراط وإسراف**) منهيٌّ عنهما (**ومهاجرة اللحم بالكلية إقتار**) وهو أيضًا منهيٌّ عنه (**وهذا قَوام بين ذلك**) قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧] (**والله تعالىٰ أعلم**).

بيان آفة الرياء المتطرِّق إلى مَن ترك أكل الشهوات أو قلَّل الطعام

اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أنه يدخل علىٰ تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما) في الحقيقة (أعظم من أكل الشهوات) فينبغي للمريد أن يتعاهد نفسه من طروءهما (إحداهما: أن لا تقدر النفس علىٰ ترك بعض الشهوات فتشتهيها ولكن لا يريد أن يعرِّف بأنه يشتهيها فيخفي الشهوةَ، ويأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة) وليس هذا من طريق الموقنين ولا مَسلك الصادقين (وهذا هو الشرك الخفي) كذا في سائر نسخ الكتاب، والأَولىٰ: وهذا من الشهوة الخفية. وهي التي جاء في الخبر: «أخوَفُ ما أخاف علىٰ أمَّتي الرياء والشهوة الخفية». فالرياء بالمعاملات، وخفيُّ الشهوة أن يشتهي أن تُعرَف وتوصَف بترك الشهوات. كما هو في سياق القوت، وليس فيه ذِكر للشرك الخفي، وإن كان بحسب المعنىٰ صحيحًا (سُئل بعض العلماء عن بعض الزهاد، فسكت عنه، فقيل له: هل تعلم به بأسًا؟ قال): لا، إلا في شيء واحد مكروه: (يأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة) فأعلَّه بذلك. كذا في القوت، قال: ولعَمْري إنه موضع علة؛ لأن الصادقين قد كانوا يأكلون في الجماعة ما لا يأكلون في الخلوة، فهذا ضد حالهم (وهذه آفة عظيمة، بل حق العبد إذا ابتُلي بالشهوات) أي بأكلها (وأحبها أن يُظهِرها) ولا يخفيها، وليشترها بنفسه ولا يسترها (فإنَّ هذا) من (صدق الحال) وهو طريق السلف (وهو يدل[1] عن فوات المجاهدات بالأعمال) قالوا: إن فاتته المجاهدة في الأعمال فلا يفوتنَّه الصدق في الحال، وإن لم يكن صدِّيقًا فليصدُق في كذبه، فإن الصدق في الكذب أحد الصِّدْقين (فإنَّ

(١) في ط الشعب ٨/ ١٥١٧: بدل عن. وفي ط المنهج ٥/ ٣٥٤: يدل علىٰ. وباء الزبيدي هي الأصح.

إخفاء) الكذب و(النقص وإظهار ضده من) الإخلاص و(الكمال هما نقصانان متضاعفان، والكذب مع الإخفاء) هما (كذبان) لأنه نقص وأظهر حالَ الكاملين، واعتلَّ وأبدىٰ شعار المعصومين، فكذب من طريقين (فيكون مستحقًّا لمقتين) أي للمقت من وجهين (فلا يُرضَىٰ منه إلا بتوبتين صادقتين، ولذلك شدَّد الله) تعالىٰ (أمر المنافقين) فغضب عليهم، ومقتهم مَقْتين، ثم لم يرضَ منهم إلا بتوبتين، واشترط عليهم شرطين (فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾) [النساء: ١٤٥] يعني أسفل من الكفار (لأن الكافر كفر) وأخلص في كفره (وأظهر) فسوَّىٰ بين ظاهره وباطنه (وهذا) أي المنافق (كفر) وأشرك في إيمانه (وستر) فخالف بين ظاهره وباطنه (فكان ستره الكفر كفرًا آخر؛ لأنه استخفَّ بنظر الله تعالىٰ إلىٰ قلبه وعظَّمَ نظر المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره) فزاد الله في هوانه، وشدَّد في توبته بما وكَّده من شرطه فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦] وهذا [الضرب من الرياء] ممَّا لا يُمتحَن به عالِم بالله تعالىٰ ولا عاقل عن الله تعالىٰ، ولله الحمد (والعارفون) قد (يُبتَلون بالشهوات) أي بأكلها (بل بالمعاصي) والذنوب كما تجري عليهم (ولا يُبتَلون بالرياء) أي رياء المخلوقين (والغش والإخفاء) وليس للسلف في هذا الباب إلا طريقان، أحدهما ما أشار إليه المصنف بقوله: (بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالىٰ) ويجاهد النفس في الله تعالىٰ، والعارفون في طريق هذه المجاهدة علىٰ قسمين، فمنهم من كان يخفيه؛ لأنه أسلمُ له، ومنهم من كان يظهره؛ لأنه مؤمن قويٌّ نيتُه في ذلك القدوة والتأسِّي. وإلىٰ هذا القسم أشار المصنف بقوله: (ويُظهِر من نفسه الشهوةَ إسقاطًا لمنزلته من قلوب الخلق) وطريق آخر كان فيه طائفة من العلماء والعاملين فكانوا يأكلون الطيبات ويتَّسعون في المآكل إذا وجدوها، إلا أنهم كانوا يُظهِرون ذلك ويكشفون نفوسهم به. فإن فاتك الطريق الأقرب الأعلىٰ فاسلك الطريق الأسلم الأوسط، فإما أن يكون عبدًا يأكل الشهوات في السر ويخفيها في

العلانية أو يُظهِر شعارَ ضدها من الترك لها والزهد فيها، فليس هذا طريق الموقنين ولا مسلك الصادقين، هذا قد عرَّج عن طريق المسالك وسلك سبيل المهالك، فإياك أن تترك مَحَجَّة الطريق فتقع في حيرة المضيق. رُوي أن عابدًا من بني إسرائيل انتهىٰ في سياحته إلىٰ أرض لقوم رأىٰ في وسطها طريقًا مستطرَقًا تسلك فيه السابلة، فقال: هذه أرض لقوم كيف أسلكها؟ شقَّ عليه أن يجاوز الأرضَ فيبعُد عليه طريقُه، فتفكَّر وقال: هذا طريق مسلوك لا بأس عليَّ أن أسلكه. فسلكه، فلمَّا خرج من تلك الأرض عوقب علىٰ ذلك ونسي ذنبه، فجعل يستكشف، فقيل له: لأنك سلكتَ إليَّ علىٰ غير طريق، ودخلت حرث قوم بغير إذنهم. فقال: يا رب، معذرة إليك، إني رأيته قد جُعل طريقًا. فأوحىٰ الله إليه: أوَ كلَّما اتخذ الظالمون طريقًا جعلتَه إليَّ سبيلاً؟! فمَن سلك طريق ظالم بغرور لم يكن في ذلك معذورًا، وأوقعَه في الحيرة والغرور فهلك وأهلك مَن اقتدىٰ به، وهذا طريق متصنِّع، جاهل، متطرِّق بذلك إلىٰ الدنيا، متسوِّق عند الناس بترك الشهوات، مظلم التوحيد في الوحدة، ضعيف اليقين في غيبته عن العيون.

(و) قد (كان بعضهم) من الصادقين من السلف (**يشتري الشهوات**) بنفسه (**ويعلِّقها في البيت**) ويُظهِر للناس شِعار الراغبين (**وهو فيها**) عند الله (**من الزاهدين**) لا يأكلها (**وإنما يقصد بذلك**) إسقاط منزلته من قلوب الجاهلين، و(**التلبيس**) أي الإخفاء (**لحاله**) عن الناظرين (**ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين**) ويشتري به المعاملات؛ لتنقطع عنه المقالات (**حتىٰ لا يتشوَّش عليه حالُه**) لأن هذا مقام مَن زهد في الأشياء وأخفىٰ زهده (**فنهاية**) إخفاء (**الزهدِ الزهدُ في الزهد بإظهار ضده**) واستشعار المزهود فيه، ثم لا يتناوله ولا يتمتَّع به، فيكون هذا أشد علىٰ النفس من المجاهدة (**وهذا عمل الصدِّيقين**) وحال الصادقين وطريق الأقوياء من أهل الإرادات (**فإنه جمعٌ بين صِدقينِ، كما أن الأول جمعٌ بين كذبين، وهذا قد حمل علىٰ النفس ثقلين**): ثقل المنع من الحظ، وثقل سقوط المنزلة عند الخلق، فعدمت

النفسُ لذةَ المتعة به، وفقدت إثبات المنزلة بتركه (**وجرَّعها كأس الصبر مرتين: مرة بشربه، ومرة برميه**) وقذفه (**فلا جَرَمَ أولئك يؤتَون أجرهم مرتين بما صبروا، وهذا يضاهي طريق مَن يعطي جهرًا**) وعلانية (**فيأخذ ويردُّ سرًّا**) وخُفية (**ليكسر نفسه**) في الأخذ (**بالذل جهرًا**) إذ فيه سقوط الجاه بظهور الرغبة (**وبالفقر**) والزهد (**سرًّا**) فلا هو متَّع نفسَه بالجاه مع الرد، ولا هو أنالَها حظَّها بتناوله مع الأخذ، وهذا من أشد شيء علىٰ النفس، وهو طريق علماء الزهاد، ومن سلكه أخرجه إلىٰ مقام الصدِّيقية. وهذان طريقان قد درسا وعفا أثرُهما في هذا الزمان وما قبله بكثير، لا يسلكه إلا مَن عرفه، الفرد بعد الفرد، والسابلة من القُرَّاء علىٰ طرقات التصنُّع والتزيُّن بَراء [من هذا] (**فمَن فاته هذا**) الطريق الأقرب الأسهل (**فلا ينبغي أن يفوته إظهارُ شهوته ونقصانه والصدق فيه**) فإنه أيضًا مَحَجَّة الطريق، ومن لم يسلكها وقع في حيرة المضيق (**فلا ينبغي أن يغرَّه قولُ الشيطان: إنك إن أظهرت**) ذلك للناس (**اقتدىٰ بك غيرُك، فاستره إصلاحًا لغيرك**) وهذا غرور (**فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهم عليه من غيره**) ابدأ بنفسك ثم بمَن تعول (**فهذا إنما يقصد الرياء المجرَّد، ويروِّجه الشيطان عليه**) ويزيِّنه له (**في معرض إصلاح غيره، فلذلك ثقُل عليه ظهور ذلك منه وإن علم أن مَن اطَّلع عليه ليس يقتدي به في الفعل ولا ينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات**.

الآفة الثانية: أن يقدر علىٰ ترك الشهوات لكنه يفرح أن يُعرَف به) بين الناس (**فيشتهر بالتعفُّف عن الشهوات**) أي ترك أكل شهوة لأجل الشهرة، ثم اشتهىٰ أن يُعرَف بتركها، فهذا شهوة الشهوات (**فقد خالف شهوةً ضعيفة وهي شهوة الأكل وأطاع شهوة هي شرٌّ منها وهي شهوة الجاه**) فقد وقع في أعظم ممَّا كره، ومتعتُه بشهوة النظر إليه والمدح له أكبر من متعته بترك شهوته المأكولة (**وتلك هي الشهوة الخفية**) التي جاء في الخبر: «أخوَفُ ما أخاف علىٰ أمَّتي الرياء والشهوة الخفية». وفسَّروها بأن يشتهي أن يُعرَف ويوصَف بترك الشهوات (**فمهما أحسَّ بذلك من

نفسه فكسرُ هذه الشهوة آكَدُ من كسر شهوة الطعام، فليأكل فهو أَولىٰ له. قال أبو سليمان) الداراني رحمه الله تعالىٰ: (إذا قُدِّمت إليك شهوة وقد كنت تاركًا لها فأَصِبْ منها شيئًا يسيرًا، ولا تعطِ نفسك) منها (مُناها، فتكون قد أسقطتَ عن نفسك الشهوة، وتكون قد نغَّصتَ عليها؛ إذ لم تبلغ شهوتَها) قال صاحب القوت: فإن فعل هذا فحسن؛ لأن أبا سليمان خاف عليه ما ذكرناه قُبَيل من أن يُظهِر ترك الشهوة فيصير منعُه باعتقاد فضله من ترك الشهوات أبلغ من أكل الشهوات، أو أن يأكلها فتشرف عليها نفسُه ببلوغ شهوته التي كان تركها لعلة الإخلاص، كما تقول العامة: تَعِلَّة الصبي تُشبع الدابةَ. فإن قويَ يقينُه وغاب الخلق عن عينه تركها وقلبه مطمئن بالإيمان؛ لأنه لم يعتلَّ بالنظر فيه فيتداوىٰ بالتناول للبعض، فأما إن كان قد اعتقد ترك شهوة لمعنىٰ دخل عليه منها يخرجه من الورع أو يعزم علىٰ المجاهدة ثم أتىٰ بها فهذا اختبار من الله له لينظر كيف يعمل في الوفاء بالعقد، فأَحَبُّ إليَّ أن لا ينال منها شيئًا، وليتعلَّل، وليدافع عن نفسه بالمعاريض والمعاني حتىٰ لا يُفطَن به أنه تركها للمجاهدة فيكون قد فعل الوصفين معًا: الوفاء بالعقد في تركها، والتورية بلطيف الحيلة عن الفطنة له في قصده. وهذا طريق المريدين وصفات المتَّقين، وهو الطريق الأدنىٰ الذي ذكرناه أولاً، فإن ظهر قربُ الله تعالىٰ منه وغلبة نظره إليه أغناه عن الحيلة والاحتيال لقربه وشهادة ذي الجلال والإكرام، وهو الطريق الأعلىٰ الذي ذكرناه آخرًا، وهذا للموقنين.

(وقال جعفر بن محمد) بن علي بن الحسين (الصادق) رحمه الله تعالىٰ: (إذا قُدِّمت إليَّ الشهوة نظرت إلىٰ نفسي، فإن هي أظهرتْ شهوتها) لها (أطعمتُها منها، وكان ذلك أفضل من منعها، وإن أخفتْ شهوتها وأظهرت العزوف عنها عاقبتُها بالترك ولم أُنِلْها منها شيئًا) نقله صاحب القوت، وقال: وتفسير ذلك أن إظهار النفس للشهوة أن لا تبالي أن تُعرَف بأكل الشهوات، وأن تحب أن يظهر علىٰ ذلك مَن يعرف من أهل الديانات، وإخفاء النفس للشهوة أن تشتهي وتحب

أن لا يُعلَم أنها تحب، وتشتهي وتكره أن تُعرَف بأنها ممَّن يشتهي **(وهذا طريق في عقوبة النفس علي هذه الشهوة الخفية)** التي هي شهوة الشهوات.

(وبالجملة، مَن ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان) في المثال **(كمَن هرب من عقرب وفزع إلىٰ حية؛** لأن شهوة الرياء أَضَرُّ كثيرًا من شهوة الطعام**)** كما تقدم.

القـول في شهوة الفـرْج

(اعلمْ) أيّدك الله (أن شهوة الوقاع) أي المجامعة بين الرجل وزوجته (سُلِّطت علىٰ الإنسان لفائدتين، إحداهما: أن يدرك لذَّته فيقيس بها لذَّات الآخرة) إذ[1] ليس كل الناس يعرف اللذات المعقولة، ولو توهَّمناها مرتفعة لَما تشوَّقوا إلىٰ لذات الجنة (فإن لذة الوقاع) هي لذة ساعة (لو دامت لكانت أقوىٰ لذات الأجساد) كلها (كما أن النار وألمها أعظم آلام الجسد، والترغيب والترهيب يسوقُ الناسَ إلىٰ سعادتهم، وليس ذلك إلا بألم محسوس ولذة محسوسة مدرَكة، فإنَّ ما لا يُدرَك بالذوق لا يعظُم إليه الشوقُ) ولا تحصل فيه الرغبة.

(الفائدة الثانية: بقاء النسل ودوام الوجود) ونظام العالَم (فهذه فائدتها) فلولا الشهوة ما كان الوقاع، ولولا الوقاع ما كان النسل، فالله سبحانه جعلها سببًا لهذا الإيجاد، ولذلك[2] قال ﷺ: «تناكحوا تكاثروا». وقال: «خير النساء الولود الودود، وشرها العقيم». وقال: «تزوَّجوا الولود الودود، فإني مكاثر بكم الأمم [يوم القيامة]». وقال: «سوداء وَلُود خير من حسناء عقيم». ولقصد النسل حُظر إتيان المرأة في محاشها، وكُره العزل تأكيدًا للمقصود من النكاح (ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تُضبَط) علىٰ القانون (ولم تُقهَر ولم تُرَدَّ إلىٰ حد الاعتدال) الذي هو خير الأمور (وقد قيل في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] معناه: شدة الغلمة) قال صاحب القوت: رويناه عن قتادة. قلت: وأخرج ابن أبي حاتم عن مكحول: ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾

(١) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ٥٣.

(٢) السابق ص ٢٠٩.

قال: العُزبة والإنعاظ والغلمة. وأخرج [ابن جرير عن] السُّدِّي قال: من التغليظ والأغلال إلىٰ الغُلمة[١].

(وعن ابن عباس) ﷺ (في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝﴾ [الفلق: ٣] قال: هو قيام الذَّكَر) قال صاحب القوت: رويناه عن ابن عباس. قلت: والمشهور[٢] عن ابن عباس في تفسيره قال: الليل إذا أقبل. هكذا أخرجه ابن جرير[٣] وابن المنذر. ورُوي عنه أيضًا: الغاسق: الظلمة، والوَقْب: شدة سواده إذا دخل في كل شيء. أخرجه الطستي في فوائده[٤]. ورُوي عن مجاهد قال: يعني الليل إذا دخل. هكذا رواه ابن جرير وابن المنذر. وإن صحَّ ما قاله المصنف فهو نقل غريب عن ابن عباس، وقوله «هو قيام الذكر» كأنه تفسير للوقوب، والغاسق هو الذَّكَر، وهو من غريب اللغة (وقد أسنده بعض الرواة إلىٰ رسول الله ﷺ، إلا أنه قال في تفسيره: الذكر إذا دخل) هكذا ذكره صاحب القوت. قلت: وهذا أغرب من الأول، ولغرابة القولين نقلهما صاحب القاموس في كتابه[٥] وأسندهما للمصنف، وهو إنما تبع صاحبَ القوت، وكأنه لعدم اشتهار كتابه بين أيدي الناس تُنوسي وجُعل كأنَّ الغزالي هو الذي أبدىٰ هذين القولين، وقد ذكرتُ في شرحي عليه كلامًا يُحتاج إلىٰ مراجعته، وكان شيخنا المرحوم أبو عبد الله ابن الطيِّب رحمه الله تعالىٰ ينكر هذا جدًّا. ويدلُّك علىٰ هذا قولُ العراقي في تخريجه[٦]: حديث ابن عباس موقوفًا ومسندًا لا أصل له.

(وقد قيل: إذا قام ذكرُ الرجل ذهب ثلثا عقله) هو قول فيَّاض بن نَجِيح، نقله

---

(١) تقدمت هذه التفاسير في كتاب النكاح.

(٢) الدر المنثور ١٥/ ٨٠٠.

(٣) جامع البيان ٢٤/ ٧٤٦ - ٧٤٧.

(٤) مسائل نافع بن الأزرق لابن عباس ص ١٩٤.

(٥) انظر: تاج العروس ٤/ ٣٥٦، ٢٦/ ٢٥١.

(٦) المغني ٢/ ٧٥٩.

عنه صاحب القوت، وزاد في موضع آخر فقال: وقال بعضهم: ثلث دينه.

(وكان ﷺ يقول في دعائه: أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي ومنِيِّي) تقدم الكلام عليه في كتاب الدعوات.

(وقال ﷺ: النساء حبائل الشيطان) قال العراقي[١]: رواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب[٢] من حديث زيد بن خالد الجُهَني بإسناد فيه جهالة.

قلت: الحبائل[٣] جمع حِبالة بالكسر: هو ما يُصاد به من أيِّ شيء كان. وروىٰ أبو نعيم من حديث عبد الرحمن بن عابس[٤]، وابن لال من حديث ابن مسعود، والديلمي من حديث عبد الله بن عامر وعقبة بن عامر والتيمي في ترغيبه من حديث زيد بن خالد، كلهم بلفظ: «الشباب شعبة من الجنون، والنساء حِبالة الشيطان». هكذا رُوي عندهم بالإفراد، والرواية بالجمع أكثر؛ نبَّه عليه الحافظ السخاوي رضي الله تعالىٰ عنه. قلت: وقد رواه أيضًا الخرائطي في اعتلال القلوب[٥] والقضاعي في مسند الشهاب[٦] من حديث زيد بن خالد.

(ولولا هذه الشهوة) قد رُكِّبت في الرجال **(لَما كان للنساء سلطة[٧] علىٰ الرجال)** قال صاحب القوت: وقد حُدِّثتُ عن ابن البراء عن عبد المنعم بن إدريس قال: حدثنا أبي عن وهب بن منبه أنه وجد في التوراة [صفة] خلقِ آدم عليه السلام حين خلقه الله عز وجل وابتدعه فقال: إني خلقت آدم وركَّبت جسده من أربعة

---

(١) السابق ٢/ ٧٥٩.

(٢) الترغيب والترهيب ٢/ ١٠٧. ولكن وقع فيه: الفساد، بدل: النساء. وهو تحريف.

(٣) المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ١٣٨ من طريق عبد الرحمن بن عابس عن ابن مسعود موقوفا.

(٥) اعتلال القلوب ص ١٠٣.

(٦) مسند الشهاب ١/ ٦٦ - ٦٨.

(٧) في ط الشعب والمنهاج: سلطنة.

أشياء ... ثم ذكر الحديث بطوله في ذكر الطبائع الأربعة، ثم قال: وقد تغلب الحرارة علىٰ بعض المريدين من قِبَل قوة المزاج وحدَّة الشباب فيظهر الطبع فيتبيَّغ المنيُّ علىٰ العُزَّاب، كما تقوَىٰ الحرارةُ فيتبيَّغ[1] الدم؛ لأن أصل المنيِّ هو الدم يتصاعد في خرزات الصلب، وهناك مسكنه، فتنضجه الحرارةُ فيستحيل أبيض، فإذا امتلأت منه خرزات الصُّلب - وهو الفقار - طلب الخروج من مسلكه فقويت الصحة بذلك، فهذا حين هيجان الإنسان للنكاح، فلا يصلُح لمثل هذا أن يأكل الحرارات من الأطعمة، وليطفئ ذلك بأكل البرودات والأشياء القاطعة، وليتجنَّب أكل كل حار يابس أو بارد رَطْب فإنه يهيِّج الطبعَ ويقوِّي العضوَ. وقد روينا عن أزواج رسول الله ﷺ أنهن كنَّ يأكلن الخل والبرودات بعد وفاة رسول الله ﷺ يقطعن به الشهوة.

(ورُوي أن موسىٰ عليه السلام **كان جالسًا)** ذات يوم **(في بعض مجالسه إذ أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلوَّن فيه ألوانًا)** مختلفة **(فلما دنا منه خلع)** ذلك **(البرنس فوضعه، ثم أتاه فقال: السلام عليك يا موسىٰ. فقال له موسىٰ)** عليه السلام: **(من أنت؟ فقال: أنا إبليس. فقال: لا حيَّاك الله، ما جاء بك؟ قال: جئت لأسلِّم عليك لمنزلتك من الله)** تعالىٰ **(ومكانك منه. قال)** له موسىٰ عليه السلام: **(فما الذي رأيتُ عليك)**؟ يعني البرنس الذي خلعه **(قال: برنس أختطف به قلوبَ بني آدم. قال)** له موسىٰ عليه السلام: **(فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذتَ عليه)**؟ أي غلبته وملكته **(قال: إذا أعجبته نفسُه)** أي رضي عنها **(واستكثر عمله ونسي ذنوبه)** قال: **(وأحذِّرك** يا موسىٰ **(ثلاثًا)** الأولىٰ: **(لا تَخْلُ بامرأة لا تحل لك، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتىٰ أفتنه بها وأفتنها به، و)** الثانية: **(لا تعاهد الله عهدًا إلا وفيت به، و)** الثالثة: **(لا تُخرِجن صدقة إلا أمضيتَها)** بالفعل **(فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يُمْضِها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتىٰ أحول**

---

(١) في الزبيدي: بتبيغ، وقصده هنا هو ثوران المني علىٰ العزاب.

بينه وبين الوفاء بها. ثم ولّىٰ) إبليس **(وهو يقول: يا ويلتاه! علم موسىٰ ما يحذّر به بني آدم)**[١] وهذه الخصال التي أشار إليها إبليس قد حذَّر منها نبيُّنا ﷺ كما هو في الأخبار الواردة في ذلك لا سيَّما الأولىٰ منها، ففي حديث بُرَيدة عند الطبراني[٢]: «لا يخلُوَنَّ رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما». وعنده[٣] وعند البيهقي[٤] من حديث ابن عباس: «لا يخلُوَنَّ رجل بامرأة إلا ومعها ذو مَحرم، ولا تسافر امرأة إلا مع محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا مع محرم». وعند البيهقي أيضًا: «لا يدخل رجل علىٰ امرأة إلا ومعها ذو محرم، مَن دخل فليعلم أن الله معه». وعند ابن سعد[٥] من مرسَل الحسن: «لا تحدثُنَّ من الرجال إلا محرمًا». وعند البزار[٦] من حديث جابر: «لا تدخلوا علىٰ هؤلاء المُغِيبات، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم». والأخبار في التحذير من الخلوة مع النساء الأجنبيات كثيرة.

(وعن سعيد بن المسيب) القرشي المدني التابعي رحمه الله تعالىٰ **(قال: ما بعث الله نبيًّا فيما خلا)** أي مضىٰ **(إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء)** أي ما عدا نبيِّنا ﷺ، فإن الله سبحانه قد أعانه عليه فأسلم فلم يكن له عليه سبيل، وقد روىٰ نحو ذلك البزارُ من حديث جابر **(ولا شيء أخوَف عندي منهنَّ)** أي من طائفة النساء، قال ذلك وسنُّه ثمانون، كما سيأتي قريبًا **(وما بالمدينة بيت أدخله إلا بيتي**

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٥/ ١١٨ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦١/ ١٢٥ - ١٢٧ عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي.

(٢) لم أقف عليه عند الطبراني من حديث بريدة، وإنما رواه في المعجم الأوسط ٣/ ٢٠٤، ٧/ ١٩٣ من حديث عمر وابنه عبد الله.

(٣) المعجم الكبير ١١/ ٤٢٥.

(٤) شعب الإيمان ٧/ ٣١٠ - ٣١٢. وهذا الحديث قد رواه البخاري ٢/ ١٩، ٣٥٩، ٣/ ٣٩٥ ومسلم ١/ ٦١٠.

(٥) الطبقات الكبرىٰ ١٠/ ١٠، ولفظه: لما بايع النبي ﷺ النساء أخذ عليهن أن لا يحدثن من الرجال إلا محرما.

(٦) ورواه أيضا الترمذي في سننه ٢/ ٤٦٢، وأحمد في مسنده ٢٢/ ٢٢٦.

وبيت ابنتي) وهي التي زوَّجها عبدَ الله بن أبي وداعة، كما سيذكر المصنف قصتها قريبًا **(أغتسلُ فيه يوم الجمعة ثم أروح.**

وقال بعضهم[1]: **إن الشيطان يقول للمرأة: أنتِ نصف جندي، وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطئ)** غرضي **(وأنت موضع سري، وأنت رسولي في حاجتي).**

وقد صدق في قوله **(فنصف جنده الشهوة)** بها يقاتل المؤمنين **(ونصف جنده)** الآخَر **(الغضب)** فإذا اجتمعا في رجل فقد كمُل عنده جندُ الشيطان **(وأعظمُ الشهوات شهوة النساء)** ولذا كانت لذة وقاعهن أعظم اللذات لو دامت، ولكثرة استحواذهنَّ علىٰ قلوب الرجال بمقتضىٰ الشهوات كنَّ من سهام إبليس التي لا تخطئ المرامي أبدًا، فيحمِّلن الرجالَ ما لا يطيقون، ويقعون في المحظور لأجلهن، وإذا كنَّ رسلاً في حاجة لا تُرَدُّ شفاعتهن، وتُقضَىٰ حاجتهن، وكل ذلك لِما فيهن من مخايل الفتن، فهنَّ شر غالبٍ لمَن غلب **(وهذه الشهوة أيضًا لها)** ثلاث مراتب: **(إفراط وتفريط واعتدال. فالإفراط)** وهي المرتبة الأولىٰ **(ما يقهر العقلَ حتىٰ تُصرَف همَّة الرجل إلىٰ الاستمتاع بالنساء)** المنكوحات **(والجواري)** بملك اليمين ويشتغل بهن **(فيُحرَم عن سلوك طريق الآخرة، أو)** ما **(يقهر الدينَ حتىٰ يجرَّ إلىٰ اقتحام الفواحش)** التي حرَّم الله ما ظهر منها وما بطن، وذلك[2] علىٰ ضربين، أحدهما: تعاطيه في المَحرث ولكن لا علىٰ الوجه الذي يجب [وكما يجب كالزنا] وقد عظَّم اللهُ أمره فقرنه مرة بالشرك فقط فقال: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣] ومرة قرنه بالشرك وقتل النفس المحرَّمة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ

---

(١) هو الحسن بن صالح، كما رواه عنه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٣٢. وأورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٨٠٦ فقال: وذكر لنا أن إبليس لما خلقت المرأة قال: أنت نصف جندي ... الخ.

(٢) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ٢٠٩ - ٢١١.

ﭐلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] وسمَّىٰ ذلك سِفاحًا من حيث إن المجتمعينِ عليه لا غرض لهما سوىٰ سفح الماء للشهوة، كمَن ضيَّع ماءً في غير حرثه. والثاني: تعاطيه في غير المحرث كاللواطة، وهي أعظم من الزنا؛ لأن الزنا وضعُ البذر في المحرث علىٰ غير الوجه المأمور به، فهو كمَن زرع في أرض غيره، أو علىٰ غير الوجه الذي يجوز أن يزرع فيها، وفي اللواطة مع ذلك تضييع البذر، فمتعاطيها ممَّن قال الله تعالىٰ فيه: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ولهذا وصف الله قوم لوط بالإسراف فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨١] **(حتىٰ ينتهي إفراطها بطائفة إلىٰ أمرين شنيعين، أحدهما: أن يتناولوا ما يقوِّي شهواتهم علىٰ الاستكثار من الوقاع)** من غير ضعف وفتور **(كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوِّي المعدةَ لتعظُم شهوةُ الطعام)** وكلٌّ منهما شنيع. قال صاحب القوت: وحدثونا في أخبار الملوك أن ملك الهند أهدىٰ إلىٰ المنصور تحفًا، منها أنه وجَّه إليه بفيلسوف طبيب. قال: فأنزله المنصور وأحسن إليه، فلما دخل عليه قال الفيلسوف: قد جئتك يا أمير المؤمنين بثلاث خصال تتنافس الملوك فيها، لا نصنعها إلا لهم. قال: وما هي؟ قال: اخضب لحيتك بسواد لا تنصُل أبدًا ولا تتغير عن حالها. قال: وما الخصلة الثانية؟ قال: أعالجك بعلاج تتسع به في المآكل فتأكل أيَّ شيء شئتَ لا تتخم ولا يؤذيك الطعام. قال: وما الثالثة؟ قال: أقوِّي صلبك بتقوية تنشط بها إلىٰ الجماع فتجامع ما شئتَ، لا تملُّ من ذلك، ولا يضعف بصرُك، ولا ينقُص من قوَّتك. قال: فأطرق المنصور، ثم رفع رأسه إليه فقال: قد كنت أظن أنك أعقل ممَّا أنت، أما ما ذكرتَ من السواد فلا حاجة لي به؛ لأن ذلك غرور وزور، والشيب هيبة ووقار، ولم أكن لأغيِّر نورًا جعله الله في وجهي بظلمة السواد. وأما ما ذكرتَ من الأكل فواللهِ ما أنا بشَرِهٍ، وما لي في الاستكثار من الطعام حاجة؛ لأنه يثقل الجسمَ ويشغل عن النوائب، وأقل شيء فيه كثرة الاختلاف إلىٰ الخلاء فأرىٰ ما أكره وأسمع ما

لا أحب. وأما ما ذكرتَ من النساء فإن النكاح شعبة من الجنون، وما أقبح بخليفة مثلي يجثو بين يدي صبيَّة! ارجع إلىٰ صاحبك مذمومًا مدحورًا فلا حاجة لي بما جئتَ به.

(**وما مثال ذلك إلا كمَن ابتُلي بسباع ضارية وبهائم عادية فتنام عنه في بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهييجها ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها**) وكفىٰ بما يهتاج من باعث الطبيعة عن ذلك، فهو كمَن قال[1]:

كلما أنبت الزمانُ قناةً ركَّب المرءُ في القناة سِنانا

(**فإن شهوة الطعام والوقاع علىٰ التحقيق ألم**) يُحَس في الباطن. وفي نسخة: آلام (**يريد الإنسان الخلاص منه**) وفي نسخة: منها (**فيدرك لذة بسبب الخلاص**) من تلك الآلام (**فإن قلتَ: فقد رُوي في غريب الحديث أن رسول الله ﷺ قال: شكوت إلىٰ جبريل ضَعْفَ الوقاع، فأمرني بأكل الهريسة**) قال العراقي[2]: رواه العقيلي في الضعفاء والطبراني في الأوسط من حديث حذيفة، وقد تقدم[3]، وهو موضوع (**فاعلمْ أنه ﷺ كانت تحته تسع نسوة**) تقدَّم ذِكر أسمائهن (**وجب عليه تحصينُهن بالإمتاع**) فكان يقسم لهن، وربما دارَ عليهن كلهن بغسل واحد، كما ورد (**وحُرِّم علىٰ غيره نكاحهن وإن طلَّقهن**) كما هو مذكور في خصائصه ﷺ (**فكان طلبه القوة لهذا**) السبب (**لا للتنعُّم**) فلا يكون مذمومًا، بل هو محمود بهذا النظر (**والأمر الثاني: أنه قد تنتهي هذه الشهوة ببعض الضُّلاَّل**) عن نهج الدين (**إلىٰ**) مرتبة (**العشق، وهو**) نهاية الحماقة و(**غاية الجهل بما وُضع له**) أي لأجله (**الوقاع، وهو مجاوزة في**) الصفة (**البهيميَّة لحدِّ البهائم**) في عدم ملك النفس وذم الهوىٰ (**لأن المتعشِّق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع**) ولا يرضىٰ بإرادة لذة الباه (**وهي**) من (**أقبح الشهوات**)

---

(١) القائل هو المتنبي، والبيت في ديوانه ص ٤٧٤.

(٢) المغني ٢/ ٧٥٩.

(٣) في كتاب النكاح.

وأسمجها (**وأجدرها بأن يُستحَىٰ منه حتىٰ اعتقد**) في نفسه (**أن الشهوة لا تُقضَىٰ إلا من محل واحد، والبهيمة تقضي الشهوة أين اتفق فتكتفي به**) لأنها إذا أسقطت الأذىٰ عنها بالسفاد سكنت فصارت إلىٰ الراحة (**وهذا**) المتعشِّق (**لا يكتفي إلا بشخص واحد معين**) ثم لا يرضىٰ بذلك (**حتىٰ يزداد به ذلاً علىٰ ذل وعبودية علىٰ عبودية**) فالبهيمة أحسن حالاً منه، ثم لا يرضىٰ بذلك (**حتىٰ يستسخر**) ويستذل ما هو الأشرف الذي هو (**العقل لخدمة**) ما هو أخسُّ وهو (**الشهوة، وقد خُلق**) العقل وأُعطي ليقمع به الشهوة القبيحة و(**ليكون مطاعًا**) رئيسًا آمِرًا مخدومًا (**لا ليكون خادمًا للشهوة**) وساعيًا في حمقتها (**ومحتالاً لأجلها**) فما أخس حال مَن جعل الخادم مخدومًا والمخدوم خادمًا! وما مثله إلا كمَن انتعل بالمنديل ونشَّف الوجه بالنعل (**وما العشق إلا منبع إفراط الشهوة، وهو مرض قلب فارغ لا هم له**) وتعاطيه حال كل جاهل فارغ سيَّما إذا نظر في أخبار العشق وجالَسَ العُشَّاق، وربما يؤدي [الحال] بالعاشق إلىٰ ذبول ورقٍّ، بل إلىٰ الموت، قال الشاعر:

لو فكَّر العاشق في منتهىٰ معشوقه قصَّر عن حبه[1]

وقال حكيم لتلميذ له هوي جاريةً: هل تشك في أنك لا بد أن تفارقها يومًا ما؟ قال: لا. قال: فاجعل تلك المرارة المتجرَّعة في ذلك اليوم في يومك هذا، واربح ما بينهما من الخوف المنتظَر وصعوبة معالجة ذلك بعد الاستحكام وانضمام الإلف إليه. وقيل لبعض الحكماء: ما العشق؟ فقال: جنون لا يؤجَر صاحبه عليه. وسُئل آخَر عنه فقال: مرض نفس [فارغة لا همَّة لها. وقال غيره: هو سوء اختيار صادف نفسًا][2] فارغة. فأشاروا كلهم إلىٰ معنىٰ واحد (**وإنما يجب الاحتراز عن أوائله**

---

(١) كذا ذكر الشارح الشطر الثاني من البيت، والرواية المشهورة فيه:

حسن الذي يسبيه لم يسبه

وهو للمتنبي في ديوانه ص ٥٥٨ من قصيدة يرثي بها عمة عضد الدولة البويهي. الشارح نقله عن صاحب الذريعة هكذا. وانظر الذريعة صـ٣١٦.

(٢) مستدرك من الذريعة صـ٣١٧.

بترك معاودة النظر و) إجالة (الفكر) فيه (وإلا فإذا استحكم) غرسُه في القلب (عسُر دفعُه، وكذلك عشق المال والجاه والعقار والأولاد) وما في معناها (حتىٰ حب اللعب بالطيور) كالحمام وغيره (والعود) وما في معناه (والنردشير والشطرنج) وما في معناهما (فإنَّ هذه الأمور قد تستولي علىٰ طائفة بحيث تنقص عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها البتَّة) أما نقص الدين عليهم فمن جهات متعددة، وأما نقصان الدنيا فإنه إن كان محترفًا يشتغل بها عن حرفته ويضيع عياله، وإن كان ذا مال فإنه يضيعه فيما يتعلق بتلك الأشياء وهلم جرًّا إلىٰ أن ينفد. وأما عدم صبرهم عنها فذلك مشاهَد، كادت أن تحول بينهم وبين أكلهم (ومثال مَن يكسر سَوْرة العشق في أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابَّة عند توجُّهها إلىٰ باب لتدخله) فإنه يمكنه ذلك (وما أهون منعها بصرف عنانها. ومثال من يعالجها بعد استحكامها) ورسوخها (مثال من يترك الدابة) علىٰ حالها (حتىٰ تدخل وتجاوز البابَ ثم يأخذ بذَنَبها ويجرُّها إلىٰ ورائها. وما أعظم التفاوت بين الأمرين في العسر واليسر، فليكن الاحتياط في بدايات الأمور) أي أوائلها (فأما في أواخرها فلا تقبل العلاجَ إلا بجهد جهيد) وتعب شديد (يكاد يؤدي إلىٰ نزع الروح) من البدن.

(فإذًا إفراط الشهوة أن تغلب العقل إلىٰ هذا الحد، وهو مذموم جدًّا. وتفريطها بالعُنَّة) بالضم[1] وهي أن لا يقدر علىٰ إتيان النساء أو لا يشتهيهن، والاسم: عِنِّين، ويكون خِلقة، ويكون عن سحر (أو بالضعف عن إمتاع المنكوحة) عن سبب عارض كبرد في الصلب أو غيره (وهو أيضًا مذموم، وإنما المحمود) من الشهوة (أن تكون معتدلة مطيعة بالعقل والشرع في انقباضها وانبساطها) والوقاع[2] الصادر من هذه الشهوة إذا كانت بالوصف المذكور أن يتعاطاه العبد علىٰ الوجه الذي سنَّه الشرع، وذلك إما محمود وهو أن يتعاطاه قاصدًا به النسل [أو مزيلاً للضرر عنه

(١) المصباح المنير ص ٤٣٣.

(٢) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ٢٠٩.

علىٰ ما يجب] أو مسكِّنًا لنفسه، فالماء إذا اجتمع في مقرِّه يجري مجرىٰ مِدَّة وقيح من جرح يعظُم لحبسه الضررُ ويدعو صاحبَه إلىٰ ما هو في الشرع محرَّم أو مكروه طبًّا وإن لم يكن قد كُره شرعًا، وذلك أن يتعاطاه فضلاً عمَّا تقدم ذِكرُه، فإنه ينفد العمرَ، ويستنفد القُوَىٰ، ويوسِّع أوعية المنيِّ ويجلب إليه دمًا كثيرًا ويزيده شهوة، فأعظم فائدة فيه أن يُلحِق صاحبه بأفق البهائم من التيوس والثيران وغيرها ممَّا يوصَف بالشَّبَق (**ومهما أفرطت فكسرُها بالجوع والنكاح، قال ﷺ: معشر الشباب، عليكم بالباءة**) أي النكاح (**فمَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء**) أي قطعٌ له. وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الحديث في كتاب النكاح مفصَّلاً.

بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن المريد في ابتداء أمره) في سلوكه (لا ينبغي أن يشغل قلبَه ونفسه بالتزويج، فإنَّ ذلك شغلٌ شاغلٌ يمنعه من السلوك، ويستجرُّه إلىٰ الأنس بالزوجة، ومَن أنسَ بغير الله تعالىٰ شُغِلَ عن الله تعالىٰ) وقال صاحب القوت: الأفضل للمريد في [مثل] زماننا هذا تركُ التزويج إذا أمن الفتنةَ وعُوِّد العصمة ولم تنازعه نفسُه إلىٰ معصية ولم يترادف خاطرُ النساء علىٰ قلبه حتىٰ يشتِّت همَّه أو يقطعه عن حسن الإقبال علىٰ الخدمة من مسامرة الفكر ومحادثة النفس بأمر النساء ولم تجمح نفسُه إلىٰ محظور، وكثرة الخواطر بالشهوات تغيِّر القلبَ عن الخشوع، وتُدخِل عليه النقصانَ. فمتىٰ لم يُبْتَلَ العبد بهذه الوساوس فإنَّ التخلِّي أفضل لمعانٍ محمودة؛ لأنه يجد لذة الوحدة وحلاوة المعاملة ويُقبِل علىٰ نفسه ويشتغل بحاله، ولا يهتمُّ بحالِ غيره فيحمل حاله علىٰ حاله فيقصِّر، أو يقوم بحكم نفس أخرىٰ فيعجز، ويعالج شيطانًا آخر مع شيطانه، وتنضمُّ نفس أخرىٰ إلىٰ نفسه، وله في مجاهدة نفسه ومصابرة هواه وعدوه أكبر الأشغال (ولا يغرَّنَّه كثرة نكاح رسول الله ﷺ، فإنه كان لا يشغل قلبَه جميعُ ما في الدنيا عن الله تعالىٰ) لاشتغاله بمطالعة جمال مولاه (فلا تُقاس الملائكة بالحَدَّادين) هم الذين يشتغلون بعمل الحديد، فهم بذلك في غاية القذارة. أو المراد بهم البَوَّابون، من الحد بمعنىٰ المنع، فهم يمنعون الداخل إلىٰ البيت (ولذلك قال أبو سليمان الداراني) رحمه الله تعالىٰ: (مَن تزوَّج) أو سافر أو طلب الحديثَ (فقد ركن إلىٰ الدنيا) أورده صاحب القوت، وقد تقدم في كتاب العلم. وإنما قال ذلك لأن هذه الأمور ممَّا يوجب الركونَ إلىٰ الدنيا لا محالة.

(وقال) أيضًا: (ما رأيت مريدًا تزوج فثبت علىٰ حاله الأول) وكأنَّه يريد إذا

كان في ابتداء سلوكه فإنه ينقطع حينئذٍ عن مجاهدة النفس وقد ضُمَّت إليه نفس أخرىٰ فيشتغل بها فلا يكاد يثبُت علىٰ أول حاله الذي شرع فيه.

(وقيل له مرةً: ما أحوجك إلىٰ امرأة تأنس بها. فقال: لا آنسني الله بها، إن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالىٰ) أي لا يتفق الاثنان في قلبٍ واحد، إما أنس بالله وإما أنس بالزوجة.

(وقال أيضًا: كل ما شغلك عن الله تعالىٰ من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤم).

وقال أيضًا: إنما تركوا التزويج لتتفرَّغ قلوبهم إلىٰ الآخرة.

وفي حديث الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا لم يشغله بأهل ولا مال». قال أحمد بن أبي الحواري صاحب أبي سليمان: معنىٰ الحديث أن يكون له ولا يشغلونه، لا أن لا يكون له[1].

(فكيف يُقاس غير رسول الله ﷺ به وقد كان استغراقه بحب الله تعالىٰ بحيث كان يجد احتراقه فيه إلىٰ حدٍّ كان يخشىٰ منه في بعض الأحوال) والأحيان **(أن يسري ذلك)** من قلبه **(إلىٰ قالبه فيهدمه)** أي يغيِّره عن صحته **(فلذلك كان يضرب بيده علىٰ فخذ عائشة)** رضي الله تعالىٰ عنها **(أحيانًا ويقول: كلِّميني يا عائشة. لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه؛ لقصور طاقة قالبه عنه)** قال العراقي[2]: لم أجد له أصلاً **(فقد كان طبعه)** ﷺ **(الأنس بالله عَزَّوَجَلَّ)** دائمًا **(وكان أنسه بالخلق عارضًا)** لاحقًا **(رفقًا ببدنه. ثم إنه)** ﷺ **(كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالَسَهم، فإذا ضاق صدرُه قال: أرِحْنا بها يا بلال)** يعني بإقامة الصلاة. وقد تقدم ذِكرُ هذا الحديث في كتاب الصلاة **(حتىٰ يعود إلىٰ ما هو قُرَّة عينه)** يشير إلىٰ قوله: «وجُعلت

(١) كل هذه الآثار تقدمت في كتاب النكاح.

(٢) المغني ٢/ ٧٦٠.

قرَّة عيني في الصلاة». وقد تقدم الكلام عليه أيضًا (**فالضعيف إذا لاحظ أحوالَه في مثل هذه الأمور فهو مغرور؛ لأن الأفهام تقصُر عن الوقوف علىٰ أسرار أفعاله ﷺ**) فلا ينبغي أن يقيس أحواله بأحواله، ولا أفعاله بأفعاله، ولا يوقع نفسَه في الغرور فيهلك (**فشرط المريد العزبة في الابتداء**) ليجتمع له مع مجاهدة نفسه الأنسُ بالله عَزَّوَجَلَّ وحده (**إلىٰ أن يقوَىٰ في المعرفة**) ويتفرَّغ قلبه لله تعالىٰ، فيكون ذا أدب ساكن وقلب خائف ونفس مطمئنة، فإذا تزوج حينئذٍ فلا يشغله عن الله تعالىٰ (**هذا إذا لم تغلبه الشهوة، فإن غلبتْه الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل**) بأن يتجاوز عن ميعاد أكله فلا يأكل إلا بعد يومين أو بعد ثلاث (**والصوم الدائم**) خصوصًا في الهواجر (**فإن لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر علىٰ حفظ العين مثلاً إن قدر**) **علىٰ حفظ الفرج فالنكاح له أَولىٰ؛ لتسكن الشهوةُ**) وإلا أوقعته في الخطايا (**وإلا فمهما لم يحفظ عينه لم ينحفظ عليه فكرُه ويتفرَّق عليه همُّه**) ويتشتَّت باله (**وربما وقع في بليَّة لا يطيقها**) بمقتضَىٰ عجز البشرية (**وزنا العين من كبار الصغار، وهو يؤدي علىٰ القُرب إلىٰ الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج**) وأول خطايا الفرج شهوة القلب بمسامرة الفكر، وهو معفو، كما أن النظر الأول معفو، والخطيئة الثانية: إنعاظ الفرج عن شهوة القلب، فهذا عمل، فإن ظهرت الشهوة من الفرج فهي معصية (**ومَن لم يقدر علىٰ غضٍّ بصره لم يقدر علىٰ حفظ دينه**) لأن أصل البلاء كله من النظر (**قال عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلب شهوة، وكفىٰ بها فتنة**[1].

وقال سعيد بن جبير) رحمه الله تعالىٰ: (**إنما جاءت الفتنة لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ من قِبَل النظرة**) فإنه لما رأىٰ [زوجة] أورياء وجمالها أعجبته وافتتن بها (**ولذلك قال لابنه**) سليمان (عَلَيْهِ السَّلَامُ: **يا بني، امشِ خلف الأسد والأسود**) من الحيَّات (**ولا تمشِ خلف المرأة**.

---

(١) رواه البيهقي في الزهد ص ١٦٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٦٢.

وقيل ليحيىٰ) بن زكريا (عليه السلام: **ما بدء الزنا؟ قال: النظر والتمنِّي**)[١] فالنظر من العين، والتمني من القلب، والفرج يصدِّق أو يكذِّب.

(**وقال الفضيل**) بن عياض رحمه الله تعالىٰ: (**يقول إبليس: هي قوسي القوية**) التي أرمي بها (**وسهمي الذي لا يخطئ**) في إصابة غرضي (**يعني النظرة**.

وقال رسول الله ﷺ: النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمَن تركها خوفًا من الله تعالىٰ أعطاه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه) تقدم الكلام عليه في كتاب النكاح[٢].

(**وقال ﷺ: ما تركت بعدي فتنة أضر علىٰ الرجال من النساء**) قال العراقي[٣]: متفق عليه[٤] من حديث أسامة بن زيد.

قلت: ورواه كذلك أحمد[٥] والحميدي[٦] وأبو بكر ابن أبي شيبة[٧] والترمذي[٨] والعدني والنسائي[٩] وابن ماجه[١٠] وابن حبان[١١]

---

(١) روىٰ ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٤/ ٢٠٠ عن أبي هريرة قال: التقىٰ ابنا الخالة - يعني يحيىٰ وعيسىٰ - فقال له يحيىٰ: يا روح الله وكلمته، ما أشد ما خلق الله؟ قال: غضب الله أشد. قال: يا روح الله وكلمته، دلني علىٰ عمل يباعدني من عذاب الله. قال: يباعدك من غضب الله أن لا تغضب فيغضب الله عليك. قال: فما الذي يبدي الغضب؟ قال: التعزز والفخر والحمية. قال: يا روح الله، دلني علىٰ عمل يباعدني من النار. قال: لا تزنِ. قال: كيف بدء الزنا؟ قال: النظرة، ثم يردفها التمني والشهوة.

(٢) بل في الفصل الثاني من كتاب الصوم.

(٣) المغني ٢/ ٧٦٠.

(٤) صحيح البخاري ٣/ ٣٦١. صحيح مسلم ٢/ ١٢٥٦.

(٥) مسند أحمد ٣٦/ ٧٥، ١٥١.

(٦) مسند الحميدي ١/ ٤٧٠.

(٧) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ٢٩٩.

(٨) سنن الترمذي ٤/ ٤٨٣.

(٩) السنن الكبرىٰ ٨/ ٢٥٥، ٣٠٢.

(١٠) سنن ابن ماجه ٥/ ٤٧٧.

(١١) صحيح ابن حبان ١٣/ ٣٠٦، ٣٠٨.

والطبراني[١] وابن قانع[٢] كلهم عن أسامة بن زيد. وقد رواه الترمذي أيضًا والحاكم في الكُنَىٰ عنه وعن سعيد بن زيد معًا. ورواه ابن النجار من حديث سلمان الفارسي. وفي لفظ للطبراني: «ما تركتُ في الناس بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء».

(وقال ﷺ: **اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من قِبَل النساء**) قال العراقي[٣]: رواه مسلم[٤] من حديث أبي سعيد الخدري.

قلت: وروى الديلمي[٥] من حديث معاذ: «اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فإن إبليس طَلاَّع رَصَّاد [صياد] وما هو بشيء من فخوخه بأوثق لصيده في الأتقياء من النساء».

(**وقال**) الله (**تعالى**) في كتابه العزيز: (﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

وقال ﷺ: لكل ابن آدم حظه من الزنا، فالعينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرِّجلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القُبلة[٦]، والقلب يهمُّ ويتمنىٰ، ويصدِّق ذلك الفرجُ أو يكذِّبه) قال العراقي[٧]: رواه مسلم[٨] والبيهقي[٩] - واللفظ له - من حديث أبي هريرة. واتفق عليه الشيخان من

(١) المعجم الكبير ١/ ١٦٩.
(٢) معجم الصحابة ١/ ١٠.
(٣) المغني ٢/ ٧٦١.
(٤) صحيح مسلم ٢/ ١٢٥٧.
(٥) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٩٣ عن كثير بن مرة، وليس عن معاذ.
(٦) في الزبيدي: القبل. وكذا في ط المنهاج.
(٧) المغني ٢/ ٧٦١.
(٨) صحيح مسلم ٢/ ١٢٢٦. وقد رواه أيضا البخاري في صحيحه ٤/ ١٣٩، ٢١٢.
(٩) السنن الكبرىٰ ٧/ ١٤٣، ١٠/ ٣١٢.

حديث ابن عباس[١] نحوه.

وفي لفظ للبيهقي: «لكل ابن آدم حظُّه من الزنا، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والأذنان زناهما الاستماع، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرِّجلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القُبَل». وهكذا رواه أبو داود[٢] أيضًا.

وروىٰ[٣] أبو الشيخ من حديث أبي هريرة: «زنا اللسان الكلام».

وروىٰ ابن سعد[٤] والطبراني[٥] وأبو نعيم في المعرفة[٦] من حديث علقمة بن الحويرث الغِفاري: «زنا العينين النظر».

وروىٰ أحمد[٧] والطبراني[٨] من حديث ابن مسعود: «العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرِّجلان تزنيان، والفرج يزني». قال المنذري[٩]: سنده صحيح، ورواه كذلك أبو يعلىٰ[١٠] والبزار[١١].

وقد أورد المصنف هذا الحديث إشارة إلىٰ أن[١٢] أصل زنا الفرج العينان،

---

(١) ابن عباس إنما رواه عن أبي هريرة، ففي طرق هذا الحديث: قال ابن عباس: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ ... فذكره.

(٢) سنن أبي داود ٣/ ٥١.

(٣) كنز العمال ٥/ ٣٢٦.

(٤) الطبقات الكبرىٰ ٩/ ٧٦.

(٥) المعجم الكبير ١٨/ ٩.

(٦) معرفة الصحابة ٤/ ٢١٧٦.

(٧) مسند أحمد ٧/ ٢٨.

(٨) المعجم الكبير ١٠/ ١٩٢.

(٩) الترغيب والترهيب ص ٧٦٣.

(١٠) مسند أبي يعلىٰ ٩/ ٢٤٦.

(١١) مسند البزار ٥/ ٣٣٣.

(١٢) فيض القدير ٤/ ٣٩٨.

فإنهما له رائدان، وإليه داعيان، وقد قالوا: مَن سرَّح ناظِرَه أتعب خاطرَه، ومَن كثرت لحظاته دامت حسراته وضاعت أوقاته. قال الشاعر:

نظرُ العيون إلىٰ العيون هو الذي جعل الهلاكَ إلىٰ الفؤاد سبيلا[١]

(**وقالت أم سلمة**) أم[٢] المؤمنين، ابنة أبي أميَّة بن المغيرة المخزومية، ﷺ، قيل: اسمها هند، وأبوها يُعرَف بزاد الركب من أشراف قريش وأجوادهم، هاجرت إلىٰ الحبشة مع أبي سلمة بن عبد الأسد (**استأذن ابن أم مكتوم الأعمىٰ**) وهو عبد الله بن قيس بن زائدة القرشي العامري، مختلَف في اسمه[٣] (**علىٰ رسول الله ﷺ وأنا وميمونة**) بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين ﷺ (**جالستان، فقال رسول الله ﷺ: احتجِبا**) أي ادخلا في الحجاب (**قلنا: أوَ ليس بأعمىٰ لا يبصرنا؟ فقال: وأنتما لا تبصرانه**)؟ قال العراقي[٤]: رواه أبو داود[٥] والنسائي[٦] والترمذي[٧] وقال: حسن صحيح.

(**وهذا يدل علىٰ أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة في المآتم والولائم**) أي في أوقات المصائب والأفراح (**فيحرُم علىٰ الأعمىٰ الخلوة بالنساء**) الأجانب، صرَّح بذلك غير واحد من العلماء[٨] (**ويحرُم علىٰ المرأة مجالسة الأعمىٰ وتحديق النظر إليه لغير حاجة**) ضرورية، فإنه علىٰ كل حال

---

(١) البيت في ديوان الصبابة لابن أبي حجلة المغربي ص ٥٨ دون نسبة، وبعده بيت آخر:

ما زالت اللحظات تغزو قلبه حتىٰ تشحط بينهن قتيلا

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ٢/ ٥٧٠ - ٥٧١.

(٣) والأشهر أن اسمه عمرو.

(٤) المغني ٢/ ٧٦١.

(٥) سنن أبي داود ٤/ ٤٢٦.

(٦) السنن الكبرىٰ ٨/ ٢٩٣.

(٧) سنن الترمذي ٤/ ٤٨١.

(٨) انظر: المجموع شرح المهذب للنووي ٤/ ٢٧٩.

أجنبيٌّ، وفيه ما في الرجال وأكثر؛ لأن غض البصر عن المحارم ممَّا يورث قوةً علىٰ الجماع، وهؤلاء قد حُجبت أبصارهم عن الرؤية فرجعت قوَّتها إلىٰ الجماع، فلهم فيه حظ أكثر من الذي يبصر، فحينئذٍ فتنة النساء بهم أكثر، فيجب منعهن عن الخلوة بهم ومحادثتهم، فإنهم أشد ضررًا من إبليس. ومن المشهور قول العامة: ما من فتنة تكون في بيت الإنسان إذا حُقِّق أصلها إما من امرأة أو فقيه أعمىٰ **(وإنما جُوِّزَ للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة. وإن قدر)** المريد **(علىٰ حفظ عينه عن النساء)** بأن غضَّها وسترها ولفَّها **(ولم يقدر علىٰ حفظها عن الصبيان المُرْد فالنكاح أَولىٰ له)** ومن أحسن أعماله وأرفع أحواله؛ لأن المباح مقام مَن لا مقام له، والرجوع إلىٰ الحلال حال مَن ليس له حال، وذلك **(لأن الشر في الصبيان أكثر)** فإنَّ المرأة معها شيطان، والأمرد معه شيطانان **(فإنه لو مال قلبُه إلىٰ امرأة أمكنه الوصول إلىٰ استباحتها بالنكاح)** وإذا مال إلىٰ الأمرد فلا محالة يوقعه في الحرام؛ إذ لا سبيل إلىٰ استباحة الاستمتاع به بحال من الأحوال **(والنظر إلىٰ وجه الصبي بالشهوة حرام)** باتفاق العلماء **(بل كل من يتأثَّر قلبه لجمال صورة الأمرد)** أي يقع الأثر فيه من رؤية محاسنه الظاهرة بحيث يحس بما رآه و**(بحيث يدرك تفرقةً بينه وبين الملتحي)** أي صاحب اللحية **(لم يحلَّ له النظر إليه)** أصلاً **(فإن قلتَ: كل ذي حس يدرك التفرقة بين الجميل)** الصورة **(والقبيح)** الصورة **(لا محالة، ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة)** وهم يدخلون في المحافل هكذا، ويراهم الرجال من غير نكير، فما معنىٰ قولك: مَن أدرك التفرقة بين الجميل والقبيح وتأثَّر بجماله قلبه لم يحلَّ له النظر؟ **(فأقول: لست أعني)** بالتفرقة المذكورة **(تفرقة العين فقط، بل ينبغي أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرىٰ يابسة، وبين ماء صافٍ وماء كَدِرٍ، وبين شجرة عليها أنوارها وأزهارها وبين شجرة تساقطت أوراقها، فإنه يميل إلىٰ إحداهما بعينه)** الباصرة **(وطبعه)** المركوز في جِبِلَّته **(ولكن ميلاً خاليًا عن الشهوة، ولأجل ذلك لا تُشتهَىٰ ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيلها)** وشمها **(ولا تقبيل الماء الصافي، وكذلك الشيبة الحسنة**

قد تميل العين إليها وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح، ولكنها تفرقة لا شهوة فيها، ويُعرَف ذلك بميل النفس إلىٰ القُرب والملامسة، فمهما وجد ذلك الميل في قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل وبين النبات الحسن والأثواب المنقشة) بأنواع النقوش (والسقوف المذهَّبة) المزخرفة (فنظرُه) حينئذٍ (نظر شهوة، وهو حرام، وهذا ممَّا يتهاون به الناس) غالبًا (ويجرُّهم ذلك إلىٰ المعاطب) أي المهالك (وهم لا يشعرون) بل غافلون أو متغافلون (قال بعض التابعين: ما أنا بأخوف من السبع الضاري علىٰ الشاب الناسك) أي العابد (من غلام أمرد يجلس إليه[١]).

وقال سفيان) الثوري: (لو أن رجلاً عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجليه يريد) بذلك (الشهوة لكان لوطيًّا[٢]).

وعن بعض السلف قال: سيكون في هذه الأمّة ثلاثة أصناف لوطيون: صنف ينظرون) فقط من قريب أو بعيد (وصنف يصافحون، وصنف يعملون)[٣] أخرجه السهروردي في العوارف[٤].

وقال القشيري في آخر الرسالة[٥]: ومن أصعب الآفات في هذه الطريقة صحبة الأحداث، ومَن ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع الشيوخ ذلك عبدٌ أهانه الله وقلاه[٦] بل عن نفسه شغله ولو بألف ألف كرامة أهَّله. وهَبْ أنه بلغ رتبة الشهداء أليس قد شُغل ذلك القلب بمخلوق؟ وأصعب من ذلك تهوين ذلك

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٢٨٥، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ص ٩٧.

(٢) رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق ص ٢٠٤، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ص ٩٤.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٢٨٧ وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ص ٩٨ عن أبي سهل الصعلوكي. ورواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٣١٥ من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا.

(٤) عوارف المعارف ص ١٣٧.

(٥) الرسالة القشيرية ص ٦٢٧ - ٦٢٨.

(٦) في الرسالة: وخذله.

على القلب حتى يصير بعد ذلك يسيرًا، قال الله عز وجل: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١٥] وهذا الواسطي يقول: إذا أراد الله هوان عبدٍ ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجِيَف. سمعت أبا عبد الله الصوفي يقول: سمعت محمد بن أحمد النجار يقول: سمعت أبا عبد الله الحصري يقول: سمعت فتحًا الموصلي يقول: صحبت ثلاثين شيخًا كانوا يعَدُّون من الأبدال كلهم أوصوني عند فراقي إياهم وقالوا لي: اتقِ معاشرة الأحداث ومخالطتهم. ومَن ارتقى في هذا الباب عن حالة الفسق وأشار إلى أن ذلك من بلاء الأرواح وأنه لا يضر وما قالوه من وساوس القائلين بالشاهد وإيراد الحكايات عن الشيوخ لَما كان الأَولى بهم إسبال الستر على هناتهم وآفاتهم، فذلك نظير الشرك وقرين [الكفر] فليحذر المريد من مجالسة الأحداث ومخالطتهم، فإن اليسير منه قبيح، وهو فتح باب الخذلان وبدء حالة الهجران، ونعوذ بالله من قضاء السوء.

(**فإذًا آفة النظر إلى الأحداث عظيمة**) وعاقبته وخيمة (**فمهما عجز المريد عن غضِّ بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح، فرُب نفس لا يسكن توقانُها بالجوع**) إذا كانت تصيب من شهوتها بعد الجوع الطويل، فذلك أشد باعث لها على حركة الشهوة، فأما إن كان يجوع ولا يأكل إلا خبزًا بحتًا مع ماء ودامَ على ذلك فإنه يسكن التَّوَقانُ. وقد تقدمت الإشارة إليه.

(**وقال بعضهم: غلبت عليَّ شهوتي**) ولفظ القوت: حدثني بعض الفقراء قال: استفحلت عليَّ صفتي مرةً (**في بدء إرادتي بما لم أُطِقْ، فأكثرت**) ولفظ القوت: فكنت أُكثِر (**الضجيجَ إلى الله تعالى، فرأيت شخصًا في المنام، فقال: ما لك؟ فشكوت إليه، فقال: تقدَّمْ إليَّ. فتقدمت إليه، فوضع يده على صدري، فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدي، فأصبحت وقد زال ما بي، فبقيت معافىً سنة، ثم عاودني ذلك**) أي راجعني بمثله أو أشد منه (**فأكثرت الاستغاثة**) إلى الله تعالى (**فأتاني شخص في المنام فقال لي: أتحب أن يذهب ما تجده وأضرب عنقك؟**

قلت: نعم. فقال: مُدَّ رقبتك. فمددتها) إليه (فجرَّد سيفًا من نور فضرب به عنقي، فأصبحت وقد زال ما بي، فبقيت معافىٰ سنة، ثم عاودني ذلك بمثله أو أشد منه، فرأيت كأنَّ شخصًا فيما بين جنبي وصدري يخاطبني ويقول: ويحك! لِمَ تسأل) ولفظ القوت: كم تسأل (اللهَ تعالىٰ رفع ما لا يحب رفعه. قال: فتزوجت فانقطع عني ذلك ووُلد لي) ولفظ القوت بعد قوله «فانقطع ذلك عني»: فكان ذلك سبب ذريته ووُلد له.

(ومهما احتاج المريد إلىٰ النكاح فلا ينبغي أن يترك شرط الإرادة في ابتداء النكاح ودوامه، أما في ابتدائه فبالنية الحسنة) لا يعرض له ما يخالفها (وفي دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة) الباطنة والظاهرة (والقيام بالحقوق والواجبات) التي أوجب الله تعالىٰ عليه للمرأة (كما فصَّلنا جميع ذلك في كتاب آداب النكاح) في باب حقوق الزوجة علىٰ الزوج (فلا نطوِّل) الكتابَ (بإعادته) ثانيًا (وعلامة صدق إرادته) مع الله تعالىٰ (أن ينكح فقيرة) أي قليلة المال والأثاث (متديِّنة) أي ذات حسب ودين (ولا يطلب الغنية) ولا الجميلة (قال بعضهم: مَن تزوج غنية كان له منها خمس خصال: مغالاة المهر) أي تطلب مهرًا كثيرًا (وتسويف الزفاف) أي تأخيره، وربما يواعده أهلها ويخلفون في وعدهم، فيكون المريد في حيرة شديدة (وفوت الخدمة) فإنَّ الغنية تأبىٰ عن الخدمة وتأنف أن تكنس البيت وتباشر مهمَّاته بيدها (وكثرة النفقة) فهذه أربعة (و) الخامسة (إذا أراد طلاقها لم يقدر خوفًا علىٰ ذهاب[1] مالها) من متأخر الصداق (والفقيرة بخلاف ذلك) فإن مؤنتها يسيرة، وخدمتها كثيرة.

(وقال بعضهم: ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقرته) في عينها (بالسن) فتكون أصغر سنًّا من الرجل (والطول) أي تكون أقصر من الرجل في القامة (والمال) أي تكون أقل مالاً من الرجل (والحسب) أي تكون أقل حسبًا من

(١) مستدركة من ط الشعب ٨/ ١٥٢٥.

الرجل، والحسب: شرف الآباء. وفي ضد هؤلاء الأربعة تستحقر الرجل فتقول: أنا أكبر منك، أنا أطول منك، أنا أغنىٰ منك، أنا أشرف منك. وكل ذلك ممَّا يشوِّش قلبَ الرجل، وربما أدَّىٰ إلىٰ الفراق، فإذا وُجد في الرجل شيء من ذلك فلا ينبغي أن يفاتحها به، فإنه يكون سبب الغم بينهما، وقد أُمِرنا بكتم السن لأجل ذلك، فإنك إن قلت: سني كذا، وكان قليلاً استحقرتك، وإن قلت إنك كبير استخرفتك **(وأن تكون فوقه بأربع: بالجمال والأدب والخُلق والورع)** وهذه الأربعة ممَّا توجب ميلَ الرجل إليها، ويطمئن قلبه من طرفها.

وفي القوت: فإن عزم العبد علىٰ النكاح فلا يكن همُّه من النكاح[١] إلا ذات الدين والصلاح والعقل والقناعة، ففي الخبر: «عليك بذات الدين»، فنكاح المرأة للدين والصلاح طريق من الآخرة، والرغبة في المرأة الناقصة الخلق الدنية الصورة الكبيرة السن باب من الزهد، والفقيرة خفيفة المؤنة ترضىٰ باليسير، والغنية تشتهي عليه الشهوات، فيتمرَّط[٢] عليه دينُه.

(وعلامة صدق الإرادة في دوام النكاح الخُلق) أي معاشرتها بأحسن الأخلاق وألينها، فقد حُكي أنه **(تزوج بعض المريدين بامرأة، فلم يزل يخدمها حتىٰ استحيت المرأةُ وشكت ذلك إلىٰ أبيها وقالت: قد تحيَّرت في هذا الرجل، أنا في منزله منذ سنين، ما ذهبت إلىٰ الخلاء)** أي بيت الماء **(قط إلا وحمل الماء قبلي إليه)** وهذا من حسن الأخلاق وطِيب المعاشرة.

(وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال، فلما قرُب زفافها) إليه **(أصابها الجدري)** فغيَّر محاسنَ جسدها **(فاشتد حزن أهلها لذلك خوفًا من أن يستقبحها)** ولا تعجبه **(فأراهم الرجل)** بعد أن فطن لذلك **(أنه قد أصابه رمد)** في عينيه، وبقي علىٰ ذلك أيامًا **(ثم أراهم أن بصره قد ذهب، حتىٰ زُفَّت إليه، فزال عنهم الحزن)**

---

(١) في القوت: من النساء.

(٢) المرط: النتف. فكأنه يذهب عليه دينه شيئًا فشيئًا. وانظر اللسان مادة مرط.

القائم بهم (**فبقيتْ عنده عشرين سنة**) وهو علىٰ تلك الحالة (**ثم توفيت، ففتح عينيه حين ذلك، فقيل له في ذلك**) التعامي (**فقال: تعمَّدتُه لأجل أهلها حتىٰ لا يحزنوا. فقيل له: قد سبقتَ إخوانك بهذا الخُلق**) وصدقوا، فإنَّ الصبر علىٰ مثل هذا أشد ما سُمع.

وحُكي عن بعض الصوفية أنه جعل نفسه أصم مدة عشرين سنة لكون امرأته خرج منها صوت ريح فخجلت فتصامم لكي يذهب عنها الخجل، ولم يزل كذلك حتىٰ ماتت[١]. نقله الشعراني في بعض كتبه.

(**وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق، فكان يصبر عليها**) ويحتمل سوء خلقها (**فقيل له: لِمَ لا تطلِّقها**) فتستريح منها؟ (**فقال: أخشىٰ أن يتزوجها مَن لا يصبر عليها**) كصبري (**فيتأذَّىٰ بها**) وهذا من أصعب المجاهدات.

(**فإن تزوج المريد فهكذا ينبغي أن يكون**) في أخلاقه (**وإن قدر علىٰ الترك فهو أَولىٰ لحاله إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح و**) بين (**سلوك الطريق**) طريق الآخرة (**وعلم أن ذلك يشغله عن حاله**) ويحول بينه وبين جمع همَّته (**كما رُوي أن محمد بن سليمان**) بن علي بن عبد الله بن عباس (**الهاشمي**) وكان قد ولي البصرةَ من قِبَل ابن أخيه السفَّاح[٢] (**كان يملك من غلَّة الدنيا**) أي ارتفاقها (**ثمانين ألف درهم في كل يوم، ثم كتب إلىٰ أهل البصرة وعلمائها في امرأة يتزوجها، فأجمعوا كلهم علىٰ**) زاهدة عصرها (**رابعة**) ابنة إسماعيل (**العدوية**) وكانت رحمها الله بارعة الجمال (**فكتب إليها**) ما نصه: (**بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن الله**

---

(١) المشهور أن ذلك كان سبب تلقيب حاتم بن علوان الطائي بالأصم، فقد حكىٰ القشيري في الرسالة ص ٦٨ - ٦٩ عن شيخه أبي علي الدقاق قال: جاءت امرأة فسألت حاتما عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها في تلك الحالة صوت فخجلت، فقال حاتم: ارفعي صوتك. فأرىٰ من نفسه أنه أصم، فسُرَّت المرأة بذلك وقالت: إنه لم يسمع الصوت. فغلب عليه اسم الصمم.

(٢) الصحيح أنه كان أميرا علىٰ البصرة في زمن المهدي والرشيد. انظر: الأعلام للزركلي ٦/ ١٤٨.

تعالىٰ قد ملَّكني من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم، وليس تمضي الأيام والليالي حتىٰ أُتِمَّها مائة ألف، وأنا أصيِّر لكِ مثلها ومثلها، فأجيبيني) أي للنكاح (فكتبت إليه) ما نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فإذا أتاك كتابي هذا فهيِّئ زادك وقدِّمْ لمعادك) أي لآخرتك (وكنْ وصيَّ نفسك، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا مالك، وصم الدهر، وليكن فطورك الموت، وأما أنا فلو أن الله تعالىٰ خوَّلني أمثال الذي خوَّلك) أي أعطاك (وأضعافه ما سرَّني أن أشتغل عن الله طرفة عين) والسلام[1].

(وهذا إشارة إلىٰ أن كل ما شغل عن الله تعالىٰ فهو نقصان) فإذًا الزواج في حق المريد نقصان لحاله؛ لأنه اشتغال بالزوجة، فلا يصح له أن يشتغل بغير الله تعالىٰ (فلينظر المريد إلىٰ حاله وقلبه، فإن وجده ساكنًا في العُزبة) غير متطلِّع إلىٰ الشهوة (فهو أقرب) إلىٰ سلوكه (وإن عجز عن ذلك فالنكاح أَولىٰ به) وسُئل سهل رحمه الله تعالىٰ عن النساء، فقال: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن، والصبر عليهن خير من [الصبر علىٰ النار. وكذلك قال بعض العلماء قبله: معالجة العُزبة خير من] معالجة النساء. وقال أبو الحسن علي بن سالم البصري وقد سُئل عن التزويج فقال: لا يصلُح في هذا الوقت إلا لرجل يدركه من الشَّبَق ما يدرك الحمار إذا نظر إلىٰ أتان لم يملك نفسه أن يثب عليها حتىٰ يُضرَب رأسه وهو لا ينثني، فإذا كان الإنسان علىٰ مثل هذا الوصف كان التزويج له أفضل.

(ودواء هذه العلة ثلاث خصال: الجوع) وهو أكثرها تأثيرًا (وغض البصر) وهي تليها (والاشتغال بشغل يستولي علىٰ القلب) ويغلبه بالكلية فلا تكون له وجهة إلىٰ شيء سوىٰ ما هو فيه (فإن لم تنفع هذه الثلاث فالنكاح هو الذي يستأصل مادتها) ويقطع شأفتها (فقط) وما بعده دواء يُستعان به علىٰ دفع هذا

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٧٢/ ١١٩، وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٢٨٦.

المرض (**ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح**) خوفًا من الوقوع في شيء من فتن النفس، ويراعون المعالجة قبل حلول المرض (و) كانوا يبادرون أيضًا (**إلى تزويج البنات**) والأولاد ولو قبل البلوغ خشية من الافتتان عليهن وعليهم (**قال سعيد بن المسيب**) القرشي التابعي رحمه الله تعالى: (**ما أيس إبليس من أحد إلا وأتاه من قِبَل النساء**) أي فإنهن حبائله، بهن يصطاد الرجال (**وقال سعيد أيضًا وسنه أربع وثمانون سنة وقد ذهبت إحدى عينيه وكان يعشو بالأخرى: ما شيء عندي أخوف من النساء**)[١] قلت: قوله «أربع وثمانون» هكذا وقع في نسخ الكتاب، والصواب: أربع وسبعون، فإن[٢] الواقدي صرَّح بأن وفاته سنة أربع وتسعين في خلافة الوليد بن عبد الملك، قال: وهو ابن خمس وسبعين سنة. وفي قول غير الواقدي أنه مات سنة ثلاث وتسعين، فيكون عاش أربعًا وسبعين سنة، واختُلف في ولادته، فقيل: لسنتين مضتا من خلافة عمر، وقيل: لأربع سنين. وأما قوله «وقد ذهبت إحدى عينيه» فقد قال أحمد بن عبد الله العِجْلي في ترجمته[٣]: إنه كان أعور. وذكره صاحب «الشعور بالعُور»[٤].

(**وعن عبد الله بن أبي وداعة**) الحارث[٥] بن صُبَيرة بن سُعَيد بن سعد بن سهم. ذكره المرزباني في معجم الشعراء وقال: أدرك الإسلام فأسلم، وعُمِّر دهرًا بعد ذلك. وأورده الحافظ في الإصابة وقال: هذا على الشرط، فإنه لم يبقَ بمكة بعد

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٣٢١، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٦٦، والخرائطي في اعتلال القلوب ص ١٠٨.

(٢) تهذيب الكمال ١١/ ٦٧ - ٧٥.

(٣) معرفة الثقات ١/ ٤٠٥.

(٤) الشعور بالعور لخليل بن أيبك الصفدي ص ٩٣ (ط - دار عمار بالأردن) ولم يذكره فيمن اشتهر بالعور، ولكن ذكر عنه إحدى المسائل الفقهية، وهي في صحيح إذا فقأ عين أعور قال: تفقأ عين الصحيح ويغرم دية عين.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ٢٣٨.

الفتح من قريش أحد إلا أسلم، وشهد حجة الوداع مع النبي ﷺ. وذكره الزبير بن بكَّار في «أنساب قريش» وقال: أسلم وعاش في الإسلام، وليس له عقب **(قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب)** أي أختلفُ إليه في مجالسه **(ففقدني أيامًا، فلما أتيته قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها. فقال: هلاَّ أخبرتنا)** بموتها **(فشهدناها)** أي جنازتها **(قال: ثم أردت أن أقوم، فقال: هل استحدثتَ امرأة)** أخرىٰ؟ **(فقلت: يرحمك الله، ومن يزوِّجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا. فقلت: وتفعل؟ قال: نعم. فحمد الله تعالىٰ وصلىٰ علىٰ نبيِّه ﷺ، وزوَّجني علىٰ الدرهمين، أو قال: علىٰ الثلاثة. قال)** عبد الله: **(فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلىٰ منزلي، وجعلت أتفكَّر ممَّن آخذ وممَّن أستدين، فصلَّيت المغرب وانصرفت إلىٰ المنزل، فأسرجت)** أي أوقدت فيه سراجًا **(وكنت صائمًا، فقدَّمت عشائي لأفطر، وكان)** العَشاء **(خبزًا وزيتًا، وإذا بابي يُقرَع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد. قال: فأفكرتُ في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب)** فإنه لم يخطر ببالي **(وذلك أنه لم يُرَ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد. قال: فخرجت إليه، وإذا به سعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له)** رأيٌ في أمر ابنته **(فقلت: يا أبا محمد، لو أرسلتَ إليَّ لأتيتك. فقال: لا، أنت أحق أن تؤتَىٰ. قلت: فما تأمر؟ قال: إنك قد كنت رجلاً عزبًا فتزوجتَ فكرهتُ أن أبيتك الليلة وحدك، وهذه امرأتك، وإذا هي قائمة خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب)** إلىٰ جهة الدار **(وردَّه)** أي الباب **(فسقطت المرأة)** ممَّا غلب عليها **(من الحياء، فاستوثقتُ من الباب، ثم تقدمتُ إلىٰ القصعة التي فيها الخبز والزيت فوضعتُها في ظل السراج لكيلاه تراه)** فتستحقره **(ثم صعدتُ السطح فرميت الجيران)** أي بالحصاة **(فجاءوني وقالوا: ما شأنك؟ قلت)** لهم: **(ويحكم! زوَّجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم، وقد جاء بها الليلة علىٰ غفلة. قالوا: أوَ سعيد زوَّجك؟ قلت: نعم. قالوا: وهي في الدار؟ قلت: نعم. فنزلوا إليها، وبلغ ذلك أمي)** وهي أروَىٰ بنت الحارث بن عبد المطلب،

ذكرها ابن سعد[1] في الصحابيات في باب بنات عم النبي ﷺ، وقال: أمها غُزَيَة بنت قيس بن طريف، من بني فِهْر بن مالك. قال: وولدت لأبي وداعة المطلب وأبا سفيان وأم جميل وأم حكيم والربعة. ا.هـ. ولم يذكر عبد الله، وممَّن صرَّح بأنها أمه الحافظ في ترجمة عبد الله في الإصابة **(فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستَها قبل أن أصلحها إلىٰ ثلاثة أيام. قال: فأقمت ثلاثًا، ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظهم لكتاب الله تعالىٰ، وأعلمهم بسنَّة رسول الله ﷺ، وأعرَفِهم بحق الزوج. قال: فمكثت شهرًا لا يأتيني سعيد ولا آتيه، فلما كان بعد الشهر أتيته وهو في حلقته، فسلَّمت عليه، فردَّ عليَّ السلام ولم يكلِّمني)** والناس حوله **(حتىٰ تفرَّق الناس من المجلس، فقال: وما حال ذلك الإنسان)**؟ يعني به ابنتَه **(فقلت: بخير يا أبا محمد علىٰ ما يحب الصديق ويكره العدوُّ. قال: إن رابَك أمرٌ)** أي من المخالفة لك **(فدونك والعصا. فانصرفت إلىٰ المنزل، فوجَّهَ إليَّ بعشرين ألف درهم. قال عبد الله بن سليمان)** أحد رواة هذه القصة: **(وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاَّه العهد)** وأن يكون خليفة بعده **(فأبىٰ سعيد أن يزوِّجه)** إياها **(فلم يزل عبد الملك يحتال علىٰ سعيد حتىٰ ضربه مائة سوط في يوم بارد، وصبَّ عليه جرَّة ماء وألبسه جُبَّة صوف)** وأشهره بين الناس[2].

(فاستعجال سعيد) رحمه الله تعالىٰ **(في الزفاف تلك الليلة يعرِّفك غائلةَ الشهوة ووجوب المبادرة في الدين إلىٰ تطفئة نارها بالنكاح)** وفيه أنه عصم رحمه حيث لم يزوجها للوليد لِما كان فيه من الظلم.

---

(١) الطبقات الكبرىٰ ١٠/ ٥٠.

(٢) هذه القصة رواها أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٦٧ - ١٦٩.

فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن هذه الشهوة هي أغلب الشهوات علىٰ الإنسان وأعصاها عند الهيجان علىٰ العقل) فقد يضعُف عن مقاومتها إذا ثارت (إلا أن مقتضاها قبيح يُستحيا منه ويُخشَىٰ من اقتحامه) أي ارتكابه والدخول فيه (وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها) لا يخلو (إما) أن يكون (لعجز) ظاهر (أو لخوف) لاحق (أو لحياء) عارض (أو لمحافظة علىٰ حشمة) أي مقام نفسه بين الناس (وليس في شيء من ذلك ثواب، فإنه إيثار حظ من حظوظ النفس علىٰ حظ آخر) والحظوظ النفسية كلها لا ثواب لها (نعم، من العصمة أن لا يقدر) والمشهور علىٰ الألسنة: ومن العصمة أن لا تجد. والمراد بالعصمة هنا الحفظ، أي فإذا أراد الله حفظ عبده لم يجعله قادرًا علىٰ الإتيان بشيء من المخالفات (ففي هذه العوائق فائدة وهي رفع الإثم) إذ لو أقدمَ عليه لأثمَ (فإنَّ مَن ترك الزنا اندفع عنه إثمه بأيِّ سبب كان تركه، وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفًا من الله تعالىٰ مع القدرة) عليه (وارتفاع الموانع) عنه حسية ومعنوية (وتيسُّر الأسباب لا سيَّما عند صِدق الشهوة، وهذه درجة الصدِّيقين، ولذلك قال ﷺ: مَن عشق) أي[1] من يُتصور حِل نكاحه لها شرعًا لا كالأمرد. والعشق - كما تقدم - هو التفاف الحب بالمحب حتىٰ خالط جميعَ أجزائه واشتمل عليه اشتمالَ الصَّمَّاء[2] (فعفَّ) أي منع نفسه عن إيفاء حظِّها (فكتم) بأن لم يظهره لأحد (فمات فهو شهيد) وإنما قارب وصفُه وصف القتيل في سبيل الله لتركه لذة نفسه، فكما بذل المجاهد مهجته لإعلاء كلمة الله فهذا جاهد نفسه في مخالفة هواها بمحبته للقديم خوفًا ورهبة وإيثارًا علىٰ محبة محدَث.

(١) فيض القدير ٦/ ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) هذا التعريف ذكره ابن عربي في الفتوحات المكية ٢/ ٣٥٩.

قال العراقي[1]: رواه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس وقال: أُنكِر علىٰ سويد بن سعيد. ثم قال أيضًا: يقال إن يحيىٰ لما ذُكر له هذا الحديث قال: لو كان لي رمح وفرس غزوت سويدًا. ورواه الخرائطي[2] من غير طريق سويد بسند فيه نظرٌ.

قلت: قد كثر الكلام علىٰ هذا، ولنذكر أولاً اختلاف ألفاظه، وهذا الذي أورده المصنف هو لفظ حديث ابن عباس أخرجه الحاكم والخطيب[3] في تاريخيهما من طريق نفطويه، عن محمد بن داود بن علي الأصبهاني، عن أبيه إمام أهل الظاهر، عن سُوَيد بن سعيد، عن علي بن مُسهِر، عن أبي يحيىٰ القَتَّات، عن مجاهد، عن ابن عباس به مرفوعًا.

وقرأت في مصارع العُشَّاق[4] للشيخ أبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السَّرَّاج قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بدمشق قال: حدثنا أبو الحسن علي بن أيوب بن الحسين بن أيوب القُمِّي إملاءً، حدثنا أبو عبيد الله المرزباني وأبو عمر ابن حيويه وأبو بكر بن شاذان قالوا: حدثنا أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي نفطويه قال: دخلت علىٰ محمد بن داود الأصبهاني في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: كيف تجدك؟ فقال: حبُّ من تعلم أورثني ما ترىٰ. فقلت: ما منعك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ فقال: الاستمتاع علىٰ وجهين، أحدهما: النظر

---

(١) المغني ٢/ ٧٦١.

(٢) اعتلال القلوب ص ٥٩.

(٣) تاريخ بغداد ٣/ ١٦٦ باللفظ الذي سيذكره الشارح عن كتاب مصارع العشاق. ورواه في موضع آخر ١٥/ ٢٤٠ من طريق أبي القاسم بن بكير التميمي عن محمد بن زكريا الخصيب عن سويد بن سعيد باللفظ الذي ذكره الغزالي. ورواه في موضع ثالث ١٤/ ٥٠١ من طريق قطبة بن المفضل الأنصاري عن أحمد بن محمد بن مسروق الطوسي عن سويد بن سعيد عن علي بن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين. ثم قال: والمحفوظ عن ابن عباس.

(٤) مصارع العشاق ١/ ١٢ - ١٤.

المباح، والثاني: اللذة المحظورة، فأما النظر المباح فأورثني ما ترىٰ، وأما اللذة المحظورة فإنه منعني منها ما حدثني أبي قال: حدثنا سويد ابن سعيد، حدثنا علي بن مسهر، عن أبي يحيىٰ القَتَّات، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن عشق وكتم وعفَّ وصبر غفر الله له وأدخله الجنة». ثم أنشدنا لنفسه:

انظر إلىٰ السحر يجري في لواحظه ... وانظر إلىٰ دَعَج في طرفه الساج
وانظر إلىٰ شعرات فوق عارضه ... كأنهنَّ نِمالٌ دبَّ في عاج

وأنشدنا لنفسه:

ما لهم أنكروا سوادًا بخدَّ ... يه ولا ينكرون ورد الغصون
إن يكن عيب خده بُدَد الشعـ ... ـر فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له: نفيتَ القياس في الفقه وأثبتَّه في الشعر. فقال: غلبة الهوىٰ وملكة النفوس دعتا إليه. قال: ومات في ليلته أو في اليوم الثاني.

وبهذا السند إلىٰ القُمِّي قال: حدثنا محمد بن عمران، حدثني محمد بن أحمد ابن مخزوم، حدثني الحسن بن علي الأُشْناني وأحمد بن محمد بن مسروق قالا: حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مسهر، عن أبي يحيىٰ القَتَّات، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن عشق فظَفِر فعفَّ فمات مات شهيدًا».

وقال الحافظ السخاوي(١): ورواه ابن المرزبان عن أبي بكر الأزرق حدثنا سويد به موقوفًا. قال ابن المرزبان: إن شيخه كان حدَّثه به مرفوعًا، فعاتبه فيه، فأسقط الرفع، ثم صار بعدُ يرويه موقوفًا، وهو ممَّا أنكره عليه يحيىٰ بن معين حتىٰ قال ما تقدَّم من الكلام فيما نقله الحاكم في تاريخه، وكذا أنكره عليه غيره، وقد قال أحمد: إن سويد بن سعيد متروك. وقال ابن الجوزي: ومدار الحديث عليه، فهو لا

---

(١) المقاصد الحسنة ص ٤٢٠ - ٤٢١.

يصح لأجله. وأورده في الموضوعات(١). وتبعه في ذلك ابن تيمية(٢) وابن القيم(٣) مبالغًا في الإنكار على هذا الحديث. قال السخاوي تبعًا للزركشي(٤): لكن سويدًا لم ينفرد به، فقد رواه الزبير بن بكَّار فقال: حدثنا عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون عن عبد العزيز بن أبي حازم عن ابن أبي نَجِيج عن مجاهد عن ابن عباس به مرفوعًا، وهو سند صحيح. وقد ذكره ابن حزم(٥) في معرض الاحتجاج فقال:

فإنْ أهلك هوًى أهلكُ شهيدًا ... وإن تمنُن بقيتُ قرير عين

روى هذا لنا قومٌ ثقات ... نأوا بالصدق عن كذب ومَين

وقد نظمه أبو الوليد الباجي فقال:

إذا مات المحب جوًى وعشقًا ... فتلك شهادةٌ يا صاح حقا

رواه لنا ثقات عن ثقات ... إلى الحبر ابن عباس ترقى(٦)

قال الحافظ السخاوي: ويُنظَر هل هذه هي الطريق التي أوردها الخرائطي منها، فإن تكن هي فقد قال العراقي: في سندها نظر. ا.هـ. قلت: ولعل وجه النظر أن الديلمي أخرجه في مسنده من طريق الزبير فقال: عن عبد الله بن عبد الملك ابن الماجشون، لا عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون. فإن كان هذا القدْر هو

(١) بل في العلل المتناهية ٢/ ٧٧١ - ٧٧٢.

(٢) في مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١٣٣: «هذا الحديث معروف من رواية أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا، وفيه نظر، ولا يحتج بهذا». وقال في موضع آخر ١٤/ ١٠٨: «أبو يحيى في حديثه نظر، لكن المعنى الذي ذكر فيه دل عليه الكتاب والسنة».

(٣) زاد المعاد ٤/ ٢٥٢ - ٢٥٦.

(٤) التذكرة في الأحاديث المشتهرة للزركشي ص ١٧٩ - ١٨١.

(٥) طوق الحمامة في الإلف والألاف ص ١١٥ (ط - مكتبة عرفة بدمشق).

(٦) البيتان في التلخيص الحبير لابن حجر ٢/ ٢٨٤، وديوان الصبابة لابن أبي حجلة ص ٢١٤ - ٢١٥.

المشار إليه بقوله «فيه نظرٌ» فالأمر سهل. والله أعلم[١].

ومن ألفاظ هذا الحديث: «مَن عشق فعفَّ ثم مات فهو شهيد». رواه الخطيب في ترجمة قُطبة بن المفضَّل من حديث عائشة، وهو من رواية أحمد بن محمد بن مسروق عن سويد بن سعيد، وسويد قد عرفتَ حاله، وابن مسروق ضعيف ليَّنه الدارقطني[٢]. ومنها: «مَن عشق فكتم وعفَّ وصبر غفر الله له وأدخله الجنة». رواه ابن عساكر[٣] من حديث ابن عباس. ومنها: «مَن عشق فعف فكتم فصبر فمات فهو شهيد». رواه بعض المذكورين إما الديلمي وإما الخرائطي. ونظيره في تَوالي التعقيب بالفاء قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٣ - ١٥] وكذا في النازعات توالي فاءات. وللحديث طرق عند البيهقي أيضًا. والله أعلم.

(**وقال ﷺ: سبعة يظلُّهم الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ... وعدَّ منهم رجلاً دعته امرأةٌ ذات جمال وحسب إلىٰ نفسها فقال: إني أخاف الله رب العالمين**) ولفظ الحديث: «إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلَّق بالمسجد إذا خرج منه حتىٰ يعود إليه، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا علىٰ ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعتْه امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينُه». رواه أحمد والشيخان والنسائي من حديث أبي

(١) قال ابن القيم في الداء والدراء صـ٣١٢: كلام حفاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان، وإليهم يرجع في هذا الشأن، وما صححه بل ولا حسنه أحد يقول في علم الحديث عليه، ويرجع في التصحيح إليه.... إلخ.

(٢) في ميزان الاعتدال للذهبي ١/ ١٥٠: «قال الدارقطني: ليس بالقوي، يأتي بالمعضلات».

(٣) تاريخ دمشق ٤٣/ ١٩٦.

هريرة، ورواه مالك والترمذي من حديث أبي هريرة أو أبي سعيد، بالشك. ورواه مسلم أيضًا من حديثهما معًا. وقد تقدم الكلام عليه في كتاب الزكاة.

(**وقصة يوسف** ﷺ **وامتناعه من زليخا**) امرأة العزيز (**مع القدرة**) وتيسُّر الأسباب (**ومع رغبتها**) إليه (**معروفة**) عند الناس (**وقد أثنىٰ الله تعالىٰ عليه بذلك في كتابه العزيز**) بل السورة بتمامها مشتملة علىٰ ذكر أحواله وكيف عصمه الله تعالىٰ فقهر نفسه وأذلَّ هواه (**وهو**) ﷺ (**إمام لكل مَن وُفِّق لمجاهدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة**) وله به أسوة وقدوة (**فقد رُوي أن سليمان بن يسار**) الهلالي مولاهم المدني، أحد الفقهاء السبعة المشهورة، كنيته أبو أيوب، وهو أخو عطاء وعبد الملك وعبد الله بني يسار (**كان من أحسن الناس وجهًا، فدخلت عليه امرأة، فسألته نفسه، فامتنع عليها وخرج هاربًا من منزله وتركها فيه**) لما قالت له: ادْنُ (**قال سليمان: فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف** ﷺ **وكأني أقول له: أنت يوسف؟ قال: نعم، أنا يوسف الذي هممتُ، وأنت سليمان الذي لم تهمَّ. وأشار به إلىٰ قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]) رواه أبو نعيم في الحلية[١] من طريق مصعب بن عبد الله الزبيري، حدثنا مصعب بن عثمان قال: كان سليمان من أحسن الناس وجهًا ... فساقه. وأخرجها المزي في التهذيب[٢] في ترجمته من طريق مصعب بن عثمان أيضًا.

(**وعنه أيضًا ما هو أعجب من هذا، وذلك**) فيما رواه أبو نعيم في الحلية[٣] عن جعفر بن محمد بن نصير في كتابه، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق، حدثنا محمد بن الحسين، حدثنا محمد بن بشر الكِندي، حدثنا عبد الرحمن بن جرير ابن عبيد بن حبيب بن يسار الكلابي، عن أبي حازم (**أنه خرج**) سليمان بن يسار

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٩٠.

(٢) تهذيب الكمال ١٢/ ١٠٤.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ١٩١.

(من المدينة حاجًّا ومعه رفيق له حتىٰ نزلا بالأَبْواء) وهو موضع بين الحرمين **(فقام رفيقه وأخذ السُّفرة)** بالضم: مائدة من جلد مدبوغ تُتخَذ للتزيد فيها في الأسفار **(وانطلق إلىٰ السوق ليبتاع)** لهم **(شيئًا)** أي يشتري **(وجلس سليمان في الخيمة)** وحده **(فبصرت به أعرابية من قُلَّة الجبل)** أي من رأسه **(فانحدرت إليه)** فلما رأت جمال وجهه ووجدته منفردًا جاءت **(حتىٰ وقفت بين يديه، وكان من أحسن الناس وجهًا وأورعهم، فكشفت)** الأعرابية **(عن وجهها البُرقع فإذا هو كأنَّه فلقة قمر)** حسنًا وبهاء **(فقالت: أهنئني. فظن أنها تريد طعامًا، فقام إلىٰ فاضل السفرة ليعطيها، فقالت: لست أريد هذا، إنما أريد ما يكون من الرجل إلىٰ أهله. فقال: جهَّزَكِ الشيطانُ إليَّ. ثم وضع رأسه بين ركبتيه)** ولفظ الحلية: بين كُمَّيه **(وأخذ في النحيب)** أي رفع الصوت بالبكاء **(فلم يزل يبكي، فلما رأت ذلك منه سدلت البرقع علىٰ وجهها وانصرفت راجعة حتىٰ بلغت أهلَها، وجاء رفيقه)** من السوق وقد ابتاع لهم ما يرفقهم **(فرآه وقد انفتحت)** ولفظ الحلية: انتفخت **(عيناه من البكاء وانقطع حلقه)** أي صوته **(فقال له: ما يبكيك؟ قال: خير، ذكرت صبيتي)** بالمدينة **(قال: لا واللهِ، ألا إن لك قصة، إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها. فلم يزل به حتىٰ أخبره خبر الأعرابية، فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكي بكاء شديدًا. فقال له سليمان: وأنت فما يبكيك؟ قال: أنا أحق بالبكاء منك)** قال: ولِمَ؟ قال: **(لأني أخشىٰ أنْ لو كنت مكانك لَما صبرتُ عنها. فلم يزالا يبكيان، فلما انتهىٰ سليمان إلىٰ مكة فسعىٰ وطاف)** بالبيت **(ثم أتىٰ الحجر الأسود)** ولفظ الحلية: وطاف وسعىٰ أتىٰ الحجر **(فاحتبىٰ بثوبه، فأخذته عينُه فنام، وإذا رجل وسيم)** أي حسن الوجه جميلُه **(طوال)** شرجب **(له شارة)** أي هيئة **(حسنة ورائحة طيبة، فقال له سليمان: رحمك الله، من أنت؟ قال: أنا يوسف)** بن يعقوب **(قال)** سليمان: **(يوسف الصديق؟ قال: نعم. قال: إن في شأنك وشأن امرأة العزيز)** زليخا **(لَعجبًا)** ممَّا قصَّ الله في كتابه **(فقال له يوسف: شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب)** يشير إلىٰ ما وقع له من قصة الأعرابية.

(ورُوي عن عبد الله بن عمر) ، قال القشيري في الرسالة[1]: أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الأسفراييني ، أخبرنا أبو عوانة يعقوب بن إبراهيم بن إسحاق، حدثنا محمد بن عون وزيد بن عبد الصمد الدمشقي وعبد الكريم ابن الهيثم الديرعاقولي وأبو الخصيب بن المستنير المِصِّيصي قالوا: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه **(قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة نفر ممَّن كان قبلكم حتىٰ أواهم الليل إلىٰ غار، فدخلوه)** أي ليبيتوا فيه **(فانحدرت عليهم صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنه)** واللهِ **(لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم)** فإنَّ لذلك أثرًا ظاهرًا في النجاة **(فقال رجل منهم: اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبُق)** بالضم أي لا أسقي **(قبلهما أهلاً ولا مالاً)** أي لا أقدِّم في الغبوق عليهما أحدًا من الأهل ولا من المال، والمراد بالأهل: زوجته وصِبيته، والمراد بالمال: الناطق **(فنأىٰ بي)** أي بعُد **(طلبُ الشجر)** أي المرعىٰ **(يومًا فلم أَرُحْ عليهما)** أي لم أصل إليهما في العشيَّة **(حتىٰ ناما)** بعد أن انتظراني علىٰ الميعاد **(فحلبت لهما غَبُوقهما)** وهو بالفتح ما يُشرَب في عشية النهار، فجئتهما به **(فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبُق قبلهما أهلاً أو مالاً)** وتحرَّجت أن أوقظهما **(فلبثت والقدح في يدي أنتظر استيقاظهما حتىٰ طلع الفجر، والصبيان يتضاغون)** أي يتصايحون بالبكاء من الجوع **(حول قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة. فانفرجت شيئًا)** قليلاً **(لا يستطيعون الخروج منه)** قال رسول الله ﷺ: **(وقال الآخَر: اللهم إنك تعلم أنه كانت ابنة عم لي من أحب الناس إليَّ، فأردتها)** وفي نسخة: فراودتها **(عن نفسها، فامتنعت مني، حتىٰ ألمَّت بها سنةٌ)** مجدبة **(من السنين، فجاءتني، فأعطيتها مائة وعشرين دينارًا علىٰ أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلتْ، حتىٰ إذا قدرت عليها)**

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٥٧٠. إحكام الدلالة ٢/ ٩٧٨ - ٩٧٩.

أي تمكَّنت منها (قالت: اتقِ الله ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقه) وهو عقد النكاح (فتحرَّجت) أي تجنَّبت الإثم (من الوقوع عليها، فانصرفتُ عنها وهي من أحب الناس إليَّ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتها) إياه (اللهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة عنهم، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها) قال رسول الله ﷺ: (وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أُجَراء) جمع أجير وهو من يخدم بالأجرة (وأعطيتهم أجورهم، غير رجل واحد فإنه ترك الأجر الذي له) وسَخِطَه (وذهب) كأنَّه استقلله (فثمَّرت له أجره) أي نمَّيته (حتىٰ كثُرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال) لي: (يا عبد الله، أعطِني أجري. فقلت) له: (كل ما ترىٰ من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال) لي: (يا عبد الله، أتهزأ بي)؟ وفي رواية: لا تستهزئ بي (فقلت) له: إني (لا أستهزئ بك، فخذه. فاستاقه وأخذه كلَّه ولم يترك منه شيئًا، اللهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة) عنهم (فخرجوا يمشون) رواه البخاري في الصحيح[١].

(فهذا فضل مَن تمكَّن من قضاء هذه الشهوة فعفَّ) نفسه عنها ولم يعطِها حظَّها، وأقوىٰ هؤلاء الثلاثة الثاني، فإنه ترك شهوته مع تيسُّرها وكمال محبته لابنة عمه وبذله لها ما بذله من المال الجزيل. وفي القصة إثبات الكرامة لهم، حيث استجاب الله دعاءهم وأزال الصخرة عنهم بقدرته خرقًا للعادة.

(ويقرُب منه مَن تمكَّنَ من قضاء شهوة العين، فإن العين مبدأ الزنا) والقلب تابع لها (فحفظُها مهم) مطلوب (وهو عسير من حيث إنه قد يُستهان به) ويُستحقَر أمره (ولا يعظُم الخوفُ منه، والآفات كلها تنشأ منه) وتتولَّد به (والنظرة الأولىٰ) التي تقع مفاجأة (إذا لم تُقصَد) أي لا تكون مقصودة (لا يؤاخَذ بها، والمعاودة) أي مراجعتها ثانيةً (يؤاخَذ بها، قال ﷺ: لك الأولىٰ، وعليك الثانية. أي النظرة)

(١) صحيح البخاري ٢/ ١١٦، ١٣٤، ١٥٦، ٤٩٥، ٤/ ٨٧. ورواه أيضا مسلم في صحيحه ٢/ ١٢٥٧.

قال العراقي[١]: رواه أبو داود[٢] والترمذي[٣] من حديث بُرَيدة، قاله لعليٍّ، قال الترمذي: غريب.

(وقال) أبو[٤] نصر (العلاء بن زياد) بن مطر العَدَوي البصري العابد، المتوفى سنة ٩٤: (**لا تتبع النظرة رداء المرأة، فإنَّ النظر يزرع في القلب شهوة**) أخرجه أبو نعيم في الحلية[٥] فقال: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، حدثنا معتمر، عن إسحاق بن سويد، عن العلاء بن زياد: لا تتبع بصرك رِداء المرأة، فإن النظر يجعل في القلب شهوةً.

(**وقلَّما يخلو الإنسان في ترداده عن وقوع البصر علىٰ النساء والصبيان، فمهما تخايل إليه الحُسن تقاضَىٰ الطبعُ المعاودةَ، وعنده ينبغي أن يقرِّر في نفسه أن هذه المعاودة غاية الجهد**[٦]**، فإنه إن حقَّق النظر فاستحسن ثارت النفس بالشهوة، وعجز عن الوصول**) إلىٰ المطلوب (**فلا يحصل له إلا التحسُّر، وإن استقبح ولم يلتذَّ**) لأن الاستلذاذ لا يكون إلا مع الاستحسان (**تألَّم**) في نفسه (**لأنه قصد الالتذاذ، فقد فعل ما آلَمَه، فلا يخلو في كل حال عن معصية وعن تألُّم وعن تحسُّر، ومهما حفظ العينَ بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات، فإن أخطأت عينُه وحفظ الفرجَ مع التمكُّن**) والتيسُّر (**فذلك يستدعي غايةَ القوة ونهاية التوفيق**) من الله تعالىٰ (**فقد رُوي عن بكر بن عبد الله المُزَني**) فيما رواه أبو نعيم في الحلية[٧] فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن محمد بن أبان، حدثنا أبو بكر بن عبيد، حدثني الحسن بن

---

(١) المغني ٢/ ٧٦٢.

(٢) سنن أبي داود ٣/ ٥٠.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٤٨١.

(٤) تقريب التهذيب ص ٧٦٠.

(٥) حلية الأولياء ٢/ ٢٤٤.

(٦) كذا في الزبيدي، وفي ط الشعب ١٥٣١ والمنهاج ٥/ ٣٨٢: عين الجهل. وما فيها أصح.

(٧) السابق ٢/ ٢٣٠.

الصباح، حدثنا زيد بن الحُباب، حدثنا محمد بن نشيط الهلالي، حدثنا بكر بن عبد الله المُزَني (أن قَصَّابًا أُولِع بجارية لبعض جيرانه، فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلىٰ قرية أخرىٰ، فتبعها وراودها عن نفسها، فقالت له: لا تفعل، فأنا) ولفظ الحلية: لأنا (أشد حبًّا لك منك لي، ولكني أخاف الله. قال) القَصَّاب: (وأنتِ تخافينه وأنا لا أخافه)؟! قال: (فرجع تائبًا، فأصابه العطش حتىٰ كاد يهلك) ولفظ الحلية: حتىٰ كاد ينقطع عنقه (فإذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل، فسأله فقال: ما لك؟ قال: العطش. قال: تعالَ حتىٰ ندعو الله حتىٰ تظلنا سحابة حتىٰ ندخل القرية. قال) القصَّاب: (ما لي من عمل صالح، فادْعُ أنت[1]. قال: فأنا أدعو وأمِّنْ أنت) أي قلْ آمين (علىٰ دعائي) قال: (فدعا الرسولُ وأمَّنَ هو، فأظلَّتهما سحابةٌ حتىٰ انتهيا إلىٰ القرية، فأخذ القصاب إلىٰ مكانه، فمالت السحابة معه، فقال له الرسول: زعمت أن ليس لك عمل، وأنا الذي دعوتُ، وأنت الذي أمَّنتَ، فأظلَّتنا سحابة ثم تبعتْك) دوني (لتخبرني بأمرك. فأخبره) بما جرىٰ له مع الجارية (فقال الرسول: إن التائب عند الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه.

و) يُحكَىٰ (عن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه) سعيد بن إبراهيم (قال: كان عندنا بالكوفة شاب متعبِّد، ملازم للمسجد الجامع لا يكاد يفارقه، وكان حسن الوجه، حسن القامة، حسن السمت، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغُفت به) أي أحبته حبًّا شديدًا دخل في شغاف قلبها (وطال عليها ذلك، فلما كان ذات يوم وقفت له علىٰ الطريق وهو يريد المسجد، فقالت له: يا فتىٰ، اسمع مني كلمات أكلِّمك بها ثم اعمل ما شئتَ. فمضىٰ ولم يكلِّمها، ثم وقفت له بعد ذلك علىٰ طريقه وهو يريد منزله، فقالت له: يا فتىٰ، اسمع مني كلمات أكلِّمك بها. فأطرق) الفتىٰ (مليًّا) أي بُرهة من الزمن (وقال لها: هذا موقف تهمة، وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعًا. فقالت له: واللهِ ما وقفتُ موقفي هذا جهالةً مني بأمرك، ولكن معاذ الله أن

---

(١) في الزبيدي ٧/ ٤٤٣: من عمل فادعو، قال: فأنا أدعو... إلخ. والمثبت من ط الشعب.

يتشوَّف) وفي نسخة: يتشرَّف (العباد إلىٰ مثل هذا مني، والذي حملني علىٰ أن لقيتك في هذا الأمر بنفسي لمعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم معاشر العُبَّاد في مثل القوارير، أدنىٰ شيء يعيبها، وجملة ما أقول لك) وفي نسخة: ما أكلِّمك به (أن جوارحي كلها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك. قال: فمضىٰ الشاب إلىٰ منزله وأراد أن يصلي، فلم يعقل كيف يصلي، فأخذ قرطاسًا وكتب كتابًا، ثم خرج من منزله، فإذا بالمرأة واقفة في موضعها، فألقىٰ الكتاب إليها ورجع إلىٰ منزله، فكان فيه) ما نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم، اعلمي أيتها المرأة أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا عصاه العبد ستره، فإذا عاد إلىٰ المعصية مرة أخرىٰ ستره) كذلك (فإذا لبس منها) وفي نسخة: لها (ملابسها) بحيث صار معروفًا بها (غضب الله تعالىٰ لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب، فمَن ذا يطيق غضبه؟ فإن كان ما ذكرتِ باطلاً فإني أذكِّركِ يومًا تكون السماء فيه كالمُهْل) أي كالرصاص الذائب (وتصير الجبال كالعِهْن) أي كالصوف المنفوش (وتجثو الأمم) علىٰ رُكَبها (لصولة الجبار العظيم، وإني واللهِ قد ضعُفت عن إصلاح نفسي، فكيف بإصلاح غيري. وإن كان ما ذكرتُ حقًّا فإني أدلُّكِ علىٰ طبيب هدىٰ يداوي الكلوم) أي الجراحات (الممرضة والأوجاع المرمضة) أي المُحرقة (ذلك الله رب العالمين، فاقصديه بصدق المسألة، فإني متشاغل عنكِ بقوله تعالىٰ: {وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدىٰ الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق [غافر: ١٨ - ٢٠] فأين المَهرب من هذه الآية)؟ وهذا آخر ما في الكتاب (ثم) إنها (جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له علىٰ الطريق) الذي يسلكه العابد إلىٰ المسجد (فلما رآها من بعيد أراد الرجوع لمنزله لئلاً يراها، فقالت له: يا فتىٰ، لا ترجع، فلا كان الملتقىٰ بعد هذا اليوم أبدًا إلا بين يدي الله تعالىٰ غدًا. ثم بكت بكاء شديدًا وقالت: أسأل الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهِّل ما قد عسر من أمرك. ثم إنها تبعتْه وقالت: امنُنْ عليَّ بموعظة أحملها عنك، وأوصني بوصية أعمل عليها. فقال لها: أوصيكِ بحفظ نفسك من نفسك)

المراد بالنفس الأول: الذات، وبالثاني: الأمَّارة، أي حفظ ذاتك من شرِّها (**وأذكِّركِ قوله تعالىٰ**: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] **قال: فأطرقت وبكت بكاء شديدًا أشد من بكائها الأول، ثم إنها أفاقت**) من بكائها ورجعت إلىٰ موضعها (**ولزمت بيتها وأخذت في العبادة**) وجدَّت فيها (**فلم تزل علىٰ ذلك حتىٰ ماتت كمدًا، فكان الفتىٰ يذكرها بعد موتها ثم يبكي، فيقال له: مِمَّ بكاؤك وأنت قد آيستها من نفسك؟ فيقول: إني قد ذبحت طمعي فيها في أول أمرها، وجعلتُ قطيعتها ذخيرة لي عند الله تعالىٰ، وأنا أستحي منه أن أستردَّ ذخيرة ادَّخرتُها عنده تعالىٰ**) هكذا أخرج هذه القصة الإمام أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السَّرَّاج في كتاب مصارع العُشَّاق[(١)]: قال: أخبرنا أبو القاسم عبد العزيز بن علي بن شكر قال: حدثنا أبو الحسن علي بن عبد الله الهَمَذاني بمكة، حدثنا إبراهيم بن علي، حدثنا محمد بن جعفر الكاتب، عن محمد بن الحسن البرجلاني [عن جعفر ابن معاذ] قال: أخبرني أحمد بن سعيد العابد، عن أبيه قال: كان عندنا بالكوفة ... فساقها إلىٰ آخرها، وفيها بعض زيادات نشير إليها، منها: بعد قوله «ثم إنها أفاقت» فقالت:

والله ما حملتْ أنثىٰ ولا وضعت ... إنسًا كمثلك في مِصري وأحيائي

وذكرت أبياتًا آخرُها قولها:

لألبسنَّ لهذا الأمر مِدْرعة ... ولا ركنتُ إلىٰ لذَّات دنيائي

وذكر بعد قوله «ثم لزمت بيتَها وأخذت في العبادة» قال: فكانت إذا أجهدها الأمرُ تدعو بكتابه فتضعه علىٰ عينيها، فيقال لها: وهل يغني هذا شيئًا؟ فتقول: وهل لي دواءٌ غيره؟ وكان إذا جنَّ عليها الليل قامت إلىٰ محرابها، فإذا صلَّت قالت:

يا وارث الأمر هَبْ لي منك مغفرة ... وحلَّ عني هوىٰ ذا الهاجر الداني

---

(١) مصارع العشاق ١/ ٤٥ - ٤٨.

وانظر إلىٰ خَلَّتي يا مشتكَىٰ حزني بنظرة منك تجلو كلَّ أحزاني

قال: فلم تزل علىٰ ذلك حتىٰ ماتت كمدًا. ثم قال: وقال لنا الشيخ أبو القاسم الأزجي رحمه الله تعالىٰ: ووجدت في نسخة زيادة مسموعة عن الزينبي شيخنا رحمه الله تعالىٰ قال: ثم إن الجارية لم تلبث أن بُليت ببليَّة في جسمها، فكان الطبيب يقطع من لحمها أرطالاً، فكان الطبيب قد عرف حديثها مع الفتىٰ، فكان إذا أراد أن يقطع لحمها يحدِّثها بحديث الفتىٰ، فما كانت تجد لقطع لحمها ألمًا، ولا كانت تتأوَّه، فإذا سكت عن ذِكره تأوَّهت. قال: فلم تزل كذلك حتىٰ ماتت كمدًا رحمة الله عليها.

خاتمة: قال صاحب القوت: فأما الصوم فليس عندهم هو الجوع المقصود لإسكان النفس وإخماد الطبع؛ لأن الصوم يصير عادة، ويرجع الصائم إلىٰ قوة طبعه إذا أفطر، فأما إذا كان يصوم ويفطر علىٰ الشهوات أو يمتلئ من الأكل فإنَّ صوم هذا لا يزيده إلا قوة طبع وظهور نفس، وتتفتَّق عليه الشهوات، ويدخل عليه الفتور عن الطاعات، ويجلب عليه الكسلَ والسُّبات، وربما قويَ طبعُه جملة واحدة وظهرت عليه نفسه بقوة مجملة، إلا أنه لا يجري في نهاره إلا فيما أُجريتْ عادته عليه وجعل حاله فيه من أبواب الدنيا والتنقُّل في الهوىٰ وإن كان ظاهر أحواله أسباب الآخرة عنده لقصور علمه فإنَّ حشوها الدنيا، فالتقلُّل وأخذُ البُلغة من القوت في الأوقات مع الإفطار أصلح لقلب هذا وأدوم لعمله وأبلغ في آخرته من مثل هذا الصوم؛ لأن هذا الذي وصفناه عادة[1] أبناء الدنيا المترفِّهين، ليس بصوم أهل الآخرة الزاهدين، ولكن بالتقلُّل والطي وتركِ الشهوات واجتناب الشُّبهات تنكسر النفس وتذل، ويخمد الطبع، وتضعُف الصفة عن العادة، وتقوىٰ إرادة الآخرة، ويعمل المريد في سعيها، وتخرج حلاوة الدنيا من القلب، فيصير العبد مع التجوع والطي وتركِ النزهات كأنه زاهد. وقيل لأبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالىٰ وهو أعلىٰ هذه

(١) في القوت: صوم.

الطائفة إشارةً: بأيِّ شيء نلتَ هذه المعرفة؟ قال: ببطن جائع وجسد عارٍ. وفي الخبر الإسرائيلي أن عيسىٰ[1] عَلَيْهِ السَّلَامُ ظهر له إبليس، فرأىٰ عليه معاليق من ألوان الأصباغ من كل شيء، فقال له: ما هذه المعاليق؟ قال: هذه شهوات بني آدم. فقال: فهل لي فيها شيء؟ قال: ربما شبعتَ فثقَّلناك عن الصلاة وعن الذكر. قال: هل غير ذلك؟ قال: لا. قال: لله عليَّ أن لا أملأ بطني من طعام أبدًا. قال إبليس: ولله عليَّ أن لا أنصح مسلمًا أبدًا. وكان أبو سليمان الداراني يقول: إذا عرضت لك حاجة من حوائج الآخرة فاقْضِها قبل أن تأكل، فما من أحد شبع إلا نقص من عقله - أو قال: تغيَّر عقله - عمَّا كان عليه. وقالوا: إذا كان العبد ناسيًا لجوعه ذاكرًا لربِّه فهو يشبه الملائكةَ، وإذا كان شبعان منهومًا في طلب الشهوات فهو أشبه شيء بالبهائم، ويقال: إن الجوع مَلَكٌ والشبع مملوك، وإن الجائع عزيز والشبعان ذليل. وقيل: الجوع عز كله، والشبع ذلٌّ كله. وقال أبو سعيد الخَرَّاز: معنىٰ الجوع اسم معلَّق علىٰ الخَلق، افترقوا في الدخول فيه والعمل به لعلل كثيرة، فمنهم من يجوع ورعًا إذا لم يُصِب الشيءَ الصافي، ومنهم مَن وجد الشيء الصافي فتركه زهدًا فيه من مخافة طول الحساب والوقوف والسؤال، ومنهم مَن استلذَّ العبادة والنشاط بها والخفة فرأىٰ أن النَّيل من الطعام والشراب قاطعًا له وشاغلاً عن الخدمة والخلوة. ومنهم مَن قرُب من الله تعالىٰ فلزم قلبه حقيقة الحياء حين علم أن الله مُشاهِده، وكان الحياء مقامه لا غير، فتوهَّم أن الله يراه وهو يمضغ بين يديه ويأكل ويشرب فيؤديه ذلك إلىٰ الاختلاف إلىٰ الكنيف فيجوع من هذه العين، وهكذا كان أبو بكر الصدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ومنهم مَن أدركه السهو عن حاجاته فسلا عن نيل مصلحته حتىٰ يُذكَر في الغِب أو يُذكَّر. ورأىٰ رجل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام، فأخذ بجلد ذراعه وجعل يقول: جعتَ هذا الجوع كله؟ ولم يقل له: اترك الجوع، ولو قال له: اتركه، لعله كان يتركه. قال صاحب القوت: وكان بعض شيوخنا ترك أكل الخبز الحار؛

(١) في القوت: يحيىٰ. وقد تقدم هذا الخبر في كتاب عجائب القلب.

لأنه كان يشتهيه سنين كثيرة، فعوتِب في ذلك فقال: لو طمعت نفسي في أكل الخبز عشرين سنة ما أطعتُها الساعة. وكان ربما بكىٰ من شدة شهوة نفسه وقوة عزم مجاهدته؛ لاستشعار نفسه صِدقه وحسن وفائه فتيأس من شهوتها آخر الدهر، فلذلك كان يقع عليه البكاء للإياس من المشتهَىٰ. واعلمْ أن الشهوات لا حد لها، وإنما الحد للقوت، فمثل الشهوات مثل الجهل لا حد له، ومثل القوت مثل العلم له حدٌّ ينتهي إليه، فكم من شهوة دنيَّة منعت رتبة عليَّة. وكان أبو سليمان الداراني يقول: لا تضر الشهوات مَن لم يتكلَّفها، إنما تضرُّ مَن حرص عليها. وكان يدعو أصحابه فيقدِّم إليهم الطيبات فيقولون له: تنهانا عنها وتقدِّمها إلينا؟! قال: لأني أعلم أنكم تشتهونها فتأكلونها عندي خيرًا، ولو جاءني من يزهد ما زدتُه علىٰ الملح [شيئًا] وكان يقول: أكلُ الطيبات يورث الرضا عن الله تعالىٰ. وقال بعض الخلفاء: شربُ ماء بثلج يُخلِص الشكرَ لله تعالىٰ. وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ بعض أوليائه: أدرك إليَّ لطف الفطنة وخفيَّ اللطف فإني أحب ذلك. قال: يا رب، وما لطف الفطنة؟ قال: إذا وقعت عليك ذبابة فاعلمْ أني أوقعتُها، فسلني حتىٰ أرفعها. قال: وما خفيُّ اللطف؟ قال: إذا أتتك فولة مسوَّسة فاعلمْ أني ذكَّرتك بها فاشكرني عليها. وأوحىٰ إلىٰ بعض الأنبياء: لا تنظر إلىٰ قلة الهدية وانظر إلىٰ عظمة مهديها، ولا تنظر إلىٰ صِغَر الخطيئة وانظر إلىٰ كبرياء مَن واجهتَه بها، وإذا أصابك ضرٌّ أو فقر فلا تشكني إلىٰ خلقي، كما إذا صعدتْ مساوئك إليَّ لم أشْكِك إلىٰ ملائكتي(١).

وبه تم شرح كتاب كسر الشهوتين: شهوة البطن وشهوة الفرج. وذلك في عصر يوم الثلاثاء ثاني عشر محرم الحرام افتتاح سنة ألف ومائتين، أرانا الله خيرها

(١) هذا الخبر رواه الخطيب البغدادي في الزهد والرقائق ص ١٠٨ بلفظ آخر عن عبد الرحمن بن إبراهيم الفهري عن أبيه قال: أوحىٰ الله عزوجل إلىٰ بعض أنبيائه: إذا أوتيت رزقا مني فلا تنظر إلىٰ قلته ولكن انظر إلىٰ من أهداه إليك، وإذا نزلت بك بلية فلا تشكني إلىٰ خلقي كما لا أشكوك إلىٰ ملائكتي حين صعود مساوئك وفضائحك إليَّ.

وكفانا ضيرها. قال ذلك أبو الفيض محمد مرتضىٰ الحسيني، لطف الله به ... آمين.

والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

فهرس موضوعات كتاب كسر الشهوتين

٢٣ – كتاب كسر الشهوتين